

دار الرشيد للنشر

منشورات وزارة الثقافة والأعلام - الجمهورية العراقية

سلسلة الكتب المترجمة (١٠٢)

١٩٨١

الرحالة الروس

في
الشرق الأوسط

تأليف
ب. م. دانتسيغ

ترجمة وتعليق
الدكتور معروف خزنده دار

معلومات عن الطبعة الروسية

БОРИС ДАНЦИГ
РУССКИЕ ПУТЕШЕСТВЕННИКИ
НА БЛИЖНЕМ ВОСТОКЕ
ИЗДАТЕЛЬСТВО " МЫСЛЬ"
МОСКВА - 1965 .

272 с.

Тираж 12000

цена 65 коп.

بوريس دانتيغ
الرحالة الروس في الشرق الأوسط
دار النشر « الفكر »
موسكو - ١٩٦٥
عدد الصفحات (٢٧٢)
الكمية المطبوعة (١٢٠٠٠) نسخة
السعر (٦٥) كوبيك

كَلِمَةُ الْمُرْجَمِ

إن هذا الكتاب « الرحالة الروس في الشرق الأوسط » الذي نضعه بين أيدي قراء اللغة العربية من الكتب النادرة من نوعه ، وهو يؤلف مكتبة كاملة من الصعوبة جردها واستيعاب مضامين كتبها ومحتويات وثائقها إلا من له المقدرة والكفاءة والطاقة العالية من أمثال العالم السوفياتي المعاصر بوريس دانتسيغ . وهو كتاب فريد ليس لنا فحسب وإنما للقراء الروس أنفسهم أيضاً كما يقول المؤلف . والكتاب بلا شك من الأسفار التي تضع خطأ فاصلاً بين المادة والمرجع والمصدر وبين المصنف ، فهو ينقل كلام الأوائل بنصه لأنه يريد المحافظة على أصواتهم ، وهي في الحقيقة محافظة على الأصالة ، ثم يستنتج هو آراءه من الأقوال المنقولة .

ولاتجاه المؤلف الفكري والايديولوجي أثره الواضح في نقل آراء الأقدمين ، فهو يقتبس الآراء والمشاعر التي تتفق مع تلك الايديولوجية ، لذلك يظهر المؤلف كمدافع عن الشعوب المستضعفة ، وهي في الواقع جميع الشعوب غير التركية التي كانت تخضع للأمبراطورية العثمانية . ثم يطرح الشعب التركي من طبقاته الحاكمة ويدخله في صفوف الشعوب المستعبدة ، ويصب جام غضبه على السلطان والطبقات الحاكمة التركية . وتدفعه « الوطنية الروسية » - وهو على حق - أن ينحاز إلى القيصرية الروسية المسيحية ضد الأمبراطورية العثمانية الإسلامية بمفهوم ذلك الزمان خصوصاً في الحروب المستمرة بين الدولتين منذ تأسيس الدولة العثمانية وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، غير أن المؤلف لا يجيد عن الحقيقة . ولا يُلام إذا ما كانت درجة حبه لبعض من تلك الشعوب المستعبدة أعلى من غيرها كتعلقه بالعرب والشعوب المسيحية من البلقان أكثر من غيرها . ولعل أبرز ما عنده هو إخلاصه في

طرح الجوانب الإيجابية من آراء الرحالة الذين زاروا الشرق الأوسط خلال هذه الحقبة الطويلة .

أما عن هذه الترجمة العربية التي نضعها بين أيدي القراء فمن الضروري أن نوضح بعض الأشياء :

١ - لقد حاولنا المحافظة على معنى النص ، سواء كان للمؤلف أم النص المنقول من كتب الرحالة والسياح والمسافرين ، وقد أتعبتنا هذه النصوص القديمة حقاً ، لأن لغتها قديمة ، وأسلوبها مندثر ، وأحياناً ركيكة ، لذلك يأتي بعض العبارات عندنا ركيكة أيضاً ، وهناك إعادة لبعض من المعلومات والجمل والعبارات ، وهناك تطويل واقتضاب وأطناب لا مبرر لها خصوصاً في الكلام المنقول من أصل كتب ووثائق الرحالة ، غير أننا لم نجد أي مبرر للتصرف بالنص ، وعملنا جهدنا المحافظة عليه مهما كان .

٢ - حاولنا بقدر الإمكان نقل الأسماء الجغرافية بالصيغة العربية ، إلا أننا أحياناً لم نستطع العثور على الصيغة العربية لأسماء بعض الأماكن القديمة أو غير المعروفة لذلك نقلناها من الصيغة الروسية .

٣ - ونقلنا أسماء الأعلام - وهي في الغالب روسية - كما تلفظ في الأصل ، وهذا هو الصحيح على ما نعتقد .

٤ - الهوامش المرقمة الواردة في صفحات الكتاب هي للمؤلف ، أما الهوامش المؤشرة بعلامة (*) فهي من تعليقاتنا .

٥ - ولقد ترجمنا جميع هوامش المؤلف الروسية إلى اللغة العربية ، ولكننا أبقينا الهوامش الأخرى باللغات الأوروبية على حالها .

٦ - حاولنا أن نصحح جملة من الأخطاء البسيطة الطفيفة التي وقع فيها المؤلف وخصوصاً من المصادر والمراجع والأسماء الجغرافية . وقد تكون هذه الأخطاء من

المنفذ التكنيكي للكتاب وليس من المؤلف على ما نتصور .

٧ - هناك في اللغة الروسية مصطلحات كثيرة تستعمل كمعاني قريبة لمصطلح « الشرق الأوسط » منها « الشرق الأدنى » و« الشرق القريب » ، « وآسيا الأدنى » و« آسيا القريبة » ، وغير ذلك من المصطلحات التي تكاد أن تكون معانيها متشابهة ومتقاربة ، غير أن مصطلح « الشرق الأوسط » قد تغلب في الوقت الحاضر على بقية المصطلحات ليس في اللغة الروسية فحسب وإنما في اللغات العالمية الأخرى ، وعندنا في الشرق أيضاً .

٨ - يبدأ المؤلف كتابة معلوماته عن كل رحال يتناوله بحروف طباعية مميزة يشير بها إلى المبحث الذي يسرد فيه أخبار ذلك الرحال أو السائح ، وقد فضلنا أن نجعل تلك المباحث عناوين فرعية تعين الباحث والقارئ على الإفادة من كتابنا هذا بشكل أوسع .

وختاماً ، لا نشك في أن هذه الصفحات سوف تكون هدية ثمينة ونفيسة من مؤلفه إلينا ، وهدية متواضعة منا إلى المكتبة العربية والباحثين والدارسين والقراء أجمعين .

بغداد : ٢١ آذار ١٩٨٠
كلية الآداب - جامعة بغداد

معروف خزنة دار

تعريف بالسيرة العلمية للمؤلف

- * بوريس مويشيفيتش - دانتسغ .
- * ولد في ١٦ (٢٨) نيسان سنة ١٨٩٦ من مدينة نيتزنى من أسرة متوسطة ، وكان والده موظفاً حكومياً .
- * أنهى دراسته الجامعية الأولية في كلية الحقوق بجامعة كييف في سنة ١٩١٩ ، ثم أنهى دراسته العليا في ٢١ مايس سنة ١٩٣٩ .
- * رقى إلى مرتبة الباحث العلمي الأقدم في ١٤ مايس سنة ١٩٤٦ .
- * مدرس في معهد الدراسات الشرقية في موسكو (١٩٢٦ - ١٩٣٦) و (١٩٥١ - ١٩٥٤) .
- * مدرس في أكاديمية العمال والفلاحين والجيش الأحمر ، المدرسة الخاصة في القيادة العامة (١٩٣٦ - ١٩٤٥) .
- * مدرس المدرسة الدبلوماسية العليا التابعة لوزارة الشؤون الخارجية في الاتحاد السوفياتي (١٩٤٥ - ١٩٥١) .
- * مدرس في معهد العلاقات الدولية التابع لوزارة الشؤون الخارجية في الاتحاد السوفياتي (١٩٥٤ - ١٩٥٧) .
- * باحث علمي في معهد الاقتصاد العالمي والسياسة الدولية (قبل سنة ١٩٤٨) .
- * باحث علمي في معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية في موسكو (منذ سنة ١٩٥٥) .
- * نشر أكثر من (١٣٠) عملاً علمياً .
- * توفي في موسكو في ١٦ آب سنة ١٩٧٣ .
- * أهم أعماله العلمية هي :
- العراق ، من منشورات الأكاديمية الحربية للعمال والفلاحين والجيش الأحمر ، ١٩٤٠ .
- سوريا ، من منشورات الأكاديمية الحربية للعمال والفلاحين والجيش الأحمر ، ١٩٤٠ .
- العراق (مدخل جغرافي موجز) ، موسكو ، ١٩٥٥ .
- رحلة بيريزين في القفقاس ، وإيران ، والشرق الأوسط ، «نشرة موجزة لمعهد الدراسات الشرقية» ، الكتاب ٢٢ ، موسكو ، ١٩٥٦ .
- عرب العراق ، من كتاب «شعوب آسيا الغربية» ، موسكو ، ١٩٥٧ .
- شارك في تأليف كتاب «بلدان جنوب غربي آسيا وأفريقيا الشمالية» ، موسكو ، ١٩٦٠ ،
- كتب المقدمة والفصول المخصصة للعراق ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب .
- العراق في الماضي والحاضر ، موسكو ، ١٩٦٠ .

مقدمة المؤلف

ترجع العلاقات الاقتصادية والثقافية بين بلادنا وبلدان الشرق الأوسط إلى الماضي البعيد . وتشهد المدونات والأسفار التاريخية ، والملاحم الشعرية الروسية ، والحكايات من مختلف الأنواع بصورة مقنعة على أن الروس ومنذ عصر الدولة الروسية الكيفية كانوا يعرفون بلدان الشرق الأوسط ليس فقط عن طريق التواتر والسماع ، وإنما قام عدد كبير منهم بزيارتها والإقامة فيها لمدد متباينة . ومنذ القرنين السادس والسابع الميلاديين عرف السلافيون طريقهم إلى الشرق الأوسط . وتظهر من المصادر البيزنطية ، والأرمنية ، والعربية على أنه الفصائل العسكرية الروسية كانت تقاتل في صفوف الجيش البيزنطي في ماكدونيا وسوريا في نهاية القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الميلاديين . ومما لا شك فيه أن العلاقات التجارية كانت موجودة في ذلك الزمان بين روسيا وبلدان الشرق الأوسط .

وكان لاعتناق الروس الدين المسيحي أثره البالغ في تقوية العلاقات مع الشرق الأوسط . وكان هناك عدد كبير من الحجيج وهم مدفوعون بعاطفة دينية ، يسلكون طريقاً طويلاً وشاقاً للوصول إلى فلسطين ، ويزورون أثناء مسيرتهم القسطنطينية ، وآسيا الصغرى ، ومصر ، وسوريا . وكان ممثلو الكنيسة الروسية الأرثوذكسية يتوجهون إلى القسطنطينية أيضاً .

إن « مسيرة » الحجيج إلى « الأرض المقدسة » في روسيا ما قبل بطرس الأكبر^(*) ، وكذلك خلال القرن الثامن عشر وجدت لنفسها إنعكاساً واضحاً جداً في

(*) إن مصطلح « روسيا ما قبل بطرس الأكبر » يعني في الثقافة الروسية ، الدولة الروسية قبل حكم بطرس الأكبر ، أي التاريخ الروسي منذ أقدم الأزمنة وحتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي (المترجم) .

أدبياتنا المدونة . فقام عدد كبير من العلماء ، والديبلوماسيين ، ورجال الجيش بالسفر إلى الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . منها رحلة
غريغور ووثيخ - بارسكي ، م . ك . كوكوتسوف وهو أول روسي مختص
بالدراسات الأفريقية ، وتقارير الديبلوماسيين المشهورين أمثال ي . إ .
أوكرائنتسيف ، ب . أ . تولستوي ، إ . إ . نيبليويثف ، أ . م . أوبريسكوف ،
ي . إ . بولجاكوف ، ومعلومات علماء ورحالة بارزين أمثال و . إ .
سينكوفسكي ، أ . أ . رافالوويخ ، ي . ب . كوفاليثسكي ، م . ب .
فرونجينكو ، . أ . جيخاجيثف ، أ . ف . ييليسيف ، وكذلك كتابات
العلماء المستشرقين المعاصرين أمثال ف . أ . گوردليثسكي ، إ . ي .
كراحوثسكي ، ي . أ . أوربيلي وآخرين كثيرين .

ومع ذلك تفتقر أدبياتنا حتى الوقت الحاضر إلى نشرة كاملة من المواد عن
الرحالة الروس في الشرق الأوسط في الوقت الذي فيه أصبح الجانب الكبير من أعمالهم
منسياً أو من النوادر البيليوغرافية .

لذلك وضع المؤلف في خطة تأليفه تحقيق مهمة متواضعة تنحصر في تقديم
عرض عام وموجز للمواد المنشورة عن الرحلات الروسية في الشرق الأوسط ، وإظهار
الجوانب المتعددة لاهتمام الروس لدى دراستهم بلدان الشرق .

ويشتمل الإطار الزمني للكتاب الفترة من القرن الثاني عشر (« مسيرة »
دانيل) حتى بداية الحرب العالمية الأولى .

وأما الإطار الجغرافي فهو ينحصر في حدود وأصقاع مناطق الشرق الأوسط ،
وبعبارة أخرى الأستانة ، وفراكي الشرقية ، وآسيا الصغرى ، وسوريا ، ولبنان ،
وفلسطين ، والأردن ، وبلاد ما بين النهرين ، وشبه جزيرة سيناء ، ومصر ،
وأρχييل اليونان ، وقبرص .

ويحتوي العمل على معلومات عن أسفار ورحلات المواطنين الروس إلى الشرق
الأوسط في روسيا قبل عهد بطرس الأكبر ، وفي القرن الثامن عشر ، والقرن التاسع
عشر ، وبداية القرن العشرين . وإن مثل هذا التصنيف للمراحل في نظرنا عمل

مشروع . ففي روسيا لما قبل بطرس الأكبر وردت في « مسيرة » الحجيج والتجار ، وإلى حد ما الدبلوماسيين ملاحظات وإنطباعات ساذجة وبسيطة عن حياة شعوب الشرق الأوسط . ومن الصعوبة بمكان هنا التكلم عن دراسة منهجية منتظمة للموضوع ، ولكن مع ذلك لا يمكن غض النظر عن الواقع الذي يشير إلى أن الرحالة الروس قد أضافوا بمعلوماتهم الصحيحة والدقيقة عن بلدان الشرق الأوسط مصادر قيمة على الأدبيات وبذلك أسهموا إسهاماً كبيراً في دراسة تلك البلدان .

وبالرغم من وجود نواقض في دراسة الشرق الأوسط في القرن الثامن عشر من حيث تنسيقها في ضوء التدرج المرحلي إلا أنها كانت إلى درجة ما موجهة لأغراض معينة .

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر يمكن العثور على بحوث علمية أصيلة للمواطنين الروس عن مناطق معينة في ساحة الشرق الأوسط .

وفي القرن الثامن عشر بدأ تدريس اللغات الشرقية في روسيا ، وتأسست المطبعة الأولى التي دخل الألقاب العربي في مجموعات حروفها .

وقد نالت دراسة الشرق في روسيا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين نجاحات كبيرة إلى حد بعيد .

وهناك دور كبير لبلادنا ليس فقط في دراسة اللغات الشرقية ، والتاريخ ، والآداب ، والآثار ، وعلم المسكوكات للشرق الأوسط ، وإنما في معرفة البلدان والشعوب التي تقطن المنطقة بصورة عامة ، من حيث الجغرافيا الطبيعية والاقتصادية ، والأوضاع السياسية ، والانتوغرافيا ، وأسلوب الحياة ، وواقع المعيشة .

أما عن هذا العمل ، فقد تمت تهيئته في ضوء المواد والمصادر التي تتألف من الكتب ، والمذكرات ، والمقالات ، وتقارير الحجيج ، والرحالة ، والضباط ، والدبلوماسيين ، والعلماء ، والفنانين ، والكتاب الروس الذين وصلوا إلى الشرق الأوسط وقاموا بزيارته . ومن جملة ذلك العدد الهائل من الكتب والمقالات المنشورة في المجلات ، والجرائد ، والوثائق المحفوظة في الأرشيف يوجه المؤلف عناية القراء

بصورة خاصة إلى تلك المصادر التي تحتفظ لحد الآن بقيمتها العلمية والتي من شأنها أن توسع معارفنا عن بلدان الشرق الأوسط ، وعن أوضاع جماهير الكادحين ، وعن حياتها وطرق معيشتها في الأزمنة الغابرة .

ويظن المؤلف بأنه من المفيد الإشارة إلى عدد كبير من المقتطفات الغنية بمضامينها ، وأحياناً أصيلة جداً من اليوميات ، والمذكرات والملاحظات ، والكتب ، والتقارير ، والمذكرات التي ورثناها من مواطنينا الذين سبقونا في الحياة .

وكان بالإمكان ، وبدون شك ، عرض معلومات غزيرة بأسلوب صاحب هذا الكتاب ، إلا أن المؤلف يعتقد اعتقاداً جازماً ، بأن طرح الكلام الحقيقي (يقصد طرح النصوص التي كتبها المؤلفون كما هي - م . خ .) للأشخاص الذين زاروا الشرق الأوسط في حينه ، يؤدي إلى سماع أصوات الماضي ، وبذلك يكون كما لو أنه يعرف القارئ على هؤلاء الأشخاص الذين شاهدوا الشرق بأم أعينهم . والمقتبسات هذه تتضمن مواد ومعلومات مهمة ومعينة توسع آفاق معارفنا في جغرافيا ، وتاريخ ، واثوغرافيا شعوب الشرق الأوسط .

ونعتقد بأن العمل الذي نعرضه الآن ليس له أهمية في مجال العلم والمعرفة فقط ، وإنما له أهمية إجتماعية - سياسية خطيرة وجادة في نفس الوقت . فهو يتعرض إلى العلاقات الإنسانية والمواقف الودية بين مواطني بلادنا وشعوب الشرق مستنداً على مواد ومصادر ومراجع موضوعية واسعة . وتجدر الإشارة هنا إلى أن سكان بلدان الشرق الأوسط كانوا يقابلون الرحالة الروس بالود ، والعطف ، والاحترام ، وكانوا يميزونهم عن العملاء البغيضين للدول الاستعمارية الغربية .

وإن كافة المقتبسات والمقتطفات المعروضة في هذا الكتاب تشهد على أن لصداقة الروس مع شعور الشرق جذور تاريخية عميقة .

وسيكون المؤلف سعيداً جداً ، إذا ما أدى هذا العمل المتواضع إلى توطيد وتعميق علاقات الصداقة في المستقبل بين شعوب بلادنا وشعوب الشرق الأوسط .

وفي الختام نرى من الضروري أن نلحق بعملنا هذا قول س . بونوماريوف :
« لقد جرى إنجاز هذا العمل المتواضع بشغف واستغرق ذلك مدة طويلة ، غير أننا لا

نشك بأنه من الممكن العثور فيه على نوافض متنوعة سوف يشير إليها المتصلعون . إننا نرجو منهم أن لا ينسوا كلاماً مائوراً بسيطاً قديماً : « أسهل عليك أن تكرر ما سبقك إليه الآخرون من أن تكون الفاعل الأول »^(١) .

ويرى المؤلف من الضروري أن يقدم الشكر العميق ، ويعرب عما في نفسه من الود الصادق والاحترام العظيم والتقدير الجميل وهي نابعة من شعور فياض إلى الأصدقاء الذي قدموا له المساعدات اللازمة بنصائحهم الصميمة وتمنياتهم الصادقة بثبات وبشكل دائم وخلال سنوات طويلة ، وإلى الأصدقاء الذين رحلوا وهم غير موجودين بين ظهرائنا منهم بروفيسور العلوم الجغرافية في معهد التربية في مدينة قازان ، العضو المراسل في أكاديمية العلوم التربوية قاديم اليكساندروفيج كونداكوف ، وإلى المؤرخين السوفياتيين المستعربين العظمين فلاديمير بوريسوفايچ لوتسكي ، ويغيني اليكساندروفيج بيلياييف .

وكان الدكتور في العلوم التاريخية يغيني اليكساندروفيج بيلياييف قد قرأ قبل وفاته بقليل (أيلول سنة ١٩٦٤) هذا الكتاب وقدم جملة من الملاحظات المهمة ثم أوصى بطبعه . وإننا واثقون بأن مساعده لا تقدر بثمن ، والشكر الذي يقدم له ليس له حدود .

(١) س . بونوماريفوف ، مدينة القدس وفلسطين في الآداب والعلوم وفنون الرسم والترجمات الروسية ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٧ ، ص ٧ - ٨ ، ملحق المجلد (٣٠) ، « مجلة أكاديمية العلوم الأمبراطورية » ، العدد (١) .

الفصل الأول

روسيا ما قبل بطرس الأكبر

عرف أبناء الشعب الروسي الشرق الأوسط وسكانه منذ زمن بعيد ولقد كانت لديهم معلومات لا عن المستعمرات الإغريقية القريبة أمثال سوروژ وخيرسونيس فقط وإنما ، عن مناطق وبلدان بعيدة نسبياً كـبـيـزنطية ، وسواحل آسيا الصغرى ، وأرمينيا ، وبلاد ما بين النهرين (العراق) ، وسوريا ، وربما عن مصر كذلك .

وترجع الفترة التي عرف فيها أبناء الشعب الروسي الشرق الأوسط إلى ما قبل القرن الثاني عشر الميلادي بزمن طويل ، حيث وصل إلينا أول مرجع مدون عن رحلة رئيس الدير دانييل .

ومن الواضح أن السلافيين كانوا يعرفون الطريق المؤدي إلى الشرق الأوسط في القرنين السادس والسابع الميلاديين ، يقول الأكاديمي ب . كريكوف في هذا الصدد : « لقد كان الأولجيون والثيفرسيون^(*) على إتصال مستمر مع بيزنطية سواء كان ذلك عن طريق الخدمة العسكرية في الجيش البيزنطي أو باشتراكهم مع السلاف

(*) الأولجيون هم واحدة من المجموعات القبلية التي كان يتألف منها السلاف الشرقيون ؛ وأما الثيفرسيون فهم اتحاد قبلي من اتحادات السلاف الشرقيين أيضاً كان يقطن على طول نهر الدنيستر وحتى البحر الأسود (المترجم) .

في الغارات التي كانوا يشنونها على الأمبراطورية «^(١)». ثم يستطرد قائلاً: « وفي هذه الحقبة بالذات كان الروس القدامى على اتصال مباشر مع بيزنطية والشعوب الشرقية ، ولهم علاقات وثيقة بهم »^(٢).

وكان المقاتلون والجنود الروس قد وصلوا في منتصف القرن التاسع الميلادي في سنة ٨٤٢ إلى السواحل الجنوبية من البحر الأسود إلى أماستريد^(٣). وفي الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع الميلادي كتب الجغرافي العربي ابن خرداذبه : « فأما مسلك تجار الروس وهم جنس من الصقالبة فإنهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلية إلى البحر الرومي [البحر الأبيض المتوسط] فيعشرهم صاحب الروم [فيصر بيزنطية] وإن ساروا في تنيس [الثولغا] نهر الصقالبة مرّوا بخليج مدينة الخزر [مدينة إيتيل بالقرب من مصب الثولغا] فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون إلى بحر جرجان [بحر قزوين أو الخزر] فيخرجون في أنسى سواحله أحبوا وقطر هذا البحر خمس مائة فرسخ وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون أنهم نصارى فيؤدون الجزية »^(٤)

وهناك مجموعة كبيرة من المصادر البيزنطية ، والعربية ، والأرمنية تشير إلى أن الفرق العسكرية الروسية كانت قد قاتلت في صفوف الجيش البيزنطي في ماكدونيا ، وأرمينيا ، وسوريا في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الميلاديين^(٥). وأما

(١) ب . د . كريكوف ، ثقافة روسيا الكييفية ، موسكو ، ١٩٤٤ ، ص ٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(٣) ف . ك . فاسيليئسكي ، دراسات روسية - بيزنطية ، المجلد ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩١٥ ؛ ب . بوكودين ، عن حملة أبناء الروس على سوروژ ، « نشرة جمعية التاريخ والتاريخ القديم في أوديسا » ، المجلد ١ ، أوديسا ، ١٨٤٤ ، ص ١٩٥ - ١٩٦ ، والمقالة الأخيرة كما يذكر ف . ك . فاسيليئسكي من تأليف أ . ف . كورسكي .

(٤) إ . إ . سريوزنيئسكي ، معالم معرفة أبناء الشعب الروسي القديمة بآسيا الجنوبية ، ترجمة أ . ك . كاظم بك عن العربية ، « بشر الجمعية الجغرافية الروسية » ، القسم ١٠ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٤ ، ص ٥٢ - ٥٣ ، النص مقتبس من (ابن خرداذبه ، المسالك والممالك - طبعة بريل ، ١٨٨٩ ، ص ١٥٤ - المترجم) .

(٥) ف . ك . فاسيليئسكي ، دراسات روسية - بيزنطية ، المجلد ٣ ، سانت بيترسبورغ ،

أول المصادر المدونة عن تجارة الروس مع البيزنطيين عن طريق البحر الأسود ، ومع البلدان الإسلامية عن طريق بحر قزوين فهي ترجع إلى أربعينيات القرن التاسع الميلادي . غير أن العلاقات التجارية كانت موجودة بدون شك قبل هذه الفترة بمدة طويلة جداً .

ووردت معلومات عن العلاقات الوثيقة المباشرة لأبناء الشعب الروسي بالشرق الأوسط في الأثر النفيس « حكايات السنين المنقضية » . وإن هذه المدونة التاريخية تحتوي على معلومات وأخبار كثيرة جداً ذات طابع جغرافي واثنوغرافي أيضاً^(١) ، وهي تعتبر أول نشرة روسية في المعارف الجغرافية . ولا تقتصر معرفة المؤلف على جغرافية بلاده فقط ، بل إن عدد البلدان التي يذكرها ويتطرق إليها كبير جداً . وكان على علم بجميع بلدان شبه جزيرة البلقان ، والشرق الأوسط ، وسواحل أوروبا الغربية ، والبحر الأبيض المتوسط ، والمجرى الأدنى لنهر النيل ، وبحر قزوين تقريباً .

وهناك أخبار ومعلومات عن البلدان والممالك البعيدة في أساطير الكتاب المقدس وعن تقسيم العالم بعد الطوفان بين أبناء نوح : سام ، وحام ، ويافث . وترد في الأسطورة أسماء عدد كبير من البلدان والممالك ومناطق معينة في الأمبراطورية البيزنطية . وهكذا وعلى سبيل المثال ورد بأن « نصيب سام » أي تركة وميراث سام تشمل ممالك « سوريا ، وميديا على امتداد نهر الفرات ، وبابل ، وبلاد ما بين النهرين (العراق) ، والجزيرة العربية ، وفينيقيا » وأراضي أخرى . أما حام فقد حصل على مصر ، وليبيا ، ومجموعة من مقاطعات آسيا الصغرى أمثال « كيليكيا ، وفريكيا ، وليكيا ، وكاريا ، وكذلك نهر كيون المسمى بنهر النيل » . فيما حصل يافت على ميديا ، وأرمينيا ، وعلى جزء من مقاطعات آسيا الصغرى ، والحوص

١٩١٥ ، ص ١٤٣ ، المجلد ٢ ، ص ٦٣ ، المجلد ١ ، ص ٩١ ، ٢٠١ - ٢٠٣ ، قف . ر . روزين ،
الأمبراطور ثامسيلي بولكاروبوتيسا ، مقتطفات من مؤلفات بحى الإطفاكي ، سانت بيترسبورغ ،
١٨٨٣ ، ص ٤٠ ، والهوامش من ص ٣١٢ - ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ن . م . كازامزين ، تاريخ
الدولة الروسية . المجلد ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨١٦ ، ص ١٢٩ - ١٦٩ .
(١) م . و . كوسفين ، من تاريخ الاثنوغرافيا الروسية القديمة ، « الاثنوغرافيا السوفياتية » ، العدد
٤ ، ١٩٥٢ .

الواقع « بين ميديا وبابل من نهر دجله »^(١) .

ومنذ زمن بعيد يعلم الباحثون بأن مصدر الأخبار والمعلومات عن بلدان وممالك الشرق والغرب للمؤلف هو مدونات ومصنفات وسجلات جورج أمارتول ، وجوهان مالالا ، وبالي ، وسيرة كيريل وميفودي التي كتبها بانون ، وكذلك الكتاب المقدس ، والوثائق الرسمية ، والمعاهدات ، وما شابه ذلك^(٢) . ولا يوجد أدنى شك على الإطلاق بأن المصنف كان على علم بالمصادر والمراجع التي سبق ذكرها ، غير أن الأهم في الموضوع هو الإشارة إلى أنه عندما استقى معلوماته من تلك المصادر لم يعد ويذكر أسماء البلدان والممالك فقط وإنما كان يصفها أيضاً معتمداً على تقارير وحكايات الشهود الذين نزلوا إلى تلك البقاع في حينه .

ومنذ أكثر من مائة سنة عندما حلل الأكاديمي إ . إ . سربوزنيشكي ما ورد في الكتاب عن إمكانية السفر من روسيا إلى « ممالك سام » ومضارب قبائل « أجيال حام » بطريق الأنهار والبحار توصل إلى استنتاج صحيح : « بهذه الصورة قدم مؤلفنا القديم الطرق المائية للفترة التي عاش فيها ، وكذلك لأزمة قديمة جداً ، فذكر الطرق التي كانت تقرب روسيا إلى أصقاع الغرب والشرق البعيدة ، وعند عرضه لهذه المعلومات كان اعتماده طبعاً على التواتر وليس على الخرائط ، والباحث سمع عن أناس شهدوا الأحداث والأصقاع »^(٣)

وبالإضافة إلى ذلك ، كان إ . إ . سربوزنيشكي قد ذكر بأنه « بقيت من بين الآثار الروسية القديمة العتيقة معلومات ومذكرات نفيسة ومهمة جداً عن تساريكراد (القسطنطينية) • يتميز القسم الأكبر من تلك المعلومات بطابع العصر الحديث »^(٤) .

(١) (المجموعة الكاملة للمدونات الروسية) ، « حكايات السنين المنقضية » ، المجلد ١ ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٥٠ ، ص ٩ - ١٠ .

(٢) م . س . بودنارسكي ، دراسات في تاريخ الزراعة الروسية ، موسكو ، ١٩٤٧ ، ص ٦ .

(٣) إ . إ . سربوزنيشكي ، معالم معرفة أبناء الشعب الروسي القديمة بأسيا الوسطى ، « بشير الجمعية الجغرافية الروسية » ، القسم ١٠ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٤ ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(٤) إ . إ . سربوزنيشكي ، رواية عن تساريكراد ، مطالعات الأكاديمي سربوزنيشكي ، « سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٥ ، ص ٣ .

ووردت معلومات في « حكايات السنين المنقضية » عن طريق يمتد من قاريّاك حتى بلاد الإغريق ، كما وعرف المؤلف طريقين من البلطيق أحدهما إلى البحر الأبيض المتوسط حول أوروبا والآخر إلى البحر الأسود بطريق الأنهار . ويذكر المصنف روما والقسطنطينية^(١) ، وبحر « بونيتسكي (قد يكون البحر الأبيض المتوسط - م . خ) ، وكذلك البحر المسمى بالروسي (قد يكون البحر الأسود - م . خ .) » . وهو يرجع الحملة الأولى التي قام بها كي الأسطوري على القسطنطينية إلى سنة ٨٥٤ الميلادية ، ويتكلم عن حملة أسكولد ، ودير « في بلاد الإغريق » في سنة ٨٦٦ الميلادية ، وعن حملة أوليگك في سنة ٩٠٧ الميلادية ، وعن سفارته في سنة ٩١١ الميلادية إلى بيزنطية لعقد معاهدة بين روسيا وبين الإغريق . وأما معلوماته عن حملة إيگور في سنة ٩٤١ الميلادية فهي شيقة وممتعة خصوصاً عندما تتطرق إلى العمليات الحربية التي حدثت في مشارف القسطنطينية ، وفي فيننيا وپافلاگونيا ، أي في السواحل الجنوبية من البحر الأسود . وترد فيما بعد معلومات عن معاهدة سنة ٩٤٤ الميلادية المعقودة بين إيگور والإغريقين ، ثم عن تعميم أوليگك في سنة ٩٥٧ الميلادية في القسطنطينية ، وعن وصول سفارة الأمير الكبير فلاديمير إلى القسطنطينية لـ « اختيار العقيدة أو الإيمان بالدين » وأخيراً هناك في الكتاب أخبار ومعلومات مهمة عن حملة فلاديمير ابن باروسلاف في سنة ١٠٤٣ الميلادية . حدث في ذلك الوقت ونتيجة لكارثة أصابت السفن أن وقع قسم من المحاربين الروس وعلى رأسهم القائد فيشاتا* في الأسر ، وبعد معركة حامية سملت عيونهم . ولم يعد القائد فيشاتا إلى روسيا إلا بعد ثلاث سنوات^(٢) .

هذه هي معلومات المصنفات والمدونات التاريخية حول زيارة الروس

(١) القسطنطينية : هي عاصمة البيزنطيين منذ القرن الرابع وحتى القرن الخامس عشر الميلادي . كانت المدينة في روسيا تسمى « تساريكراد » منذ العهود القديمة وحتى القرن السابع عشر الميلادي في الوثائق الرسمية ، والأثار الأدبية ، والفولكلور . (ولفظة تساريكراد تعني مدينة القيصر ، أو مدينة القياصرة باللغة الروسية - المترجم) .

(*) يستعمل المؤلف لفظة « فوفودا » وهي مصطلح كان يستعمل لقائد الجيش ، والمحاظ ، والوالي ، وحاكم المنطقة في روسيا القديمة ، فارتأينا هنا ترجمته بكلمة « قائد » . (المترجم) .

(٢) (المجموعة الكاملة للمدونات الروسية) « مضيف لاقوتيفسكي » ، المجلد ١ ، ص ٦٦ - ٦٧ ؛ « حكايات السنين المنقضية » ، المجلد ١ ، ص ١٠٣ - ١٠٤ .

للقسطنطينية ، والسواحل الشمالية والجنوبية من البحر الأسود المتعلقة بالفترة التي سبقت « تعميد الروس » (دخولهم في الدين المسيحي - م . خ .) ، أي قبل سنة ٩٨٨ الميلادية .

وإن الكتاب لا يعكس العلاقات التجارية النشطة لهذه الحقبة بين روسيا والبلدان العربية . غير أن معلومات وأخبار الجغرافيين العرب عن التجارة مع روسيا تؤكد اللفظ التي تم العثور عليها في روسيا وهي عبارة عن مجموعة كبيرة من كنوز النقود الشرقية (العربية) في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين . وهذا يدل على أن العرب والسامرة الذين كانوا يتعاونون معهم من البولسكار الذين كانوا يعيشون في منطقة الفولغا كانوا يزورون روسيا ، وفي الوقت ذاته كان الروس أنفسهم يزورون البلدان العربية .

وبعد قبول المسيحية ديناً في سنة ٩٨٨ الميلادية ترسخت علاقات روسيا بالشرق بشكل أقوى . وبالإضافة إلى الأشخاص المحاربين والتجار كان يسافر إليه ممثلو الكنيسة الروسية أيضاً . وكانت إقامة نظام تعيين المطران في كييف من قبل بيزنطية قد أردت إلى سفر عدد كبير من الوجوه الدينية من القسطنطينية إلى روسيا ، ومن روسيا إلى القسطنطينية ، وعلاوة على ذلك لم يقتصر الحج إلى الأماكن المقدسة على رجال الدين فقط ، وإنما شرع بعض الناس البسطاء الإعتياديين القيام بالحج . وهناك في العديد من المصادر المدونة بما في ذلك الأسفار التاريخية معلومات عن رحلات الحجيج (بالومنيك) أو المشردين وهم عادة من المغنين الشعبيين العميان (كالك)^(١) . ومع ذلك لا توجد عن غالبية هذه الرحلات أية معلومات ذات فائدة ، على الرغم من أنه من الواضح تماماً بأن الرحلات لا تؤدي إلى توسيع أفق مدارك الرحالة أنفسهم فقط وإنما تصبح المعلومات عن الشرق عند عودتهم معروفة أيضاً لعدد لا يستهان به من الأشخاص الآخرين .

ترجع الوثيقة الأولى التي وصلت إلينا من الآثار المدونة عن رحلة رئيس الدير

(١) إن لفظة « بالومنيك » هي من لفظة « بالموقابا » بمعنى (النخلي ، نسبة إلى النخل) . كان المتدينون المتحولون يحملون أغصان النخل من « الأماكن المقدسة » إلى روسيا . أما لفظة « كالك » فهي من الاسم اللاتيني لتوع من الأحذية « caliga » وهي جزمة من اللباد كان يرتديها المتدينون المتحولون .

دانييل إلى بداية القرن الثاني عشر الميلادي . وهناك بالإضافة إلى ذلك ، وإلى حد ما إشارات في المصنفات والمدونات الروسية إلى عدد من الرحلات إلى بيزنطية وفلسطين ، وكذلك إلى أيون ترجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي .

وتحتفظ الأشعار الروسية الشعبية الملحمية الشهيرة المسماة « أدوار فلاديمير » بمعلومات عن عدد كبير من الحجيج الروس في فلسطين الذين زاروا الأماكن المقدسة في عهد فلاديمير ، أي في الربع الأخير من القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الميلاديين . فالأشعار تلك تشير إلى أن مراسم الحج كانت تتم بشكل فصائل كبيرة من المتطوعين ، وكانت الفصيلة الواحدة تضم على أكثر تقدير بضع عشرات من الرجال (« أربعين من المتدينين البسطاء ») . فعلى سبيل المثال وردت في القصيدة الشعبية المنسوبة إلى مدينة نوفغورود عن قاسيلي بوسلاييف معلومات عن كيفية وصوله مع رفاقه « إلى تابوت المسيح (يقصد كنيسة القيامة - م . خ .) للانحناء ، والتقبيل ، والتبرك ، ثم القيام بالتعميد في نهر الأردن » . أما القصيدة الشعبية « الأربعون من المتدينين البسطاء » فتصف رحلتهم إلى مدينة القدس .

وبالإضافة إلى ذلك يمكن العثور في القصائد الشعبية على بعض الأخبار والمعلومات عن التجارة مع البلدان العربية أيضاً ، ويرد ذكر الذهب ، والنحاس « العربي » والأحجار البيضاء الناعمة الثمينة .

رحلة دانييل

لم يعرف الأدب الروسي حتى بداية القرن الثاني عشر الميلادي الحجيج من الأدباء والكتاب قبل « مسيرة » رئيس الدير دانييل . وكانت « مسيرة » دانييل وبقية « المسيرات » التي تبعتها إلى الشرق معروفة بصورة جيدة في تاريخ الأدب الروسي . فالمدونات ، والسجلات ، والكشوفات المنتشرة باتساع في حينه تشكل وثائق رائعة كتبها الرحالة والسياح ، والزائرون بأنفسهم ، وأهميتها لا تنحصر في كونها أثراً أدبياً فحسب ، وإنما كمصادر قديمة جداً في تاريخ العلم الجغرافي والאתنوغرافي الروسي^(١)

(١) أ . ب . بيرشيتس ، معلومات أثنوغرافية عن العرب في « المسيرات » الروسية في القرون الثاني عشر - السابع عشر ، مجلة « الأثنوغرافيا السوفياتية » ، العدد ٤ ، ١٩٥١ .

لتاريخ دراسة الشرق الأوسط . « ويضم الأدب الروسي القديم مجموعة ممتازة من المعلومات الجغرافية عن المناطق الشرقية من البحر الأبيض المتوسط ، وفلسطين ، وسوريا ، وقد كتبه رئيس الدير الروسي دانييل الذي سافر إلى مدينة القدس في عهد إمارة سفياتوبولك إزيا سلافيج »^(١) .

زار دانييل رئيس أديرة روسيا الجنوبية ، ومن المحتمل أن يكون دير منطقة جيرنيغوفسكي (في أوكرانيا) فلسطين في السنوات ١١٠٦ - ١١٠٨ الميلادية وإذا كان من الواضح أنه قد توفي في سنة ١١١٤ ، فيعود وصف رحلته إلى سنوات ١١٠٩ - ١١١٣^(٢) . وصل دانييل إلى مدينة القدس بعد احتلال الصليبيين لها بوقت قصير . ولا شك بأن عدداً كبيراً من المعابد ، والأديرة ، والبنائيات البارزة قد تهدمت في مدينة القدس فيما بعد ، لذلك تكون المعلومات والإحصائيات التي يعرضها دانييل عن أبعادها ومسافاتها أهمية كبيرة جداً : « وضع الأثاريون المختصون بفلسطين في الوقت الحاضر شهادته [شهادة دانييل] فوق آراء جميع « المسافرين » الغربيين والشرقيين لتلك الفترة نظراً لدقتها ، ورضانتها ، وصدقها . وكانت القيمة العلمية العالية لكتاب دانييل قد حفزت الوسط العلمي إلى ترجمته إلى اللغات الفرنسية ، والألمانية ، واليونانية للاستفادة منه للأغراض العلمية »^(٣) .

ويجد المرء في « مسيرة » دانييل^(٤) ، وفي بقية « مسيرات » الحجيج أيضاً مكاناً بارزاً لوصف جانب كبير من « المقدسات » و« المعجزات » الواردة في أساطير الكتاب المقدس . وبالإضافة إلى ذلك يشير دانييل بصورة مستمرة إلى الأماكن التي زارها ، أو مرَّ بها ، أو أقام فيها ابتداءً من تساريغراد (القسطنطينية) . غير أنه لا يقدم وصفاً مفصلاً لها على الأقل من الناحية الظاهرية ، ولكن مع ذلك يشير إلى بعض الظواهر

(١) I. D. Biliayev ، حول الأخبار الجغرافية في روسيا القديمة ، « نشرة الجمعية الجغرافية الروسية » ، الكتاب ٦ ، ١٨٥٢ ، ص ٢٢ .

(٢) « تاريخ المقامات (الدرجات) الكهنوتية في روسيا » ، مجموعة الراهب أمثروسي ، القسم ١ ، موسكو ، ١٨٠٧ ، ص ٢٢٣ .

(٣) « تاريخ الأدب الروسي » ، المجلد ١ ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤١ ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٤) « حياة وسيرة دانييل رئيس دير الأرض الروسية » مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد

م . ث . قينيقيوف ، النشرة ٣ و ٩ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٣ و ١٨٨٥ .

التي جلبت اهتمامه في حياة الناس من الناحية الاقتصادية . وهكذا يذكر بأنه في جزيرة
خيوس (جزيرة في القسم الشرقي من الأرخيبيل اليوناني - م . خ .) : « توجد مادة
الماستيكا ، والشراب الطيب ، وأنواع الخضار » . ويقول فيما بعد بأن مدينة إفيس
تبعد عن البحر بمقدار أربعة فراسخ « وفيها كميات كبيرة من جميع أنواع السلع
والبضائع الجيدة » .

وانتهت الرحلة البحرية لدانييل عند يافا . ومن الطبيعي بأن السائح قد اهتم
بشكل خاص بفلسطين ، ومدينة القدس . أما وصفه للمنتظر الخارجي لمدينة القدس
فهو مهم جداً : « القدس مدينة عظيمة ، أسوارها قوية ودائرية ، مبنية^(١) على أربع
زوايا في هيئة صليب ، وفيها حقول واسعة للأدغال ، وحوطها جبال صخرية . وهذا
المكان بلا ماء ، أي أنه لا يوجد فيه نهر ، ولا عين ماء ، ولا بئر بالقرب من مدينة
القدس ، غير أنه يوجد مكان واحد يمكن التبرك بمائه وهو سيلوعام^(*) ؛ فالناس
جميعهم والمواشي أيضاً يعيشون على مياه الأمطار في تلك المدينة » .

ويتكلم دانييل عن الوضع الاقتصادي للبلاد : « تنبت الحبوب والغللال بوفرة
حول مدينة القدس في الأراضي الصحيرية بدون أمطار . . . ويزرع القمح والشعير
بكميات كبيرة . . . وأما ثمر الكروم والأعشاب فهو غزير حول مدينة القدس ، وهناك
شجيرات الخضار وافرة الانتاج . وفيها أشجار التين ، والتوت ، والزيتون ،
والجودار ؛ وتنتشر في تلك الأراضي أشجار وأحراج مختلفة ومتنوعة لا تعد ولا
تحصى^(٢) »

ويصف دانييل بصورة مفصلة الطريق الذي سلكه من مدينة القدس حتى نهر
الأردن . كما ويرسم لوحة زاهية عندما يصف البحر الميت ، بالرغم من أنه لم يزر
البحر بالذات وإنما يتكلم عنه بلسان الآخرين : « أما البحر الميت فإنه ميت ، ولا
يعيش فيه أي كائن حي بأي شكل من الأشكال ، لا يوجد فيه السمك ، ولا حيوان

(١) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(*) سيلوعام Silo'am: اسم لحوض ، ويسمى الحوض بين الجدارين أيضاً ؛ يأتيه الماء من منابع في
جوف الأرض ، ويقع في القسم الجنوبي الشرقي من مدينة القدس ، ولا زالت آثاره باقية (المترجم)

(٢) المصدر السابق ، ص ٤١ .

السرطان ، ولا ما يشبهها مطلقاً ؛ وهم عادة يأتون بالأسماك إلى البحر من مجرى نهر الأردن غير أنها لا تستطيع أن تعيش حتى أقل من ساعة وتموت بسرعة . ويخرج من أعماق البحر القطران الأسود «^(١)» .

والظاهر أن السائح دانييل لم يقم برحلته لوحده . وهو يذكر رفاقه وأصدقاءه ، ويتكلم عن الروس الذين التقى بهم في «الأرض المقدسة» : «لقد ساعدني الرب أنا الضعيف . . . هناك مرقد السيد المسيح المقدس ، ويعيش فيه أبناء الروس المتطوعون ، وكان بينهم في ذلك الوقت أشخاص من نوفغورود وكييان : سيديسلاف إيقانوف ، وگوروديسلاف ميخائيلوفيتش ، وكاشكيچاجا ، وآخرين كثيرين ، التقيت بهم وتكلم بعضنا مع البعض ، أنا الضعيف «^(٢)» .

وتشهد رحلة دانييل بدون شك على تزايد الاهتمام بالبلدان البعيدة في روسيا القديمة . وذكرياته الشخصية ترمز إلى الروح الوطنية التي كان يتحلى بها . ففي البلدان والأقطار النائية كان يحس في أعماق قلبه بأنه يمثل الأرض الروسية جميعها . وحصيلة هذا الإحساس كما ذكر هو نفسه تتجلى في أن العرب والصليبيين كانوا يهتمون به ويرعون به بشكل خاص .

وإننا لا نعلم عن أية رحلة إلى الشرق خلال القرن الثاني عشر بأجمعه عدا «مسيرة» دانييل ، ومع ذلك لقد قام المواطنون الروس برحلات مشابهة أكثر من مرة ، فهناك إشارات ومعلومات عن تلك الرحلات في مجموعة من الكتب ، والمصنفات ، والمدونات ، والسجلات القديمة .

رحلة دوبرينيا يادرييكوفيتش (أنتوني)

كانت لقصة زيارة دوبرينيا يادرييكوفيتش وهو من مدينة نوفغورود إلى القسطنطينية أهمية كبيرة للغاية ، وهي محفوظة في مجموعة من الكتب والمصنفات

(١) المصدر السابق ، ص ٥٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

الروسية . إن دوبرينيا يادرييكوفيتش الذي أصبح فيما بعد رئيس أساقفة نوفغورود وحمل اسم أنتوني قد عاش في القسطنطينية منذ سنة ١٢٠٠ وحتى سنة ١٢٠٤ الميلادية . ثم كتب عن رحلته بعد دخوله في الرهبنة وانتخابه رئيساً للأساقفة في سنة ١٢١٢^(١) .

لم يكتب المؤلف أي شيء عن الطريق الذي سلكه إلى القسطنطينية ، إلا أن المرء يجد في « كتاب الحجيج » وصفاً للمدينة ، أو بعبارة أدق وصفاً للأماكن المقدسة ، والكنائس فيها في الفترة التي سبقت احتلال الصليبيين للمدينة في نيسان سنة ١٢٠٤ . أما المعلومات التي يوردها المؤلف وهو شاهد عيان عن معبد صوفيا وكنوزه فهي قيمة جداً ، خصوصاً لأن الصليبيين قد نهبوا المدينة بعد ذلك . وكانت المعلومات المفصلة والوصف المقتضب للمدينة قد جلبت انتباه الأثاريين ودفعتهم إلى ترجمة الكتاب إلى اللغتين الفرنسية واللاتينية .

أما المظاهر التي أذهلت السائح في المدينة بصورة خاصة فهي ميدان سباق الخيل ، والحمامات ، وقنوات المياه ، وحمام البطارقة ، والمياه التي تجري في القنوات ، والمياه الأخرى التي تستحصل من المطر^(٢) . ويشير دوبرينيا أيضاً إلى « سوق الخيول » أي ساحة قسطنطين ، ويذكر مدينتي خريسوبول وكاليسبول (غاليبولي أو جناق قلعه) عدة مرات ، غير أنه من الصعب التأكد من أنه زار المدينتين بنفسه أو انه يصف الأماكن المقدسة فيهما عن لسان الآخرين .

ولا شك أن رحلة دوبرينيا يادرييكوفيتش ممتعة ومهمة من حيث التفاصيل والجزئيات ، وهي إضافة جيدة على المعلومات القديمة الأولى عن العلاقات بين روسيا القديمة وبيزنطية . وإنه يقول بأنه شاهد في كاتدرائية صوفيا أواني وصحوناً من الذهب وهي مهداة من الأميرة أولكا إلى المعبد الذي تم فيه تعميدها ، ويتكلم عن الأشخاص الذين التقى بهم وهم يعملون في سفارة الروس في عهد الأمير الكبير

(١) « كتاب الحجيج - ذكر الأماكن المقدسة في تساريغراد من قبل أنتوني ، رئيس أساقفة نوفغورود في سنة ١٢٠٠ الميلادية » ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد خ . م . لوباريث ، المجلد ١٧ ، النشرة ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

رومان (كالييسكي) في القسطنطينية^(١) . وعن السفارة نفسها في عهد رومان مستيسلافو فيج كالييسكي التي كانت تدافع عن الإمبراطورية الإغريقية من هجمات البولوفتسين^(٢) في فراكيا في سنة ١٢٠٣ . لا وجود لمثل هذه المعلومات الفريدة في أي مصدر آخر .

فترة ركود الرحلات

وصل إلينا أثر مدون آخر في الربع الأول من القرن الثالث عشر ، وهو عبارة عن وصف لرحلة أسقف منطقة كييف - بيجيرسكي دوسيفي إلى أبون^(٣)

ولا وجود لأية أخبار في المصادر المدونة عن رحلات قام بها الروس إلى الشرق خلال القرن ونصف القرن القادم . وكانت هذه الفترة حقبة قاسية حيث كان الغزو المغولي - التاتاري ضد روسيا القديمة في أوجه ، وكان الصليبيون قد احتلوا بيزنطية ، وبرغم ذلك وردت في المصنفات والمدونات التاريخية لتلك الفترة معلومات وحقائق تشهد على قيام طائفة من رجال الدين برحلات إلى الشرق أكثر من مرة .

وفيما عدا رحلات رجال الكنيسة فقلوب توجه بعض الناس إلى « الأرض المقدسة » من غير رجال الدين .

رحلة غريغوري وستيفان

كان الكاهن غريغوري من بين حجاج الفترة الواقعة بين نهاية القرن الثالث عشر ، وبداية القرن الرابع عشر ، وقد عين فيما بعد رئيساً لأساقفة نوفغورود واشتهر باسم فاسيلي^(٤) . وهناك شخص آخر وهو من نوفغورود أيضاً

(١) المصدر السابق ، ص ٣ .

(٢) البولوفتسين : شعب قديم من أصل تركي ، كانت قبائله تحط رحلها في المناطق الجنوبية الشرقية لأوروبا في القرن الحادي عشر وحتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي (المترجم) .

(٣) تاريخ الكنيسة الروسية لرئيس أساقفة خاركوف ماكاربي ، المجلد ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٨ ، ص ٢٠١ - ٢٠٣ .

(٤) ل. مايكوف ، مصادر ومراجعات في الأدب الروسي القديم ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٠ ، ص ٤٢ .

اسمه ستيفان زار القسطنطينية مع سبعة من رفاقه في سنة ١٣٥٠ الميلادية تقريباً^(١) . ولم يكن اهتمام ستيفان بالأماكن المقدسة كبيراً بخلاف الحجاج الذين سبقوه ، في حين كانت الآثار الفنية ، والحمامات ، والأسواق التجارية ، وميادين المدينة قد جلبت إنتباهه أكثر من أي شيء آخر .

ويبدأ ستيفان وصفه لمدينة القسطنطينية من نصب جوستينيان ومعبد صوفيا . ويذكر بأنه التقى برئيس الأساقفة إيسيدور وتحدث معه ، وقد قال له رئيس الأساقفة بأنه « يحب الروس كثيراً » . وكان للميناء تأثيره الكبير على ستيفان النوفكوردوي ، وكذلك الأسطول البيزنطي : « تقف هناك بوابة عجيبة كبيرة حديدية متشابكة وعظيمة جداً ، ومن خلال تلك البوابة يتوغل البحر إلى داخل المدينة ، وإذا ما حدث وهاج البحر فإن عدداً من السفن الكاتارخ يصل عددها إلى الثلاثمائة تتجمع فيه ، وهناك سفن يصل عدد مجاديفها إلى مائتي مجداف وأخرى ثلاثمائة مجاديف ، وتسير العساكر في البحر بوساطة تلك السفن ، وعندما تهب الرياح فإنها لا تستطيع الهرب لأن الرياح ستجرها ، لذلك تعتمد السفن إلى انتظار الطقس الملائم »^(٢) .

وإننا نجد في « رحلة » ستيفان أخباراً ومعلومات جديدة بالاهتمام تشير إلى أنهم كانوا يرسلون من دير ستودي كتباً كثيرة ومتنوعة إلى روسيا . وعندما يتكلم عن لقائه في الدير مع أبناء بلده من مدينة نوفكوردو إيقان ودوبريلا يقول السائح أنهم : « يعيشون في الوقت الحاضر هناك ، يقومون باستنساخ الكتاب المقدس في دير ستودي ، وهم كتاب ماهرون في تحرير واستنساخ الكتب » ولا نشك بأن استنساخ الكتب ، ومن المحتمل ترجمتها إلى اللغة الروسية أيضاً ، قد بدأ في القسطنطينية في وقت مبكر جداً وقبل تلك الفترة .

رحلة أكريفيني

ترجع « رحلة » أرشمندريت (رئيس أساقفة) سمولينسك أكريفيني

(١) إ . ساخاروف ، قصص وأساطير الشعب الروسي ، المجلد ٢ ، الكتاب ٨ « رحلة ستيفان النوفكوردوي » ، سانت بطرسبورغ ، ١٨٤٩ ، ص ٥٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٥٣ .

(أوغريفيوسي) إلى النصف الثاني من القرن الرابع عشر (على ما يبدو في السبعينيات)^(١) . بدأ أوغريفيوسي رحلته من موسكو وخلال مدينة تشير وصول إلى مدينة أكيرمان (بيلگورود) بعد مضي وقت قصير ، ثم دخل القسطنطينية . ولقد زار الرجال الاسكندرية ، والقاهرة ، ودمشق ، ومدينة القدس ، وانطاكيا . فهو لا يصف المدن ، غير أنه يدلي بمعلومات عن الزراعة ، فعلى سبيل المثال يذكر بأنه في جزيرة ستيخيا (خيوس) « يوجد المستكي ، وأما في جزيرة قبرص فهناك سكر كثير . ويقول عن الرملة بأنها « قرية كبيرة ، والتجارة فيها مزدهرة » ، أما في الجليل « يزرعون الحنطة والشعير في بساتين أشجار الزيتون واللوز » ، ويذكر وادي الأردن فيقول : « تزرع أنواع كثيرة من الخضار ، وتفاح الجنة ، والبطيخ ، والنانج ، والشوندر » وبالقرب من حبرون (مدينة الخليل) في فلسطين يقوم العرب بصناعة الأنواع المختلفة من الزجاج .

رحلة ميتيائي وبيمين

تشير المصنفات والمدونات والسجلات إلى أنه كان قد تقرر قيام رجال الدين برحلة إلى الشرق في الفترة الواقعة بين سنة ١٣٧٦ وسنة ١٣٨٩ الميلاديتين بعد موت المطران اليكسي لغرض حل قضية الترشيح لمطرانية موسكو .

توجه ميتيائي إلى القسطنطينية في سنة ١٣٧٩^(٢) ، غير أنه توفي في الطريق بين كافا وعاصمة البيزنطيين . وكان يصحبه بيمين الذي عين فيما بعد (سنة ١٣٨٣ الميلادية) مطراناً لموسكو . وقد سافر بيمين إلى القسطنطينية مرتين أخريين ، في سنة ١٣٨٥ وسنة ١٣٨٩^(٣) . إلا أنه توفي في أثناء رحلته الأخيرة ، والشيء الذي يتصل

(١) « رحلة الأرشمندريت » (رئيس الأساقفة) أوغريفيوسي حوالي سنة ١٣٧٠ الميلادية ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد رئيس الأساقفة ليونيد ، المجلد ١٦ ، النشرة ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٦ .

(٢) « المجموعة الكاملة للمدونات الروسية » (مدونات البحث والنشر) ، المجلد ٨ ، ص ٣٠ - ٣٢ . كان ترشيح ميتيائي للقيام بهذه الرحلة قد تم بمساندة الأمير الكبير ، وصاحبه حاشية كبيرة تألف من مجموعة من المطارنة ورؤساء الأديرة ، وكذلك جميع العاملين في كاتدرائية فلاديميرسك وعدد كبير من الخدم .

(٣) « المجموعة الكاملة للمدونات الروسية » (المدونة النوفكوروودية الرابعة) ، المجلد ٤ ،

برحلته ويميزه عن الآخرين هو أثره المسمى « مسيرة ييمين » ، وهي مشهورة جداً في الأدبيات ، وقد ألفه أحد رجال سفارة ييمين ايگناتي الملقب بالسمولني (السمولينسكي) ، وقد وصف الرحلة إلى بيزنطية ، وكتب عن زيارته وحجه لمدينة القدس .

رحلة ايگناتي (سمولنيانين)

تشتمل مذكرات ايگناتي السمولينسكي^(١) على عدة فصول منها : مذكرات مسافر من موسكو إلى القسطنطينية ، وحكاية عن أمور (التي لم تذكر في كل القوائم والتي لا تعود على ما يبدو إلى إيگناتي) ، وصف مراسيم تتويج الأمبراطور مانوئيل ، ومعلومات عن الرحلة إلى « الأرض المقدسة » .

كانت البعثة قد خرجت من موسكو في ١٣ نيسان سنة ١٣٨٩ . وسلكت طريق نهري أوكا ودون ، فوصل المسافرون إلى آزوف ، ثم دخلوا القسطنطينية في ٢٩ حزيران . وعندما كانوا في البحر الأسود هبت عاصفة قوية فاضطرت السفينة أن تدخل ميناء سينوب (إنجه برون - م.خ .) فالتخلص من مفعول العواصف : « وهبت كذلك في اليوم الخامس ، وكان يوم الخميس الرياح الشديدة بوجهنا ، فدفعتنا في البحر إلى الجانب الأيسر حيث مدينة سينوب ، ودفعتنا مرة أخرى إلى اليمين بالقرب من سينوب . . . إستقبلنا الناس في مدينة سينوب ، وقاموا بزيارتنا ، وقدموا لنا الأطعمة والخمر الطيب ، وقد بقينا هناك مدة يومين »^(٢) .

وهكذا لأول مرة يصف سائح روسي سواحل آسيا الصغرى .

وسلك المسافرون بعد ذلك الطريق بمحاذاة الساحل في أسفارهم . وكانت سلسلة جبال طوروس تمتد في الجانب الأيسر منهم وفي الجهة الجنوبية ، فيقول عنها إيگناتي : « كانت هناك جبال عالية جداً ، وكان نصفها مغطى بالغيوم التي كانت

(١) . إ . ساخاروف ، قصص وأساطير الشعب الروسي ، المجلد ٦ ، الكتاب ٨ ، « رحلة الشياص

الإنجيلي ايگناتي إلى تساريفراد (القسطنطينية) ومدينة القدس » سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٨ .

تسبح في الفضاء «^{١١}». فاضطر المسافرون في طريقهم من سينوب أن يقيموا خمسة عشر يوماً في پانديراكلي (ايركلي أو زونكل داغ) بسبب هبوب الرياح والعواصف ، وأخيراً وبعد توقف قصير في مصب نهر سقاريا وصلوا إلى استراقيا بالقرب من البوسفور . ومن استراقيا استمروا في السفر بمحاذاة ريف و فيلي حتى دخلوا البوسفور . ثم يصف إيكناتي زيارته لتساريگورود (القسطنطينية) . ويتحدث قبل كل شيء عن لقائه بالروس الذين كانوا يعيشون هناك : « . . . إستقبلنا الروس الذين يعيشون هناك ، وقاموا بزيارتنا ، فكان هذا اللقاء مبعثاً لسعادة كبيرة للجانبين »^{١٢}. يقول الأكاديمي م . ن . تيخوميروف عن هذا اللقاء : « كانت الجالية الروسية في القرن الرابع عشر الميلادي كما اعتقد تسكن في القسم الشمالي من القسطنطينية بالقرب من القرن الذهبي »^{١٣}.

ومن المرجح أن هذا اللقاء مع الضيوف الموسكوبيين لم ينظمه رجال الدين ، وإنما الرجال الاعتياديين الآخرين ، ومن الممكن أن التجار هم الذين نظموا هذا اللقاء أولئك الذين لم يقطعوا علاقاتهم مع الوطن في ذلك الحين .

وقد ذكر إيكناتي بعض المعلومات عن الأحداث التي جرت في عاصمة البيزنطيين في ذلك الوقت ، وبصورة خاصة عن الصدمات التي حدثت بين جهتين متخاصمتين : الإمبراطور يوان وابنه مانوئيل . ولم يغب عن باله أن يذكر بأن يوان (وهو يسميه كولوان ابن أندرونيك) « بدأ بالبحث عن الملك في تساريگورد (القسطنطينية) بمساعدة الترك » . وإن هذه شهادة قيمة جداً تجسد الوضع في بيزنطية عندما كانت بعض الطوائف تحاول الاعتماد على الترك .

ووصف إيكناتي بصورة مفصلة مراسيم احتفال تنويج مانوئيل في معبد صوفيا ، وهو يذكر بأن النساء في المعبد كن مجتمعات لوحدهن وبعيدات عن الرجال ، ويتحدث بشكل مفصل ودقيق عن ملابس البيزنطيين والأجانب الذين

(١) المصدر السابق ، ص ٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

(٣) م . ن . تيخوميروف ، بيزنطية وروسيا الموسكوبية ، « المجلة التاريخية » ، العدد ١ - ٢ ،

١٩٤٥ ، ص ٩ .

حضرها مراسم التتويج ، وعن موكب الملك الذي دام ثلاث ساعات . الخ .
هذا وأما عن رحلته إلى مدينة القدس فلم يتحدث إيگناتي عنها بشيء من
التفصيل ، ووصفه للمعالم والآثار الدينية ليس له أية أهمية تذكر .

العلاقات بين الأمراء الروس وبيزنطية

كان الناس في القرن الرابع عشر الميلادي في روسيا يعرفون أشياء كثيرة ولهم
إطلاع واسع عن البلدان الشرقية ليس عن طريق السماع والحكاية فحسب وإنما كانوا
يلتقطون المعلومات من أحاديث الرحالة والمسافرين أنفسهم الذين زاروا تلك
الأصقاع . وكان أمراء موسكو على علم بالوضع السيء الذي كان يعيشه الأباطرة
البيزنطيون الذين لم تعد سلطتهم الموهومة حتى نهاية القرن الرابع تشمل في واقع
الأمر إلا مدينة القسطنطينية فقط . أما الحصار الذي ضربه بايزيد على بيزنطية فكان
معروفاً لدى الجميع . وفي هذه الفترة القاسية لبيزنطية بعث الأمير الكبير ديمتري
ايتانوفيتش في سنة ١٣٩٨ بصحبة الراهب روديون أوسليبياتيا مقادير كبيرة من الفضة
(يقصد النقود والعملات الفضية - م.خ .) إلى الإمبراطور . كما وبعث إليه أمير
مدينة تفير ميخائيل اليكساندروفيتش النقود مع الراهب الأقدم دانييل^(١) .

وترجع « حكاية » يسيغاني عن الرحلة إلى مدينة القدس^(٢) إلى نهاية القرن
الرابع عشر أو بداية القرن الخامس عشر .

زواج ملكي

وردت في أحد المصنفات أخبار عن هزيمة الترك بيد تيمور في مشارف أنقره في

(١) « المجموعة الكاملة للمدونات الروسية » (مدونة صوفيا الثانية) ، المجلد ٦ ، ص ١٣٠ . (ان
هذا الراهب هو غير رئيس الدير الرجال دانييل الذي مر ذكره - المترجم)
(٢) يتطرق س . سونوماريوف إلى هذه القصة في مقال له في مجموعة قسم اللغة الروسية وآدابها ، المجلد
١٧ ، العدد ٢ ، من منشورات أكاديمية العلوم ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٧ ، ص ٥ .

سنة ١٤٠٢ الميلادية : « وفي نفس السنة (٦٩٠٩) أرسل الملك تيمور أكسك ابنه للقتال إلى تساريغراد (القسطنطينية) ، وقد قاتل الترك ثم رجع إلى بلاده »^(١) .

وكانت الحروب التي استغرقت خمسين سنة في مشارف أنقرة قد أرجأت في الواقع سقوط بيزنطية ، ومع ذلك ظل وضعها صعباً للغاية . لذلك كان توثيق العلاقات بين روسيا والاباطرة البيزنطيين من القضايا الملحة . وكان أحد مظاهر توثيق هذه العلاقة كما يقول مصنف المذكرات زواج الأمير إيثان مانوييلوغيچ ابن الأمبراطور مانويل باليولوك بابنة الأمير الكبير فاسيلي ديميتريغيچ المسماة آنا : « قدم الأمير الكبير فاسيلي ديميتريغيچ ابنته آنا من تساريغراد إلى ابن القيصر إيثان مانوييلوغيچ »^(٢) . ويعيد ن.م. كارامزين في ضوء الأخبار والمعلومات البيزنطية تاريخ هذا الزواج إلى سنة ١٤١٤ الميلادية^(٣) .

رحلة زوسيا

كان راهب دير ترويتسه - سيرغييفسكي المدعو زوسيا ضمن الحاشية المرافقة لأننا إلى القسطنطينية . وكان الرجل يقوم برحلته الأولى إلى الشرق ، أما رحلته الثانية^(٤) فكانت في سنتي ١٤١٩ - ١٤٢٠ الميلاديتين ، وقد تم الاحتفاظ بأخبارها فيما بعد .

والطريق الذي سلكه زوسيا يبدأ من موسكو إلى كييف ، ثم إلى أكبرمان ، وعن طريق البحر وصل إلى القسطنطينية . ثم توجه زوسيا بعد ذلك إلى أيون ، وزار خيوس ، وساموس ، وفي نيسان سنة ١٤٢٠ الميلادية وصل إلى مدينة القدس . وبعد سنة عاد إلى القسطنطينية ثانية ، وأقام فيها بضعة أشهر . والجدير بالملاحظة هو أن

(١) « المجموعة الكاملة للمدونات الروسية » (مدونة صوفيا الثانية) ، المجلد ٦ ، ص ١٣١ .

(٢) « المجموعة الكاملة للمدونات الروسية » (مدونة نوفكورد) ، المجلد ٤ ، ص ١١٣ .

(٣) ن.م. كارافرين ، تاريخ الدولة الروسية ، ص ٥ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨١٧ ، ص ٢١٧ ، ٤٩٣ (الهامش ٢٣١) .

(٤) « مسيرة الراهب زوسيا » ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد خ.م. لوباريق ، المجلد

٨ ، النشرة ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٩ .

الرحال زوسيا هو السائح الروسي الأخير الذي ترك وصفاً للقسطنطينية في فترة حكم الأباطرة البيزنطيين .

والسائح زوسيا لا يصف « الأماكن المقدسة » فحسب ، وإنما يصف مظاهر كثيرة أخرى من آثار ومعالم تساريغورود (القسطنطينية) : يتكلم عن نصب جوستينيان وهو في هيئة فارس ، وعن ميدان سباق الخيل ، والنصب الحلزوني النحاسي ذورؤوس تجسد شكل الأفاعي . ويشير إلى أن : « تساريغورود تتكون من ثلاث زوايا ، ومن سورين في جانب البحر ، والثالث في الجانب الغربي ، وهي مدرجة وممتينة »^(١) . وفي الجهة المقابلة « مكان يسمى بأسكودار » يقع فيه سوق تجاري « يأتي إليه الأتراك وأناس من أقطار أخرى كال يونانيين والفريازوفيين ويتاجرون بعضهم مع البعض الآخر »^(٢) . فالإشارة الأخيرة تشهد على وجود العلاقات التجارية بين سكان بيزنطية والأتراك ، وعلى أن البيزنطيين كانوا يتجنبون السماح للترك بالدخول إلى القسطنطينية للمتاجرة .

ويصف زوسيا جزيرة مرمرية في طريقه إلى أبون : « يحصل أهالي تساريغراد (القسطنطينية) على المرمر في تلك الجزيرة ، ثم يقطعونه ويشدّبونه ، ويزينون به أرضيه الكنائس والقصور في تساريغراد »^(٣) .

ومن بين الأسماء التي يعدها يذكر اسم اثنين وعشرين ديراً في أبون ، ومن بينها دير روسي باسم يانتيليموس المقدس . وبعد زيارة زوسيا لسالونيك توجه إلى مدينة القدس .

عانى السائح صعوبات كبيرة في سيره من سواحل فلسطين إلى مدينة القدس ، وتعرض لغارات العرب أكثر من مرة . ثم سافر زوسيا من مدينة القدس إلى يافا ، وتوجه من هناك عن طريق البحر إلى قبرص ، وكانت عاصمتها « مدينة كبيرة وهي

(١) المصدر السابق ، ص ٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٣) من المعلوم أن وجود المرمر (الرخام) الأبيض منذ أقدم الأزمنة في جزيرة مرمرية قد منح الاسم إلى

الجزيرة وإلى البحر في آن واحد .

العاصمة ليفكوسيا (يقصد نيكوسيا - م. خ) . كان يدبر الجزيرة « أمير كاثوليكي أجنبي » .

وتعرضت السفينة التي كان على متنها زوسيا إلى هجوم القراصنة في طريقها إلى جزيرة ليسبوس . ونهبوا زوسيا نفسه « وقد بقي في ملابسه الداخلية فقط » . ومن ليسبوس توجه إلى تساريغراد ، ومن هناك عاد إلى الوطن . ولم يذكر شيئاً عن المرحلة الأخيرة من رحلته .

وتوضح « مسيرة » زوسيا الاهتمامات المتنوعة والمختلفة للرحال الروسي . فهو يتكلم عن جمع الضرائب على الحدود ، ويذكر أخباراً ومعلومات ذات طابع تاريخي ، ويتوقف عند مناسك وطقوس الديانة المسيحية ، فيقول بهذا الصدد : « لقد شاهدنا أرضاً وجبالاً لم نسمع عنها من الناس ، ولم توصف في الكتب ، ومررنا بسواحل بحار كثيرة » . ويمكن للمرء أن يستنتج من هذا بأن الطريق إلى فلسطين في القرن الخامس عشر كان معروفاً لأجدادنا عن طريق الكتب . وفي أثناء الرحلة كانوا يحاولون زيارة الأماكن التي قرأوا عنها في الكتب ، واهتموا بجغرافية تلك الأصقاع التي كانت تتصل بالأساطير المتعلقة بحياة المسيح في الأرض^(١) . وكان قد سافر مع زوسيا جماعة من التجار من كييف عن طريق نهر بوغ وديستر إلى فالاكيا ، ثم إلى البحر الأسود . وقد استمرت الرحلات بعد ذلك إلى القسطنطينية وكانت كثيرة جداً لأمر تتعلق بالمطرائية ، ولم تتوقف إلا في الوقت الذي سيطر فيه الترك على المدينة .

رحلة فاسيلي

وردت أخبار احتلال مدينة تساريغراد (القسطنطينية) بصورة وافية ومفصلة في كتاب نيسطور اسكندر المسمى « قصة الاستيلاء على تساريغراد » ، وقد كتبه بدون شك شاهد عيان^(٢) . ومن المؤكد أن استيلاء الترك على القسطنطينية لم

(١) [٢٠١ . بيليبيف ، حول المعلومات والأخبار الجغرافية في روسيا القديمة ، « نشرة الجمعية الجغرافية الروسية » ، الكتاب ٦ ، ١٨٥٢ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢) « المجموعة الكاملة للمدونات الروسية » (مدونات البعث والنشر) ، المجلد ٨ ، ص ١٢٨ - ١٤٤ ، أثار الكتابات القديمة والفن . « قصة عن تساريغراد (قصة تأسيسها واستيلاء الترك عليها في سنة

يضعف وإنما دفع موسكو إلى الاهتمام بالشرق بصورة أكثر ، وأدرك الروس بشكل واضح وجلى مدى المخاطر التي يشكلها عدوان الدولة التركية على روسيا . وقد حدث هذا الأمر فعلاً حينما ضمت تركيا القرم إلى أراضيها وأخضعتها لسلطتها في سنة ١٤٧٥ .

ولم يقتصر الاهتمام بالشرق على موسكو الرسمية ، وإنما أبدت الأوساط الدينية ورجال المال والتجار الاهتمام نفسه أيضاً . وهكذا كان الروس يسافرون إلى تركيا قبل مدة طويلة من إقامة العلاقات الدبلوماسية . ولقد وصلنا وصف رحلة الزائر قاسيلي وهو دليل على وجود تجارة مزدهرة مع المناطق الداخلية لآسيا الصغرى . وكان الزائر قاسيلي^(١) قد توجه إلى تساريغراد (القسطنطينية) ، وبروسية في سنتي ١٤٦٥ - ١٤٦١ ومرّ بآسيا الصغرى ، وفلسطين ، فوصل إلى القاهرة بعد مائة يوم من خروجه من بروسية^(٢) .

وتوجه من القاهرة إلى مدينة القدس ، ثم عاد إلى بروسية ثانية ؛ ومرّ في طريقه بحلب ، وانطاكيا ، وأدنه ، وايريغلي ، وقونية ، وآق شهر ، وقره حصار ، والطريق الذي سلكه قاسيلي لم يكن معروفاً لأي رحال روسي من قبل . وبهذا الشكل وخلال ثمانية أشهر من التجوال والاسفار زار وأقام قاسيلي في جميع مدن آسيا الصغرى تقريباً . وقد وصف مواقعها ، وأنهارها ، وشبكات قنوات الري فيها ، وحماماتها ، وأسواقها التجارية ، وخاناتها (كاروان سراي) . وكانت تحصينات المدن من أكثر المظاهر التي جلبت اهتمامه ، منها : الأسوار ، والبوابات الحديدية ، وساحات الرمي ، والخنادق وما شابه ذلك . . . ويشير قاسيلي إلى سكان المدن التي مرّ بها كذلك . وهكذا وعلى سبيل المثال يذكر بأنه يعيش في مدينتي طرطوس وميرزوقان

١٤٥٣) نيتور اسكندر في القرن الخامس عشر « ، من أخبار أرشمنديت (رئيس الأساقفة) ليونيد ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٦ .

(١) « مسيرة الزائر قاسيلي ١٤٦٥ - ١٤٦٦ » ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد رئيس الأساقفة

ليونيد ، المجلد ٢ ، النشرة ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٤ .

(٢) امتد طريقه خلال المدن : بروسية ، ويني شهر ، وبولا ، وتوسيا ، وعشائريك ، وميرزوقان ،

وأماسيا ، وتورخال ، وتوكات ، وسبواس ، وعينتاب ، وحلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ، « الرملة » ، وغزة ، والقاهرة .

عدد كبير من الأرمن وقليل من الترك . أما في سيواس « فيعيش المسيحيون »^(١) والأرمن ، غير أن عدد الترك قليل وأما في مدينة حماة فعدد المسيحيين كبير وفي مدينة حمص يعيش عدد قليل من العرب في حين يكثر عدد المسيحيين فيها .

ويصف فاسيلي بأسلوب معبر بهيج المنظر الخارجي للمدن : « تقع مدينة أماسيا على الجبال ، وهي جبال عالية جداً ، فيها سبع مدن متحدة تؤلف مدينة واحدة ، وحول الجبال هنالك سبع مدن أخرى ، وهذه المدن كبيرة جداً ، فيها نهر كبير يجري بمحاذاة السور ، وتحصل بيوت المدينة كلها على الماء من ذلك النهر الذي تدور الدواليب عليه وهي توزع الماء . . . »^(٢) .

ثم يقول فاسيلي عن مدينة عينتاب : « تقع هذه المدينة في أرض سهلة منبسطة ، وتنتصب الجبال العالية حولها كالحائط المبني من الصخور ، وفيها ثلاث بوابات حديدية ، وتتركز التحصينات فيها على الجدران الضخمة ، أما أحياء المدينة وقطاعاتها فهي كبيرة ، والقصور والحمامات كثيرة وجيدة ، والتجارة واسعة ومزدهرة »^(٣) . وأما مدينة حلب فهي كبيرة إلى حد كانت تُرى على بعد مسيرة ثلاثة أيام .

وعندما يصف الشام (دمشق) بخطأ الرحال في تسمية النهر الذي يجري داخل المدينة ، ولا يسميه بردى وإنما الفرات : « إن نهر الفرات نهر عظيم وهو يجري أمام جميع الدور ، والمنازل ، والحوانيت ، وكذلك أمام الشوارع ، والخانات ، وهو يجري بالقرب من القرى والحقول . وهناك في المدينة حوانيت كثيرة ، وحمامات جمّة ، والتجارة فيها مزدهرة »^(٤) .

وقد أدهشت مدينة القاهرة فاسيلي بضخامتها وكبرها : « إن مصر (القاهرة) مدينة كبيرة جداً ، فيها ١٤ ألف شارع ، وفي كل شارع بوابتان ، وميدانان للرماية ،

(١) نعتقد بأن الرحال فاسيلي يقصد بالمسيحيين الإغريق الأرثوذكسيين .
(٢) « مسيرة الزائر فاسيلي ١٤٦٥ - ١٤٦٦ » ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية « إعداد رئيس الأساقفة ليونيد ، المجلد ٢ ، النشرة ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣ - ٤ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٦ .

وكذلك حارسان يشعلان زيت القناديل ، وفي بعض الشوارع يقدر عدد المنازل بخمسة عشر ألف منزل ، وفي شوارع أخرى يبلغ العدد ثمانية عشر ألف دار ، وفي كل شارع سوق تجاري كبير ، والشوارع منعزلة بعضها على البعض الآخر ، ولا يعرف شارع عما يجاوره شيئاً^(١) .

ولرحلة قاسيلي أهمية كبيرة لأن السائح مرّ بجميع أنحاء آسيا الصغرى ، ووصف بإيجاز المناظر الخارجية لكافة المدن التي قام بزيارتها أو أقام فيها ، غير أنه تطرق إلى التركيب الداخلي للمدن بدرجة أقل . ويتناول أيضاً الحياة الاجتماعية ، والحالة الاقتصادية للمدن التي مرّ بها .

رحلة قارسونوفي

قام الراهب قارسونوفي في منتصف القرن الخامس عشر برحلتين إلى الشرق (في سنة ١٤٥٦ ، وفي سنتي ١٤٦١ - ١٤٦٢) . فقد زار القسطنطينية ، وفلسطين ، ومصر ، وجبل سيناء^(٢) .

وكان اهتمام قارسونوفي بصورة أساسية بالمواقع التي لها صلة بالأساطير المسيحية . فهو يبحث ويدرس طوبوغرافية مدينة القدس والقاهرة ، ويتناول أحياناً عالم الطبيعة ، وعالم الحيوان بالوصف . وهكذا وعلى سبيل المثال يقول عن شجرة النخيل : « رأيت أشجاراً تثمر شيئاً عذباً عجيباً ، كما ورأيت أشجاراً أخرى لم أتمكن من معرفة أسمائها » . ويتكلم عن « حيوان ليوت » الذي شاهده بنفسه (كان هذا الحيوان هو التمساح على ما نظن) .

خرج قارسونوفي في رحلته الأولى من كيبث وعن طريق بيلگورود (دنیستر وفسكي) فوصل إلى تساريگراد ، ثم توجه إلى كريت ، وروودوس ،

(١) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٢) « مسيرة الراهب قارسونوفي إلى المدينة المقدسة أورشليم في ١٤٥٦ و ١٤٦١ - ١٤٦٢ » ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد س . و . دولكوف ، المجلد ١٥ ، النشرة ٣ ، موسكو ، ١٨٩٦ .

وقبرص ، ولاوديكييا ، وطرابلس ، وبيروت ، ودمشق . ومن دمشق سافر إلى مدينة القدس ، واللد ، والرملة « حيث يعيش فيها عدد كبير من الناس : السريان ، والمسيحيين ، والآثوريين ، والإغريق الأرثوذكس ، والمسلمين » . أقام فارسونوفي في مدينة القدس مدة شهرين .

وبعد مرور خمس سنوات قام فارسونوفي برحلته الثانية إلى الشرق . وعن طريق بيلگورود ، وتساريگراد ، وغاليبولي ، وكريت ، ورودوس ، وقبرص وصل فارسونوفي إلى مدينة دمياط ، ثم صعد مع مجرى النيل حتى وصل إلى القاهرة حيث عاش فيها ستة أسابيع : « ان مدينة مصر الكبيرة تقع على أرض منبسطة بالقرب من جبل ، وإن عرض المدينة ميلان ، وطولها ١٢ ميلاً . ويجري فيها نهر هو من أنهار الجنة ، النيل الذهبي ، وللنهر اسم آخر هو گيون »^(١) . ثم توجه فارسونوفي من القاهرة إلى سيناء .

ويعتبر فارسونوفي أول سائح روسي يدخل سيناء . ويصف طريقه من القاهرة إلى سيناء على النحو التالي : « وعند مسالك جبل سيناء ، كان المرء يشاهد مجموعة كبيرة من القوافل تقدر بعشرة آلاف جمل ، وناساً كثيرين . وقد استغرقت المسيرة خمسة عشر يوماً » . والملاحظ أن فارسونوفي لا يبالغ في عدد القوافل ، فقد ذكرت طائفة كبيرة من الرحالة والسياح الغربيين مثل هذه الأعداد الضخمة للقوافل أيضاً .

رحلة أفاناسي نيكيتين

زار القسم الشمالي الشرقي من آسيا الصغرى أفاناسي نيكيتين وهو من مدينة تشير . قام برحلته الشهيرة المعروفة باسم « مسيرة في ما وراء البحار الثلاثة » ، ففي طريق عودته من الهند عرج على مدينة تبريز . وكانت المدينة في ذلك الوقت مركزاً قديماً لالتقاء طرق القوافل وأكبر مركز لتجارة القوافل في الشرق الأدنى ، وكانت تبريز في ذلك الوقت من ممتلكات أوزون حسن ، أو حسن بك رئيس القبائل التركمانية آق قوينلو . ويذكر أفاناسي نيكيتين بأنه توجه من تبريز إلى أورطة (مركز دولة - م . خ .)

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩ (بالأرقام الرومانية) .

حسن بك ، وذلك لأنه لم يكن هناك طريق آخر ، و« قد أرسل حسن بك على سلطان الترك من عساكره أربعين ألفاً فاستولوا على مدينة سيواس ، وكذلك سيطروا على توكات وأحرقوها ، واستولوا على أماسيا ونهبوا فيها قرى كثيرة » . ثم خرج من الأورطة ، وعن طريق أرزنجان توجه أفاناسي نيكيتين إلى طرابزون^(١) وهي تقع تحت سلطة الترك العثمانيين الذين كانوا في عداء وخصام مع القبائل التركمانية آق قونيلو . ثم توجه السائح من طرابزون عن طريق البحر إلى كافا ، وبعد خمسة أيام من الإبحار بلغ رأس قاناد ، غير أن العواصف الشديدة أرغمته على العودة إلى پالاتان حيث مكث فيها خمسة عشر يوماً .

وهكذا نلاحظ أن الروس زاروا حتى نهاية القرن الخامس عشر الكثير من بلدان الشرق الأدنى ، فجمعوا عنها معلومات وأخباراً لا يستهان بها . غير أن معلوماتهم عن آسيا الصغرى ، وسوريا ، وإلى درجة ما عن مصر كانت معروفة وغزيرة جداً .

أمين صندوق أمير بسكوف

زار مصر في نهاية القرن الخامس عشر في سنة ١٤٩٣ أمين صندوق الأمير الكبير ميخائيل كريكوريث الذي عين فيما بعد في منصب الكاتب الأول للإمارة الكبيرة في مدينة بسكوف في سنوات (١٥١٠ - ١٥٢٨) ، وكان أحد الأكثر ثقافة من بين الناس المثقفين في روسيا الموسكوبية^(٢) .

(١) أفاناسي نيكيتين ، « مسيرة في ما وراء البحار الثلاثة » ، إعداد الأكاديمي ب . د . كريكوف والعضو المراسل في أكاديمية العلوم السوفياتية ف . ب . أدريانووف - بيرينتس ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٨ . يكتب أفاناسي نيكيتين بأنه توجه من الأورطة إلى آرتستين (أرزنجان) ثم إلى طرابزون . إلا أنه من المعروف أن الطريق القديم إلى طرابزون المسمى بطريق « جنوه » - الطريق الجنوبي هو ليس خلال أرزنجان وإنما خلال أرضروم . وقد اختار نيكيتين على أغلب الظن الطريق الآخر ، ومن الجائز وردت عن طريق الخطأ تسمية أرضروم بأرزنجان .

(٢) إ . ي . كراچكوفسكي ، مقالات في تاريخ الاستعراب الروسي ، موسكو - لينينغراد ،

١٩٥٠ ، ص ١٨ .

سفارة بليشيف

قام ممثلو الهيئات الرسمية والديبلوماسية وطائفة من السعاة والرسول بشكل منفصل برحلات إلى بلدان الشرق الأوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بجانب رحلات رجال الدين والناس الاعتياديين التي كانت مستمرة . وخلال هذه الفترة توجهت إلى تركيا لأغراض مختلفة ٣٩ بعثة . وكانت البعثات تُكَلَّف بالإضافة إلى إنجاز الشؤون الرسمية للدولة القيام بجمع المعلومات المختلفة والمتنوعة عن البلدان بموجب « التعليقات » الصادرة في موسكو . وهكذا منذ هذا الوقت أصبحت الوثائق الرسمية الكثيرة في روسيا الموسكوبية من المصادر المهمة والرئيسية لدراسة الأمبراطورية العثمانية ، إلا أنه لم ينشر لحد الآن سوى الجزء القليل من هذه الوثائق ، وإنما نجد من بين تلك المصادر التي لها أهمية كبيرة تلك المسماة « كشوف إحصائية » فالوثائق هذه تعرفنا بمغزى السياسة الخارجية الروسية مع تركيا ، وكذلك بالأحداث الداخلية لحياة الناس فيها ، وواقعها الاجتماعي . فالكشوف الإحصائية تحتوي على بعض المواد والمعلومات المتعلقة باقتصاد وجغرافية تركيا^(١) .

ترجع السفارة الروسية الأولى إلى القرم وتركيا إلى السنوات ١٤٩٦ - ١٤٩٨ وهي سفارة م . أ . بليشيف^(٢) الذي ترك نشاطه أثراً بارزاً في تاريخ العلاقات بين روسيا وتركيا . توجه بليشيف في شباط سنة ١٤٩٧ عن طريق نهر دون وبحر آزوف إلى كafa ، لأن الطريق عبر ليتوانيا كان مسدوداً . وقد حمل بليشيف أوراق اعتماده إلى السلطان ، وردت فيها عن رغبة الحكومة الروسية في إقامة الصداقة وحسن الجوار مع تركيا وتنسيق التبادل الديبلوماسي بشكل دائم . وفي الأمر المقدم إلى بليشيف

(١) تحفظ في أرشيف الدولة المركزي للوثائق القديمة في الاتحاد السوفياتي وثائق وهي تتألف من أوامر السفارة عن العلاقات الديبلوماسية بين روسيا والأمبراطورية العثمانية .

(٢) م . ن . كارامزين ، تاريخ الدولة الروسية ، المجلد ٦ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨١٧ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ . آثار العلاقات الديبلوماسية لروسيا القديمة مع الدول الأجنبية ، مجموعة الجمعية التاريخية الروسية ، المجلد ٤١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٤ ، ص ٢٣١ - ٢٣٦ ، ٢٤١ - ٢٤٩ ، أ . نيكليودوف ، بداية العلاقات بين روسيا وتركيا . سفر يوان الثالث بليشيف ، مجموعة الأرشيف الرئيسي لوزارة الشؤون الخارجية ، النشرة ٣ ، موسكو ، ١٨٨٣ .

استدراك عن سلوك وتصرفات السفير في بلاط السلطان : « أن ينحني وهو واقف ، وأن لا ينحني على ركبته » وينبغي أن يتكلم مع السلطان وحده ، وليس مع باشواته . نفذ بليشيف الأمر بدقة ، وتصرف باستقلال مقرون بالعزة والكرامة ، وحاول أن لا يهين بأي شكل من الأشكال كرامة الأمير الموسكوبي الكبير . وقد امتنع عن الزيارة التمهيدية للباشا ، وقبول هداياه وصرح بحزم : « ليس لي أي كلام مع الياشوات ، أنا لا ألبس ملابس الياشوات ولا أريد نقودهم ، ومن الضروري لي أن أتكلم مع السلطان وحده ، ولا مكان لرجل آخر بيننا نحن الأباطرة » . وامتنع كذلك من تنفيذ المتطلبات التي من شأنها أن تقلل من قيمته كالانحناء على الركبة أمام السلطان . ولا شك بأن تصرف بليشيف لم يكن إعتيادياً في ذلك الزمان . ومن الواضح أن سفراء بقية الدول كانوا ينفذون جميع المتطلبات التي كان الترك يرغبون في تنفيذها وهي تقلل من شأنهم . فقد كتب كارل ماركس عن سفارة بليشيف في « الدبلوماسية السرية » : « إن السلطان بايزيد الذي كانت أوروبا ترتعش أمامه ، سمع بنفسه لأول مرة كلاماً متغرساً من أحد الموسكوبيين »^(١) .

سفارة گولوخفاستوف (اليكساندر وبوريس)

لا نبغي الوقوف عند العلاقات السياسية والاقتصادية بين روسيا الموسكوبية وتركيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . غير أن تثبيت السلطة التركية في القرم ، وآزوف ، واقتراب الترك من القفقاس الشمالية جعلت من تركيا جارة لروسيا الموسكوبية ، جارة معتدية وخطرة . وكانت هذه الجيرة مبعثاً للاحتكاك والتصادم بين روسيا الموسكوبية والأمبراطورية العثمانية ؛ وبرغم ذلك كانت هناك علاقات تجارية بين البلدين ، إلا أنه مما يؤسف له هو عدم وجود معلومات وأخبار عن نشاط التجار الروس في كافا ، وآزوف ، وبروسه ، والقسطنطينية ، ولكن زياراتهم لتلك الأماكن أصبحت من الأمور الواضحة في الأمثلة والنماذج الواردة في « مسيرة » التاجر قاسيلي على الأقل .

(١) « القاموس الدبلوماسي » ، المجلد ٢ ، العمود ٤١٦ ، موسكو ، ١٩٥٠ .

وتوجهت إلى تركيا سفارة اليكساندر گولوخفاستوف في سنة ١٤٩٩ . وسافر بصحبة السفير تجار حملوا معهم بضائعهم ، وكانت سلعهم وبضائعهم تتألف من عدد الفروسية ، والسروج ، والفرو ، والجنفاص . أما مهمة السفارة فكانت تتعلق بحل القضايا التجارية بين البلدين . ثم توجهت إلى هناك في سنة ١٥١٥ سفارة بوريس گولوخفاستوف كذلك .

سفارة كوروبوف

كانت قد صدرت أوامر خاصة إلى سفير آخر هو فاسيلي أندرييتش كوروبوف (١٥١٥ - ١٥١٦) للقيام بدراسة الوضع السياسي لتركيا : « يجب على فاسيلي في أزوف أن يحاول معرفة الأشخاص المقربين من سلطان الترك ، أين هو الآن ، وما هي علاقته بالقزلباش ، وهل هو خالي البال وسعيد على أرضه أم لا . وكل ما يشاهده فاسيلي من القضايا والمشاكل هناك ، وينبغي عليه أن يكتب عنها وعن كل شيء إلى الأمير الكبير بشكل خاص »^(١) . كانت توجه مثل هذه الأوامر إلى السفراء الآخرين أيضاً . وقد دوت وحفظت جميع المعلومات التي كان السفراء يحصلون عليها بشكل دقيق ومنتقن في مصلحة السفارة في موسكو . وإن عدداً كبيراً من السفارات « كانت لها الدور الواضح في توسيع الأفق الجغرافي للروس الذين كانوا يعيشون في ذلك العصر ، وكانت شهوداً على الاهتمام الزائد بكثير من الأشياء الواقعة على الحدود أو التي تحدث بالقرب من إقليم موسكو »^(٢) . ووردت أيضاً معلومات وأخبار عن البلدان الشرقية من رجال الدين الذين كانوا يقدمون إلى روسيا لجمع « الصدقات » لأديرة أيون ، ومدينة القدس ، والقسطنطينية ، وكذلك من التجار الذين يقدمون إليها من الشرق .

(١) آثار العلاقات الدبلوماسية ، منتخبات الجمعية التاريخية الروسية ، المجلد ٩٥ ، سانت بطرسبورغ ، ١٨٩٥ ، ص ١٠٩ ، ١١٢ .
(٢) د . م . ليبيدوف ، الجغرافيا في روسيا في القرن السابع عشر ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٩ ، ص ١٧٥ .

حجاج إلى القدس

وردت في المصنفات ، والمدونات ، والسجلات النوفكوروبدية بأنه في ٢٤ تموز سنة ١٥٥٨ خرج من موسكو إلى تساريغراد (القسطنطينية) القس كينادي مع الزائرين مستوحا ، وأندريه ، وياكوف ، وقد امتد طريق بعثة كينادي خلال سمولينسك ، وليتوانيا و« أرض قولينسكي » إلى تساريغراد (القسطنطينية) . وكان من المقرر أن يتوجه المسافرون من تساريغراد إلى مدينة القدس ، ومصر ، ثم إلى أيون وذلك لتوزيع صدقات القيصر على الأديرة ، والقيام بوصف جميع ما يشاهدونه في تلك البلدان «^(١) . وكان ضمن حاشية كينادي التاجر قاسيلي بوزنياكوف وابنه ، وهو تاجر من سمولينسك كان يرتبط بعلاقة تجارية مع موسكو ، وترك فيما بعد وصفاً لرحلته «^(٢) .

رحلة بوزنياكوف

قام قاسيلي بوزنياكوف برحلته المقبلة بصحبة ابنه وشيخين كبيرين في السن ، والمترجم موسى . فقد توجه من القسطنطينية إلى الاسكندرية ، ثم وصل القاهرة في تشرين الأول سنة ١٥٥٩ ، وزار سيناء ، ثم عاد إلى الإسكندرية ، وفي كانون الأول سنة ١٥٥٩ توجه عن طريق البحر إلى فلسطين فأقام فيها ثلاثة أشهر . وعاد إلى موسكو في نيسان سنة ١٥٦١ عن طريق القسطنطينية . ولقد وضع تقريراً عن رحلته بين يدي إيفان الرابع ، غير أن التقرير لم يصلنا . وإن هذا التقرير كان يتضمن أحاديث عن حياة وواقع شعوب البلدان التي زارها قاسيلي وقد كتب بناء على طلب القيصر .

هناك في « مسيرة » بوزنياكوف وصف شيق للسفرة من القاهرة إلى جبال سيناء

(١) « المجموعة الكاملة للمدونات الروسية » ، (مدونة نوفكوروبد الثانية) ، المجلد ٣ ، ص ١٥٩

(٢) « مسيرة التاجر قاسيلي بوزنياكوف إلى الأماكن المقدسة في الشرق » ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد د. م. لوساريث ، المجلد ٦ ، النشرة ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٧ .

خلال الصحراء : « الطريق من مصر حتى جبال سيناء عبارة عن صحراء .
والصحراء هناك لا تشبه صحارى بلادنا . لا وجود للغابات في صحاراهم ، ولا
الأعشاب ، ولا الناس ، ولا الماء . سرنا ثلاثة أيام في الصحراء ، ولا يوجد أي شيء
هناك غير الرمال والصخور »^(١) . ومما يجلب الانتباه أيضاً هو أسلوب السفر والرحلة في
الصحراء العربية : « يمكن السفر على ظهور الإبل حتى جبال سيناء . . . يجلس
شخصان على جمل واحد جنباً إلى جنب ، ويحملون غذاءهم معهم ، ويحفظون الماء
في القرب الجلدية على ظهور الإبل ، والحمل يزن أكثر من عشرة أرتال^(٢) ، ويحملون
معهم من الخبز المجفف بمقدار قنطار واحد للشخص ، والقنطار يزن ثلاثة أرتال
بحسابنا . ويقدم العرب الفول المجفف غذاءً للإبل ، ولا يسقونها بالماء لمدة ثلاثة
أيام »^(٣) .

كان بوزنياكوف مراقباً رقيقاً ودقيقاً . يحدثنا على سبيل المثال بأن البواخر
القادمة من الهند إلى مرفأ رايف على البحر الأسود « مصنوعة بدون مسامير حديدية ،
وقد خيطت بحبال من سعف النخيل ، وطلبت بالقطران الساخن »^(٤) . واهتم في
مدينة القدس بأساليب تزويد المدن بماء الشرب : « تمطر الأمطار في مدينة القدس من
موسم الحرث والبذر (الحريف) حتى ميلاد المسيح ، أما في الربيع والصيف فلا
وجود للمطر . ينزل المطر على مبانيهم ، والمباني والبيوت عندهم متلاصقة ،
وسطوحها منحنية إلى الأسفل ، وفي فناء كل دار هناك بئر ، والبئر حفرة في الأرض ،
والأرض صخرية . وهناك في تلك الآبار مياه طوال أيام السنة ، وهي لا تفسد ،
وتتجمع من الأمطار »^(٥) .

(١) كان الروس في القرن السادس عشر يقصدون بلفظة « بوسينيا » وهي الصحراء (الأديرة ،
والمناسك ، والمنزل المعزلة) ، وكلمة « بوسين » تعني (الدبر والمنسك) .

(٢) الرطل هنا ، وبالروسية « بود » هو وحدة وزن زنتها (١٦ ، ٣٨) كيلوغراماً (المترجم) .

(٣) « مسيرة التاجر فماسيلي بوزنياكوف إلى الأماكن المقدسة في الشرق » ، مجموعة فلسطين

الأرثوذكسية ، المجلد ٦ ، ص ١٧ - ١٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٩ - ٣٠ . إن هذه المعلومات القيمة تؤكد بدون شك على أن في

الخمسينيات والستينيات من القرن السادس عشر كانت هناك علاقات تجارية بين الهند والموانئ العربية في
البحر الأحمر . ويمكن الاستنتاج بأنه كان بإمكان السفن العربية والسفن الهندية كذلك أن تتحدى سيطرة

وزعامة الأسطول البرتغالي في البحر العربي .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٧ .

سفارة نوفوسيلتسوف

وردت معلومات مهمة عن الأوضاع في تركيا ذكرها نوفوسيلتسوف في فترة سفارته حينما بعثه إيثان الرابع إلى السلطان سليم بمناسبة حملة الترك ، وتاتار القرم على أستراخان في سنة ١٥٦٩^(١) . ويشير نوفوسيلتسوف إلى أن أخبار المحاولة غير الناجحة لاحتلال أستراخان أصبحت معروفة في مدن فريان : « ان الفريانيين أصبحوا مسرورين ، وأخذوا يقولون فيما بينهم : إذا ما وقف أي كان ضد أمير موسكو الكبير ، إن الله يحفظه من الكفار »^(٢) .

هكذا كان رد الفعل على هزيمة الترك في الانتصار الأول الذي أحرزه الروس .

ولم تكن الرحلات مقتصرة على السفراء والديبلوماسيين فقط في عهد إيثان الرابع إلى تركيا . بل هناك أخبار ومعلومات عن رحلات التجار سيميون بارزونوف ، وتريفون كوروبيينيكوف وهي مشهورة ومعروفة^(٣) . وكان إيثان الرابع قد بعث مع يورى كريك ، والخبير في الشؤون الدينية تريفون كوروبيينيكوف المال لتوزيعه « كصدقات باسم ابنه » في القسطنطينية ، والاسكندرية ، ومدينة القدس . وتتصل بسفرة هذا التاجر عملية انتحال وهي معروفة بصورة جيدة في الأدب الروسي^(٤) . فقد تم ببساطة تحوير « مسيرة » قاسيلي بوزنياكوف فانتشرت بشكل واسع باسم تريفون كوروبيينيكوف^(٥) أكثر من ثلاثمائة سنة .

(١) ن . م . كارامزين ، تاريخ الدولة الروسية ، المجلد ٩ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٢١ ، ص ١٧٨ .

(٢) ن . أ . سميرنوف ، روسيا وتركيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، المجلد ١ ، موسكو ، ١٩٤٦ ، ص ١٧ .

(٣) « المجموعة الكاملة للمدونات الروسية » ، (مدونة توفكوروبود الثالثة) ، المجلد ٣ ، ص ٢٦٣ .

(٤) ل . زابيلين ، مسيرة بوزنياكوف ، المقدمة ، ص ٣-١٠ ، ل . ي . كراجكوفسكى ، مقالات في تاريخ الاستعراب الروسي ، موسكو- لينينغراد ، ١٩٥٠ ، ص ١٧ .

(٥) « مسيرة تريفون كوروبيينيكوف » ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، النشرة ٢٧ (المجلد ٩ ، النشرة ٣) ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٣ ، « قراءات في الجمعية الإمبراطورية للتاريخ والتاريخ القديم الروسي في جامعة موسكو » الكتاب ١ ، ١٨٨٤ (كانون الثاني - آذار) ، القسم ٢ .

رحلة ميشينين وسامسونوف

بعث إيثنان الرابع في وقت متأخر إيثنان ميشينين إلى أيون لأجراء مراسيم الصلاة والدعاء « لصحة ابنه » . وأما في سنة ١٥٨٤ فقد توجه التاجر مارك سامسونوف إلى القسطنطينية وأيون وكان قد أرسل معه « ثلاثون روبلاً للتلاميذ في تساريكراد (القسطنطينية) ، وكان المطلوب منهم أن يستمروا في الدراسة وأن لا يخرجوا من إرادة القيصر وطاعته » . الكلام هنا عن الطلاب الذين أرسلهم إيثنان الرابع إلى البطريرك لتعلم اللغة الإغريقية .

رحلة ناشوكين

كان السفراء الروس في نهاية القرن السادس عشر الميلادي على اطلاع كبير في شؤون الحياة السياسية الداخلية في تركيا . فالسفير ناشوكين الذي سافر من موسكو في سنة ١٥٩٢ على سبيل المثال قد رسم لوحة واضحة عن الوضع السياسي في البلد : « لقد تغير كل شيء في الوقت الحاضر في تركيا ، فالسلطان والباشوات يفكرون في مصالحهم ومنافعهم فقط ، وهم يضاعفون مبالغ الخزينة ويهتمون بها قبل أي شيء آخر ، أما إذا قلنا لماذا ، فالجواب غير معروف ، وهم يخفون الذهب في الصناديق ، ولا يمنحون الرواتب للجيش ، الذي تمرد مؤخراً وزحف على القصر ، وطالب برأس الدفترداد أو أمين الصندوق . . . ولا استقرار في البلاد ، وأما الحقيقة والصدق فهما شيان مفقودان في الدولة . والسلطان ينهب الموظفين ، والموظفون ينهبون الشعب ؛ وهكذا هناك السلب ، والنهب ، والموت ، والقتل في كل مكان ؛ ولا يأتمن الرحالة والسياح على حياتهم في الطرق ، ولا التجار في تجارتهم . وخلت الدبار من الناس من جراء الحروب الإيرانية والعنف الموجود في كل مكان ، وعلى وجه الخصوص في مولدافيا ، وفولوشيا يتم تبديل الحكام والقائمين بولاية الأمر بالرشوة وبشكل مستمر . والإغريق في إضطهاد مخيف ؛ وهم في فقر مدقع ، ليس لهم أي أمل في مستقبل حياتهم »^(١) .

(١) ن . م . كارامزين ، تاريخ الدولة الروسية ، المجلد ١٠ ، ١٨٢٤ ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

رحلة كور وبينيكوف

أرسل الكاتب تريفون كور وبينيكوف للمرة الثانية إلى تساريغراد (القسطنطينية) وجبل أيون في سنة ١٥٩٣ يحمل معه « صدقات الصحة والعافية » . وكان بصحبه ميخائيل أوغاركوث . ولقد أصبحت هذه الرحلة معروفة بفضل الكشف الإحصائي الذي أشير فيه إلى أسماء الأشخاص الذين وزعت عليهم الصدقات أثناء الرحلة^(١) . وإن هذه الوثيقة تختلف عن الوثائق الأخرى لأنها لا تتضمن معلومات وأخباراً عن « الأماكن المقدسة » ، وبخلاف ذلك أنها تحتوي على وصف للطريق الذي يؤدي إلى القسطنطينية ، ووردت فيه معلومات عن المسافات بين المدن ، وعن المناظر الخارجية لها . وبالإضافة إلى ذلك يرد فيه وصف للخانات وهو يتميز ببعض الأهمية .

« أقيمت هناك خيام واسعة للناس القادمين من المسافرين ، وتسع كل خيمة لخمسين شخصاً مع دوابهم وحيواناتهم ؛ ويقدمون لهم الطعام مرتين في اليوم ، ففي الصباح يتناول كل أربعة أشخاص صحناً من الدبس ، وتقدم لكل رجل رغيفاً من الخبز ، وفي المساء يقدمون عصيدة الطحين فيها لكل شخص قطعة من اللحم ، أو صحناً من عصيدة الرشته مطبوخة بدهن البقر ؛ وكانوا يقدمون الشعير للدواب بقدر ما تحتاج إليه . وتكثر عندهم مساكن صغيرة وخانات للنزلاء ، وتوجد في الحارات والطرقات منازل أكثر تناسقاً وتنظيماً ، ويهوى الپاشوات والناس الآخرون في أماكن أخرى مثل هذه المنازل ويؤجرونها للمسافرين ودوابهم ، ويقدمون لهم الأطعمة لمدة ثلاثة أيام كذلك . وأما إذا مكث أحدهم في مكان معين أكثر من ثلاثة أيام فعندئذ لا يقدمون إليه أي شيء » .

وعند تقديم الإجمالية العامة من المعلومات عن بلدان الشرق خلال الفترة من القرن الثاني عشر وحتى القرن السادس عشر ، من الضروري الإشارة إلى أن الرحالة الروس اهتموا اهتماماً كبيراً بالمدن ، ومواقعها ، ومرافقها العامة ، وأسباب الراحة فيها ، وتوزيع المياه على منازلها . وكانت غايتهم الأولى التعرف على قضايا المعيشة

(١) « المكتبة الروسية القديمة » ، المجلد ١٢ ، الطبعة ٢ ، موسكو ، ١٧٩١ ، ص ٤٢٥ - ٤٤٩ .

اليومية ، وظروف الحياة ، وأعمال وحرف السكان .

وتتصف المرحلة الجديدة من التاريخ الروسي التي تبدأ من القرن السابع عشر تقريباً كما يقول ف. إ. لينين^(١) بنهضة الثقافة الروسية . ولا شك أن النهضة الثقافية العامة ساعدت على نمو وتطور المعلومات والمعارف الجغرافية : « وقام الروس بأعمال متنوعة ، ومثمرة ، وتطبيقية في حقل الدراسات الجغرافية كروسيا وبعض البلدان الشرقية المجاورة لها »^(٢) . فكانت بلدان الشرق الأوسط ضمن تلك المناطق .

رحلة سولوفايف - بروتاسيف

كانت العلاقات الدبلوماسية قد انقطعت بين تركيا وروسيا في بداية القرن السابع عشر في فترة حرب الفلاحين ، والتدخل البولوني والسويدي في شؤون روسيا . وقد استؤنفت العلاقات في سنة ١٦١٣ حينما توجهت إلى تركيا سفارة سولوفايف - بروتاسيف وهي تحمل معها خبر ارتقاء ميخائيل رومانوف العرش . ثم توالى سفارات أخرى بعد هذه السفارة . واستمرت السفارة الجديدة لبيترمانسوروف ، والكاتب سامسونوف في السنوات ١٦١٥ - ١٦١٧ في المفاوضات التي كانت سفارة سولوفايف - بروتاسيف قد بدأت بها . ثم وصلت إلى القسطنطينية سفارة البويارين^(*) كونديريث ، والبودياجي^(**) تورموسوف في سنة ١٦٢٢ . كانت هذه الفترة في الواقع حقبة تمرد الانكشارية ، والانقلابات الداخلية في البلاط بين الأمراء وأفراد الأسرة المالكة . وكان الانكشاريون قد قتلوا عثمان الثاني ، فاعتلى العرش عمه مصطفى ، ثم نصب مراد الرابع سلطاناً يحكم الدولة في سنة ١٦٢٣ .

(١) ف. إ. لينين ، مجموعة الأعمال الكاملة ، المجلد ١ ، ص ١٥٣ .

(٢) م. ٢ . ليبديف ، الجغرافيا في روسيا في القرن السابع عشر ، ١٩٤٩ ، ص ٦ .

(*) بويارين : الإقطاعي الذي يملك العقارات الواسعة وينتمي إلى الأوساط العليا في الطبقة الحاكمة

في الدولة الروسية القديمة (المترجم) .

(**) بودياجي : مساعد الكاتب ، ومدير المكتب في روسيا القديمة (المترجم) .

رحلة كوتوف

لقد وجه التجار الروس أيضاً اهتمامهم إلى تركيا ، ففي سنة ١٦٢٣ كتب التاجر الموسكوبي فيودور أفاناسييف كوتوف العائد من الشرق بأنه « من الممكن السفر من أربيل إلى تركيا عن طريق تبريز ، أما إذا أراد المرء الوصول إليها من قزوين فيجب عليه أن يسافر إلى بغداد ؛ وهناك طريق واحد فقط من شماخي إلى كنجه ، وراقان (أريقان أو يريقان) .

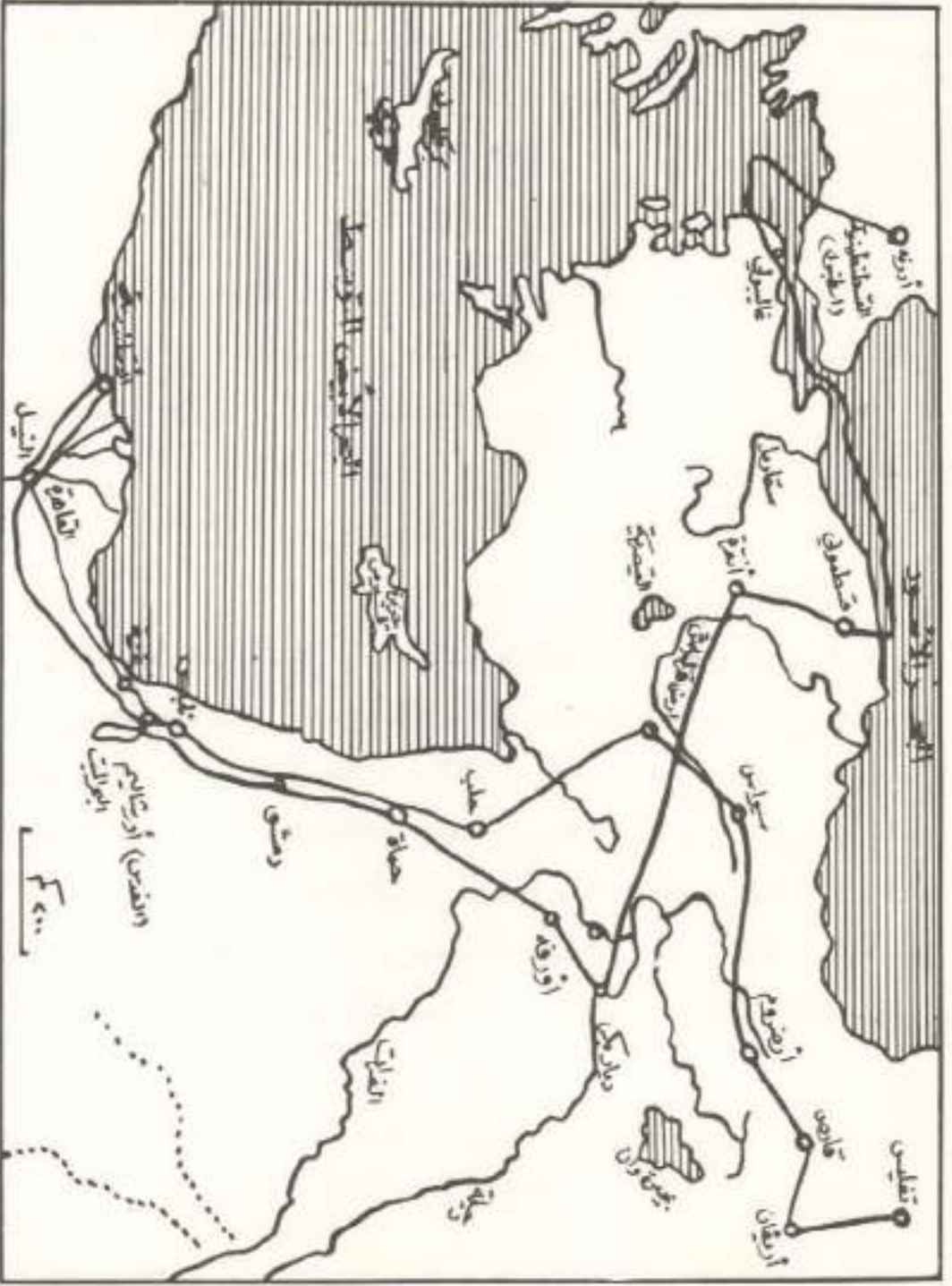
وتشرف على نفس مدينة راقان من الجهة الجنوبية جبال عالية وضخمة جداً ، قممها تشبه القلنسوة . . . ولا يوجد أي منفذ للوصول إلى تلك القمم ، فقد استقر فلك نوح على ذلك الجبل . . . وعندنا يسمون الجبل بأارات «^(١) .

رحلة غاگارا

ذكر التاجر القازاني فاسيلي ياكوفلييف غاگارا^(٢) الذي كان يقوم بأعمال تجارية في الشرق ملاحظات طريفة ومهمة كثيرة عن البلدان الشرقية . فقد سافر من روسيا في سنة ١٦٣٤ وعاد إليها في آذار سنة ١٦٣٧ . ف جلب معه معلومات مهمة عن الشؤون الشرقية إلى موسكو ، وتكرماً لما قدمه من معلومات مفيدة أنعم عليه بلقب ضيف موسكو . ويذكر غاگارا بأن السبب لقيامه بزيارة مدينة القدس هو أداء الصلاة وطلب الرحمة والعفو والغفران عن ذنوبه وخطاياهم . غير أنه يبدو أن الأمر لم يكن كما ذكره هو تماماً . فقد اهتم بالقضايا التجارية أيضاً . ولم يسلك السائح

(١) « عن الرحلة إلى شاهنشاهية إيران ، ومن إيران إلى أرض تركيا وإلى الهند ، وإلى هرمز حيث نحل فيها السفن » ، مجلة جمعية التاريخ والتاريخ القديم الروسي في موسكو ، الكتاب (١٥) ، موسكو ، ١٨٥٢ . إعداد النصوص والمقدمة : إ.د. بيلييف .

(٢) « حياة وسيرة فاسيلي ياكوفلييف غاگارا القازاني (١٦٣٤ - ١٦٣٧) في أورشليم (القدس) ومصر » ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد س. أو . دولكوف ، النشرة ٣٣ (المجلد ١١ ، النشرة ٣) ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩١ . يراجع : « تاريخ الأدب الروسي » ، المجلد ٢ ، القسم ٢ ، موسكو - لينينغراد ، طبعة أكاديمية العلوم السوفياتية ، ١٩٤٨ ، ص ١٢٤ - ١٢٦ .



خط ورسم خالد الخالدي

خارطة طريق كازاخرا

الطريق المباشر المؤدي إلى مدينة القدس ، وإنما انعطف وخرج في جولاته أكثر من مرة من ذلك الطريق ، لذلك دخل « الأماكن المقدسة » بعد سنة كاملة فقط .

وصل گاگارا إلى مدينة القدس عن طريق إقليم القفقاس ، وآسيا الصغرى ، وسوريا ، ثم توجه إلى مصر ، فزار القاهرة ، والاسكندرية ، وسيناء ، وعاد إلى مدينة القدس ثانية . أما طريق عودته فكان خلال السامرة ، ودمشق ، وبيرجك ، وأورفه ، ودياربكر ، وأنقره ، وقسطمونه ، وسينوب . وهكذا عرج على الغرب متتبعاً البحر حتى وصل غاليبولي ، ثم عاد إلى موسكو عن طريق قالاكيا ، ومولدافيا ، وبولونيا ، وكيف . والجدير بالذكر في هذا المجال هو أنه لم يزر أي رحال أو سائح روسي قبله هذه الأصقاع والأراضي الواسعة .

ويصف قاسيلي گاگارا بصورة مفصلة ودقيقة مدينة تفليس ، وجورجيا في ذلك الحين ، ويذكر أساطير عن ياجوج وماجوج الذين حبسهم الاسكندر المكدوني في جبل بالقرب من تفليس . ومن الجدير بالملاحظة هو أن گاگارا يعتبر أول من زود أدبياتنا بوصف لحمامات تفليس : « يستعمل المسيحيون والمسلمون في تلك الآبار الحارة وهي بمثابة الحمامات الليف وليست المكانس (*) لأنهم لا يعرفونها » .

وسافر گاگارا من تفليس إلى يريفان ، وإلى جبال آارات الواقعة على بعد مسيرة يومين من المدينة . ويؤكد گاگارا ان هذه الجبال تقع « في حدود الأرض التركية ، وأرض قزلباش ، وجبال آارات هي اثنتان ، السلسلة الأولى جبل عال ، والثانية جبل واطىء ، وتبرز حوالي تلك الجبال سلاسل أخرى أقل ارتفاعاً من نصف تلك الجبال » .

ثم توجه قاسيلي گاگارا عن طريق أردهان ، وقارص ، وأرضروم إلى سيواس : « تقع سيواس أيضاً بالقرب من الجبال ، وهي رهيبة وضخمة جداً ، عليها ثلوج لا تغيب صيفاً وشتاءً » . وعن أميدونيا يقول : « يجري فيها نهر كبير جداً ، وأما السدة فهي مبنية من الأحجار ، وعلى تلك السدة طاحونة ، ومن الطاحونة تؤخذ المياه

(*) يستعمل الروس نوعاً من أوراق الشجر وهي طيبة الرائحة في غسل أجسادهم حيث يشد عدد من الأغصان بعضه البعض ، ويكون على هيئة مكنسة تقوم مقام الليفة (المترجم) .

بالدواليب وهي على علو ١٢ سازين^(*) من سطح الماء ، ثم يجري الماء من ذلك الدولاب إلى ميزاب حجري ، ومن الميزاب تجلب المياه عن طريق القنوات إلى جميع أنحاء المدينة وضواحيها . وتقع المدينة على جبل عال جميل جداً ، وحوله خندق من الأحجار والصخور ، تجري فيه المياه وعمقه ١٦ سازين . وأما إعجابه بمدينة دمشق فلا حدود له : « أما دمشق فهي أيضاً مدينة تشتمل على ٣٠ ميداناً أو أكثر ، فيها بساتين واسعة ، ومؤسسات جميلة ، وخضراوات غزيرة ، وأشياء أخرى كثيرة لا وجود لها في جميع أنحاء المعمورة ، لا توجد في أي مكان آخر مثل هذه المدينة ، ومثل هذه البساتين . . . » .

أقام غاكارا في مدينة القدس ثلاثة أيام فقط . وحينما علم المطران وطائفة الإغريق بقدوم قاسيلي من أرض موسكو كان سرورهم عظيماً بهذا الحدث ، لأن أي مسيحي آخر لم يزرهم بعد تريفون كورويينيكوف من مثل هذه الدولة البعيدة .

وصادف غاكارا مصاعب جمة في طريقه من مدينة القدس إلى مصر : « أما الطريق إلى مصر [القاهرة] فهو وعمر جداً ، على المرء أن يسير بالقرب من البحر ، وليس بالإمكان السفر على الدواب ، ويستطيع الإنسان أن يسير على أقدامه ، أو على ظهور الأبل ؛ وإن ذلك الطريق يشبه بحراً من الرمال ؛ والعواصف الشديدة تخلق المصاعب من جراء أمواج الرمال ، ولا وجود للماء في هذا الطريق ، لذلك يجلبون معهم الماء في قرب جلدية يحملونها على ظهور الأبل لاستعمالهم الخاص » . وحينما اقترب من القاهرة ، كان إعجابه شديداً للغاية لكثرة المناظر « وعندما تقترب من مصر تظهر لك غابة مظلمة تشمخ فيها قباب مساجد المسلمين . ولا تنبت في مصر أية خضرة عدا قصب السكر ، والنخيل ؛ ولا وجود للبساتين ، ولا الحدائق ، وذلك بسبب الحرارة التي لا حدود لها » .

ويقول غاكارا بأن سوراً حجرياً يحيط بالقاهرة من الخارج ، ومثل هذا السور موجود داخل المدينة أيضاً . يعيش الباشا التركي داخل هذا السور على الجبل

(*) سازين : مقياس للطول يساوي (متر واحد و١٣ سم) (المترجم) .

(يقصد بالجبل القلعة - م . خ .) ، وقد جلبت المياه إلى الجبل حيث يعيش الباشا من نهر النيل : « لقد جلبت من ذلك النهر كيون (النيل) المياه إلى الجبل حيث يعيش الباشا داخل السور الحجري ، وهناك في السور مزارب ، ومن خلال ذلك المزارب يجري الماء من النهر ، ويوجد برج في نهاية السور ، يرتفع الماء إلى ذلك البرج بمعاونة دولا ب ، ويدار ذلك الدولا ب بالجواميس ، ويبلغ عدد تلك الجواميس خمسة عشر » .

وقد جلبت أجهزة التفريغ البدائية اهتمام كساكرا إلى حد بعيد : « في مصر ، وبالأخص في القرى بينون أرضية من الطين (دكة) فوقها مواقد ، وفي كل دكة اثني عشر موقداً . وفي كل موقد صندوق ، وتوضع ٦٠٠٠ بيضة في ذلك الصندوق الذي على الموقد . . . ثم يحمون الموقد بروث الدواب . . . فتولد من هذه العملية أفراس بدون أم . . . » .

كان إعجاب السائح شديداً بخصوبة وادي النيل : « يُزرع القمح ، والشعير ، والدخن بكثرة ، لأن نهر كيون (النيل) يجري في المروج وكذلك في الحقول المزروعة ، ويتوقف وقتاً كثيراً ويرطب الأرض » . وإن طريقة زرع قصب السكر تثير الفضول عند السائح : « ويزرع في مصر القصب الذي يستخرج منه السكر ؛ وهو يغرس بجذوره ، وينزرون عليه دمان الحمام » . أما عن عالم الحيوان فلا يتكلم كساكرا أي شيء تقريباً عدا إشارة عابرة إلى أنه شاهد في نهر النيل « حيواناً بحرياً . . . اسم ذلك الحيوان هو التمساح » .

لم يعر كساكرا أي اهتمام إلى عادات وتقاليد السكان المحليين ، ولا يذكر عنها إلا الشيء القليل جداً . ولعل بعض الطرافة تكمن في وصفه لقدوم الباشا التركي الجديد إلى القاهرة ، فيذكر بهذا الصدد بأنه عند استقبال الباشا يفرشون الطريق بقماش مطرز بالذهب بدءاً ببوابة المدينة وحتى منزل الباشا . ويكون هذا القماش في أكثر من ثلاثمائة قطعة . فيسير على هذا الطريق الباشا وحاشيته ، ثم يرفعون القماش بعد مرورهم عليه . وعن فترات استراحة الباشا واستجمامه يقول : « وإن

إقامته في ذلك البستان تستغرق ثلاثة أيام وثلاث ليالي ، وفي تلك الأيام الثلاثة يقوم الخدم والعبيد بارتداء المعاطف من فرو السمور ، والوشق ، ويشترى الباشا تلك المعاطف من الإغريق ، غير أنه لا يدفع الثمن بل يبقى ديناً عليه .

عاش گاگارا أكثر من سنتين في مصر ، ثم عاد إلى فلسطين ؛ أما عن وصفه لفلسطين فقد ورد بأسلوب الحجيج الاعتيادي المتداول .

ولم يسلك گاگارا في طريق عودته سبيله عبر الأراضي الإيرانية بسبب الحرب التركية - الإيرانية . فقد توجه إلى أنقرة ، ثم عن طريق ساحل البحر الأسود عاد إلى الغرب إلى غاليبولي ، ثم عبر المياه خلال الدردنيل إلى الساحل الأوروبي .

وأخيراً عاد إلى موسكو بسلام بعد أن مرّ بأدرينوبول (أدرنه) ، وماجين ، وياسي ، وكامينيتس - بادولسك ، وكييف . وكان السائح في جميع مراحل جولاته مهتماً بالعلاقات بين القرم وتركيا ، وبين تركيا وموسكو ، وبالأوضاع في إمارات الدانوب . وقد جلبت انتباهه مجالات معينة في النشاط الاقتصادي للناس ، وبالقرب من أنقرة أثارت إعجابه منتجات شعر الماعز الأنغوري^{١٩} ان ذلك الصوف يشبه الحرير .

رحلة سوخانوڤ

سافر إلى الشرق في سنة ١٦٤٩ بانسي دير بوغويافلينسكي آرسيني سوخانوڤ . وكان عليه أن يقوم بدراسة العادات والتقاليد الدينية الشرقية ، ويقوم بانجاز واجبات ذات طابع سياسي ، وهي القضايا المتعلقة بالشؤون البولونية - القوزاقية ، والأوكرانية - الروسية . وبسبب بدء المفاوضات بين سوخانوڤ والگيتان^{٢٠} بوگدان خيلينيتسكي في جيگيرين فقد اضطر أن يعود إلى موسكو ثلاث مرات ، لذلك لم يتمكن من الوصول إلى مدينة القدس إلا بعد مرور سنتين .

(*) گيتان : هو رئيس فرق القوزاق والحاكم العام في أوكرانيا القديمة ، أما في بولونيا القديمة فهو القائد العام (المترجم) .

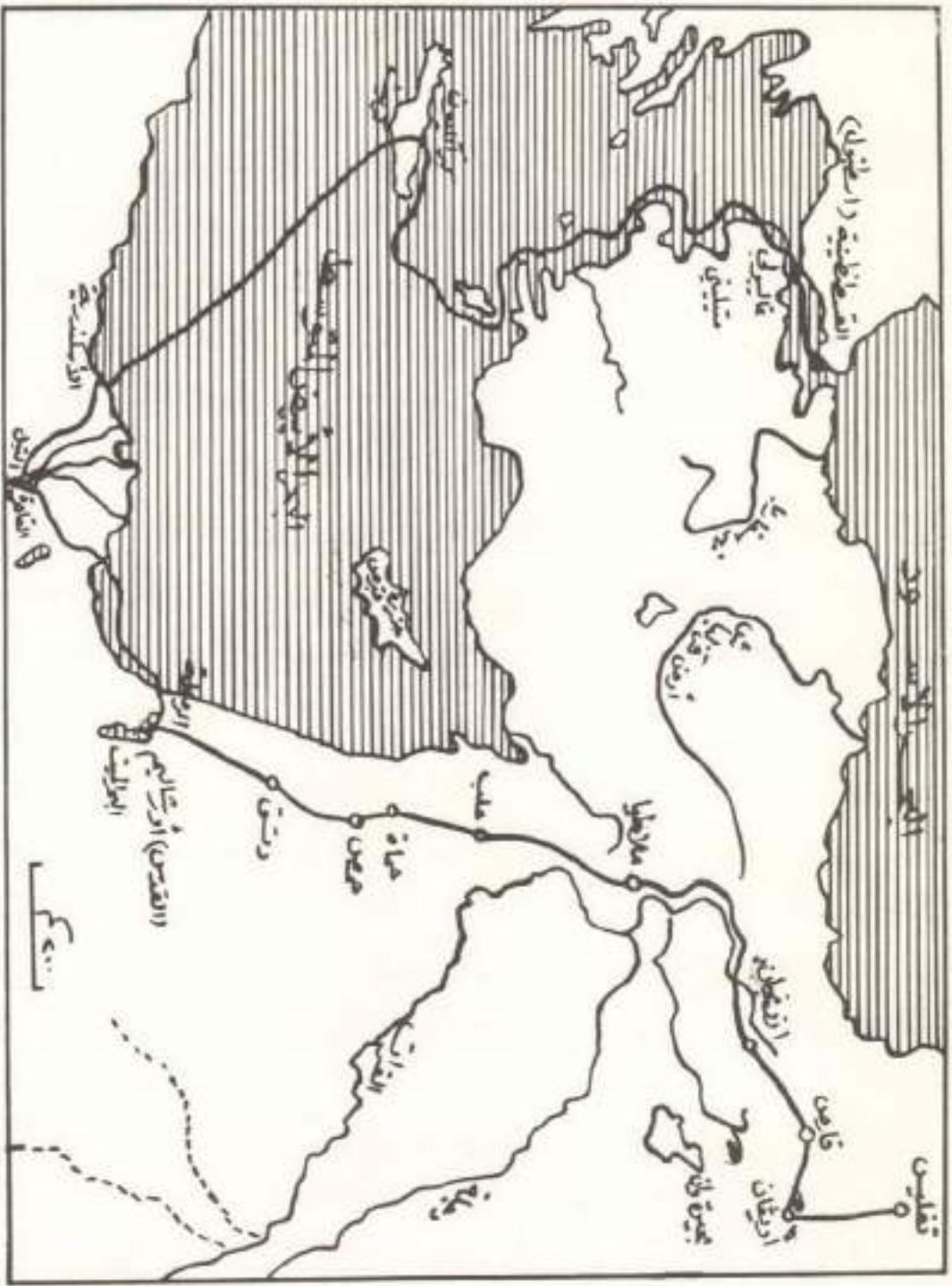
فقد دخل مدينة القدس عن طريق القسطنطينية ، والبحر الأبيض المتوسط ، ومصر ، فبقي فيها حتى شهر نيسان من سنة ١٦٥٢ . وفي طريق عودته عرج على سوريا ، وشرق الأناضول ، والقفقاس فوصل موسكو في ٧ تموز سنة ١٦٥٣^(١) . وتوجه في سنة ١٦٥٤ للمرة الثانية إلى الشرق ، مرّ بياسي ، وأيون ، والقسطنطينية . وقد حمل معه من الشرق حوالي الخمسمائة من المخطوطات والكتب الثمينة قدمها فيما بعد إلى دار طباعة موسكو .

وزود آرسيني موسكو بالأخبار والمعلومات عن الوضع السياسي والأحداث في الجنوب . ولم يكن مضمون « الرحلة » مقتصرأ على ملاحظات عن الحجيج وشؤون الحج فقط ، وإنما قدم فيه وصفاً للطبيعة ، والمدن ، والوضع الاقتصادي ، ونمط حياة السكان ، والعادات والتقاليد ، والإدارة والحكم . وكان سوخانوف سائحاً ذكياً ، قوي الملاحظة ومثقفاً ، وأما « الرحلة » فهي في الواقع أثر كبير من أهم آثار الرحلات إلى الشرق في القرن السابع عشر .

يصف آرسيني القسطنطينية بشكل مدهش وبهيج : « تقع تساريغراد (القسطنطينية) على ساحل البحر تماماً ، تغمر مياه البحر أطرافها الثلاثة ، والبر فيها من طرف واحد فقط . والخليج كبير وواسع جداً من جانب البحر الأسود والأبيض^(٢) ، يبلغ طوله الفرسخين أو أكثر ، ونصبت المدافع في أطرافه .

ومن جهتي خليج القرن الذهبي : « تقف السفن ، الكبيرة والصغيرة ، والقوارب ، ومراكب صغيرة متنوعة ، لا يجد المرء مكاناً ملائماً يستطيع الوقوف فيه ؛ والشاطئ مزدحم جداً إعتباراً من البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود وحتى الأقسام العليا من الخليج » . وقد جلبت المساجد ، والشوارع ، والبنائيات اهتمام سوخانوف : « المساجد كبيرة وعالية ، واسعة ورحبة ، بناياتها مزخرفة بالمرمر الثمين

(١) « رحلة آرسيني سوخانوف » ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد ن.إ. إيثانوفسكي ، النشرة ٢١ (المجلد ٧ ، النشرة ٣) ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٩ ، ص . بيلوكوروف ، آرسيني سوخانوف ، « قراءات في الجمعية الإمبراطورية للتاريخ والتاريخ القديم الرومي في جامعة موسكو » ، الكتاب ١ ، ١٨٩١ ، ص ١٥٦ ، الكتاب ٢ ، ١٨٩٤ ، ص ١٦٩ .
(٢) يسمى الترك والعرب البحر المتوسط بالبحر الأبيض .



خط و رسم خالد الخالدي

خارطة طريق أ . سوخانوف

المتنوع»^(١). ثم يشير إلى الشوارع ، ويقول بأنها ضيقة جداً ، لا وجود لعربات النقل ، فالناس يسرون على الأقدام ، ونادراً ما يشاهد المرء شخصاً يمر وهو يمتطي دابة . وتتراعى البناءات والمؤسسات في تساريغراد كأنها مبنية من الحجر ، غير أنها في الحقيقة هي من الأخشاب ، لذلك من الصعوبة إخماد الحرائق التي يكثُر حدوثها^(٢).

ويصف سوخانوف طريقه من القسطنطينية إلى مصر ، ويشير إلى الأماكن والمواقع التي شاهدها من ظهر السفينة : مضيق الدردنيل ، وبحر إيجه ، وجزيرة خيوس ، وساموس ، وروودوس . كما ويشير إلى حياة الأديرة الإغريقية الفريدة في خيوس حيث يملك عدد كبير من « الشيوخ » بساتين واسعة للفواكه والكروم ، وهم يتاجرون بانتاج البساتين للحصول « على النقود التي تؤمن احتياجاتهم » ، أما القمح فالدير هو الذي يقدمه لهم ، وقبل موتهم يوصون بساتينهم إلى الأقارب والأصدقاء . ويشير سوخانوف إلى أنه كانت توجد في الجزيرة علاقات بضائية - نقدية متطورة . وقد فقدت الاختلافات في الدين والحياة الاجتماعية والعادات تأثيرها بين السكان المحليين الذين كانت تتألف غالبيتهم من اليونانيين والفرنجة (الفرانكيين)^(٣) ، ولقد ساعد على ذلك إلى حد كبير التزاوج بين اليونانيين والفرنجة^(٤).

وعند اجتيازه القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، لاحظ سوخانوف ميزة المنطقة المناخية : « بعد خروجنا من تساريغراد (القسطنطينية) واستقرارنا في البحر ، لم يكن أي أثر للأمطار في الجزر ، ولا أي ظل للغيوم ، وكانت السماء صافية بصورة دائمة ؛ فقد قالوا لنا أيضاً بأن السماء صافية حتى في فصل الشتاء في الأقسام الجنوبية والشرقية » . يعتقد سوخانوف ، بأن ظاهرة السماء الصافية بشكل

(١) « رحلة أرسيني سوخانوف » ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، ١٨٨٩ ، ص ١٦ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) فرانك والفرانكيون : جيل من القبائل الجرمنية كان يسكن منذ بداية التاريخ المسيحي في الأقسام

السفلى من نهر الراين (المترجم) .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٠ - ٢٤ .

دائم كانت من أسباب نشوء « علم النجوم القديم » الذي أخذه الهيلينيون الذين كانوا يعيشون على ساحل البحر الأبيض المتوسط . ولهذا السبب بالذات « لا يمكن وجود ذلك العلم في البلدان الشمالية ، لأن المرء قلما يجد السماء صافية ، بل العكس ، فالمطر ، والضباب ، والغيوم دائمية »^(١) .

ويذكر سوخانوڤ من المدن المصرية مدينة أبوقير ، ويصف الاسكندرية بتفصيل . ومن المعلوم أن الترك كانوا قد احتلوا مدينة الاسكندرية في سنة ١٥١٧ ، وقد أصابها الهدم والتخريب حتى غدت مهجورة تماماً . وفي نهاية القرن الثامن عشر ، أي بعد مرور أكثر من مائة سنة على زيارة سوخانوڤ لها ، لم يتجاوز عدد سكان المدينة ستة آلاف شخص . ويكتب سوخانوڤ عن هذا الهدم والتخريب أيضاً : « تمتاز الاسكندرية ببنائاتها الفاخرة ، لا توجد مثل هذه المدينة مطلقاً ، كانت سابقاً جميلة ، أما الآن فهي خالية ، هناك عدد قليل من الناس يعيشون عند البوابات حول المدينة ، أما وسط المدينة فهو خال ، والقصور مهدمة ، وقد كانت كبيرة وضخمة كالجبال مبنية بالطابوق الأحمر ولكنها تهدمت ، والخرائب والأطلال لا زالت قائمة وهي تشهد على عظمتها السابقة »^(٢)

وقد انصب اهتمام سوخانوڤ على « نصب عجيب منحوت من قطعة واحدة من الحجر مربعة ، وعليه كتابات في جميع جوانبه » . كان هذا « نصب كليوباترا » .

أما عن تجهيز الاسكندرية بالمياه فيقول سوخانوڤ : « تنقل قنوات خاصة مياه الفيضان من النيل إلى الاسكندرية ، وتوزع المياه في المدينة من تلك القنوات بأنابيب خاصة إلى آبار محفورة في الأرض فتملأها وتبقى المياه في تلك الآبار سنة كاملة » .

ويقدم السائح معلومات قيمة عندما يصف الطريق من الرشيد إلى مصر (القاهرة) : « يحصلون على المياه في ضفتي النهر بوساطة عجلات تدار بالثيران ، ويسقون بها الصحارى والبساتين كلها ، ومزارع القمح . . . أما القرى فهي كثيرة ومتعددة ، ومبنية باللبن . . . وقطعان الماشية كثيرة على جانبي النهر منها الجواميس ،

(١) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢ .

والأبقار ، والنعاج»^(١) . ويشير إلى دور النيل في البلاد : « تفيض المياه على جانبي النهر ، ويبدأون بزرع الكرنب ، وفي أيلول ينضج الليمون والتمر ، والخوخ موجود أيضاً . . . مرت الأيام الطيبة وقد كانت كثيرة » . في كلمات قليلة يرسم صورة مفصلة ومستفيضة تقريباً عن الزراعة في البلد .

وشاهد سوخانوڤ وراء النيل وهو في طريقه إلى القاهرة « أبراج » الفراغة ، أي الأهرام . وكان إعجاب السائح بمدينة القاهرة شديداً . وهو يقارن القاهرة مع تساريگراد (القسطنطينية) من حيث السعة وكثافة السكان .

« الحرارة في مصر بلا حدود ، ولا وجود للمطر . يفتس البيض في مصر من شدة الحر ، وتقدم الفرخ بدون دجاج . . . وهناك في نهر النيل حيوان وهو حيوان التمساح القاسي العنيف ، يشبه الخردون وهو ضخم وقوي جداً . . . وهناك في مصر عدد كبير من البيغاوات الصغيرة ، أما البضائع الهندية فهي كثيرة ومختلفة لا تعد ولا تحصى . . . »^(٢)

ووصف سوخانوڤ مدينة القاهرة بتفصيل ، ويسمىها بمصر كبقية الرحالة والسياح في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وفي نفس الوقت يقف عند المدن الأخرى أيضاً . أما مدينة القدس فقد خصص لها فصلاً خاصاً . والوصف الذي يقدمه الرحال لأرضروم يثير الاهتمام : « الجبال التي تحيط بأرضروم مغطاة بالثلوج ، فهي لا تذوب حتى في أيام الصيف . . . فالأماكن الواطئة باردة بسبب ثلوج الجبال والتجمد ، ولا يمكن السفر بدون ارتداء المعاطف حتى في الصيف ، وغالباً ما يسقط المطر بسبب الجبال والثلوج . وتتكاثر الغيوم فتهب المطر ، ومن جراه تنتشر الخضرة في كل مكان »^(٣) .

ويصف سوخانوڤ الجبال بشيء من الإيجاز والاختصار ، وقلما يسمي الجبال بأسمائها الحقيقية ، وإنما يلتجئ في الغالب إلى الأسماء الواردة في الكتاب المقدس

(١) المصدر السابق ، ص ٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

(بالنسبة لفلسطين) ويسمى آارات باسمه التركي « آكرى داغ »^(*) ، واسمه الأرميني (ماسيس) . ومن الأنهار يشير عدا الدانوب ، والنيل إلى اسم الفرات ، ومرادسو ، وآراكس (آراس) ، وآرپاچاي .

وأخيراً بامكاننا أن نشير بكل ثقة إلى أن المعلومات التي أوردها سوخانوف عن الطبيعة ، والسكان ، والاقتصاد ، والمدن قد وسعت بشكل محسوس معارفنا عن جغرافية البلدان الشرقية المجاورة . فهو يصف غابات الزيتون ، ونخيل الرطب ، والكروم ، وبساتين الحمضيات . وقد اهتم بشكل خاص بنظام الري . وشاهد لأول مرة النعامة ، والتمساح ، والبيغاء ، والقروود . والكلام عن هذه الظواهر يشغل عنده مكاناً كبيراً بارزاً أكثر من وصفه لأرضروم على سبيل المثال .

رحلة يونا مالينكي

لقد قدم يونا مالينكي وهو أحد مرافقي سوخانوف وصفاً أقل أهمية لبلدان الشرق الأدنى^(١) ، وهو آخر المشاهير من الحجيج عندنا في روسيا ما قبل بطرس الأكبر . وكان سفره من موسكو بصحبة سوخانوف ، ولكنها افترقا في ياسي حيث عاش فيها سنتين ، ثم توجه إلى القسطنطينية . وبعد ذلك وصل عن طريق البحر إلى مصر ، ثم خلال نهر النيل دخل مدينة الرشيد ، وعلى ظهور الجمال زار دمياط ، وعن طريق البحر وصل إلى يافا . وإذا استثنينا بعضاً من المعلومات والأخبار عن النشاط الاقتصادي للسكان ، ووصف مضائق البحر الأسود ، فليست لكتابات هذا الحاج أية أهمية تذكر لأن القسم الأكبر مما كتبه مخصص للأساطير الدينية والكنائسية .

(*) إن اسم الجبل « آكرى داغ » مركب من كلمتين الأولى « آكر » وتعني النار باللغة الكردية ، و« داغ » وتعني الجبل باللغة التركية ، فهو « الجبل الناري » لأنه تكثر فيه الحمم البركانية (المترجم) .
(١) « فصوص وحكايات عن الرحلة إلى أورشليم (مدينة القدس) وتسايرگراد (القسطنطينية) للشهاس الانجيلي يونا الملقب والمعروف بمالينكي (١٦٤٩ - ١٦٥٢) » ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد س. أو. دولكووف ، المجلد ١٤ ، النشرة ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٥ .

السائح المجهول في القرن السابع عشر

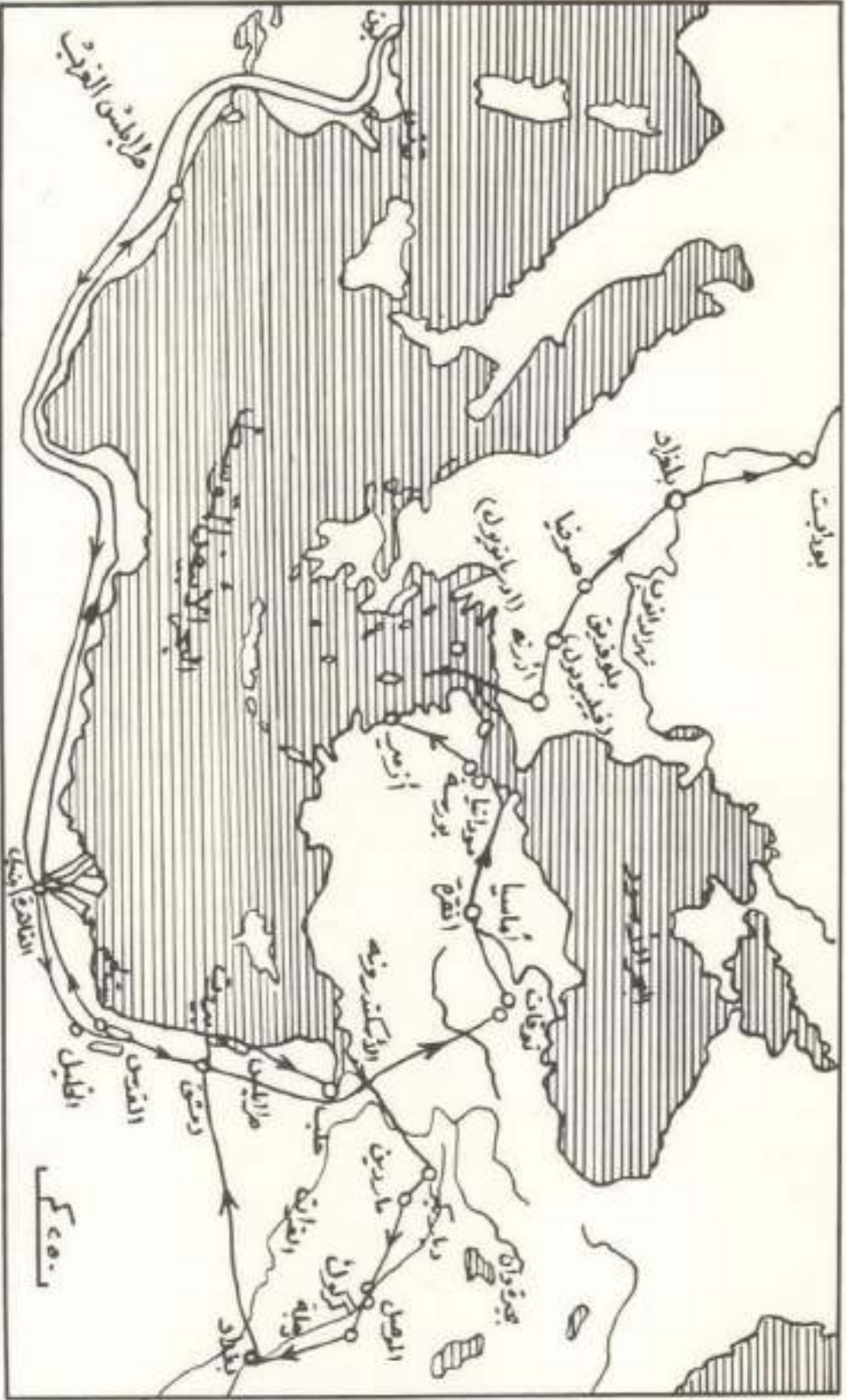
إن أهم وأروع أثر من آثار النصف الثاني للقرن السابع عشر هو « وصف
الأمبراطورية التركية » لمؤلفه الروسي الذي كان أسيراً لدى الترك^(١) ، وهو غير
معروف . لا نستبعد أن يكون هذا المؤلف ابن الاقطاعي فيودور دوروخين ، وهو في
الأصل « الجندي الفارس » من مدينة يلتنس ، وقع في أسر تاتار القرم . ثم بيع فيما بعد
في تركيا ، وقد خدم في الجيش التركي وعاد إلى روسيا في سنة ١٦٧٤ .

نخبرنا المؤلف بأنه طاف تركيا لمدة ٦٢ شهراً و ٢٠ عشرين يوماً (أي مدة ٥
سنوات وشهرين وعشرين يوماً) . ولا شك أن هذه المدة تتضمن كما يظهر جميع
أسفاره ، ورحلاته في تلك البلاد ، وليست المدة التي أقام فيها فقط . ففي تجواله زار
أقصى وأبعد أجزاء الأمبراطورية^(٢) ، فقد ورد في المقدمة التي كتبها ب . إ . سيركو
لكتاب « وصف الأمبراطورية التركية » : « لم يقطع أي أوروبي في تلك الفترة هذا
القدر من مناطق الأمبراطورية التركية ، ولم يشاهد هذا القدر من زواياها ، ولم
يسجل هذا القدر من الأخبار والحوادث بقدر ما فعله مؤلفنا هذا » .

لا يذكر المؤلف بخلاف كتابات الرحالة ، والسياح ، والمسافرين الآخرين
« الأماكن المقدسة » ، والشؤون الكنائسية ، وما يتعلق بالدين (عدا مدينة

(١) « وصف الأمبراطورية التركية ، ألفه الروسي الذي وقع في أسر الترك في النصف الثاني من القرن
السابع عشر » ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد : ب . إ . سيركو ، المجلد ١٠ ، النشرة ٣ ،
سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٠ . أما الاسم الأصلي للكتاب فهو « كتاب عن الأسرار والحقايا كتبه أنا الأسير
عندما كنت في الأسر » .

(٢) يبدأ بوصف رحلته من اورشليم (مدينة القدس) ثم يعقبها بالمدن ، بيت لحم ، وحبرون
(الخليل) ، والقاهرة ، ودمياط ، والرشيد ، والاسكندرية ، وأبوقير ، وطرابلس ، وتونس ، وبون (اسم
خليج وميناء في الجزائر على البحر الأبيض المتوسط) ؛ ثم عاد ثانية إلى القاهرة ، وفلسطين ، ودمشق ،
وبيروت ، وطرابلس ، وحلب ، والاسكندرونة ، ودهار بكر ، وماردين ، والموصل ، وكركوك ، وبغداد ،
وعاد مرة أخرى إلى دمشق ثم إلى مجموعة من مدن آسيا الصغرى : توكات ، أماسيا ، وأنقرة ،
والقسطنطينية ، ومودانيا ، وبيروسه ، وأزمير ؛ ثم جزر الأرخيل ، وأدريانسبول (أدنة) ،
وقيليبسبول ، وصوفيا ، وبلغراد (في بلاد الصرب) ، وبودابست . . .



خط و رسم خاله الحالدي

خارطة طريق السائح المجهول

القدس) . وهو يهتم بذكر المعلومات الجغرافية ، وأحياناً الانتوغرافية عن أماكن مختلفة أكثر من أي شيء آخر ؛ فهو يصف موقع هذه الأماكن بالنسبة للجبال ، أو بالنسبة للأنهار أو البحار ، ويصف أسوار المدن والقلاع ، وتحصيناتها الأخرى كالخنادق ، والبوابات ، والمدافع ، وما إلى ذلك .

وقد وصف القسطنطينية بتفصيل أكثر . ويذكر بأن المدافع تصنع في المدينة في « طويخان » . وعلى ضفتي البوسفور عدد لا يحصى من « المدن » الصغيرة . « وإلى الأعلى من تلك المدن الصغيرة وبمحاذاة المجرى عند أبواب البحر الأسود تنتصب من الجانبين مدينتان صغيرتان أخريان ، وتشتهران بقلعتيهما القويتين المتينتين ، وفيهما عدد هائل من المدافع الكبيرة والصغيرة » .

ومما يجلب اهتمام المؤلف كذلك هو عدم وجود احتياطي الخبز في القسطنطينية وسالونيك ، غير أنه عموماً لا يهتم بالشؤون الاقتصادية ، وهو يشير إلى قلة كثافة السكان في بعض المناطق ، وفي نفس الوقت لا تغيب عن باله الإشارة إلى الذين يسكنون في هذه المنطقة أو تلك ، ويعدد في هذه الحالة تقريباً جميع الشعوب في أرجاء الأمبراطورية الواسعة ذات القوميات المتعددة . ويقول بهذا الصدد بأنه في الأمبراطورية العثمانية كثير من الأسرى الروس الذين تم بيعهم كعبيد : « هناك خلق كثير من الروس وهم عبيد في الأسر على أراضيهم ، وبحارهم ، ومعتقلاهم ، يقومون بالأشغال الشاقة ، وعدد كثير لا يحصى » . وكان المؤلف يهتم بالخصائص العسكرية والحربية للناس من ذوي القوميات المختلفة ، وأساليب إداراتهم للحرب ، وصلاحيات الجنود للأمور العسكرية . أما عن لياقة الترك في الشؤون الحربية فلم تكن لديه وجهة نظر مقبولة وإيجابية . وكان يعتقد بأن الانكشاريين قد دربوا ووجهوا للقضايا الحربية بشكل غير جيد . وأشار إلى أن العرب يخافون الأسلحة النارية ، رغم أن لهم مهارة فائقة في حرب الخيالة . وكانت نظرته عالية للياقة الحربية التي يتمتع بها أهل البوسنة والألبانيين (الأرناووط) .

ويقول الأكاديمي إ.ى. كراجكوفسكي ، بأن الأسير في سنوات أسره كان قد « زار وأقام في مناطق مختلفة وكثيرة في تركيا ، وكان لتجوله في ذلك الوقت في أقاصي

تلك الأقاليم الواسعة الأثر الكبير في مشاهدة مناطق كثيرة من البلدان العربية التابعة لها وإنه يذكر عدداً كبيراً من المدن العربية ، يكاد لا يستطيع أي حاج أن يذكره ولكون المؤلف مختصاً في الشؤون العسكرية ركز اهتمامه بالتأكيد على جوانب من الحياة كانت خارج آفاق الحج والحجيج بدون شك «^(١)» .

وكان الأسير الآخر قاسيلي بولوزوف الذي هرب من أسر الترك ، قد كتب بشكل موجز عن رحلته في الأراضي التركية بطلب خاص وجهه إلى القيصر فيودور اليكسييفيچ^(٢) .

رحلة جيريكوف وفوزنيتسين

توجهت سفارة جيريكوف و ب . ب فوزنيتسين إلى تركيا في سنة ١٦٨١ . وقد مات جيريكوف في الطريق . واستقرت سفينة فوزنيتسين بسبب العواصف في أماسرا ، وبقيت فيها مدة ثمانية أيام . وعند خروجها إلى البحر مرة أخرى ، هبت العواصف الشديدة ثانية ، فاضطرت أن تعود إلى مستقرها . ثم سلك فوزنيتسين في رحلته طريقاً غير مألوف للسفراء الروس ، وهو الطريق الذي يمتد من أماسرا عبر شالي الأناضول : « سافرنا من أماسرا ، كانت الجبال عالية جداً ، كان الطريق ضيقاً ، وصعباً ، وشاقاً » . وفي القرى المتناثرة في الطريق كان الناس يستقبلون السفير كضيف شرف ، ويقدمون له الأطعمة ، ويفرشون بيوت القرية بالسجاجيد ، ويضعون حوله جداراً من الوسائد . ثم توقفت البعثة في بول وأسكودار . ولأول مرة في التاريخ يصل سفير روسي إلى عاصمة الأمبراطورية العثمانية من جهة الشاطئ الآسيوي^(٣) .

(١) | . ي . كراجكوفسكي ، مقالات عن تاريخ الاستعراب الروسي ، موسكو - لينينغراد ،

١٩٥٠ ، ص ١٩ .

(٢) نشر تقرير بولوزوف الذي قدمه إلى القيصر كملحق له وصف الأمبراطورية العثمانية ،

ص ٤٦ - ٥٠ .

(٣) | . زابيلين ، رحلة السفراء إلى تركيا في القرن السابع عشر ، نشرة «عهد الروس القديمة» ،

١٧٨٨ ، أيلول ، ص ١٨ .

فترة ركود

كانت حرب الدول ضد تركيا التي اشتركت فيها روسيا أيضاً ، وكذلك حملتين قام بهما بطرس الأول على أزوف في سنتي ١٦٩٥ و ١٦٩٦ أدت إلى قطع تبادل السفراء بعض الوقت بين الدولتين الروسية والعثمانية .

وكانت عودة العلاقات الدبلوماسية في سنة ١٦٩٩ حيث بعثت الدولة الروسية سفارة برئاسة مستشار الدوما يميليان أوكراينتسييف إلى تركيا ، فتركت هذه السفارة أثراً كبيراً في تاريخ الدبلوماسية الروسية بيد أن مصادر ومواد هذه السفارة تعود إلى المرحلة الجديدة ، وهي عصر بطرس الأكبر .

زار الرحالة ، والسياح ، والمسافرون الروس وأقاموا خلال ستة قرون في كثير من بلدان الشرق الأوسط ، وسلكوا طرقاً وسبلاً مختلفة ومتنوعة للوصول إلى تلك البلدان . زاروا القسطنطينية ، وجزر الأرخبيل اليوناني ، وسوريا ، وفلسطين ، ومصر ، وسببنا ، وأحياناً وصلوا إلى بلاد ما بين النهرين (العراق) ، وقطعوا آسيا الصغرى من الشمال حتى الجنوب ، ومن الغرب حتى الشرق . وكانوا يعرفون عن الطرق البرية إلى الشرق عبر بولونيا ، ومولدافيا ، والدانوب ، أو خلال القفقاس وإيران ، وكذلك كانوا يعرفون عن الطرق البحرية ، من أزوف وكافا حتى القسطنطينية .

لا شك أن مذكرات الرحالة بالإضافة إلى المصادر الأخرى تشكل مادة مهمة لتاريخ ، وجغرافيا ، واقتصاد بلدان الشرق الأوسط . وهي تشهد على الاهتمام الكبير في روسيا في فترة ما قبل بطرس الأكبر بكثير من الدول المجاورة أو القريبة من موسكو ، وقد وسعت هذه المذكرات المدارك الجغرافية للروس^(١) .

(١) « الأرشييف التاريخي » ، المجلد ٥ ، موسكو - لينينغراد ، من منشورات أكاديمية العلوم السوفياتية ، ١٩٥٠ ، ص ٧٤ - ٩٣ ، مقالة ف. أ. بيتروف ، الدليل الجغرافي للقرن السابع عشر .

وكان التعرف على بلدان الشرق الأوسط يتجاوب مع نمو المعارف الجغرافية في روسيا في القرن السابع عشر ، ووجد انعكاسه في الكتاب المؤلف في سنة ١٦٦٢ وهو « كتاب المقاييس » ، وردت فيه معلومات عن ٥٤ مدينة كبيرة في الدول الخارجية مع الإشارة إلى المسافات بينها وبين مدينة موسكو ، والطرق التي تؤدي إليها .

وهناك معلومات في الكتاب الآخر المؤلف في القرن السابع عشر المسمى « كتاب التصميم الأعظم » (١٦٢٧) عن بعض المناطق والمواقع في الشرق الأوسط^(١).

وفي ضوء المصادر والمواد المحفوظة عندنا من الممكن التأكيد بثقة بأن في روسيا في عصر ما قبل بطرس الأكبر كانت تصرف جهود مستقلة ، ومثابرة ، ومثمرة في دراسة أقاليم روسيا الخاصة ، بالإضافة إلى بلدان كثيرة في الشرق الأوسط ، وبأن المعلومات الجغرافية في ذلك الوقت كانت تتميز بالدقة والأصالة .

وقد أدخل الرحالة ، والسياح ، والمسافرون الروس بمعلوماتهم الصحيحة والرصينة عن بلدان الشرق الأوسط إضافات ثمينة من تاريخ معرفته .

(١) « كتاب التصميم الأعظم » ، موسكو - لينينغراد ، من منشورات أكاديمية العلوم السوفياتية ،

١٩٥٠ ، ص ٩٦ .

الفصل الثاني

الربع الأول من القرن الثامن عشر

لم تكن دراسة الشرق الأوسط في روسيا في الربع الأول من القرن الثامن عشر متناسقة ومنتظمة إلى الحد المطلوب ، غير أنها كانت ذات طابع موجه لأغراض معينة .

ويجد هذا التوجيه قبل كل شيء ، إنعكاسه في تطور العلاقات التجارية والديبلوماسية مع بلدان الشرق . وقد لعبت الحروب الروسية مع تركيا وإيران في عهد بطرس الأول دوراً ليس بقليل . وكان غرض روسيا في الخوض في تلك الحروب هو رغبتها العارمة في الوصول إلى البحر الأسود وبحر البلطيق^(١) . « كانت إحدى المهام الأساسية في السياسة الخارجية لروسيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر تنحصر في الكفاح في سبيل الأراضي الجنوبية ، والوصول إلى بحر آزوف والبحر الأسود ، والنضال ضد التاتار والترك^(٢) .

سفارة أوكرانيانتسيف

كانت حملات آزوف في سنتي ١٦٩٥ - ١٦٩٦ هي العلاقة البارزة لتحقيق هذه الرغبة ، وهي الهدف الأساسي في سياسة الدولة . ويقول ماركس بهذا الشأن بأن

(١) « مقالات في تاريخ الاتحاد السوفياتي في المرحلة الإقطاعية . روسيا في الربع الأول من القرن التاسع عشر . إصلاحات بطرس الأول » ، موسكو ، ١٩٥٤ ، ص ٤٣٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٣٥ .

روسيا لم تستطع أن تترك مصبات أنهار دون ، ودينستر ، وبوگك ، ومضيق كيرجينسكي في أيدي الشقاة وقطاع الطرق من التاتار الرحالة^(١) . ففي ١٨ تموز سنة ١٦٩٦ تم الاستيلاء على آزوف . ثم وقعت في مؤتمر كارلوفيتس اتفاقية هدنة بين روسيا وتركيا في ١٤ كانون الثاني سنة ١٦٩٩ ، وبموجبها احتفظت روسيا بأزوف . وقد بعثت في نفس السنة سفارة برئاسة ييميليان ايگنا تيفيغ أوكراينتسيث لعقد معاهدة صلح إلى تركيا . ويتعلق حدث مهم بهذه البعثة وهو إبحار الباخرة الحربية « كريبوست » في البحر الأسود لأول مرة في تاريخ الأسطول الروسي حيث كانت السفينة « جايبكا » تبحر في البحر الأسود سابقاً وهي من أسطول زاهوروري .

يشتهر نشاط مستشار الدوما ي . إ . أوكراينتسيث في الأدبيات والمصادر التاريخية الروسية بصورة جيدة ، غير أن الجانب الآخر من نشاطه لم يتوضح وهو ملاحظاته وانطباعاته الجغرافية والتوبوغرافية .

سجل أوكراينتسيث في تقرير من تقاريره الأولى الموجه إلى بطرس في ١٧ تشرين الأول سنة ١٦٩٩ حول وصولها إلى « مرفأ تساريگورود (القسطنطينية) » : « وصلنا في الساعة الثامنة نهراً إلى مرفأ تساريگورود ، ودخلنا في منتصفه بدون مرشد أو دليل من الترك . يقف في نهاية المرفأ من الجانبين المطلين على البحر فوق الجبال برجان عاليان ، يستقر فيهما قنديلان ، ويضعون في اللبالي فيها شمعتين كبيرتين لإضاءة المرفأ ، ولكن لا يمكن التعرف عليهما بسهولة حتى في النهار ، وإن عرض المرفأ بدءاً بمدينة تساريگراد (القسطنطينية) هو ميل ألماني واحد . ويبعد البرجان القائمان أحدهما عن الآخر بثلاثة أو أربعة أميال إيطالية أو المانية^(٢) . ولا وجود لأي نوع من الدافع حولهما . وتقع في جانبي المرفأ ، وعلى بعد فرسخين أو ثلاثة فراسخ مدن صغيرة تطل على المياه نفسها ، يعيش فيها الانكشاريون ؛ ونصبت حول هذه المدن مدافع ليست كبيرة ، وهي في حدود العشرة مدافع ؛ وهناك مدينة

(١) ك . ماركس ، التاريخ السري للدبلوماسية في القرن الثامن عشر ، لندن ، ١٨٩٩ .

(٢) من الصعوبة بمكان تحديد الميل الذي يقصده أوكراينتسيث بالوسط . فالميل الإيطالي يرد في معنيين مختلفين وهما : الميل الروماني ويسلوي ١٥٤٨٩ كم ، والميل الفينيقي ويساوي ١٠٧٣٩ كم ، وورد الميل الألماني أيضاً في معاني مختلفة ، أما الميل الإيطالي في روسيا في ذلك الحين فكان يساوي $\frac{١}{٤}$ فرسخاً تقريباً .

صغيرة في الجانب الأيسر من المياه ، ثم يليها جبل تقوم عليه مدينة حجرية فيها منازل خشبية أيضاً ، ويعيش السكان بين الجبال في البساتين خلال أشجار السرو الغزيرة ، وعند مصب النهر الصغير تقف مجموعة كبيرة من جايكا وگالياسا^(١) . وأما عمق المرفأ في منتصفه فيتراوح بين عشرين وثلاثين وأربعين ساژين ، والمياه تجري بسرعة من البحر الأسود إلى البحر الأبيض . . . أما طول المرفأ بأجمعه حتى تساريگراد (القسطنطينية) فيبلغ ١٨ ميلاً إيطالياً . . . «^(٢) .

وتتضمن الفصول المشابهة الأخرى للتقارير التي كتبها أوكراينتسيف معلومات عن أوضاع الجيش ، والأسطول ، والمالية ، وصناعة السفن : « يصنع الترك سفنهم بشكل رقيق وخفيف ، غير أنها جيدة وقوية ، وإنهم يصنعون القوارب ، والمراكب ، والزوارق بشكل أمتن »^(٣) . وقد بدأت روسيا في نفس هذه الفترة بتأسيس أسطول البحر الأسود . وكان لنشاط طاقم السفينة « كريپوست » الدور الكبير في هذا الصدد .

ويشير أوكراينتسيف بالإضافة إلى ذلك ، بأن خريطة البحر الأسود التي كان يستعملها (وهي نفس الخريطة التي كانت بحوزة بطرس الأكبر على ما نظن) مطابقة مع الخريطة التركية .

وأما عن تموين القسطنطينية فيقول : « يجلبون الخبز ، والزبدة ، والخشب ، والخطب عن طريق البحر الأسود من مدن الدانوب ، برايلوف ، وايزمايل ، وگالاتسيا ، وكيليا . . . » ، ومن البحر المتوسط (الذي يسمى بالأبيض حسب مصطلح السفير الروسي) كانوا يحصلون على الدخن ، والأرز ، والسكر ، والقهوة ، والبقلاء ، والحمص ، وبذور القنب ، أما المؤن المصنوعة من الخنطة فلم تستورد .

(١) جايكا وگالياسا : أسماء لسفن شرعية مختلفة .

(٢) ن . أوستريالوف ، تاريخ سلطنة بطرس الأكبر ، المجلد ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٨ ،

الهامش ٧ ، ص ٥١٦-٥١٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥١٨ .

رحلة تولستوي

تأسست في تركيا السفارة الروسية الأولى الدائمة منذ بداية القرن الثامن عشر . فعين بطرس الأكبر في سنة ١٧٠١ ب . إ . تولستوي لهذا المنصب^(١) . وقد اعتقد أن نشاط تولستوي الناجح في إيطاليا ، وبولونيا ، والنمسا يكون ضماناً لنجاحه في تركيا أيضاً ، ويستطيع أن يؤدي بصورة ممتازة مجموعة الواجبات المهمة الملقاة على عاتقه ، وقد ترك ب . أ . تولستوي من بعده كتابات عن رحلته في أوروبا^(٢) .

عندما سافر بيتر أندرييفيتش تولستوي إلى تركيا في ٢ نيسان زود بـ « المقالات السرية » ، وهي تتضمن توصيات وتعليقات مفصلة عما ينبغي أن يقوم به السفير ، والمسائل والقضايا الضرورية التي يجب أن يهتم بها بصورة خاصة . وكان عدد المقالات سبع عشرة مقالة ، كتب بعضها بطرس الأكبر نفسه .

شغل تولستوي ذلك المنصب الشاق حتى سنة ١٧١٣ ، وفي فترة توتر العلاقات وتفاقم الوضع السياسي الروسي - التركي في سنوات ١٧١٠ - ١٧١٣ كان قد احتجزه الترك مرتين في سجن القلعة ذات الأبراج السبعة حيث كانوا يسجنون فيه السفراء الأجانب عادة .

ورد في الوثيقتين المهمتين اللتين تعودان إلى ب . إ . تولستوي وصف دقيق وشامل للإمبراطورية العثمانية ، ويجب فيهما على الأسئلة المقدمة إليه من التعليقات والتوصيات ، ووصف شامل ومفصل لشواطئ البحر الأسود .

تتألف الوثيقة الأولى « وصف أوضاع الشعب التركي » من تعليقات عن

(١) ب . إ . تولستوي (١٦٤٥ - ١٧٢٩) هو الجد الأكبر (جد جد) الكاتب ل . ن . تولستوي ، اشتهر في فترة تأزم العلاقات بين بطرس والقيصر اليكسي . ففي سنة ١٧١٧ كلف تولستوي للقيام بمهمة إقناع اليكسي للعودة إلى روسيا من الخارج . وكان تولستوي يتقن اللغة الإيطالية بصورة جيدة ، وهي إحدى اللغات الدبلوماسية في تركيا ؛ وكان هناك في هيئة السفارة ثلاثة مترجمين في اللغات اللاتينية ، والإغريقية ، والإيطالية ، والتركية ، والتاتارية ، والرومانية .

(٢) « الأرشيف الروسي » ، النشرة ٢ ، ١٨٨٨ ، د . م . ليبديف ، الجغرافيا في روسيا في عهد بطرس ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٥٠ ، ص ١٦٩ .

العمليات الحربية معنونة إلى البويارين الجنرال الأميرال فيودور كولوفاين الذي كان يرأس الشؤون الخارجية خلال سنوات عديدة ، وكان مسؤولاً عن نشاط تولستوي^(١) بشكل خاص. وكانت أوامر السفارة الصادرة في ٢٤ آب سنة ١٧٠٣ قد تضمنت هذه المعلومات . وكان هذا التقرير الواسع على ما يبدو حصيلة قراءات كثيرة للمصادر الأدبية المعروفة لدى تولستوي ، وتدخل فيه بوجه خاص الملاحظات الشخصية ، والتقارير ، والأخبار ، والأنباء الكثيرة الواردة إليه ، فهو يقدم معلومات مفصلة عن الحكم ، والجيش ، والأسطول ، عن الوضع التجاري والعلاقات بين الترك والمسيحيين وما إلى ذلك . فهو يصف الترك بالشكل التالي : « يستند وضع الشعب التركي في الأساس على الافتخار والاعتزاز بالذات ، والإجلال والمهابة والوقار . . . إنهم يأملون بأن لا ينتصر عليهم أحد . . . إن الشعب التركي شعب صالح لا يحب السكر ، ويمتنع عنه ، وهم يحسبون السكر خطيئة كبيرة ، وهو عيب وعار ، والناس البسطاء لا يسكرون أبداً . . . وإنهم يعاقبون السكر^(٢) » .

فهم تولستوي بوضوح حالة الإضطهاد التي تعيشها الشعوب التي تزرع تحت وطأة السلطة التركية . ويقول بهذا الصدد : « يسلطون ظملاً قاسياً على الرعايا من اليونانيين ، ولقد أشاعوا فيهم الخوف إلى درجة بحيث لا يجراؤن حتى في الخيال على القيام بعمل ما عندهم ، وقد منعوهم من حمل السلاح ، كما ولا يسمح لهم في الوقت الحاضر ارتداء الملابس الشبيهة بملابس الآخرين ، وذلك حتى يسهل التعرف عليهم وتفريقهم عن الآخرين ، وبرغمونهم أحياناً أن يلبسوا ملابس ضيقة وممزقة وذلك للاستكانة بهم وإذلالهم . . . أما الشعوب المسيحية الأخرى الخاضعة لهم من الصرب

(١) أرشيف الدولة المركزي للوثائق القديمة ، القسم ٨٩ ، السجل رقم ٣ ، البلاط التركي في العصر الحديث ، الكتاب ٨ ، الرقم ٢ ، ١٧٠٣ ، التعليمات والرسائل المرسلة إلى البويارين فيودور كولوفاين من المقيم في تساريغراد (القسطنطينية) السفير المنتسب إلى البلاط بيتر تولستوي « (فيما بعد » التعليمات والرسائل ») . اهتم ن . ب . باقلوف - سيلفانسكي لأول مرة بهذا التقرير ونشر جانباً منه « مقالات في التاريخ الروسي في القرنين الثامن عشر - التاسع عشر » ، سانت بيترسبورغ ، ١٩١٠ . في مقالة « الكونت بيتر أندرييفيتش تولستوي » ، ص ٢١ - ٢٤ ؛ ت . ك . كريلوفا ، العلاقات الروسية التركية في أيام الحرب الشمالية ، « المدونات التاريخية » ، الرقم ١٠ ، ١٩٤١ ؛ ب . إ . تولستوي ، أوضاع الشعب التركي في سنة ١٧٠٣ ، مقدمة أ . سيركليف ، سيمفيريوبول ، ١٩١٣ .

(٢) « التعليمات والرسائل » ، ص ١٨٦ .

والموتياتيين ، والفولوخيين ، والعرب وغيرهم فيضايقونهم ويضطهدونهم ، وذلك بابتزاز الأموال منهم عنوة ، وهم لا حول لهم ولا أحد يمد يد المعونة إليهم ، وقد زرعوها فيهم الخوف إلى حد لا يستطيعون فيه أن يحركوا ساكناً ضدّهم ، وهم يفكرون ويحلمون في قرارة نفوسهم بالمساعدة المسيحية كما حدث أن دفع الهنغار يون الظلم عن أنفسهم بمعاونة القيصر الروماني «^(١)» .

ثم يصف تولستوي دوائر الدولة ، ويتطرق إلى صلاحيات وواجبات الصدر الأعظم ، وبقية المراتب من الموظفين .

وأما أجوبة تولستوي على أسئلة بطرس عن السلطان ، وضعه ، ونفسيته ، ومظهره ، وتحركاته ، واهتماماته ، وملاحظاته ، ورغباته ، والأشياء التي يميل إليها فقد كانت بالصورة التالية : « ان السلطان الحالي [والكلام عن مصطفى الثاني] هو في الدولة التركية كصنم ، فقد منح جميع سلطاته إلى الوزير الكبير ، والوزير الحالي شخص ذكي يفكر بعمق . ويظهر السلطان بشكل اعتيادي فخوراً ومعتداً بنفسه . . . وهو لا يميل إلى المحاربين ، ولا إلى الأمور الدينية ، ولا إلى إدارة الوظائف إلى الحد المطلوب ، إنما يقضي أوقاته داخل بيته حيث يحتفظ بنساء كثيرات يلهو بهن ، وعلى صلة بجميعةهن في أوقات مرحة ولهو ، وحصل منهن على أربعة أولاد . ثم انه يهوى القنص وصيد الحيوانات إلى حد كبير ، ويقولون بأنه يشبه أباه في هذا الصدد ، ويصرف مبالغ كبيرة على صيدة ولهو ، ووقع على الخزينة عبء كبير بسبب هذه المصاريف ، ويشاركه وزراء القصر لهو في الصيد ، وحياة الرفاه ، وبذلك يشتركون جميعاً في نهب الخزينة . . . ويعني جميع الوزراء التترك بترائهم الشخصي أكثر من أي شيء آخر ، ولا يفكرون في إدارة شؤون الدولة . ويمكن التصريح في هذا المجال بأنه قد تهيأت الفرص لشخصيات الأوساط العليا التركية في الوقت الحاضر لجمع المال غير المحدود الذي يسرق من خزينة الدولة ، وقد أضحت الخزينة خالية بسبب إهمال السلطان نفسه «^(٢)» .

أما عن سؤال بطرس حول إيرادات الدولة فيجب تولستوي ، بأنه ليس

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

بالإمكان تحديد إيرادات الدولة التركية بشكل دقيق . ويخبرنا عن التجارة في البلاد ويقول بأن الفرس يجلبون « حريرهم بالطرق البرية إلى حلب وسميرنا (إزمير) ، ثم ينقلون جزءاً ضئيلاً منه عن طريق البحر إلى القسطنطينية ، وتتاجر فئة من التجار في القسطنطينية مع الافرنج ، أي الفرنسيين ، والانكليز ، والهولنديين . . . ويخرج الفرس أموالاً كثيرة من الدولة وهي على شكل نقود معدنية متنوعة وخصوصاً جيرفونتسات^(*) ذهبية وفضية^(**) . ويوضح بيتر أندريثيخ بأن السلع الزراعية لها أهمية كبيرة للقسطنطينية لأن المدينة تشرف على المجاعة إن لم تنقل تلك البضائع والسلع إليها من موانئ البحر الأسود . ويصف تولستوي بشكل مستفيض وكامل وضع الجيش وبالأخص الأسطول ، ويشير إلى توزيع القوات من حيث الإقامة والمراطة ، ويصف مضيق كيرجين (بين البحر الأسود وبحر آزوف) واستحكاماته .

وحيثما يصف تولستوي بلاد ما بين النهرين (العراق) والمدن القديمة فيها فإنه يستند على كلام الآخرين بدون شك . وعلى العموم يرسم ب . ل . تولستوي صورة واضحة جداً لانحطاط الامبراطورية العثمانية في بداية القرن الثامن عشر .

ويقول د . م . ليبديث عن تقرير تولستوي : « التقرير عبارة عن وثيقة رسمية تقدم لنا وصفاً سياسياً وجغرافياً للامبراطورية التركية ، وهي تخرج بعيداً عن إطار القائمة الإحصائية الاعتيادية »^(***) .

وأرسل تولستوي في سنة ١٧٠٦ مخطوطة إلى بطرس يصف فيها البحر الأسود مع جميع موانئه ومرافئه . وقد حقق تولستوي جميع الموضوعات التي تضمنتها في ضوء المصادر الرسمية . وهو يكتب إلى كولوفاين في سنة ١٧٠٦ بهذا الصدد :

« إنني أرسلت أناساً ماهرين ، وطلبت منهم القيام بتصوير ووصف الأماكن ، أما إلى أية درجة أستطيع أن أحكم أنا في الأمر ، فالحقيقة هي ما أقوله »^(***) .

(*) الـ « جيرفونتس » عملة ذهبية قديمة كانت تعادل عادة (٥) أو (١٠) روبلات (المترجم)

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٢) د . م . ليبديث ، الجغرافيا في روسيا في عهد بطرس ، ص ١٨١ .

(٣) ن . أوستريالوف ، تاريخ حكم بطرس الأكبر ، المجلد ٤ ، القسم ١ ، ص ٣٣٢ - ٤٠٠ .

وكانت قد تمت دراسة وتحقيق المخطوطة التي أرسلها تولستوي بدقة واتقان في الستينيات من القرن المنصرم من قبل المؤرخين ن . هويو ، ون . أوستريالوف . وردت فيها أسماء الموانئ ، والمرافئ ، والخلجان في البحر الأسود ، وصخور الشواطئ ، والأنهار ، والجبال . ولقد وصفت فيها المناطق الجنوبية والشرقية (حتى كيرجي) ؛ والغربية والشمالية لشواطئ البحر الأسود ، وكذلك الطرق البحرية في كيرجي حتى الدانوب ، وقارنا ، والبوسفور ، وطرابزون . والقسم الأكبر من العمل مخصص لدراسة جزر بحر إيجه :

« تخيم العتمة على البحر الأسود (بونتوس إفكسينوس) بصورة إعتيادية ، والرياح في الغالب شمالية أو شمالية شرقية ، ولا وجود للمد والجزر فيه ، يحده من الشرق كوخيدا (مدينة في القفقاس على شاطئ البحر الأسود) ، ومن الجنوب آسيا الصغرى ، ومن الغرب ميزيا ، طوله من الشرق إلى الغرب ٩٠٠ ميل إيطالي ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٣٠٠ ميل ؛ وتحيط به من جميع الجهات شواطئ بهيجة وطيبة ، فيها أشجار مثمرة . ومن أفضل أصقاعها تلك التي تقع بين الدانوب والقسطنطينية ، وكذلك شواطئ آسيا الصغرى ؛ يتوفر القمح ، والحيوانات ، والأخشاب ، والشعير ، والأغنام في شواطئه ، وتنقل كلها إلى القسطنطينية في سفن بحرية صغيرة » .

وقد وجه تولستوي اهتمامه في الشاطئ الجنوبي من بحر الأسود إلى ميناء ايربغلي : « يستطيع هذا الميناء أن يستقبل مئات السفن أو أكثر ، فيه جدران من الصخور تحميه من الرياح ، لكنه غير آمن من المايسترا (اسم لرياح عاصفة - م . خ .) وهي تعلق البحارة كثيراً . . . وفي ترسانة المدينة الكبيرة سينوب ترسو ثلاثون سفينة سلطانية ، وزوارق بحرية ، وبواخر ، وقوارب أخرى كثيرة . أما عدد بيوت المسيحيين فهو أكثر من ألف . . . وحوها الغابات التي تستعمل أخشابها في صناعة السفن ، وخاصة السفن البحرية ، والسفن الخشبية الحربية الكبيرة ، وأما صنّاع السفن فهم من اليونانيين ، ولا يشترك المسلمون معهم في العمل »^(١) .

وهناك في القسم الشرقي من أوني رأسان بحريان ، أحدهما كبير وهو فونا :

(١) مقالات في تاريخ الاستشراق الروسي ، المجموعة ٢ ، موسكو ، ١٩٥٦ ، ص ٣٨٩ .

« بينهما خليج ، وهو يسع لدخول سفينتين فقط ؛ ثم الميناء وهو من أفضل الموانئ على وجه البسيطة ، يرسو فيه أكثر من ستين سفينة ؛ وتستطيع السفن والبواخر أن ترسو فيه في موسم الشتاء دون أن تخشى أي خطر » . وهناك بين ميناء بيكسونت (الظاهر أنه بيتسوند) وكيرجي عدد كبير من الرؤوس ، والمرافئ ، إلا أنه لم يذكر أسماؤها .

وأما في الشواطئ الغربية فيذكر : ميديا ، ونيادا ، وبورغوس (بورغاس) ، وقارنا . ويشير المؤلف بأن نهر سولين وهو أحد روافد الدانوب يكون مهيباً عند مصبه « أكثر من بقية المصببات التابعة للدانوب ، لاستقبال الأساطيل الضخمة » . وقد أعجب بميناء أوجاكوف : « وهو ميناء كبير آمن ، ترسو فيه الأساطيل الكبيرة » ، ثم يصف وبشكل مفصل أيضاً منطقة سيواستوبول ، ويشير فيها إلى بالاكلافا ، وكيرجي وغيرهما^(١) .

وعلى الرغم من أن « وصف البحر الأسود » لم يكن على ما يبدو غير ترجمة أو تعديل لأحد الكتب الإيطالية وإنما كما يقول ن . ب . بويوف لم تقدم غير « تعداد مجرد للمواقع القائمة على شواطئ البحر الأسود » فإنها مع ذلك أثارت اهتمام بطرس الأكبر بدرجة ربما لا تقل عما أثارته معلومات تولستوي عن أحوال الجيش والأسطول التركيين ، كما أنها تشتمل على وصف دقيق وكامل للبحر الأسود .

تقارير السفارة والجريدة الروسية الأولى

كانت تقارير السفارة شأنها في ذلك شأن الأخبار والمعلومات الأخرى تشكل مصدراً أميناً لاستعلامات الحكومة . ولقد أصبحت في الوقت نفسه المادة الأساسية للجريدة الروسية الأولى التي أسسها بطرس الأول في سنة ١٧٠٣ باسم « كشف عن الشؤون الحربية والشؤون الأخرى التي حدثت في دولة موسكو وفي البلدان

(١) المصدر السابق ، ص ٣٩٠ .

المجاورة الأخرى»^(١) . وكانت الجريدة تعتمد على المعلومات التي كانت تتلقاها من تركيا ، وتقتبس الأنباء والمعلومات من الصحف الألمانية والهولندية في نفس الوقت . ففي عدد آذار (العدد الحادي عشر) من سنة ١٧٠٢ على سبيل المثال نجد بياناً طريفاً عن العلاقات التجارية بين روسيا وتركيا : « يوجه التجار الروس والأجانب على الحدود من آزوف تجارتهم ، وهي ضخمة جداً إلى تساريغراد (القسطنطينية) ، وكذلك يحملون إلينا من تساريغراد وبلاد أخرى بضائعهم وسلعهم المتنوعة بدون عائق ويجنون من وراء ذلك فائدة غير قليلة »^(٢) . ويتبين من الأخبار الكثيرة المنشورة في الصحف مدى الاهتمام الواسع بالأنباء التي تخص الأحداث في الأمبراطورية العثمانية ، وهي لم تكن مقتصرة على القضايا السياسية فقط . وهكذا ففي « الكشوف » الصادرة في تموز سنة ١٧١٩ : « قبل وصول ممثل بطرس بعدة أيام حدثت زلازل في تساريغراد استمرت مدة ثلاثة أيام ، وقد تهدم جانب من أسوار المدينة طوله (٢) سازين . من جانب البحر من جراء تلك الزلازل »^(٣) .

رحلة ماكاري وسيليفيرست

كانت رحلات وأسفار التجار والحجيج مستمرة إلى الشرق الأوسط في عهد بطرس كما كانت في السابق . فقد وصلتنا بعض الملاحظات والانطباعات والمذكرات اليومية من طائفة من الحجيج . ففي سنوات ١٧٠٤ - ١٧٠٧ قام الراهبان ماكاري وسيليفيرست برحلة من نوفغورود الشمالية إلى مدينة القدس عن طريق كييف ، وفاستوف ، ونيميروف ، وسوروكي ، وياسي ، وگالاتس ، وخلال مجرى الدانوب ، ثم عن طريق البحر إلى القسطنطينية^(٤) .

(١) « كشوف عهد بطرس الأكبر » ، النشرة ١ - ٢ ، موسكو ، ١٩٠٣ و ١٩٠٦ . (فيما بعد « كشوف ») .

(٢) « كشوف » ، النشرة ١ ، ص ٣٢ .

(٣) « كشوف » ، النشرة ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٤) « الحجيج الكتاب في عهد بطرس وما قبله ، أو الرحالة في المدينة المقدسة أورشليم » ، تعليقات

الأرشمندريت ليونيد . يراجع : « قراءات في الجمعية الأمبراطورية للتاريخ والتاريخ القديم الروسي في جامعة موسكو » ، الكتاب ٣ ، ١٨٧٣ ، القسم ٥ (« متنوعات ») ، ص ١ - ٢٦ .

وهناك في مذكرات الحجيج بجانب الملاحظات ذات الطابع الديني معلومات عن الجغرافيا ، والتاريخ ، والاتنوغرافيا ، وهي دليل اهتمام الحجيج الواسع المتشعب .

وصل ماكاري وسيليفيرست إلى القسطنطينية في ١٠ نيسان :

« وقد تعرفنا على جماعتنا من الروس الذين سافروا بحراً على متن سفينة صغيرة ، ثم أخذونا معهم في قواربهم وتوجهنا إلى بيشيك تاش ، والتقىنا بالراهب الروسي الأب كريكورس » . تشهد هذه الكلمات على أن جالية روسية كانت تمتهن التجارة في القسطنطينية في ذلك الحين . وقد عاش الرحالة المسافرون في المدينة مدة شهرين ، ثم شرعوا بالسفر لإكمال برامج رحلتهم في ١٠ حزيران .

وكان اهتمام الحجيج في مصر قد تركز على تنظيم وتوزيع المياه : « فالقضية الأولى هي كيف يحصلون على المياه : لا يوجد أي نهر في الإسكندرية عدا البحر ، ومياه البحر مالحة جداً ، لا يمكن استعمالها للشرب ، أما نهر النيل الذي يجري في الأراضي المصرية فهو بعيد ، وتقدر المسافة بين الإسكندرية ونهر النيل بمسيرة أربعة أيام ، ويتم سحب مياه نهر النيل بقنوات تحت الأرض حتى تصل الإسكندرية » .

ثم يشير الحجيج إلى دور النيل في حياة البلاد : « يروي ذلك النهر جميع الأراضي المصرية ؛ لا وجود للأمطار في هذه البلاد ، ولا وجود للشتاء كذلك ، ومياه ذلك النهر المسمى بالنيل غزيرة وكثيرة جداً ، فهو يروي جميع الأراضي المصرية ، ويحل محل الأمطار ؛ ويقوم سكان تلك البلاد بحصر المياه في الحفر والخنادق ، ثم يفتحونها على مزارعهم ، ويحتفظون بالمياه في تلك الحفر لمدد مختلفة حتى ترتوي الأرض ...

ولا تغطي الأراضي المصرية أية نباتات عدا النخيل كما هي الحال في بلادنا بالنسبة للأدغال الواسعة العظيمة ، وهي غزيرة كغزارة النخيل في أرض مصر ؛ أما حرارة الشمس فلا حدود لها ؛ ولا توحى الأراضي المصرية إلى البهجة والفرح ، والناس فيها ليسوا طبيين » . (لماذا الناس ليسوا طبيين ! من المحتمل أنهم كانوا ضعاف البنية ، أو أصابهم المرض والسقم وهم في صحة غير جيدة . فكلام الحجيج

هنا غير واضح) . وزار الحجيج عدا الاسكندرية القاهرة (مصر) ، ودمياط ، وتوجهوا بعد ذلك عن طريق البحر إلى يافا^(١) ، ثم خلال اللد وصلوا مدينة القدس . وكان الطريق وعراً ومتعباً جداً :

« كان الطريق صعباً ومخيفاً ، وارتداد مثل هذه الطرق ليس بإمكان جماعة صغيرة مطلقاً خشية اعتداءات البدو ، وبالإضافة إلى ذلك إن الطريق وعر ، فهو عبارة عن جبال عالية جداً ، وكتل مكدسة من الصخور ، ولا بد من النفوذ في تلك الجبال لقطع الطريق ، وهناك البدو وهم متهيؤون للنهب دوماً ؛ ولا وجود لأي نوع من الأشجار والشمار في تلك الجبال ، وهي محرومة من المياه ، أما الحرارة فلا حدود لها » .

أقام الحجيج في مدينة القدس حوالي السنة . ويحتل وصف الأماكن المقدسة في المدينة ، وضواحيها ، ومختلف أنواع الأساطير أكثر من نصف الكتاب ، أما الاهتمام بالنشاط الاقتصادي للسكان فهو قليل إلى حد ما .

عاد الحجيج إلى بلادهم في أيلول سنة ١٧٠٦ . وفي طريق العودة بالقرب من قبرص وقعوا تحت رحمة عواصف وزوابع قوية وشديدة جرفتهم إلى مدينة أداليا . وكان سفرهم فيما بعد عبر أماكن لم يروها وغير معروفة لديهم . وقد علموا في أداريا بأن قافلة خرجت إلى تساريغراد (القسطنطينية) فالتحقوا بها ، وهكذا وصلوا إلى مدينة تساريغراد بسلام .

« وقد طوينا الأرض مع تلك القافلة حتى وصلنا إلى مدينة تساريغراد ، وكان سفرنا على ظهور الدواب ، وهناك أحياناً مناطق لا يمكن قطع الطريق فيها حتى على الحيوانات لوعورة الجبال الصخرية الهائلة المخيفة . ولا تستطيع الجماعة الصغيرة أن تعبر الطريق بسلام أيضاً ، لأن أحداث السلب والنهب كثيرة . وقد استمر السفر في ذلك الطريق البري مع جماعة من الترك مدة ثلاثين يوماً ، فوصلنا إلى المدينة التي تسمى بروسة » . ثم توجه المسافرون من بروسة إلى تساريغراد حيث قضوا فيها

(١) كان مكاربي وسيلثيرست بحملان فرمان السلطان الذي كان قد حصل عليه ب . إ . تولستوي

فصل الشتاء ، وفي ربيع سنة ١٧٠٧ عادوا إلى بلادهم على ظهر إحدى السفن :
« وصلنا بسرور من تساريغراد إلى الأمبراطورية الروسية » . واستغرقت الرحلة
لفترة من كانون الأول سنة ١٧٠٤ حتى تموز سنة ١٧٠٧ .

رحلة فيشينسكي

خرج الراهب إيسوليت فيشينسكي في سنة ١٧٠٧ من نيترني ، وعن طريق
كيبف ، وياسي ، وبوخارست ، وتساريغراد وصل إلى يافا في ٩ نيسان سنة
١٧٠٨ . ثم توجه إلى دمياط ، وسلك مجرى النيل حتى دخل القاهرة ، وسافر من
هناك إلى سيناء ، ثم عاد إلى القاهرة مرة أخرى ، وزار دمشق ، وصيدا ، ويافا ،
وعن طريق الرملة دخل مدينة القدس في ٢ أيلول سنة ١٧٠٨ وأقام فيها حتى ٢٨
نيسان سنة ١٧٠٩ . ثم توجه فيشينسكي من مدينة القدس عن طريق يافا ، وأيون
إلى تساريغراد ، وفي نفس السنة عاد إلى جيرنيكوف^(١) .

رحلة ايغناتييف

كان الراهب أندريه ايغناتييف وأخوه ستيفان ضمن البعثة الدبلوماسية التي
كان يرأسها پ . إ . تولستوي . ولقد خرجا من القسطنطينية في تشرين الأول سنة
١٧٠٧ وقاما برحلتها فزارا مصر ، ومدينة القدس ، وجبل سيناء^(٢) .

(١) لم تطبع مخطوطة « السائح الراهب إيسوليت فيشينسكي » يراجع عنها :

Noroff, Pelerinage en terre Sainte de l'igoumene russe Daniel, 1864, p.214; Tobler,

Bibliographia geographica Palestinae, 1867, p.120.

ويراجع كذلك بصورة خاصة : ف . خيتروفو ، فلسطين وسيناء ، القسم ١ ، النشرة ١ ، سانت
بيترسبورغ ، ١٨٦٧ ، ص ٢٣ - ٢٦ ؛ س . بنونوماريوف ، مدينة القدس وفلسطين في الأدب والعلم
والفن والترجمة الروسية ، « منتخبات قسم اللغة والأدب الروسي في أكاديمية العلوم » ، المجلد ١٧ ،
النشرة ٢ ، ١٨٧٧ ، ص ١١ .

(٢) « قراءات في الجمعية الامبراطورية للتاريخ والتاريخ القديم الروسي في جامعة موسكو » ،

الكتاب ٣ ، القسم ٥ (« متنوعات ») ، ١٨٧٣ ، ص ٢٧ - ٥٤ .

وليست لمذكراتها في الواقع أية أهمية تذكر ، لأن اهتمام المسافرين انصب بصورة خاصة على الأماكن المقدسة . وقد وردت في المذكرات معلومات ضئيلة عن القيمة الاقتصادية والزراعية لنهر النيل ، وفيها وصف لمصر يجلب النظر إلى حد معين : « وهناك على طول ذلك النهر الذي يسمونه بالنيل ، من الجانبين وحتى مصر [القاهرة] بساتين للنخيل ، وهي ضخمة ، وكثيرة ، وواسعة ؛ ويقولون هناك بعض البساتين عرضها خمسة فراسخ ، وفي أماكن أخرى بساتين كثيرة يقدر عرضها بعشرة فراسخ ، وهي تعود إلى السكان الذين يعيشون في هذه الأصفاع ، وهم من العرب والترك ، وهي تمتد حتى راخيتي (الرشيد) ، وعلى ضفتي النهر أراضي كثيرة رطبة وواطئة فيها من القصب الشيء الكثير ، والتربة سوداء غرينية ، ويزرعون فيها الأرز بكثرة ، وإنتاجه غزير ، والمياه متوفرة للبساتين ، وحفرت آبار كثيرة في الشاطيء ، وعلى كل بئر دولا ب كبير يرفع المياه ويدفعها إلى القطاعات المختلفة ، وفي حالات أخرى تؤخذ المياه من النهر مباشرة » .

وعاد ايگناتييف من مدينة القدس إلى القاهرة ، توجه في سنة ١٧٠٨ بصحبة القوافل إلى جبال سيناء : « كانت القافلة تحمل الحبوب إلى محطة في السويس حيث تنقل إلى مضائق البحر الأسود ، وقد استمر سفرنا ليلتين ونهارين غير اننا كنا في خوف وقلق نخشى اللصوص وقطاع الطرق ؛ وكانت الصحراء ناعمة ، وهي جافة إلى حد لا وجود للماء ، ولا الحشائش ، ولا أي نوع من الأشجار فيها . كانوا يحملون الماء في جلود الماعز ، ويشحنون سفن البحر الأسود المحلية في تلك المحطة بالحبوب فقط ، ويحملونها إلى مكة . . . وعندما يحملون الحبوب على الإبل إلى مكة ، فإنهم يحملون البن في القرب على نفس قوافل الجمال إلى مصر » .

لا شك بأن لهذه التفاصيل بعض الأهمية ، لأنها قضايا تتعلق بالتجارة مع مكة واليمن . ثم عاد المسافران من سيناء إلى مصر ، وفي أيلول سنة ١٧٠٨ دخلا نساريكراد (القسطنطينية) .

رحلة فارلام

كان الراهب فارلام ، وهو قسيس الفيلدمارشال ب . ب . شيريميتيف قد

توجه إلى القسطنطينية للخدمة لدى السفيرين الروسيين البارون شافيروف والكونت شيريميتش مع رتل من أرتال القوات التركية فوصل إلى أدرينوبول (أدرنة) في ٢٩ أيلول ١٧١١ ، وفي تشرين الثاني دخل القسطنطينية . وبعد توقيع إتفاقية السلام مع الترك تسلم فارلام الفرمان السلطاني بالموافقة على السفر ، وفي آب سنة ١٧١٢ توجه إلى مدينة القدس^(١) .

تتضمن « مذكرات فالارم عن رحلته » بصورة خاصة وصف الأماكن المقدسة في فلسطين منها مدينة القدس ، وبيت لحم وأماكن أخرى .

رحلة لوكيانوف

تمت رحلة القس الموسكوبي المحافظ يوآن لوكيانوف في سنة ١٧٠٣ ، إلا أنه أشير خطأ إلى سنتين أخريين وهما (١٧١٠ - ١٧١١) على غلاف الكتاب^(٢) .

خرج لوكيانوف من موسكو في ٢٣ كانون الأول (لا تذكر السنة في النص) . سار الرحال خلال كالوگا ، وليخفين ، وبيليف ، وأريبول ، وسيشسك ، وكروما ، وغلوخوف ، وكوروليفيتس ، ونيرني ، وكييف ؛ ومن كليف دخل سوروكي في ١٧ شباط عن طريق فاستوف ونيميروف . وكانت سوروكي مدينة صغيرة على الحدود بين بولونيا وفالاكيا في ذلك الوقت . ومن سوروك توجه لوكيانوف إلى ياسي : « تقع مدينة ياسي على جبل جميل المنظر ، وحوها جبال عالية ، كانت قديماً مدينة كبيرة ، غير أنها تهدمت الآن بيد الترك والبولونيين^(٣) . » وإن أراضي الفولغا خالية تماماً ، وقد أصابها التمزق ، فهي تتبع بولونيا أحياناً ، وأحياناً أخرى تعود لنا أي إلى كليف ، وأخرى يحكمها بالي^(٤) . وإذا ما نجت هذه الأراضي من الهدم ، فإن أراضي أخرى لا

(١) « قراءات في الجمعية الإمبراطورية للتاريخ والتاريخ القديم الروسي التابعة لجامعة موسكو » ، الكتاب ٣ ، القسم ٥ (« متنوعات ») ، ١٨٧٣ ، ص ٥٥ - ٧٨ .

(٢) « رحلة الراهب الموسكوبي يوآن لوكيانوف إلى الأراضي المقدسة ١٧١٠ - ١٧١١ » ، موسكو ، ١٨٦٢ ؛ « الأرشف الروسي » ، النشرة ١ - ٥ ، ١٨٦٣ .

(٣) « مقالات في تاريخ الاستشراق الروسي » ، المجموعة ٢ ، موسكو ، ١٩٥٦ ، ص ٣٩٩ .

(٤) بالي (بالي) : زعيم الحركة التحررية للشعب الأوكراني في الساحل الأيمن من أوكرانيا ضد النير البولوني في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر (توفي في سنة ١٧١٠) .

يمكن أن تنجو بسرعة ! وإن أرض الميعاد تلد أشياء متنوعة ! وهم أنفسهم يقولون : لدينا خامات من الذهب والفضة ، ولكن لا نستفيد منها ، متى ما استطعنا أن لا نرى الترك بين ظهرانينا ، فإننا في ذلك الوقت يمكننا أن نستفيد من تلك الخامات «^(١)» .
وتحدث لوكيانوف عن رئيس الدولة الذي كان يصطهد رجال الدين ، فعزلهم ونصب بدلهم يونانيين كانوا يعيشون حياة ملؤها الفسق والفجور .

ثم سافر الرحال من ياسي إلى غالاتس ، واستمر في سفره حتى انتهى به إلى القسطنطينية . وقد وصف العاصمة بشكل مفصل ، تناول ساحاتها ، وشوارعها ، وبيوتها ، ومساجدها ؛ وأشار إلى أن المدينة غير محصنة بالمدافع والتحصينات الأخرى ، غير أن هناك « أنواعاً مختلفة من القذائف والعُدَد على ظهر السفن ، وهي مقترنة بالمراقبة العسكرية في البحر ، وأما في اليابسة ، فلا يُخشى من أي شيء .

ولا يحس المرء بوجود الاحتيال واللصوصية في تساريغراد (القسطنطينية) مطلقاً ، يشنقون الناس هنا بسبب سرقة بسيطة ، ولا يحترم الترك السكاري أيضاً ، وهم أنفسهم لا يشربون الخمر ، وإنما يشربون الماء ويرتشفون القهوة فقط ، وهي ماء أسود مغلي . . . أما من حيث البضائع والسلع فإن تساريغراد أغنى وأكثر ثراء من موسكو . . . وهي تتفوق في جميع البضائع على موسكو بخمس مرات . . . وتكثر الأسواق والحوائيت في تساريغراد وهي تبلغ ضعف ما موجود في موسكو . . . وفي تساريغراد بساتين ينتهي موسم أزهارها في الأسابيع الأولى من أيام الصوم الكبير ، أما الخضر فإنها تنضج قبل « الأحد المنير » كالباقلاء ، والشوندر ، والفجل والأنواع الأخرى المختلفة من الخضار والزهور . . . يصنعون الخبز في تساريغراد من الحنطة فقط ، ولا يصنعون الخبز من حبوب ونباتات أخرى ؛ والخبازون هم من الأرمن ، أما الطواحين فهي تدور بقوة الخيول . . . والسرطان البحري في تساريغراد هائل جداً يبلغ طوله ذراعاً واحداً . . . ولا توجد المدافئ في المدينة ، وكذلك لا يحتفظ الترك بمقاعد في منازلهم ، ولا يستعملون المناضد والموائد ، يجلس الجميع على الأرض ، ويفرشون البسط . . . وهناك وسائل يجلسون عليها .
ويطبخون المأكولات والأطعمة على الأثافي ، أما في فصل الشتاء فيضعون الفحم في

(١) « مقالات في تاريخ الاستشراق الروسي » ، ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .

قدور خزفية للتدفئة ، وهم بهذه الطريقة يتدفاون «^(١)

ويتحدث لوكيانوف كذلك عن لقاءاته في القسطنطينية مع التاجر الموسكوبي فاسيلي نيكيتين بوتيمتس الذي كلفه لويكانوف وجماعته أن يقوم ببيع البضائع التي كانوا قد جلبوها معهم . ثم يصف البضائع المعروضة للبيع في الأسواق ويذكر أسعارها ، ويتطرق إلى النظام النقدي في البلاد وقيمة عملات البلدان المختلفة بعضها بالنسبة للبعض الآخر .

وزار لوكيانوف سجون الأشغال الشاقة التي كانت تضم المحتجزين الروس ، وكان هؤلاء في حالة تدمر شديد ، وقالوا بأن أوكراينتسيث « قد تراجع وخشي الترك ولم يستطع أن يعمل في سبيل إطلاق سراحهم » . « لماذا لم يعمل في سبيل إطلاق سراحنا ، إننا اقتحمنا الموت في سبيل عاهله هو ، وسفكنا دماءنا ، ونعاني الآن المشقات ، غير أن صراخ الناس البسطاء مهما كان عالياً لا يدفع المحنة ولا ينقذ . . .

لا يعيش السلطان في تساريغراد ، وإنما يقضي أوقاته في أدريانوبول (أدرنة) ، وهو يخشى العيش هنا لأن الانكشاريين يحاولون قتله . وهم أناس عنيدون ويتصرفون وفق أهوائهم ويعملون ما يريدون . وإذا ما التقوا بالباشا أو أي عقيد في الجيش فإنهم يخنفونه ويقضون عليه بسبب ذنب أو مخالفة حتى إذا كانت صغيرة . وتحدث الفتن ، والعصيان ، والاضطرابات في تساريغراد بكثرة وسببها الأساسي هو فرق الانكشارية . . . وقد حدثت أمامنا مثل هذه الاضطرابات .

هذه هي الصورة الواضحة للحياة والواقع المعاش في القسطنطينية كما رسمها لوكيانوف .

ثم سافر لوكيانوف إلى أدريانوبول في سبيل الحصول على « الوثائق السلطانية » أي الحصول على الفرمان الذي يميز له الاستمرار في رحلته وتنفيذ خطة سفره : « تقع مدينة أدريانوبول في مكان سهل منبسط ، تقع بعض أصقاعها على الجبل والبعض الآخر في السهل . أما من حيث المؤسسات والمنازل فهي أكثر من مدينة ياروسلافل ؛ والمدينة مبنية من الحجر ، وهي أسوأ من تساريغراد ، تكثر فيها

(١) المصدر السابق ، ص ٤٠٠

صفوف البنايات ، الشوارع والدروب الضيقة ، أما الأسواق التجارية فهي كثيرة ؛ والمساجد أكثر ، ويقع قصر السلطان على ضفة النهر تحيط به الحدائق والبساتين ، وهو أصغر من نهر موسكو ، وماؤه غير صاف ،^(١) .

بقي لوكيانوف في أدريانوبول ستة أيام حصل خلالها على الفرمان السلطاني اللازم للسفر إلى مدينة القدس ، ثم ركب البحر وتوجه نحو مصر : « وصلنا في ١١ آب إلى نهر النيل ، النهر الذي يتدفق من الجنة ، ولكن مياهه عكرة غير صافية ، وكان البحر كله غير صاف بسبب الترسبات الغرينية لمسافة ثلاثين فرسخاً بشكل دائري ؛ وكان يبعد مصب نهر النيل بمقدار خمسة فراسخ ، وكان رسو السفن صعباً لأن النهر يجرف معه الرمال ويكون البحر عند المصب غير عميق » . وكان المسافرون قد وصلوا إلى الرشيد بالقوارب : « كان فزعنا شديداً عندما شاهدنا جماعة من العرب ، وإن مشاهدة مثل هؤلاء الناس شيء غير طبيعي . . . بعضهم عراة ، كما ولدتهم أمهاتهم ، وهم متوحشون فيهم الأحذب والأعور والأعمى . لغتهم فظة خشنة . . . يسرون وهم حفاة ، والفتيات اللاتي رغم بلوغهن الثانية عشرة والخامسة عشرة يسرن عاريات ، إنه أمر فضيح لا مثيل له . . . ولا وجود للأمطار في مصر مطلقاً ، تروي جميع الأراضي فيها بمياه النهر ، وهناك أنفاق ، وخنادق ، وحفر في كل مكان يجمعون فيها المياه ، وبها يسقون الحقول أو يوصلون الماء إليها . إن نهر النيل واطيء ، والضفاف واطئة أيضاً ، وهو يجري في مستوى الضفاف تماماً . وتنضج الخضار المختلفة في مصر مرتين في السنة ، وكذلك القمح . . . » .

وأشار لوكيانوف عندما كان يمخر في نهر النيل إلى أنه « هناك على جانبي نهر النيل مدن وقرى عربية كثيرة لا تعد ولا تحصى ، وتبعد رمال البحر كل مدينة عن الأخرى بمسافة فرسخين . والأراضي التي تحيط بالنيل خصبة وسوداء وسهلة كأنها مصنوعة كذلك عن عمد ، ولا وجود للتلال والروابي فيها مطلقاً ، فهي ملساء إلى حد تتدحرج البيضة عليها ، ولا تستطيع أن تستقر . وعدد السكان كبير جداً ، والنيل هو الذي يسقي جميع الأراضي المصرية . . . فإذا كانت الضفاف عالية فيسحبون الماء بواسطة الثيران ، وهي تحرك العجلات الشبيهة بالطواحين ، وترتبط بها

(١) المصدر السابق ، ص ٤٠١ .

دوارق وهي تصب المياه ، وينقل الناس المياه بالقرب أيضاً . والأراضي المصرية واسعة جداً تكفي للجميع ، للناس وللحيوانات . ولكن ماذا نقول ، إن الترك هم وحدهم الذين ينعمون بهذه القيعان الذهبية ، وتصدر بضائع وسلع كثيرة عن طريق البحر من مصر إلى تساريغراد .

ثم توجه لوكيانوف عن طريق البحر إلى فلسطين دون أن يعرج على القاهرة والاسكندرية لزيارتها . وعاش بعض الوقت في مدينة يافا (يوبيا) . « عندما كنا نعيش في يوبيا ، كان الفقر المدقع شيئاً واضحاً فيها ، وكان القراصنة ينهبون السفن ، وهم من جزيرة مالطا ومن أصل الماني ، انهم ناس ظالمون خشنون ، وقد غدوا سادة البحر في هذه الأطراف ؛ وان بابا روما هو الذي يوجههم للنهب والقراصنة ، ويبارك عملهم في اليااسة أيضاً ، وفي كل سنة يطلقون سراح ثلاثة عشر غولين [نوع من السفن] »^(١) .

وهكذا لم يغب اشتراك بابا روما في النهب والسلب مع فرسان مالطا عن اهتمام لوكيانوف^(٢) .

ثم دخل لوكيانوف بصحبة قافلة كانت تضم ألفاً وخمسةائة شخص مدينة القدس . أما وصفه لمدينة القدس والأماكن الأخرى من فلسطين فقد كتب بروح الحجيج اللاهوتية .

وفي كانون الثاني (من المحتمل سنة ١٧٠٦) عاد لوكيانوف إلى روسيا من مدينة القدس عن طريق يافا ، وعكا ، ودمياط . وأثناء سفره إلى القسطنطينية توقفت سفينته أكثر من أسبوعين بالقرب من كاستيللوريتسو ، وذلك خوفاً من غارات سفن القراصنة . والتقى لوكيانوف بالتجار الروس في القسطنطينية منهم إيقان كادمين ، وأخيه وجماعة من أسرة ژيتكوف . ثم عاد لوكيانوف من القسطنطينية إلى وطنه عن

(١) المصدر السابق ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٢) فرسان مالطا : أعضاء منظمة دينية فروسية ، تأسست في سنة ١١١٨ في مدينة القدس لغرض مساعدة المرضى لإدخالهم إلى المستشفى ، وكانوا يسمونهم بـ (اليونانيين) . استقروا في سنة ١٥٣٠ في مالطا واستقرت منظماتهم هناك وأصبحوا يسمون بمنظمة مالطا . وهم أنفسهم كانوا يقومون بأعمال القراصنة باسم الدفاع عن البحر الأبيض المتوسط وشعوب شمالي أفريقيا من الترك .

البحر ، أما التجار فعادوا عن طريق البر . والتقى لوكيانوف بالتجار الذين كانوا قد سافروا عن طريق البر عندما قطع معهم المسافة إلى گالاتس بوساطة نهر الدانوب ، فعاد مع هؤلاء ودخلوا جميعاً مدينة كييف بسلام .

وأخيراً تعتبر مذكرات لوكيانوف أثراً مهماً من آثار بداية القرن الثامن عشر ، وهي تشهد على حب الاستطلاع ، واهتمام الرحالة الروس بحياة ومعيشة شعوب الشرق الأوسط .

رحلة نيجاييف

قام رجل التجارة والصناعة ماتفي گافريلوف نيجاييف برحلته في عهد بطرس إلى مدينة القدس في سنتي ١٧١٩ - ١٧٢٠^(١) . بدأ نيجاييف رحلته من پاروسلافل فوصل گالاتس عن طريق بولونيا ، ومولدافيا ، واجتاز فيما بعد سلسلة جبال البلقان : « هناك طرق صخرية بين تلك الجبال ، وهي وعرة جداً ، وتبلغ المسافة في تلك الجبال العالية مسيرة يومين ، يكون السفر شاقاً خلال الجبال ، فيضطر التجار أن يخففوا من ثقل البضائع والسلع في عربات النقل التي تجرها الثيران ، لذلك يحملون معهم البضائع الغالية النفيسة الصغيرة جداً . ومن الممكن رؤية البحر الأسود من بعيد في الجانب الأيسر من تلك الجبال الهائلة . ويمكن للمرء أن يشاهد قبل الهبوط من الجبال موقعاً مأهولاً بالسكان يعيش فيه البلغار والترك ، ثم سرنا من هذا الموقع إلى موقع آخر مأهول بالسكان هو كارناباف [كارنوبات] . وعبر نيجاييف من كارنوبات إلى أدريانوبول (أدرنة) : « يجري بالقرب منها نهر صغير ، وفي المدينة بنايات لا يستهان بها ، ودور للضيافة ، أما الحوانيت فهي كثيرة ، والسطوح فيها مغطاة بالرصاص . تستخرج المياه من باطن الأرض في مواضع كثيرة ،

(١) « رحلة رجل التجارة والصناعة ماتفي گافريلوف نيجاييف إلى مدينة القدس (١٧١٩ - ١٧٢٠) » ، إعداد : ن . ب . بارسوف ، وارشو ، ١٨٧٥ . (إن تاريخ ١٧١٩ - ١٧٢٠ غير واضح ، لأن نيجاييف نفسه يقول بأنه بدأ رحلته في « الصيف بتجسيد كلمة الرب سنة ١٧٢١ ، وفي شهر تموز ، واليوم ١٦ منه ») .

وهي عذبة وصالحة للشرب . والبنيات المرمرية كثيرة جداً . هذا بالإضافة إلى أن الموقع نضيف ، وهوؤه معتدل ، وهو في مكان بعيد عن البحر . وإن هذه الميزات بالذات جعلت سلاطين الترك أنفسهم أن يميلوا إلى مثل هذه المدينة ، لذلك يتردد عليها السلاطين من تساريغراد غالباً . . . وفي المدينة بنايات لا مثيل لها ، والأسواق والحوانيت جميلة وجيدة ، والأبراج والقصور مبنية من حجر المرمر الأبيض ، والسقوف من الخشب ؛ وهناك أنواع الخضار وهي غزيرة ومتنوعة ، وفيها الأعناب والخمر الحلو (القوي) ، ويصنعون الخبز من القمح وهو أبيض ولذيذ وإذا ما حدثت حرب بين الأتراك ودولة ما فإن أدريانوبول تصبح مركزاً يتجمع فيه الأتراك ثم ينطلقون منه .

دخل نيجاييف تساريغراد عن طريق سيليفري ، وبوبوك حكيمه ، وكوجوك حكيمه ، وقد أشار إلى أن « الطريق مبلط بالأحجار من أدريانوبول وحتس تساريغراد ، بما فيها المحطات والأماكن المأهولة بالسكان »^(١).

وصل نيجاييف إلى تساريغراد في ٨ تشرين الثاني : « أقمت في تساريغراد اثنين وثلاثين يوماً ، فتجولت فيها وشاهدت جميع أماكنها . إن جمال المدينة يدهش الإنسان ، وهي مزدهمة بالسكان ، ومرقاً السفن الذي تأتيه السفن من البحرين كليهما (يقصد البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط - م.خ .) ، ترسوفيه السفن الشراعية ، والزوارق البحرية ، وقوارب صغيرة وكبيرة وهي كثيرة جداً ، وهناك مختلف أنواع السلع ، والبضائع ، والخضار ، وهي لا تعد ولا تحصى . والقصور في المدينة عالية ، والأسواق والحوانيت مبنية بشكل جيد ، إنه لمدesh حقاً ، وهل هناك من لا يحسد مثل هذا المكان الرائع وهو في حوزة الأعداء ! والمدينة مزدهمة ، والشوارع ضيقة ، والقصور عالية ، يبلغ ضيق بعض الشوارع حداً بحيث لا يستطيع الفارس أو العربة المرور فيها . وهم يلبسون ملابس طويلة ، ويميلون في الغالب إلى اللون الأخضر ، ثم الأصفر ، تسير التركيات وبينهن عدد قليل فقط لا يغطين كل وجوههن لأن الأتراك اعتادوا على أن يعتبروا هذه العادة بعيدة عن الحياة »^(٢). ثم وصف نيجاييف المناظر الخارجية للمدينة ، وكما فعل لوكيانوف .

(١) « مقالات في تاريخ الاستشراق الروسي » ، مجموعة ٢ ، موسكو ، ١٩٥٦ ، ص ٤٠٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠٦ .

وزار سجون الأشغال الشاقة ، والتقى بكثير من السجناء الروس ، وغادر القسطنطينية بحراً في ٩ كانون الأول .

وتوقف في طريقه إلى مدينة القدس لبضعة أيام في جزر زيمبا ، ورودوس ، وقبرص : « يعيش هناك في الجزيرة [قبرص] جماعة من المندوبين الألمان ، لأن عدداً كبيراً من السفن الألمانية تتوجه إلى جزيرة قبرص وتستقر فيها . وهذه الأصقاع غنية بالزيت النباتي ، والخمور ، والأعشاب ، والأرز ، والليمون ، والجودار ، والتمور . . . وتنمو في تلك الجزيرة الأشجار التي تكون أوراقها غذاء للديدان (يقصد شجرة التوت ودودة القز - م.خ .) التي تصنع الحرير . وإن الجزيرة كبيرة جداً ومزدحمة بالسكان »^(١) .

ومن قبرص أبحر نيجايثف على ظهر سفينة فرنسية إلى يافا . وتعرضت السفينة لهجوم القراصنة المالطيين ، غير أنهم لم ينهبوها « لأن أولئك المالطيين هم من نفس البلاد التي يعيش فيها الفرنسيون ويشتركون معهم في الوطن » . إلا أنه حدث « أمامنا في البحر أن استولت سفينة أخرى على سفينتين ونهبتهما » . ثم يشير إلى : « أن أولئك القراصنة حينما يقبضون على الترك يأسرونهم ، لكن المسيحيين يكونون معرضين للنهب فقط ثم يطلقون سراحهم » .

دخل نيجايثف وجماعته فيما بعد عن طريق الرملة مدينة القدس . وجاء وصفه للمدينة بروح الحجيح بشكل عام .

ومما يجدر ذكره هو أن مخطوطة نيجايثف غير كاملة ، فالأوراق الأخيرة فيها مفقودة . والملاحظات الواردة فيها تتميز بأنها مقتضبة جداً ، وبالإضافة إلى ذلك لها بعض الأهمية (بالرغم من أنها أقل من حيث الكمية من ملاحظات لوكيانوف) ، وبصورة خاصة حينما يصف الطريق الذي سلكه في رحلته ، والروس الذين كانوا في الأسر ، وأعمال النهب الذي كان يقوم بها القراصنة المالطيون .

(١) المصدر السابق ، ص ٤٠٦ - ٤٠٧ .

رحلة نيبلويث

ذكر نيجايث في كتابه اسم المقيم الروسي لدى الحكومة السلطانية إيثان إيثانوفيتش نيبلويث ، وهو أحد « أفراخ عش بطرس الأكبر » اليافعين ، ضابط الأسطول البحري . كان قد نقل في سنة ١٧١٩ إلى السلك الدبلوماسي وكان عمره ٢٧ سنة حينما أرسل كمندوب إلى تركيا^(١) . وقد بقي نيبلويث في هذا المنصب مدة ١٤ سنة . يرتبط عقد المعاهدة الروسية - التركية في سنة ١٧٢٤ حول إقرار الحدود في القفقاس بين روسيا ، وتركيا ، وإيران بنشاط هذا الرجل . وكان لعقد المعاهدة أثره الكبير في تهيئة وضع لروسيا تستطيع فيه منع استيلاء تركيا على مناطق بحر الخزر في الساحل الإيراني . وقد ثمن بطرس الأكبر المعاهدة عالياً بالشروط التي قدمتها روسيا .

رحلة روميانتسيف

توجه رئيس الفرقة اليكساندر ايثانوفيتش روميانتسيف إلى تركيا لأجل تبادل وثائق إبرام المعاهدة . وكانت الرحلة هذه هي الثانية له إلى تلك البلاد (الأولى كانت في سنة ١٧١٢) . خرج من بيترسبورغ في تشرين الأول سنة ١٧٢٤ ، فوصل إلى بندراخ في ٢٧ تشرين الثاني ، وفي ٢٦ كانون الأول دخل القسطنطينية . قدم بطرس الأكبر توجيهاته إلى روميانتسيف مكتوبة بخط يده ، وكانت تتضمن برنامجاً واسعاً لدراسة تلك البلاد .

وكانت تركيا تعيق بمختلف الوسائل تنفيذ المعاهدة ، غير أن نيبلويث استطاع بجهود كبيرة أن يرغمها على التنازل . وهكذا خرج روميانتسيف في مايس سنة ١٧٢٦ ، فوصل إلى طرابزون ، ومنها إلى أرضروم ثم توجه بعد ذلك إلى قارص ، وكنجه ، وشاخى .

(١) ف . ف . فيتسكي ، ١ . ١ . نيبلويث مؤسس أورينبورغ وباني منطقة أورينبورغ ، قازان ، ١٨٩١ ، « ملاحظات إيثان إيثانوفيتش نيبلويث (١٦٩٣ - ١٧٧٣) » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٣ .

رحلة بوكسباوم

كان الطبيب بوكسباوم يوهان خريستيان ضمن سفارة روميانتسيف . وكان قد استقدمه بطرس الأكبر من الخارج إلى روسيا كمختص في علم النبات ويعمل في كلية الطب^(١) .

وردت في الإرشادات والتعليقات المقدمة إلى بوكسباوم ما يلي :

« عليه أن يقوم بصورة خاصة باكتشافات دقيقة في الممالك الثلاث في الطبيعة ، وأن يرسل أو يجلب معه إلينا كل شيء يمكن الحفاظ عليه ، كوضعه في الكحول مثلاً ومن ثم وصفه وصفاً دقيقاً . ومن الضروري أن يقوم بالبحث عن النباتات التي تستعمل في الأدوية . . . وكذلك عليه أن يضع يوميات دقيقة لما يحدث له وأن يبعث مع كل ساع للبريد بتقارير مفصلة على شكل رسائل إلى رئيس الأكاديمية » .

جاء بوكسباوم في أثناء تجواله بأرخبيل اليونان ، والأناضول ، وأرمينيا حتى تخوم إيران ، ثم مرّ بدربند وأستراخان ثم عاد إلى روسيا . ولم يكن اهتمام بوكسباوم مقتصرًا على دراسة النباتات فقط ، وإنما قد كلف الرسام الذي كان يرافقه أن يقوم برسم المناظر التي كانت تلفت انتباهه وكذلك تصوير حياة الناس ومعيشتهم ، وأزياء اليونانيين والترك . واستطاع بوكسباوم أن يجمع مواد اتنوغرافية غزيرة ، بالإضافة إلى ٤٠٠ قطعة من النقود النادرة من انطاكيا ، وكان من بينها نقود عهد الاسكندر المقدوني ، ومجموعة كبيرة من النباتات المجففة ، وكمية من الأسماك . والمنحجرات .

وقد تم طبع تقارير بوكسباوم وهي مزودة بتعليقات وشروحات أكاديمية العلوم^(٢) . وصف بوكسباوم في الرسائل التي بعث بها إلى رئيس الأكاديمية

(١) تم إنشاء حديقة وغرس النباتات التجريبية فيها في جزيرة أبنيكارسكي في بيترسبورغ في الفترة التي كان يعمل بوكسباوم في الكلية .

(٢) المعجم الروسي لسير الأشخاص ، (المجلد بيتانكور - بياكستير) ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٨ ، ص ٤٤٧ - ٤٤٩ م . بودنارسكي ، مقالات في تاريخ الزراعة الروسي ، موسكو ، ١٩٤٧ ، ص ٩٦ . يذكر بودنارسكي خطأً أن أ . إ . رازوموفسكي كان على رأس السفارة عندما كان بوكسباوم يعمل

بلومينتروست الرحلة التي قام بها ، وقد جاء وصفه مفصلاً ، ذكر فيه المسافات بين المدن . وفي إحدى رسائله يقول بأنه حصل على مجموعة كاملة وافية من النباتات في ضواحي القسطنطينية ، وهي غير معروفة لدى العلماء من قبل . وقد زار أمانة جزيرة (بروبونتيد) ، ومنطقة البوسفور الملاصقة لهوبوك دره .

وكتب إلى بلومينتروست عن زيارته لبروسه ، ووصوله إلى جبل أولمب : « وهو أعلى قمة في هذه البلاد ، تقع في خط الثلج الدائم ، ويجلب الثلج يومياً من هناك إلى القسطنطينية لتبريد كل ما يُشرب » . وعلى جبل الأولمب عثر على نباتات كثيرة نادرة .

ويورد ب . بيكارسكي التقييم التالي للأكاديمي ف . إ . روبريخت عن خدمات بوكسباوم : « في الفترة القصيرة التي قضاها في الأكاديمية وضع كتاباً عن ٥٠٠ نوع من النباتات الجديدة وأخرى غير المعروفة جيداً ، وقد جمعها في أسفاره ورحلاته في ضواحي القسطنطينية ، وآسيا الصغرى ، وعلى شواطئ بحر الخزر ، وكذلك بالقرب من بيترسبورغ »^(١) .

أشير في تقرير أكاديمية العلوم في بيترسبورغ لسنة ١٨٣٤ (باللغة الفرنسية) في عرض تاريخي موجز للأعمال في حقل علم النبات في روسيا منذ عهد بطرس الأول إلى أنه « ظهر في روسيا في سنة ١٧٢٦ أول عمل في علم النبات . . . وهو لبوكسباوم ، وقد زود بـ (٣٢٠) صورة ومجموعة كبيرة نفيسة من النباتات الجديدة . . . درس المؤلف نباتات ضواحي القسطنطينية . وفيما بعد سلك المسلك الذي كان يمتدي به العالم المشهور تورنيفور^(٢) . فقد زار سواحل البحر الأسود ، وآسيا الصغرى ، وأرمينيا . . . إننا مدينون لتورنيفور وبعده بوكسباوم بأولى

طبيياً فيها ، غير أن الصحيح هو أن أ . إ . روميانتسيف كان سفيراً حينذاك ؛ ب . بيكارسكي ، تاريخ أكاديمية العلوم الإمبراطورية في بيترسبورغ ، المجلد ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٠ ، ص ٢٣٤ - ٢٤٦ .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .

(٢) تورنيفور : عالم النباتات الفرنسي ، زار اليونان ، وآسيا الصغرى ، وما وراء القفقاس في سنة ١٧٠٠ وقد نشرت رسائله عن هذه الرحلة في سنة ١٧١٧ «Relation d'un voyage au Levant»

المعلومات عن غنى هذه البلدان بالنباتات»^(١)

رحلة سيلقيستر

كان راهبا دير ريخلوقسكي كل من سيلقيستر ونيكوديم قد قاما برحلة إلى القسطنطينية ومدينة القدس في سنة ١٧٢٢^(٢)، وهي تعود إلى عهد بطرس الأكبر أيضاً .

بدأت الرحلة في ١٩ نيسان سنة ١٧٢٢ . وشرع سيلقيستر ونيكوديم بالسفر من الدير الواقع في أبرشية جيرنيغوفسكي في جيرنيغوف ، ثم توجهها إلى كييف ، وقاسيلكوف ، ونيمروف ، وسوروكي .

وبعد اجتياز الحدود ، توجه المسافران إلى ياسي « كان الطريق الذي يؤدي إلى ياسي جميلاً جداً ، والجبال هناك كثيرة ومتنوعة ، والسهول بهيجة ، وغالباً ما توجد الغابات على جانبي السهول ، وهي بدون مياه لأنه لا وجود للمياه في هذه الأصقاع . وأما نهر بروت فيبعد عن ياسي بمقدار الميل ونصف الميل » .

كان إعجاب الرحالين بالمدينة شديداً ، فهما يشيران إلى الكنائس العديدة هناك ، ثم يصفان الطريق إلى گالاتس بشيء من التفصيل : « يبيعون الخمر بكثرة ، وهناك على الطريق حوالي الحقول مواقع تكثر فيها الأبار وعيون الماء . . . » . وبعد الإقامة في مدينة گالاتس أسبوعاً كاملاً أبحرا في الدانوب ودخلا بعدئذ البحر حتى وصلا القسطنطينية .

عاش الحاجان في القسطنطينية من ٢٥ حزيران حتى ١٥ آب في مقر مقيمة

(١) «Recueil des actes de la Séance Publique de l'Académie Imperiale des Sciences de St. Petersburg tenue le 29 decembre 1834» St. Petersburg, 1835, p.89.

(٢) « وصف رحلة راهبي دير ريخلوقسكي - نيكولايفسكي سيلقيستر ونيكوديم إلى تساريكراد (القسطنطينية) وأورشليم (القدس) في سنة ١٧٢٢ » ، « أعمال أكاديمية كييف المدينة » ، كييف ، ١٨٨٣ ، مايس ، ص ١٩٢ - ٢٠٤ .

نيپلويث ، أي في السفارة الروسية . وقد ذكرا عن وقوع كارثة في هذه الفترة في تساريغراد حيث : «انتشر بسرعة وباء يسمونه بالطاعون ، وقد سبب وفاة خلق كثير» . حتى ان سيلقيستر نفسه لم ينج من المرض : « أصابني هذا المرض أيضاً ، غير أنه أصاب جسمي من الركبة اليسرى حتى أسفل وسط جسمي » . فنقل نيپلويث المسافرين من مقره إلى مكان آخر ، ثم زودهم بفرمان السلطان العثماني وفيه الموافقة على سفرهم إلى مدينة القدس . وفي القسطنطينية زار الكنائس والمعالم الأخرى في المدينة .

وهكذا أبحر سيلقيستر ونيكوديم في ٢١ أيلول إلى مدينة القدس ، وقد توقفوا في طريقهما في سيكيز (خيوس) ، وفي جزيرة رودوس : « عشنا في تلك المدينة وتجولنا في كل مكان في شوارعها بحرية تامة . . . إن تلك المدينة ، وهي رودوس عبارة عن قلاع مبنية بالحجر ، وتحيط المدينة أسوار حجرية وحولها خنادق كبيرة وعميقة . . . » .

ثم يصف الحاجان جزيرة قبرص بتفصيل . هنا ينقطع الكلام بسبب فقدان جزء من المخطوطة ، وفي الواقع احتفظ بنصف المخطوطة فقط .

لقد زار في الفترة التي استغرقت أكثر بقليل من ربع قرن عدد كبير جداً من العسكريين ، والحجيج ، والتجار الروس القسطنطينية ، وآسيا الصغرى ، ومصر ، ومدينة القدس ، وأماكن أخرى في الشرق الأوسط وكان الاهتمام ببلدان الشرق الأوسط في عهد بطرس الأول بشكل خاص في نمو وتطور ، وأنجزت في روسيا أعمال مثمرة وجيدة في دراسة الشرق الأوسط .

وقد تمت في هذه الفترة المحاولة الأولى لتأسيس مدرسة خاصة باللغات الشرقية : « أضاف العلم الجغرافي الروسي في عهد بطرس الأول رصيماً كبيراً على حصيلة العلوم الجغرافية العالية »^(١) . فالتعرف على الشرق الأوسط في الربع الأول من

(١) م. د. ليبديث ، الجغرافيا في روسيا في القرن السابع عشر ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٩ ،

القرن الثامن عشر ، والرحلات التي تمت في الشرق الأوسط لم تؤد وما كان بإمكانها أن تؤدي إلى إكتشافات عظيمة مشابهة للاكتشافات التي حدثت في الأقسام الشمالية الشرقية لآسيا وفي المياه المجاورة للمحيط المتجمد الشمالي ، والمحيط الهادي ، ولا إلى مثل الأعمال التي كانت حصيلتها رسم الخرائط الجغرافية ، كالخريطة الجغرافية لبحر الخزر التي وضعها ف . إ . سومونوف على سبيل المثال . غير أنه ليس من الصواب عدم تلمين تلك المعلومات العميقة الجديدة عن الشرق الأوسط التي أضافها إلى العلم الروسي أشخاص روس لهم مواهب معينة خاصة . وبدون شك كانت للمعلومات المتنوعة المختلفة عن الشرق الأوسط في تلك المراحل أهمية تطبيقية بحثية .

الفصل الثالث

الربع الثاني من القرن الثامن عشر

ترجع الخطوات الأولى على طريق تأسيس الاستشراق العلمي في روسيا إلى الربع الثاني من القرن الثامن عشر . وكانت قد تأسست أكاديمية العلوم في بيترسبورغ في سنة ١٧٢٤ . وفي سنة ١٧٢٧ بدأت أكاديمية العلوم بنشر جريدة « كشوف سانت بيترسبورغ » التي واصلت نشر نفس المواد التي كانت تنشرها « الكشوف » الصادرة إعتباراً من سنة ١٧٠٢ وحتى سنة ١٧٢٧ .

كانت « كشوف سانت بيترسبورغ » تصدر باللغتين الروسية والألمانية . وقد تم تخصيص صفحات بارزة فيها لمعالجة شؤون البلدان الشرقية . وكانت تنشر بصورة مستمرة مواداً عن الأوضاع السياسية الداخلية ، والعلاقات الخارجية للإمبراطورية العثمانية . وتقتبس في نفس الوقت المواد والأنباء من الصحف الأجنبية ، وكان يعمل أحياناً ممثلو الدبلوماسية الروسية في الخارج كمراسلين لـ « كشوف سانت بيترسبورغ » .

وتعتبر « كشوف سانت بيترسبورغ » مصدراً مهماً للمؤرخين الذين يدرسون الإمبراطورية العثمانية . وانشىء ملحق باسم « الملاحظات »^(١) لـ « كشوف سانت بيترسبورغ » قبل سنة ١٧٤٢ ، وكان يتضمن مقالات علمية مبسطة ذات طابع تاريخي وجغرافي ، وكان الاهتمام كبيراً لتوضيح وتفسير الكلمات والمصطلحات الأجنبية على صفحاته .

(١) وضعت « الملاحظات » بالاستناد إلى المواد والمصادر المنشورة في أوروبا الغربية .

وفي الربع الثاني من القرن الثامن عشر ظهر في أكاديمية العلوم بعض الأجانب من الذين كانوا يعرفون اللغات الشرقية ، وكان أشهرهم باير وكير .

تلقى هوتليد زيگفريد باير^(١) العلم في جامعة كينگسبيرغ ، ودرس اللغات الصينية ، والعبرية القديمة ، والعربية . وانتقل في سنة ١٧٢٥ إلى بيترسبورغ حيث عمل في قسم الشرق القديم واللغات الشرقية في أكاديمية العلوم .

ثم كتب باير مجموعة من المؤلفات تخص الشرق الأوسط . ومن بين تلك الأعمال التي لها أهمية كبيرة كتابه « وصف موجز للوقائع المتعلقة بأزوف منذ تأسيس تلك المدينة حتى عودتها إلى الدولة الروسية » (صدر في بيترسبورغ في سنة ١٧٣٤) و « سيرة وأعمال الأمير كونستنتين كانتيمير » .

يقول الأكاديمي كراچكوفسكي عن باير « ظهرت عندنا لأول مرة أهمية المواد والمصادر الشرقية لتاريخ روسيا في أعماله التاريخية عن الحملة الأولى للروس على القسطنطينية ، وفي أعماله عن القفقاس والشرق الأوسط . . . وقد اعتمد باير أحياناً على المصادر العربية المتوفرة في ذلك العصر ، واستخدم الحروف العربية في أعماله ، وبالأخص في المجلدات الأولى من المنشورات الأكاديمية . . . »^(٢)

ولد گيورگ باكوڤ كير في سنة ١٦٩٢ في شليزينگين . وفي سنة ١٧٢٢ حصل على لقب الماجستير في جامعة لايبزيك . وقبيل قدومه إلى روسيا نشر مجموعة من أعماله العلمية ، وقد كان على معرفة جيدة بلغات شعوب الشرق الأدنى وخصوصاً اللغة العربية . وكان هذا العالم أول من برهن على أن الخط الكوفي ما هو إلا الخط العربي القديم^(٣) .

(١) يشتهر باير بنظريته الرجعية عن الأصل التورماندي للدولة الروسية القديمة ، وقد رده وانتقده م.ف. لومونوسوف في حينه ، ثم انتقده فيما بعد علماء آخرون من ممثلي الفكر الاجتماعي والسياسي التقدمي الروسي .

(٢) ا.ي. كراچكوفسكي ، مقالات في تاريخ الاستعراب الروسي ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٣) براجس عن كير : ن.س. ساقيليف ، نفسديرات عن تأسيس الأكاديمية الشرقية في سانت بيترسبورغ في سنتي ١٧٣٣ و ١٨١٠ ، « مجلة وزارة المعارف الوطنية » ، القسم ٣٩ ، سنة ١٨٥٦ ، طباط ، ص ٢٧ - ٣٦ ؛ م.ب. شوقالوف ، مقالة نقدية عن سيرة ونشاط المستشرق كير ، مجموعة الأرشيف العام في موسكو التابع لوزارة الشؤون الخارجية ، النشرة ٥ ، موسكو ، ١٨٩٣ .

وكان البروفيسور كير قد دعي إلى روسيا في سنة ١٧٣٢ لتدريس اللغات العربية ، والفارسية ، والتركية للشباب الملتحقين بكلية الشؤون الخارجية . ودرس على كير في كلية الشؤون الخارجية ستة تلاميذ قدموا من الأكاديمية الأرثوذكسية - اللاتينية في موسكو^(١) . وقد أرسل فيما بعد اثنان منهم وهما براتيشيف وجيكاليفسكي إلى فارس^(٢) .

وبالإضافة إلى ما تقدم وضع كير الخرائط الجغرافية للقفقاس وكافة أنحاء مناطق ما وراء القفقاس . وترتبط باسم كير كتابة المشروع الضخم لتأسيس « أكاديمية أو جمعية العلوم واللغات الشرقية في الإمبراطورية الروسية » باللغة اللاتينية في سنة ١٧٣٣ :

(«Academia vel Societatis scientiarum atque linguarum Orientalium in imperia Ruthenici emolumentum»).

ولقد ورد في هذا المشروع ، بأن العلاقات الدائمة بين روسيا مع عدد من البلدان (تركيا ، القرم ، وغيرها) تستدعي معرفة اللغات الشرقية . وأوضح كير بأن الموظفين الروس يجب أن يكونوا على معرفة بالبلدان الشرقية ، بقوانينها ، وأنظمتها ، وعاداتها وتقاليدها . وأشار إلى ضرورة دراسة الوثائق التاريخية « التاتارية ، والتركية ، والفارسية ، والعربية ، وغيرها » وذلك « في سبيل مصلحة الدولة » .

غير أن مشروع كير هذا لم يتحقق مع الأسف .

ويشمن الأكاديمي إ. ي. كراجكوفسكي عالياً نشاط كير . لقد أدهشته ضخامة مشروعه ، ومحاولته هذه « تركيب نظري وتطبيقي في الأعمال الاستشرافية التي أصبحت تتحقق منهجياً وبشكل منتظم بعد قرنين من الزمان تقريباً »^(٣) .

(١) ن. إ. فيسيلوفسكي ، معلومات عن تدريس اللغات الشرقية في روسيا بصورة رسمية ، سانت بطرسبورغ ، ١٨٧٩ ، ص ٥ .

(٢) سافر براتيشيف وجيكاليفسكي إلى كيلان في سنة ١٧٣٥ وأقاما لدى القنصل أرابوف . وغدا براتيشيف فيما بعد مقبلاً في رشت وكنجة (١٧٤٤ - ١٧٤٥) .

(٣) إ. ي. كراجكوفسكي ، مقالات في تاريخ الاستعراب الروسي ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٥٠ ، ص ٤٧ .



خط ورسم خالد الخالدي

خارطة طريق فاسيلي گريگورفيچ بارسكي

رحلة بارسكي

لعبت ملاحظات وانطباعات الرحالة والحجيج دوراً كبيراً في دراسة الشرق الأوسط في روسيا خلال بضعة مئات من السنين . وكانت جولة قاسيلي غريگوروفيتش- بارسكي (١٧١٠ - ١٧٤٧) في الربع الثاني من القرن الثامن عشر واحدة من « المسيرات » الأخيرة من حيث الفترة الزمنية .

إن قاسيلي غريگوروفيتش بارسكي (بلاكا ، وألبوف) ، هو من مواليد كييف ، راهب انطاكيا^(١) . وقد قضى نصف حياته في الرحلات في البلدان الشرقية (١٧٢٣ - ١٧٤٧) . تلقى بارسكي علومه في أكاديمية كييف ، إلا أنه لم يكملها . ثم سافر في سنة ١٧٢٣ إلى مدينة لقوف للمعالجة ، وفي سنة ١٧٢٤ زار بارسكي عدداً من المدن الإيطالية ، وأما في سنة ١٧٢٥ فقد دخل أراضي الأمبراطورية العثمانية .

مرّ بارسكي بسالونيك ، وأيون ، ويافا ، ومدينة القدس ، وسيناء ، وقبرص ؛ وزار جميع أنحاء فلسطين تقريباً . وأقام خمس سنوات في طرابلس عمل كمعلم في المدرسة الأرثوذكسية اليونانية . ثم دخل الرهبنة في إنطاكيا . وسافر بارسكي في فترة الحرب الروسية - التركية ١٧٣٥ - ١٧٣٩ إلى پاتموس . فتعرف هناك على كونستنتين بوليتانسكي (نيابوليتانسكي) وهو من أهالي بلده ، وكان رئيساً للكنيسة التابعة للسفارة الروسية في القسطنطينية . وعلمت السفارة الروسية عن بارسكي بطريق هذا التعارف . ففي سنة ١٧٤٣ دعاه المقيم الروسي في القسطنطينية أ.أ. فيشنياكوف للتعرف عليه .

وقد زود السائح بجواز السفر والفرمان السلطاني بالموافقة على سفره ، فخرج

(١) يسمى الرحال نفسه غريگوروفيتش ، وأحياناً بارسكي نسبة إلى مدينة بار ، وهي المدينة التي عاش فيها أجداده ؛ وأحياناً أخرى يسمى نفسه بلاكا أو البوف (وهما ترجمة اللقب العائلي بوباييف باللغتين الإغريقية واللاتينية) . يراجع : « المعجم التاريخي للكتاب الذين كانوا يحملون الألقاب الدينية في روسيا قديماً » ، سانت پيترسبورغ ، ١٨١٨ ، ص ٦١ - ٦٨ .

بارسكي من پاتموس في أيلول سنة ١٧٤٣ ، وفي كانون الأول وصل إلى القسطنطينية^(١) وزار في طريقه إيفيس ، وساكيذ ، وأقام في القسطنطينية حوالي النصف السنة بدون أن يكون له واجبات أو التزامات معينة . كان باستطاعة كريكوروف فيج - بارسكي أن يتعرف على المدينة بصورة جيدة . وتوجه في سنة ١٧٤٤ للمرة الثانية إلى أيون لأجل دراسة الأديرة والأرشيف ، ولأول مرة عرف علماء العالم على الآثار التاريخية المتمثلة في الأديرة الموجودة في أيون^(٢) .

وليس لدينا معلومات وافية عن حياة بارسكي بعد هذه الفترة ، فالمعلومات المتوفرة تشير فقط إلى أنه عاش أكثر من سنة في أيون ، ثم عاد ثانية إلى پاتموس ، وقبرص ، وآرت ، وأثينا ، وفي سنة ١٧٤٦ دخل القسطنطينية مرة أخرى . وكان المقيم الروسي فيها في هذه الآونة هو أ. إ. نيبليويثف ، لأن أ. أ. فيشنياكوف كان قد توفي .

ويعتقد روبان وبارسكوف^(٣) ، بأن نزاعاً قد حدث بين نيبليويثف وبارسكي ، وكانت نتيجة أن تفوه الأخير بـ « كلام سليط » مما حدى بنيبليويثف أن يهدد بارسكي ويضعه تحت « حراسة شديدة » ويبعثه على ظهر أول باخرة تتوجه نحو بيترسبورغ^(٤) .

مرّ بارسكي بعد خروجه من القسطنطينية ببولغاريا ، ورومانيا ، ومولدافيا ، وقالاخيا ، وبولونيا حتى وصل إلى كييف . وحينما كان بارسكي في بوخارست تلقى دعوة من إدارة مدارس كييف - بودولسكي لأشغال مقعد تدريس اللغة الإغريقية . فوصل بارسكي في ٥ أيلول سنة ١٧٤٧ إلى كييف ، غير أنه توفي بعد مرور شهر ، أي

(١) « جولات قاسيلي كريكوروف فيج - بارسكي في الأماكن المقدسة في الشرق من سنة ١٧٢٣ حتى سنة ١٧٤٧ » (فيما بعد « جولات ») . نشرتها الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية في ضوء المخطوطة الأصلية . بإشراف : نيكولاي بارسكوف ، القسم ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٦ ، ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .
(٢) ان بعض المعلومات المتعلقة بسيرة كريكوروف فيج - بارسكي والتي أوردها ف. ك. روبان في الطبعة الأولى لملاحظات هذا الرحالة كانت قد نقلت إلى أخيه إيفان كريكوروف فيج - بارسكي (١٧١٣ - ١٧٨٦) وهو المهندس المعماري الأوكراني الشهير الذي لعب إنتاجه دوراً كبيراً لتطوير الـ (باروكو) الأوكرانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

(٣) ن. ب. بارسكوف : هو عالم الآثار ، والبيليوغرافي ، والمؤرخ الروسي الشهير .

(٤) « جولات » ، القسم ١ ، ص ٣٤ .

في ٧ تشرين الأول ، وبذلك لم يستطع أن ينسق ويرتب جميع ملاحظاته ومخطوطاته بشكل كامل .

أثارت كتابات ومذكرات بارسكي الاهتمام الكبير لدى قراء ذلك الزمان . يكفي أن نذكر في هذا الصدد بأن عدد طبعاتها قد وصل حتى سنة ١٨١٩ إلى ست طبعات . فكانت طبعتها الأولى في سنة ١٧٧٨^(١) . ومن الجدير بالملاحظة إلى أن ملاحظات بارسكي كانت منتشرة في البلاد بشكل واسع بحيثها الأولى كمخطوطة قبل نشرها بمدة طويلة .

ونشرت كذلك مخطوطات ومذكرات بارسكي على شكل فصول متفرقة . ومن الأهمية بمكان أن نقول بأن هذه المذكرات جلبت انتباه ن . ك . ج . جيرنيشيفسكي فقد كتب في سنة ١٨٥٥ في تقريره الذي قدمه عن كتاب أ . س . نوروف ، بأن مذكرات رحلة بارسكي ، من بين مؤلفات الكتاب الحجيج في القرن الثامن عشر « تستحق الاحترام الكامل من القراء ، محبي الاستطلاع والورعين ، لذلك كان نصيبها الطبع لست مرات » .

وكتب عنه ن . ك . ج . جيرنيشيفسكي : « إن فاسيلي كريكوروف وفتح السائح القوي الملاحظة ، يحب وصف جميع ما يراه بالتفصيل ، لذلك تطرح مذكراته وبشكل خاص المجلد الأول (المجلد الثاني كله مكرس لوصف أديرة أيون تقريباً ، وهو رتيب وممل ومتعب إلى حد ما) معلومات متنوعة ذات طابع تعليمي للمطالعة . . . ولقد أنجز القسم الأكبر من رحلته مشياً على الأقدام وفي سبيل المسيح ، وتعرض للمغامرات والمخاطرات الكثيرة التي تمنح أحياناً دراماً حية للسرد » . ثم يشير جيرنيشيفسكي بالإضافة إلى ذلك إلى أن « الكتاب كله وبطبيعته يعود إلى أدبيات روسيا القديمة ، واستطاع الكتاب كذلك أن يكون من الكتب المقرؤة في القرن الماضي من قبل الأكثرية الساحقة وذلك لعدم وجود مؤلفات تلائم

(١) صدرت الطبعة الأولى من الكتاب في ١٧٧٨ بإشراف ف . ك . روبان الكاتب والصحافي الروسي باسم « مسيرة فاسيلي كريكوروف وفتح بارسكي بلاكا البوق المولود في كيبف راهب انطاكيا السائر على قدميه إلى الأماكن المقدسة في أوروبا ، وآسيا ، وأفريقيا بدأها في سنة ١٧٢٣ وانتهى منها في سنة ١٧٤٧ وقد كتب عن الرحلة بنفسه » ، سانت بيترسبورغ ، ١٧٧٨ .

تطور أذواق وثقافة الأنماط المختلفة في المجتمع»^(١).

وكان بارسكي يدون مذكراته بشكل دائم ويومياً تقريباً ويسجل كل ما يقع تحت نظره ، لذلك لم يأت أثره ككتاب مذكرات ، وإنما هو عبارة عن صور حية لأثار جديدة . يعرض فيه كثيراً من المعلومات القيمة عن الجغرافيا ، والالتوغرافيا ، والاقتصاد في البلدان التي زارها . فهو يهتم بقضايا التجارة والملاحة ، ويتكلم عن الشعوب ، لغاتها ، وعقائدها ، وعاداتها وتقاليدها . وحينما يصف الأديرة بصورة خاصة ، فإنه يوجه اهتمامه في نفس الوقت إلى الآثار الفنية القديمة . يشير كذلك إلى الظواهر الطبيعية غير المعروفة له . ويهتم بعالم النبات للبلدان المختلفة ، وبصورة خاصة مصر وسوريا : « عندما تروى الحقول وينخفض مستوى النهر [النيل] ، عند ذلك يبذرون القمح ، والجوادر ، والفول ، والعدس ، ومزروعات أخرى . . . »^(٢) . ثم يقول بارسكي بأنه بالقرب من الاسكندرية « لا ينبت أي شيء عدا النخيل وهي كثيرة جداً »^(٣) .

وقد أدهشت دمشق بارسكي بوفرة بساينها ، والأشجار المختلفة والمتنوعة ، والنباتات الكثيفة التي تحيط بها ، ويشير بشكل خاص إلى أن المدينة محاطة بـ « الجبال الصخرية وهي تمتد من الشمال ، ومن الجنوب نحو الشرق ، والحقول جافة لا مياه فيها ، والصحراء تمتد بعيداً . . . »^(٤) .

لقد جلب اهتمام بارسكي توزيع المياه ، ونظام الري في الشرق . ويصف في هذا المجال بصورة مفصلة النافورات ، والأحواض ، وطريقة توزيع المياه في دمشق ، حيث « ان كل شخص يحصل على الماء في بيته ، وهو ماء صحي وبارد وصالح للشرب »^(٥) .

(١) ن . ك . جبرنيشيفسكي ، مجموعة المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢ ، موسكو ، ١٩٤٩ ، ص ٥١٨ - ٥٢٠ .

(٢) « جولات » القسم ١ ، ص ٤١٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٥) « جولات » ، القسم ٢ ، ص ٩٢ - ٩٣ .

يتحدث بارسكي بكثرة عن التجارة ، والأسواق ، والحوانيت ، والمخازن التجارية . ويقول بأن سالونيك لا تشتهر بجمالها وإنما بكونها مركزاً تزوره الكثير من السفن التي تجلب البضائع والسلع إليه من تساريغراد (القسطنطينية) ، والبندقية ، وفرنسا ، وانكلترا . ويقدم إلى المدينة تجار من المانيا ، وبولغاريا ، وصربيا ، ودالمانشيا ، ومولدافيا ، وأوكرانيا وهم يتاجرون ببضائع متنوعة ، وبشكل خاص بالقمح .

ويتكلم بارسكي عن السلع التي تتاجر بها مصر مع الهند بتفصيل .

« هناك في مصر [القاهرة] عدد كبير من التجار ، وبضائع مختلفة ومتنوعة ثمينة ، ينزل فيها تجار ثم يعودون إلى الهند . . . وتجار آخرون يخرجون من الهند على ظهر السفن والبواخر ، ويدخلون المحيط ويمرون بالبحر الأسود ، ويحملون إلى السويس البخور ، والقطران المعطر ، والفلفل ، والقرفة وما شابهها من العطور والتوابل ، وكذلك الأواني والصحون من الفرفور الثمين الفاخر ، وأشياء أخرى نفيسة ؛ ويحملون معهم كذلك البن الذي ينبت في اليمن إلى البحر الأسود ، وهذه البلاد ليست تحت سيطرة تركيا . ويحملون جميع الأشياء عن طريق البحر الأسود إلى السويس ، ومن هناك يحملونها براً إلى مصر ؛ أما من مصر فتصدر الجودار ، والحنطة ، والفول ، والعدس وما شابهها إلى البحر الأسود »^(١) .

إن وصف بارسكي للمدن يشهد على قوة ملاحظته ودقتها . ومن المفيد هنا ذكر بعض ما أشار إليه : « ينبغي أن نعلم بأنه هناك ظاهرة وهي أن مصر تقسم من حيث التسمية إلى قسمين : مصر وهي تعني جميع البلاد المصرية ، ومصر بمعنى المدينة . . . (أي القاهرة) . وتقع مصر في فضاء سهل منبسط طيب ، على نهر النيل الرائع الجميل ، وهناك مبرات كبيرة واسعة ، وفيها القلعة أي القصر ، وهو في أعلى موقع في المدينة . . . والبيوت مبنية أما من الحجر المقطع ، أو من الطابوق ، والبنائيات عالية وجميلة ، وفيها نوافذ تؤثر في تبريدها ، والطوابق السفلى تكون حارة وغير لائقة . . . والشوارع هناك قلماً تكون عريضة ، فهي ضيقة ، والمنازل متلاصقة ، لا فراغ بين

(١) « جولات » القسم ١ ، ص ٤١٧ - ٤١٨ .

منزل ومنزل ، ولها مداخل واحدة ، ويعيش في كل غرفة خمسة أو ستة أشخاص مع نسايتهم وأولادهم " . . . بعضهم في الأسفل والآخرين في الأعلى »

ثم ينتقل بارسكي إلى وصف نهر النيل : « . . . يقدم نهر النيل خيرات غير قليلة ، انه دائم الجريان ، وفي جميع أوقات السنة ، مياهه غزيرة ، ويحصل الناس على المياه منه ، ويسقون بها الحقول المصرية جميعها ، والمياه فيه عذبة ، وصحية ، وصالحة للشرب ، وينبت القصب في الجزر الموجودة في النهر ، يحتوي على عصير عذب ، يصنعون منه السكر . . . » " . « يباع الخبز ، وزيت الزيتون ، والجبن ، والزبد ، والقهوة وجميع المؤن المتعلقة بالغذاء بثمان بخص ، أما الخمر فتأتي من الأقسام السفلى من البحر الأبيض المتوسط ولا تصنع هناك » " .

زار بارسكي في فترة إقامته في مصر في سنوات ١٧٢٧ - ١٧٣٠ مدينة الرشيد ، والاسكندرية ، وفي الاسكندرية جلبت اهتمامه « مسلة كليوباترا » النصب التذكاري الذي أقيم في هيليوبوليس في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ونقل إلى الاسكندرية في عهد الحكم الروماني . وقد استنسخ بارسكي بدقة متناهية الكتابة الهيروغليفية الكثيرة المنقوشة على هذا النصب .

ويصف بارسكي بشيء من التفصيل الرشيد ، والاسكندرية ، وبقية المدن ، صيدا ، وطرابلس ، وبيروت ، وحماة ، وحمص ، والاسكندرونة ، وحلب وكذلك أطلال بعلبك .

وكان اهتمام بارسكي كبيراً بالحياة اليومية في البلاد . فهو يقدم ملاحظات دقيقة عن الملابس ، والأزياء ، والماكولات وعادات الشعوب وقطاعات السكان المختلفة . وهكذا يقول عن العرب الذين يعيشون بين يافا ومدينة القدس : « ليست لهم منازلهم الخاصة لا في المدن ولا في القرى ، وإنما يعيشون في السهول ، يحطون الرحال في الخيام في موسم الرحلات ، وهناك ناس آخرون يعيشون في الكهوف الواقعة في

(١) المصدر السابق ، ص ٤١٣ - ٤١٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤١٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٢٠ .

الجبال ، حيث الوحوش والحيوانات المفترسة ، وهي غير بعيدة عن المدن . أما البستهم فهي رداء واحد ، ويرتدي أولادهم ونساؤهم الصنادل في أرجلهم لأن المرء لا يستطيع السير في الأراضي الصخرية وهو جاف ، ويلبس الرجال كذلك رداء واحداً فقط، وهم لا يلبسون شيئاً في أقدامهم ، ويحمل كل واحد منهم سكيناً كبيراً يشده في وسطه وجميعهم يرتدون جلابيب زاهية متشابهة مصنوعة من قماش بسيط . أما أطعمتهم فهي الخبز وزيت الزيتون ، أما الخمر فلا يشربونها أبداً ، وإنما يشربون الماء فقط»^(١) .

ويشير بارسكي بأنه هناك بين مدينة القدس ويافا بساتين قليلة للكروم والأعناب : « ومن طبيعة العرب أنهم لا يشربون الخمر ولا أي شراب مسكر آخر ، وإنما يشربون الماء وحده فقط»^(٢) . يكرر بارسكي مسألة عدم شرب العرب للخمور أكثر من مرة . ويظهر امتعاضه على العرب بشكل واضح على هذا العمل . ويرى أن السبب في ضعف زراعة الكروم في ضواحي الرملة يكمن في كسل وإهمال السكان . والظاهر على ما نعلم أنه لم يكن على علم بأن الدين الإسلامي يحرم شرب الخمر .

ويشير بارسكي إلى الوضع القومي والديني لسكان الأماكن التي قام بزيارتها : « يعيش في مصر خلق كثير ، وهم من عروق مختلفة ، وأديان متباينة ، ولغات متنوعة ، هناك الترك والعرب وهم من دين واحد ، وكذلك يونانيون وعرب وهم مسيحيون أرثوذكس . . . ويعيش الرومانيون في مصر كذلك ، والانسكليز وقنصلهم ، والأرمن عددهم كثير . . . ويقوم فيها أيضاً مسيحيون هراطقة يسمون بالأقباط ، وعددهم كثير في مصر . . . ويعيش اليهود بكثرة . . . ويعيش عدد كبير من المغتربين الترك وهم من القسطنطينية ، والأناضول ، والمدن الكبيرة الأخرى ، والجزر البحرية ؛ أما عدد العرب فهو كثير إلى حد لا يمكن حصره ، وإنهم أصل سكان البلاد ، وهي وطنهم القديم»^(٣) .

كان الموقف السلبي تجاه القوميات الأخرى غريباً على بارسكي ، ولكنه كثيراً ما

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤١٥ - ٤١٧ .

كان يظهر تعصبه الديني وبالأخص ضد الدين الإسلامي .

وأخيراً من الممكن التصريح بكل ثقة بأن مذكرات فاسيلي غريغوروفيتش-بارسكي أصبحت مصدراً لكثير من المعلومات الصحيحة والمتنوعة لمعاصريه . وتشهد طبعتها المتعددة على الاهتمام الكبير الموجه إلى الشرق الأوسط في روسيا في النصف الأول من القرن الثامن عشر .

رحلة سيرابيون

قام راهب دير ماتروني في محافظة كييف سيرابيون برحلته إلى فلسطين في الربع الثاني من القرج الثامن عشر . امتد طريق سفره خلال بوريسبول ، وزولوتونوشا ، وجيغرين حتى سيجي سابوروژسكى « حيث تأتي إليها سفن كثيرة محملة بالخمير » . ومن هناك توجه سيرابيون على ظهر السفينة إلى أوجاكوف والقسطنطينية .

وبعد وصولهم إلى الشاطيء في القسطنطينية مباشرة ألقت السلطات التركية القبض على سيرابيون وجماعته وسجنتهم . إلا أنه أطلق سراحهم بعد ثلاثة أيام بطلب من أ.إ. نيبلويف . وبعد زيارة المعالم والآثار و« الأماكن المقدسة » في القسطنطينية توجه سيرابيون إلى أبون ، ومنها إلى سميرنا (إزمير) .

كتب سيرابيون قائلاً : تفوق مدينة سميرنا بجماها وسعتها مدناً كثيرة ، وتكاد تقارن بتساريغراد (القسطنطينية) المجيدة نفسها ، ولم أر في جميع أسفاري مثل هذه المدينة باستثناء تساريغراد . ولكن مدينة سميرنا تراءت لى كأنها أجمل من تساريغراد بالرغم من أنها أصغر حجماً منها . تشاهد فيها السفن التجارية الكبيرة بصورة دائمة تأتي إليها من كل مكان ، وتكثر في المدينة نفسها ثمار التين ، والزبيب ، والخمور وهي مليئة بالنعمة والرفاهية . حيث ترسل بواسطة السفن إلى تساريغراد وإلى مدن أخرى وأمم متباينة .

ويشير سيرابيون بأن جزيرة خيوس « هي عبارة عن بساتين تكثر فيها أشجار الليمون ، والبرتقال ، والنارنج ، وأشجار أخرى ، ويشاهد المرء بين تلك

الأشجار ، وفي كل مكان ، أبنا يوجه نظره قصوراً عالية مبنية من الحجر والرخام «^(١)

التقارير الدبلوماسية

كان وصف رحلات المواطنين الروس في القرن الثامن عشر في الشرق الأوسط إضافة قيمة في تاريخ دراسته .

وكان من أهم المصادر لدراسة الحياة السياسية الداخلية ، وكذلك تاريخ السياسة الخارجية لبلدان الشرق الأوسط هو الوثائق الدبلوماسية ، والبلاغات التي كان يهونها المقيمون الروس ، وهي تتضمن أحداث عمليات الجيش ، وكانوا يسمون السفراء بالمقيمين في القسطنطينية في ذلك الوقت .

وكان المقيمون الروس في الامبراطورية العثمانية على علم بصورة جيدة بوضع السكان المحليين . وكانت سعة اطلاعهم هي حصيلة علاقاتهم واختلاطهم الشخص بالمقامات التركية العليا كـ (الصدر الأعظم ، ووزير الشؤون الخارجية ، وكبير المترجمين في « بورتا » الباب العالي)^(٢) ، وكبار الموظفين ، والسفراء الأجانب) وتلقى الأخبار من البلدان الأخرى أيضاً . وكانت بين القسطنطينية وبيترسبورغ علاقات بريدية منتظمة ، وكان البريد يرد عادة مرة واحدة في الشهر .

كان إ. إ. نيبلويث ، أ. أ. فيشيناكوف ، أ. إ. نيبلويث يمثلون روسيا لدى الباب العالي في الربع الثاني من القرن الثامن عشر .

وقد أقام إيفان إيفانوفيتش نيبلويث في تركيا منذ سنة ١٧٢١ وحتى سنة ١٧٣٥ . ثم سافر اليكسي أندرييفيتش فيشيناكوف الى استانبول في سنة ١٧٢٩ لينوب

(١) « المسافر أو رحلة راهب دير ماترونين سيرابيون إلى الأرض المقدسة سنة ١٧٤٩ » « قراءات في الجمعية الامبراطورية للتاريخ والتاريخ القديم الروسي » ، الكتاب ٣ ، القسم ٥ (« منوعات ») ، ١٨٧٣ ، ص ٧٨ وما بعدها .

(٢) بورتا (بورتا المضيئة ، بورتا العالية ، بورتا العثمانية) : تسمية رسمية لحكومة الامبراطورية العثمانية . وأحياناً كانوا لا يقصدون بمصطلح « بورتا » الحكومة وإنما يستعملونه خطأً للامبراطورية العثمانية عامة .

في حالات الضرورة عن إ.إ. نيبيلويث الذي كان يشكو من المرض . وهكذا ومنذ سنة ١٧٢٥ شغل وظيفة القنصل في كاديكس ، وبعد إصابته بمرض خطير في نهاية سنة ١٧٣٤ قدّم نيبيلويث جميع مهامه الى فيشيناكوف .

بقي فيشيناكوف في منصب المقيم حتى نهاية حياته في سنة ١٧٤٥ . وقد حصلت له الموافقة بالسفر إلى روسيا في فترة الحرب الروسية - التركية فقط في خريف سنة ١٧٣٦ . غير أنه عاد إلى القسطنطينية بعد توقيع معاهدة بلغراد في ١٠ كانون الأول سنة ١٧٣٩^(١) .

كان ممثلو الدبلوماسية الروسية في القسطنطينية يعيرون أهمية كبيرة لهيئة المترجمين للقيام بالأعمال في السفارة .

وبالإضافة الى بلاغات المقيمين كانت الأخبار ترد الى بيتر سبورغ عن طريق السفراء فوق العادة أيضاً ، فعلى سبيل المثال كان أ.إ. روميا نسيث يعث بمثل هذه التقارير . وبعد عقد معاهدة الصلح في بلغراد في ٧ (١٨) أيلول سنة ١٧٣٩ كان من الضروري إرسال سفارة كبرى إلى القسطنطينية . وكان يرأس هذه البعثة فيها أ.إ. روميا نسيث . وكانت الرحلة هذه هي رحلته الثالثة إلى تركيا . خرج روميا نسيث من بيتر سبورغ في ١٩ مايس سنة ١٧٤٠ ، وفي صحبته حاشية كبيرة في قافلة ضخمة تضم حراساً كثيرين . واستغرقت الرحلة مدة طويلة . وأما سبب التأخير فهو المراسلات الكثيرة التي جرت بين روميا نسيث والسلطات التركية عن مكان اللقاء بالسفارة التركية الموجهة الى بيتر سبورغ ، وعن المراسيم القادمة بهذا الصدد . ففي ١٧ مارت سنة ١٧٤١ دخل روميا نسيث القسطنطينية باحتفال . وكان سكرتير السفارة آنشد أندريان ايثانوفيتش نيبيلويث^(٢) ، وهو ابن إ.إ. نيبيلويث .

وفي البلاغات التي كتبها روميا نسيث عن عمليات الجيش إلى بيتر سبورغ وهي كثيرة ومفصلة يمكن العثور على معلومات ممتعة وطريفة لا تقتصر على الشؤون

(١) أرشيف السياسة الخارجية الروسية ، القسم «علاقات روسيا بتركيا» ، ١٧٤٠ ، الاضبارة ١٢ ،

الورقة ١٤٧ .

(٢) تم تعيين أ.إ. نيبيلويث بعد وفاة أ.إ. فيشيناكوف في منصب المقيم في القسطنطينية .

السياسية فقط . يصف بصورة جميلة أوضاع الطبقات العليا من الأعيان ، والإشراف ، والوجهاء ، والنبلاء ؛ والاحتفال بالأعياد ، والإستقبال ، والاحتفالات . ولا يعير أهمية تذكر إلى حياة الناس البسطاء .

ويصف المقيمون الروس في بلاغاتهم الوضع السياسي الداخلي في تركيا في الربع الثاني من القرن الثامن عشر كالتجزئة الاقطاعية ، وفساد جهاز الدولة ، والرشوة ، وتنامي استياء الشعب من الوضع القائم . وكان قيام الجماهير الشعبية في القسطنطينية في سنة ١٧٣٠ بقيادة باترون خليل انعكاساً واضحاً لذلك الإستياء . ففي أحد بلاغاته يذيع إ.إ. نيبلويف : « قام في ١٧ أيلول في داخل القسطنطينية عصيان واضطرابات ، فقد أرغم الوضع السلطان فاضطر أن يأمر بقتل الوزير ، والمفتي ، والقبطان باشا ، ومساعد الوزير ^(١) . غير أن هذا الإجراء لم يرض لعصاة والمتمردين ، وقد قاموا بخلع السلطان نفسه من العرش . ونصبوا على عرشه أحد أقاربه وهو محمود ابن السلطان مصطفى » . ويشرح نيبلويف أسباب عدم نجاح حكم السلطان أحمد البالغ من العمر ٢٧ سنة إلى هذا الحد : « منذ بداية حكمه حتى نهايته كان [السلطان أحمد] يسيطر عليه الجشع والنهم لجمع المال ، ولاشباع جشعه عطل وزراؤه القوانين والمحاكم وأخذوا يستولون على النقود من الرعية بمختلف الوسائل والإتهامات ويسلمونها للسلطان الجشع ، ولهذا السبب شاع التذمر من الإبتزاز الزائد من جانب السلطان ووزرائه بين الشعب التركي وغيره من الأجناس المختلفة الخاضعة للدولة العثمانية والتي يعاد فرض الضرائب عليها وتعرض لهجمات لا مبر لها ^(٢) »

(١) ان الوزير هو أعلى موظف في الدولة في عدد من البلدان الإسلامية في الشرق . والصدر الأعظم هو رئيس الوزراء . والمفتي هو رئيس الشؤون الدينية عند المسلمين . وأما قبطان باشا فهو الأميرال ، أو أمير البحر .

(٢) أرشيف السياسة الخارجية الروسية ، القسم « علاقات روسيا بتركيا » ، ١٧٣٠ ، الاضبارة ٨ ، الورقة ٢٦ . ولم تطبع تقارير إ.إ. نيبلويف في الأدبيات الروسية لما قبل الثورة ، إلا أنها أصبحت مصدراً رجح اليها أ.ي. موجانوف عند كتابة رسالته العلمية عن التناقضات باترون خليل (يراجع = أ.ي. موجانوف ، انتفاضة باترون خليل في استانبول في سنة ١٧٣٠ ، رسالة دكتوراه ، ص ٣٠) . وفي الأونة الأخيرة نشر ن.أ. سميرنوف هذه التقارير جميعها : « وصف الاضطرابات ١٧٣٠ - ١٧٣١ في القسطنطينية » ، المجموعة الأثرية لسنة ١٩٦٣ ، موسكو ، ١٩٦٢ ، ص ٣٢١ - ٣٤٤ . يراجع :

كان السبب المباشر لانتفاضة سنة ١٧٣٠ هو تقهقر وانحجار الترك في حربهم مع فارس . وكان لضياح همدان وكرمنشاه وبالأخص تبريز أثره البالغ في انتشار الاستياء والتذمر في الأوساط الإنكشارية وكذلك الأوساط التجارية .

وقد أعلن السلطان الجديد، كما نخبرنا نيبيلويث عن عفوه العام لجميع المشاركين في الانتفاضة ، وقدم لهم الهدايا أيضاً ، « حيث أنهى جميع أنواع البلبلة والإرتباك »^(١) . وبدأ « المتمردون » يسجلون أنفسهم في صفوف الإنكشارية بدون مرسوم من السلطان .

وإننا نعرف من تقارير نيبيلويث عن نشاط محمود الأول فيما بعد . وكان السلطان قد دعى باترون خليل لتناول الغداء معه غير أنه قتل مع الأشخاص الذين كانوا معه في ١٤ تشرين الثاني سنة ١٧٣٠^(٢) .

ويبلغنا إ.إ. نيبيلويث في بلاغه المؤرخ في ٢٣ آذار سنة ١٧٣١ عن حدوث اضطرابات جديدة ، وكان السبب المباشر لها هو رغبة السلطان محمود الأول في التخلص من المشاركين في انتفاضة باترون خليل الذين سجلوا أنفسهم بمحض إرادتهم في صفوف الإنكشارية .

وقد أخبر فيشيناكوف أيضاً الحكومة الروسية عن الأحداث المرتبطة بانتفاضة باترون خليل .

وورد في بلاغات نيبيلويث وفيشيناكوف وصف عن وضع المواد الغذائية في البلاد ، وفيه إيضاحات كثيرة عن أحداث سنتي ١٧٣٠ - ١٧٣١ . فقد أبلغنا في ٥

م. س. ماير ، انتفاضة دهام ، مدينة استانبول ، مجلة « شعوب آسيا وأفريقيا » ، العدد ٤ ، ١٩٦٣ ، ص ٧٧ - ٨٩ .

(١) يحدثنا نيبيلويث بأنه كان قد عثر في بيت مساعد الوزير المقتول على عشرة ملايين ليف (وحدة نقدية بولغارية) ، أما عند السلطان احد فقد عثر على خمسة عشر مليون ليف ، وكانت خزينة الدولة في ذلك الوقت خاوية (أرشيف السياسة الخارجية الروسية ، القسم « علاقات روسيا بتركيا » ، ١٧٣٠ ، الاضبارة ٦ ، الورقة ٥٨) .

(٢) أرشيف السياسة الخارجية الروسية ، القسم « علاقات روسيا بتركيا » ، ١٧٣٠ ، الاضبارة ٨ ، الورقة ١٩٤ .

حزيران سنة ١٧٣١ بأن « الخبز ليس فقط غالي الثمن وإنما هو قليل ولا يمكن الحصول عليه ، وانهم يخلطون دقيق الشعير بدقيق الحنطة ويصنعون منه الخبز للبيع . . . اما سبب قلة الخبز فهو أولاً احداث التمرد في السنة الماضية والسنة الحالية ، فكان الناس يخشون السفر من الأماكن البعيدة إلى هنا ويرون فيه خطراً ؛ ثانياً ، لقد أرسلت من المقاطعات الأوروبية الواقعة على البحر الأسود ونهر الدانوب كميات كبيرة من الغلال إلى طرابزون لحملها إلى كنجيه وأريشان^(١) . »

ونجبرنا فيشنيياكوف في بلاغ مؤرخ في ١٦ تشرين الثاني سنة ١٧٣٥ عن الوضع الداخلي في تركيا : « استحصل هناك الجوع والنهب في الطرق إلى درجة كبيرة بحيث لا يجد المسافر شيئاً يأكله ، ولا يمكن الحصول على الغذاء بأي ثمن كان ، ومن غير الممكن السفر إلا على شكل جماعات كبيرة » .

وأن تقارير فيشنيياكوف تقدم تشخيصاً مفصلاً ودقيقاً عن الوضع في تركيا بعد انتهاء حرب ١٧٣٥ - ١٧٣٩ . ويذكر في بلاغ مؤرخ في ٢٥ تشرين الثاني ١٧٣٥ : « إن الوضع الداخلي غير هادئ حتى الآن ، لأن قتل الناس ونفيهم لا زال مستمراً وبدون انقطاع . . . ويلمس المرء استياء الناس وعدم اطمئنانهم على حياتهم ، والأعداء يثيرون الإضطرابات ، وبالإضافة إلى كل ذلك هناك ظاهرة الغلاء والنقص في كثير من المواد الغذائية ، أما الوزراء فيحاولون جهدهم إخراج رجال الجيش الفائضين من هنا ، لذلك تم الإعلان في جميع الفصائل الإنكشارية ، وأبلغوا بوجوب ترك السلاح والذهاب إلى أي مكان يريدونه لكسب رزقهم بمزاولة حرفهم ومع ذلك فإنهم سوف يستمرون على تسلم رواتبهم أينما كانوا . أما الذين لا ملجأ لهم فإنهم يقبضون عليهم وينفونهم عنوة^(٢) . »

ومن جانب آخر تعكس بلاغات المقيمين اهتمامهم بالعلاقات التجارية بين روسيا وتركيا .

(١) أرشيف السياسة الخارجية الروسية ، القسم « علاقات روسيا بتركيا » ، ١٧٣١ ، الاضبارة ٧ ، الورقة ٢١٣ .

(٢) أرشيف السياسة الخارجية الروسية ، القسم « علاقات روسيا بتركيا » ، ١٧٣٥ ، الاضبارة ٥ ، الورقة ٨٤ ، ٨٥ .

كانت العمليات التجارية بين روسيا وتركيا بشكل أساسي يقوم بها التجار من أوكرانيا (وبشكل خاص من نيثرين) والتجار اليونانيين . فقد وردت بعض المعلومات عن تجارة روسيا مع تركيا في خطاب أرسل الى موسكو في سنة ١٧٤٠ من التجار الروس الذين كانوا يعيشون في القسطنطينية الى ياكوف ماتشيبيج يفرينوڤ ، يقولون في الخطاب : « تشتهر التجارة الروسية هنا في جميع الأماكن » . ويذكرون اسماء البضائع والسلع الرائجة « أفضل أنواع الفرو ، والأحجار الملونة الثمينة ، والراوند ، والبيلزوار ؛ ان هذه الأشياء الاربعة هي أحسن الأمتعة وأفضل من السلع الأخرى ، وهي من البضائع الجيدة النفيسة التي يمكن الحصول عليها في روسيا ، وعلاوة على ذلك تشغل هذه الأموال حيزاً صغيراً جداً ، وهي لائقة ومقبولة وسهلة النقل كذلك ، ومن الممكن بيعها بثمن مريح في أوقات السلام والأمان والهدوء . . . ويتاجرون بفرو السمور ، وقوائم السمور ، وفرو الثعلب الأحمر ، وفرو الثعلب الأسود ، والياقوت الأحمر ، واللعل^(١) ، والياقوت الأزرق (اللازوردي) ، والزمرد ، والكافيار الأسود ، والكافيار الأحمر . ومن الممكن الحصول مقابل ذلك على عملات ذهبية من فئة العشرة روبلات ، ويستطيع المبعوثون الروس الذين يعملون في البريد أن يجلبوا معهم هذه الأشياء ، ويحصلون على ١٪ من قيمة البضائع ثمناً للنقل . . . وتستورد من مدينة القسطنطينية وحدها أدوات وحاجيات منزلية خفيفة ، والخيوط الحمراء القطنية تقدر زنتها ببضع مئات من الحقق^(٢) . وهناك في التجارة الروسية بعض الأحزمة المصنوعة من الحرير ، ولهذه البضاعة سوق رائجة في موسكو ، ومن الممكن ارسال الخيوط الأنغورية الناعمة ، والدهون المستعملة كأدوية ، والبخور ، والبلسم والمستكي ، ودهون أخرى إلى روسيا عن طريق البحر الأسود » . وترد في الرسالة أيضاً « اسعار البضائع بالعملات الروسية والتركية من ٢٥ آذار حتى ٤ نيسان سنة ١٧٤٠ »^(٣) .

(١) لعل ، لال : هو الاسم الروسي القديم للحجر الكريم « شپينيل » وغدا مصطلحاً يستعمل لحد الآن ، (شپينيل Spinel) لفظة المانية الأصل .

(٢) الحقق ، جمع حقه : وحدة للوزن توازي ثلاثة أرطال تقريباً .

(٣) أرشيف السياسة الخارجية الروسية ، القسم « علاقات روسيا بشركيا » ، ١٧٤٠ ، الاضبارة

ظهرت خلال حكم الامبراطورة أليزابث بيتروفنا في سنة ١٧٤٥ مرة أخرى مسألة الملاحة التجارية في البحر الأسود وإقامة العلاقات التجارية مع تركيا والبلدان الأخرى في منطقة البحر الأبيض المتوسط . كان رئيس صنف التجار الامير يوسفوف قد أشار في ٣٠ آذار ١٧٤٥ الى أن البحر الاسود ، بخلاف البحار الأخرى التي تطل عليها روسيا حر للتجارة بموجب معاهدة سنة ١٧٣٩ ، ولكن التجار الروس لا يستخدمونه . ويرى الأمير يوسفوف بضرورة تلقي المعلومات من المقيم في القسطنطينية لغرض تنظيم الملاحة في البحر الأسود ، وعن الصناعة ، والزراعة ، وطرق النقل في تركيا ، والثروة الطبيعية في البلاد ؛ وعن التجارة مع الهند ، وايران ، وأفريقيا ، وروسيا ، ومختلف الدول الأوروبية .

وقد أرسلت نسخة ثانية من مذكرة الأمير يوسفوف إلى المقيم فيشنيانكوف . وكانت هذه الملاحظات في الواقع بمثابة برنامج التفتقد الإقتصادي للامبراطورية العثمانية .

أما الرسالة الجوابية فقد أعدها خليفة فيشنيانكوف وهو أ.إ. نيبيلوييف وهي تعتبر الوثيقة الأولى من الأدبيات الروسية ، بالرغم من انها غير كاملة في وصف تركيا من حيث الوضع الإقتصادي - الجغرافي^(١) .

ووردت في مذكرة نيبيلوييف بأنه « يوجد في جزر البحر الأبيض المتوسط الحرير ، والأقمشة القطنية ، والخمر بكثرة ، والزيت النباتي ، والفواكه » .

وكتب أيضاً عن وجود معامل عديدة للأقمشة الحريرية في القسطنطينية وفي جزيرتي سيو ، وقبرص ، وفي سالونيك يحكيون « أبسطة صغيرة ، وأفرشة بيضاء يستعملها للنوم الناس البسطاء ، والجوخ للملابس الكاملة ، وأما في سميرنا (إزمير) فيحكيون الأبسطة من غزل الصوف وهي ثمينة » . ثم يخبرنا نيبيلوييف فيما بعد « بوجود الحديد في تركيا بشكل كاف في اقليمي ماكدونيا والبوسنة ، أما قطع الحديد التي تكون في شكل لوحات لصنع المفاتيح والكوالين فتستورد من المانيا

(١) ف.أ. أوليانيتسكي ، الدردنيل والبوسفور والبحر الأسود في القرن الثامن عشر ، موسكو ،

١٨٨٣ ، الملحق ١٥ ، ص ٢٨ وما بعدها .

وثينيسيا . وهناك العدد الكافي من مصانع النحاس أيضاً حول أرضروم . ويُنتقل النحاس من طرابزون الى القسطنطينية عن طريق البحر الأسود ، ويقال بأنه توجد في تلك الجهات خامات الفضة والرصاص ، غير أن كمياتها قليلة ، لذلك يستورد الهولنديون الرصاص ، والقصدير ، والفولاذ على الأغلب الى تركيا ، وهم الذين يحتكرون تجارة هذه المعادن » .

ولم يستطع نيبلويث الأبعوبة معرفة أنواع البضائع والسلع التي تنقل من تركيا الى فارس ، ومن هناك الى الهند . وقد ظهرت له الحقيقة بعدئذ « ترسل الى تلك البلاد من تركيا كميات قليلة من البن ، والبلسم ، والجوخ الأجنبي ، والسلع الصغيرة (الخردوات) ، وأما من فارس والهند فيستورد الشاش ، وهو من المواد الرائجة واستعماله واسع جداً . لأن أفراد الشعب التركي كلهم يصنعون منه العمائم ، والحريز ، والأقمشة المتنوعة ، والشيت ، والشيت الملون ، والعطور ، والأحجار الكريمة الأصيلة الثمينة ، والمرجان ؛ وتنقل الأموال التجارية من المقاطعات المتاخمة للبصرة على الجمال :

« تسير القوافل من هنا الى ايران عن طريق أرضروم ، وأنغورا ، ومن سميرنا (إزمير) الى حلب ، ومن هناك الى أماكن أبعد ؛ ومن الاسكندرونة كذلك الى حلب ، وبابل ، والبصرة على خليج فارس (يقصد الخليج العربي - م . خ .) ، أما التجار الأجانب فينقلون بضائعهم الى ايران من سميرنا ومدينة الاسكندرونة السورية ، ومن هناك عن طريق البر ينقلونها الى حلب وأماكن أخرى أبعد » .

وبالإضافة الى ذلك يرد ذكر للمعاهدات التجارية ، والتعريفات الجمركية ، وعن دور بعض الدول في التجارة (« فرنسا ولها تجارة مع تركيا أكبر من جميع الدول الأخرى ») .

« ان تجارة الفرو الناعم في تركيا هي الأكثر رواجاً من أي شيء آخر بدون شك ، ولا يوجد هناك تركي واحد أو أي مواطن آخر بدون معطف شتوي من الفرو ، إلا أنهم لا يستعملون المعطف في الصيف ، لذلك يشاهد المرء في القسطنطينية صنف صانعي معاطف الفرو في المقام الأول وله مكانة كبيرة » . ولكن هذه التجارة المربحة لروسيا اخذت تفقد أهميتها تدريجياً بسبب غلاء الفرو في

روسيا واستيرادها بشكل واسع من أميركا ، وبشكل خاص من كندا . ثم يشير نيبلويث فيما بعد إلى أن الاستيراد من روسيا إلى القسطنطينية لا يقتصر على الفرو الناعم ، وفرو الأغنام ، وإنما تستورد الأقمشة الكتانية المتنوعة ، والشمع ، ودهن الحيوان ، والشحم ، والكافيار الأسود المكبوس ، والصفوف الخشن القصير ، والحرير الكيلاني ، والأطلس الصيني . والتجارة بيد اليونانيين ، ويرد ذكر للتجار الروس أيضاً أمثال كلوجكوف وهو من قورونير .

وقد أضاف نيبلويث ملحقاً إلى تقريره يتألف من « وصف الموانئ العامة للامبراطورية التركية والبربر [شمالي أفريقيا] وأثرها في مهنة التجارة الأجنبية » ، كان قد كتبه في سنة ١٧٤٤ ، وفيه إشارة إلى أن بالامكان تقسيم الموانئ في تركيا إلى درجتين ، تضم الأولى سميرنا (إزمير) ، والقسطنطينية ، وسالونيك ، وحلب (« بالرغم من أنها ليست ميناء ، إلا أن شهرتها عند المسافرين الأجانب جعلتها أن تعد كالميناء ») والقاهرة . أما الموانئ من الدرجة الثانية فهي أنغورا ، وسعيد ، وطرابلس (السورية) ، وعكا ، والموانئ في جزر الأرخيبيل اليوناني : « ومن الممكن تسمية سميرنا بحق المخزن الآسيوي ليس فقط لأن الأقاليم العثمانية والفارسية تسد حاجاتها من البضائع الأوروبية عن طريقها وإنما لأن أكبر وأشهر القوافل التجارية تأتي إلى تلك الأطراف . وهناك في سميرنا مستوطنات وجاليات فرنسية ، وانكليزية ، وفينيسية ، وأعيدت من جديد المستوطنة النيابولية . أما التجارة الفرنسية في سميرنا فهي كبيرة ورائجة جداً وعلى وجه الخصوص في أوقات الهدوء والسلام . . . ولم تكن التجارة الانكليزية في سميرنا صغيرة في السابق ، غير أنها تضاعفت في الوقت الحاضر . وهناك في لندن شركة لبنانية خاصة ، وهي تحتكر التجارة ولا يستطيع أحد غيرها القيام بالتجارة في تركيا ، وبهذا الشكل ان البيوت الانكليزية الموجودة في لبنان هي في الحقيقة محطات تجارية لتلك الشركة . . . » .

ثم يصف تجارة البلدان المختلفة : فرنسا ، وانكلترا ، وهولندا ، وفينيسيا . ويورد ويعدد البضائع والسلع المستوردة والمصدرة .

ويقول نيبلويث عن القسطنطينية : « تزدهر في تلك العاصمة تجارة منظمة ، وكذلك في سميرنا ، غير ان السفن الأجنبية تتوجه إلى الأخيرة وترسو فيها

بشكل أكثر...» .

أما عن التجارة في المدن الأخرى فيقول نيبلويث :

« تشتهر مدينة أنغورا بشعر الماعز (المرعز) توجد له فيها بيوت فرنسية ،
وانكليزية ، وهولندية . وأما مدينة حلب فبالرغم من انها ليست على شاطئ البحر ،
ولكنها تزدهر بتجارة رائجة وشهيرة بدعم من ميناء الاسكندرونة السورية . وحركة
التجارة قوية في القاهرة ، يسيطر في هذه العاصمة المصرية الفرنسيون ،
والفينيسيون ، الذين لهم مستوطنات غير قليلة هناك على التجارة وبيدهم زمام الأمور
المالية ، وأخيراً أنشأ الانكليز مؤسساتهم أيضاً ، أما الهولنديون في مصر فلا يعملون
شيئاً...» .

تكوّن الأدبيات المترجمة ، ومذكرات الرحالة والسياح والمسافرين ، وأخبار
الصحف ، وأخيراً بلاغات الدبلوماسيين الروس وتقاريرهم مواد ومراجع قيمة ،
وهي لا تشهد على الأهمية العظمى التي كانت توليها روسيا إلى الشرق الأوسط في
الربع الثاني من القرن الثامن عشر فقط ، وإنما تشير أيضاً إلى تنوع المعلومات التي
جمعت عن الشرق الأوسط . وقد دخلت هذه المعلومات في صلب الدراسات العلمية
في هذه البلاد التي شرعت في التطور في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ،
وبلغت ذروة تطورها في القرن التاسع عشر .

الفصل الرابع

النصف الثاني من القرن الثامن عشر

تحددت السياسة الخارجية لروسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بتحقيق المهام التاريخية الخطيرة ، وهي ضرورة إقامة الاستقرار وترسيخ مواقع روسيا في شواطئ بحر البلطيق ، والوصول إلى البحر الأسود ، وتوحيد أراضي أوكرانيا وبيلوروسيا مع روسيا ، وتعزيز السلطة في تلك المناطق .

وكانت الحروب الروسية - التركية المستمرة (١٧٦٨ - ١٧٧٤ و ١٧٨٧ - ١٧٩١) ، والبعثة الأرخبيلية وتوحيد القرم مع روسيا ، وعقد معاهدات الصلح (كوجوك كاينارجه - ١٧٧٤ ، وباسي - ١٧٩١) والنشاط المشترك للأسطول الروسي - التركي (١٧٩٨ - ١٨٠٠) بقيادة عامة مشتركة لوكيل الأميرال ف. ف. أوشاكوف ضد فرنسا النابوليونية أثارت في المجتمع الروسي اهتماماً كبيراً إلى الشرق الأوسط . وقد انعكست أحداث تلك المرحلة في المقالات ، ومذكرات الرحالة ، والمشاركين في العمليات الحربية ، والأدبيات المترجمة ، والتقارير الدبلوماسية .

ولم يكن الشرق في صلب اهتمام أكاديمية العلوم في أربعينيات القرن الثامن عشر ، فقد توقف الاهتمام عملياً بالشرق تماماً . وبعد وفاة كير لم يبق في الأكاديمية عالم واحد يتقن اللغات الشرقية^(١) .

وأما تأسيس « أكاديمية » أوجعية العلوم واللغات الشرقية في الإمبراطورية

(١) .ى. كراچكوفسكي ، مقالات في تاريخ الاستعراب الروسي ، موسكو - لينينغراد ١٩٥٠ ،

الروسية « فكان من أحلام النابغة الروسي العالم م . ف . لومونوسوف . ففي مشاريع الأنظمة الثلاثة لأكاديمية العلوم ، والجامعة المحفوظة في أوراق م . ف . لومونوسوف ورد ذكر لكرسي اللغات الشرقية .

غير أن خطط لومونوسوف وبرامجه في دراسة اللغات الشرقية في روسيا لم تتحقق بالرغم من محاولاته الكثيرة . وحينما افتتحت جامعة موسكو في سنة ١٧٥٥ لم يجد تعليم اللغات الشرقية لنفسه مكاناً فيها ، على الرغم من أن مشروع النظام قد تضمن مثل هذه الإمكانية .

وقد اتخذت في عهد الامبراطورة كاترين الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦) بعض التدابير لتحقيق تدريس اللغات الشرقية في المؤسسات التعليمية التي تقع في الأماكن التي يدين سكانها بالدين الإسلامي . وهكذا تم فتح مدرسة في قازان في سنة ١٧٥٩ . ويرتبط بنشاط مدرسة قازان تحقيق الخطط التي وضعها م . ف . لومونوسوف حول تدريس اللغات الشرقية^(١) .

وبهذا الشكل من الممكن القول بأن المحاولات الأولى لتأسيس مدرسة الاستشراق قد جرت في عهد كاترين .

وازداد الاهتمام بالشرق الأوسط بشكل ملموس في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وشرعت المؤسسات في روسيا بجمع مجموعات كبيرة من المسكوكات ، كما وظهرت مواد ومصادر ونماذج من المخطوطات .

وكان المصدر الموثوق للمعلومات عن الشرق الأوسط جريدة « كشوف سانت بيترسبورغ » وجريدة « كشوف موسكو » . وكانت الصحيفتان تنشران الأخبار والأنباء المستفأة من المصادر الأجنبية ، ومن ملاحظات ومشاهدات مراسليها الذين كانوا يعيشون في عدد من المدن الأوروبية .

فنشرت في المجلات التي كان يصدرها ن . إي . نوفيكوف ، وإ . أ . كريلوف ، ون . م . كارامزين مقالات أصيلة وأخرى مترجمة مما ساعدت القراء إلى

(١) م . ك . بيلياييفسكي ، م . ف . لومونوسوف وتأسيس جامعة موسكو ، موسكو ، ١٩٥٥ ، ص ١٢٨ .

حد ما أن يتعرفوا على بلدان الشرقين الأدنى والأوسط .

وكانت حصيلة الحروب الروسية - التركية (١٧٦٨ - ١٧٧٤ و ١٧٨٧ - ١٧٩١) أن ظهرت أدبيات واسعة ذات طابع حربي . وكانت قد نشرت « مجلة عمليات الجيش الحربية في ١٧٦٩ - ١٧٧٠ » و « مجلة العمليات الحربية لجيش الأمبراطورية الروسية ضد الترك في ١٧٦٩ - ١٧٧١ » .

وكانت تنشر في « كشوف سانت بيترسبورغ » و « كشوف موسكو » بصورة منتظمة أخبار وأنباء مختلفة ومتنوعة مصدرها ميدان العمليات الحربية . وبعد انتهاء الحرب أصدر بعض المشاركين في تلك الحروب كتباً في هذا الموضوع . وكان نشر مذكرات قاسيلي غريگوروفيتش - بارسكي التي مرّ ذكرها بمعونة الأمير بوتيمكين تأفريجسكي في سنة ١٧٧٨ خير شاهد على اهتمام المجتمع الروسي بالوضع في الأمبراطورية العثمانية .

رحلة ليقاشوف

عاش أ.م. أوبريسكوف كمقيم روسي في استانبول^(١) بضع سنين وظل هناك حتى حروب سنة ١٧٦٨ - ١٧٧٤ ، وكانت السلطات التركية قد سجنته في بداية الحرب ، فبقي في معتقل القلعة ذات الأبراج السبعة حوالي السنة . وكان يعاني السجن في القلعة مع أوبريسكوف الكاتب ب . أ . ليقاشوف وهو أحد أعضاء البعثة الدبلوماسية .

وبعد عودته إلى بيترسبورغ فور خروجه من السجن نشر ليقاشوف كتابين يتضمنان معلومات وأخباراً ممتعة وطريفة عن ظروف اعتقال وإقامة أعضاء السفارة الروسية في السجن . وورد فيهما كذلك وصف الوضع السياسي الداخلي في تركيا^(٢) .

(١) كانت المدينة تسمى القسطنطينية وهي عاصمة الدولة البيزنطية قبل احتلال الجيش التركي في ٢٩ مايس ١٤٥٣ . وبعد السيطرة التركية سميت بمدينة استانبول وغدت عاصمة للأمبراطورية العثمانية .

(٢) « السجن والآلام التي عاناها الروس لدى الترك ، أو وصف مفصل للمخاطر التي تعرض لها

ويكتب ليقاشوف عن دسائس الترك في شمالي القفقاس ، وعن ظروف الحياة وأمزجة الجيش التركي ، وعن الاضطرابات التي تحدث عادة في صفوف الانكشارية لأسباب مختلفة ، وعن هروبهم من الجيش ونهب السكان .

ويصف المدن أيضاً ، فيقول عن أدريانوبول (أدرنه) : « تعد الأولى بعد القسطنطينية في جميع أنحاء تركيا الأوروبية ، وذلك من حيث السعة ، وكثرة السكان ، وبالإضافة إلى ذلك تتمتع بموقع جيد ، وتحيطها السهول من جميع الجهات تقريباً ، أودية منبسطة خصبة ومثمرة ، وفيها جبل عال واحد يمتد إليها من الجهة الشمالية الشرقية يزحف إليه ويتسلق عليه جزء كبير من مباني المدينة . أما النهر الذي يجري بالقرب من أسوارها فيمنحها جمالاً غير قليل ، والبيوت فيها مبنية بشكل عام من الطين ، كما في جميع المدن التركية ، الأخرى ، وأما الشوارع فهي ضيقة ، غير نظيفة ومتعرجة وغير مستقيمة . وفيها عدد كبير من المساجد ، والخانات الفخمة ، وبيوت المسافرين »^(١) .

ويذكر ليقاشوف كذلك نماذج غير قليلة من الحقائق والوقائع عن إهانة الترك للجنود الروس الذين كانوا يقعون في أسرهم ، وعن معاملتهم الخشنة العنيفة مع السكان المسلمين : « عندما كنا واقفين بالقرب من الميناء شاهدنا بأمر أعيننا معاملة الترك بأسلوبهم البربري للناس الذين وقعوا في أسرهم . وفي يوم من الأيام قادوا جميع الذين قبضوا عليهم عنوة وسرقوهم في تخوم بولونيا وأوكرانيا من القرويين المساكين ومعهم النساء والأطفال الصغار ، وكانوا يدفعونهم ويقودونهم للبيع ، ويسرون بهم في المدينة ، وفي الحقول بين القصور والمنازل ، وكانت الأمهات الباقيات يلتمسن أن لا يفرقوهن عن أطفالهم ، وأن يتم بيعهن مع أطفالهن ، ولكنهم لم يهتموا بدموعهن ، وكان القسم الأكبر من الناس الذين يباعون يقعون في أيدي مختلفة ،

الروس في تساريكراد (القسطنطينية) على أثر إعلان الحرب ، فكانت حياتهم تعسة ؛ مع سرد المذكرات اليومية عن القوات المسلحة وعملياتها في الحرب الماضية ، وكثير من الأحداث الأخرى الغربية النادرة العجيبة ، سانت بيترسبورغ ، ١٧٩٠ (فيما بعد « السجن والالام . . . ») ؛ « مذكرات يومية لبعض الأحداث التي وقعت خلال الحرب مع تركيا منذ يوم إعلانها وحتى سنة ١٧٧٣ » ، سانت بيترسبورغ ، ١٧٩٠ .

(١) « السجن والالام » ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

فكانت النساء يمزقن وجوههن وشعر رؤوسهن لفراق أولادهن ، وكان الكل في عذاب لا يطاق . وكانوا يعتدون عليهم كأن الدهر حكم عليهم بالعذاب الأبدي ، فيما كان المشاهدون يحملون قلوباً من الصخر ، ولم يظهرُوا نحوهم ذرة من الرأفة والشفقة ، بل كانوا يضحكون عليهم ، ويسخرون منهم ، ويوجهون السب والشتم إليهم»^(١) .

ويتكلم الكاتب عن التنكيل الوحشي الذي كان يتعرض له بعض القواد الحربيين الترك بسبب إخفاقهم في بعض العمليات الحربية والتهم الأخرى الموجهة إليهم . وهكذا كان الصدر الأعظم محمد باشا قد شق بسبب اندحاره في ضواحي خوتين ، وكذلك حاكم مولدافيا كالياكي . وهكذا انتقلت عدة ملايين من الليقات (نقد بولغاري) وهي من ممتلكات الوزير الكبير إلى يد السلطان .

رحلة خميتشسكي

بدأت البعثة الأرخبيلية الأولى بالعمل خلال فترة الحرب الروسية - التركية في سنوات ١٧٦٨ - ١٧٧٤ . وكانت المهمة الرئيسية للبعثة تنحصر في أشغال قسم من قوات العدو في ميدان العمليات الحربية في البحر الأسود ، ووظف الدانوب ، وتقديم المساعدة إلى اليونانيين في حربهم التحريرية ضد الترك . وقد تم تحطيم الأسطول التركي نتيجة للمعارك في خليج جسمين الذي كان مليئاً بالأسطول الروسي ذي المجد الذي لا ينظفي ، وكانت المعركة الحاسمة في ٢٤ حزيران وفي ليلة ٢٥ على ٢٦ حزيران سنة ١٧٧٠ بالذات انتهت الحرب بتحطيم الأسطول التركي .

كان القبطان العقيد البحري س . ب . خميتشسكي المشارك في البعثة الأرخبيلية ضابطاً بحرياً قوياً الملاحظة ومثقفاً قد ترك مذكرات لها أهمية كبيرة جداً ليس لتاريخ الأسطول الروسي فحسب ، وإنما لدراسة الشرق الأوسط أيضاً لأنها تتضمن - بالرغم من قصرها - وصفاً قيماً لجزر الأرخبيل اليوناني التي كانت تدخل في

(١) المصدر السابق ، ص ٨١ .

ممتلكات الأمبراطورية العثمانية في ذلك الوقت^(١).

وكان وصفه الجغرافي للجزر دقيقاً ومعبراً . وهو يلاحظ أشياء كثيرة منها : المناظر الطبيعية ، وأعمال السكان ، وخصائص الاقتصاد : « في جميع جزر الأرخيبيل ، وشواطئ روماني^(٢) ، والبر الأناضولي ، والجبال والمواقع العالية ، ولا توجد المياه بشكل كاف وفي جميع الأماكن ؛ أما الحقول فهي في الأماكن الواطئة ، أو في الأودية بين الجبال ؛ يبدأ حرث الأرض وبذر القمح في شهر تشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول ، وأما الحصاد فيكون في مايس وفي أواخره ، وأما الشعير فلا يبذر في وقت واحد ، وكل من يبذره بسرعة فهو يحصده بسرعة أيضاً ؛ ويكون إنتاج الحبوب المستعملة في الخبز في السنوات الخصبة ١٢ ضعفاً بالنسبة إلى الحنطة ، و١٠ أضعاف بالنسبة إلى الشعير ، وهي تزرع في الأراضي الضعيفة أيضاً ، أما في البحر [شبه جزيرة البيلوبونيز] ، والأناضول ، وروماني ، حيث الأراضي السهلة والخصبة يكون إنتاج الأرض عزيراً وفيراً ؛ وإنهم يزرعون أيضاً الفول الناعم في كانون الأول وكانون الثاني ، وينضج في نيسان ، والغالبية العظمى يزرعون الفول ، والحمص يزرع في نيسان فينضج في آب . ويزرع الكتاب بكميات كبيرة لا يستهان بها في بعض الأماكن ، كما ويزرع القطن في نيسان وأواخره وينضج في أيلول ، ويتوفر العنب ، والرقي ، والبطيخ وهي تنضج في تموز . وتحصل الأغنام والطيور على ما تقتاة عليه بنفسها ، غير أن الحشائش تجف في الصيف بسبب الحرارة والمطر قليل جداً أو معدوم ، ولكن يقع الطل والندى في الليل منذ شهر آب بغزارة وكثرة^(٣) .

ووضع خميتشسكي عدداً كبيراً من الخرائط ، وقد أشار فيها إلى جميع الجزر ، والخلجان ، والموانئ ، والقلاع التي اشترك هو بنفسه في حصارها . وكانت تستعمل هذه الخرائط التي رسمت باتقان ودقة من قبل البحارة والملاحين .

(١) « يوميات سيبان بيثروف ابن خميتشسكي عن العمليات الحربية للأسطول الروسي في الأرخيبيل ، وشواطئ آسيا الصغرى في سنوات ١٧٧٠ - ١٧٧٤ » ، « المعاصر » ، المجلد ٤٩ ، ١٨٥٥ ، ص ٣٧ - ٨٢ .

(٢) روماني : الجزء المناخم لبحر إيجه من شبه جزيرة البلقان .

(٣) « يوميات سيبان بيثروف » ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

ولم يغب عن ذهن خميتيفسكي الوضع البائس للسكان . ويقول عن أهالي جزيرة باروس : « انهم عراة ، جياع ، يعيشون على الأعشاب والحشائش فقط ، أما منظرهم فهو شبح إنساني . . . »^(١) .

ويصف خميتيفسكي حالة المناخ في الأرخبيل أيضاً : « تتوزع التيارات في جميع أنحاء الأرخبيل ، إلا أنها كثيرة وغير اعتيادية بالقرب من الدردنيل ، وهي أكثر من باقي الأنحاء . والصيف فيه حار ، ولا وجود للرياح تقريباً ، وأحياناً تهب رياح هادئة ، والندى غزير إلى حد يرطب الأرض كأن أمطاراً غزيرة قد هطلت ، وهكذا يصبح الجو بارداً ؛ ويبدأ الخريف في شهر تشرين الثاني ، وأما الرياح ، والأمطار ، والرعود ، والبروق فهي تعبت بالغلل الصيفية ؛ وتدوم الرياح القوية والعواصف ثلاثة أيام ، وتحمل الزوابع الشديدة معه الغبار ، والرطوبة أحياناً »^(٢) .

رحلة كوكوتسوف

كان قد شارك في البعثة الأرخبيلية عضو آخر وهو القبطان البحري ، وفيما بعد الرئيس م . ك . كوكوتسوف (١٧٤٥ - ١٧٩٣) ، وهو أحد أجداد عالم الدراسات السامية الشهير ب . ك . كوكوتسوف وكان قد شارك في معركة خليج جيسمين . زار م . ك . كوكوتسوف عدداً من الجزر في « الشاطيء البربري » (يقصد الساحل الإفريقي للبحر الأبيض المتوسط - م . خ .) وترك مذكراته . ويكتب المؤلف في مقدمتها : « لم أعثر على وصف شامل رصين صحيح عن تلك البلاد المهمة . . . فقررت أن أستغل وقت الفراغ القليل الذي كنت أملكه أثناء خدمتي خلال الحرب الروسية المجيدة ضد الترك أن أقوم بجمع الأخبار والمعلومات عن جميع الأماكن التي كنت قد شاهدها وعشت فيها ، وقد سجلت كل ما كان ضرورياً »^(٣) .

ويصف م . ك . كوكوتسوف مجموعة كبيرة من الجزر . وإن إنطباعاته تتصف

(١) المصدر السابق ، ص ٨١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٣) « وصف الأرخبيل والشاطيء البربري - وضع الجزر - والمدن ، والقلاع ، والموانئ ، والمرافئ ، والملاجئ ، والصخور التي تحت الماء ، وعدد السكان ، والأديان والعقائد ، والعبادات والتقاليد ، والتاريخ القديم ، وملحق يضم ثلاثة تصاميم » ، سانت بيترسبورغ ، ١٧٨٦ (فيما بعد « وصف الأرخبيل ») .

بالدقة ، ويشير إلى مواطني الأماكن الأهلة بالسكان ، والموانىء ، والمرافىء ، والقلاع ، ويدقق في الخرائط الانكليزية المتوفرة ، ويقدم تاريخاً موجزاً للأماكن التي يزورها . وقد كرس فصلاً خاصاً لعادات وتقاليد سكان الأرخيبيل : « يعاني السكان الجهل ، والعوز ، ويفتقرون إلى الغذاء من ثمار أرضهم . أما سبب كل هذه الظواهر هو الأمية والحكم التركي المضطرب الذي لا نظام فيه ، ولا يساعد على نشر العلوم والفنون ، لأن بخل الحكام الذين يحكمون هناك وصل حداً يعملون على تحقيق طمعهم الذاتي فقط ، ويقومون بكل شيء يحقق لهم ذلك . وأما إذا ظهر بين السكان بعض المتورين فهو بسبب علاقاتهم بالأوروبيين القادمين إلى هناك للتجارة . . . وإن البخل الذي يتصفون به ويسيطر على قلوبهم هو أعلى بكثير من بخل الهولنديين . . . واليونانيون عادة يغارون على الجنس النسائي وهم في هذا يشبهون الترك حيث يعزلون نساءهم ويرغمونهن على العيش بانفراد »^(١)

وهناك في كتاب كوكوتسووف نصائح وإرشادات غير قليلة للملاحين ، وملاحظات قيمة في الأرصاد الجوي (ميتيورولوجي) .

ومن الأهمية بمكان وصف رحلة المؤلف في سنة ١٧٧٦ إلى تونس فهو زاخر باللمسات الدقيقة التي تظهر الحياة الاجتماعية والوضع الروحي للسكان المحليين .

ففي هذه السفارة زار كوكوتسووف الموانىء والمدن : سوسة ، وصفاقس ، وباردو ، وأطلال كارفاغين^(*) أيضاً .

ثم توجه كوكوتسووف في تموز سنة ١٧٧٧ إلى الجزائر ، وزار فيها بون وضواحيها^(٢) : « إن طراز حياة السكان هنا يشبه ما في تونس ، غير أن الأخيرة تعاني أكثر من نير الحكومة القاسية ، لذلك يكون الفقر والجهل فيها أشد . والمنازل هنا مبنية في صف واحد ، لا تتميز بأية زخرفة ، أو تزويق ، يعيشون في الغالب على الخبز

(١) المصدر السابق ، ص ٦٩ - ٧١ .

(*) كارفاغين : ربما هي مدينة قرطاجة ! (المترجم) .

(٢) « أخبار موثوقة عن الجزائر ، عن العادات والتقاليد لشعب ذلك المكان ، وعن حالة الحكومة ومدخولات المناطق ، وعن وضع الشواطىء البربرية (شواطىء شمالي أفريقيا للبحر الأبيض المتوسط) ، وعن النباتات وما شابهها ، مع رسوم حقيقية دقيقة » ، سانت بيترسبورغ ، ١٧٨٧ .

وحده ، والحضار والنباتات الأخرى ، أما في الملبس فإنهم أفقر من التونسيين . . . » .

وإن مؤلفات كوكوفتسوف الإنسان الذي يتمتع بثقافة واسعة عالية والذي درس حياة وواقع البلدان التي قام بزيارتها بعمق وتأمل ، تتميز بأنها مشبعة بالشعور الإنساني الكبير وكان م. ك. كوكوفتسوف رجلاً متطوراً ومتقدماً في زمانه . فهو يدين بشدة سياسة الحكام الترك تجاه الشعوب المستعبدة ، ويرى أن تلك السياسة هي الوازع الحقيقي في تأخر وفقر الشعب الذي يملك جميع الإمكانيات في أن يعيش حياة أفضل .

فقد أشار الأكاديمي إ. ي. كراچكوفسكي أن مؤلفات كوكوفتسوف تبقى مصدراً مهماً لدراسة الجزائر وتونس في ذلك العصر :

« لقد حازت في عصرنا هذا على تقييم عالٍ من لدن الاختصاصيين في تاريخ شمالي أفريقيا في العلم الفرنسي الذي لم يكن قد تعرف عليها إلا في الوقت الحاضر »^(١) .

ولا بد لنا أن نؤيد آراء م. أو. كوشين عن أن : « وصف كوكوفتسوف لبلدان شمالي أفريقيا غني في مضمونه ومعبر إلى حد كبير ، ولذلك يستطيع بحق أن يحتل المكان الأول في الدراسات الإفريقية في تاريخ العلم الروسي »^(٢) .

رحلة بليشيف

زار ضابط الأسطول الروسي س. إ. بليشيف (١٧٥٢ - ١٨٠٢) سوريا وفلسطين في فترة وجود الأسطول الروسي في الأرخبيل في نهاية سنة ١٧٧٢ . وقد تقرب فيما بعد من ن. إ. نوثيكوف وأصبح من أصدقائه الحميمين ، وهو أحد الذين

(١) إ. ي. كراچكوفسكي ، مقالات في تاريخ الاستعرا ب الروسي ، ص ٥٦ ، ٥٧ .
(٢) م. أو. كوشين ، أول روسي مختص في الدراسات الإفريقية م. ك. كوكوفتسوف ، « الاستشراق السوفياتي » ، العدد ٢ ، ١٩٥٦ ، موسكو ، ص ٩٥ .

استمروا على ما بدأ به م. ث. ف. لومونوسوف في حقل الجغرافيا^(١) . وكان ضابطاً شاباً حينما التحق ببعثة في انكلترا لتلقي التطبيق والممارسة في العلوم المتعلقة بالشؤون البحرية ، وهكذا عاش على متن بواخر الأسطول الانكليزي منذ سنة ١٧٦٥ وحتى سنة ١٧٧٠ . وفي جولاته هذه التحق بالأسطول الروسي المتوجه إلى جزائر الأرخييل اليوناني .

وكان س.إ. بليشيف يدون مذكراته اليومية^(٢) ، كتب فيها بتفصيل عن رحلته من جزيرة باروس حتى سوريا ، ويدون ملاحظاته بلغة حية معبرة عن المدن ، والموانئ ، والتجارة ، والتحصينات . وقد أولى اهتماماً بشؤون الحياة اليومية وبشكل خاص في وصفه لفلسطين الذي يحتمل مكاناً بارزاً في عمله .

كان قد صدر مؤلف س.إ. بليشيف التي أشرنا إليه في سنة ١٧٧٣ ، وبعد مرور سنوات قليلة كان قد ترجم إلى اللغة الألمانية وطبع في مدينة ريغا في سنة ١٧٧٨ .

وأرسل بليشيف في بعثة ضمن سفارة ريبنين إلى القسطنطينية في سنة ١٧٧٥ فقام بجرد ومسح مضيق الدردنيل ، وفي سنة ١٧٧٦ أنجز جرد سينوب وطرابزون ثم عاد بعد ذلك إلى بيترسبورغ .

ثم نشر « إستعراض الأمبراطورية الروسية في حالتها الراهنة » في سنة ١٧٨٦ ، وهو معروف بشكل جيد في الأدبيات الروسية . فصدرت له حتى سنة ١٧٩٠ أربع طبغات ، وترجم إلى اللغتين الألمانية والفرنسية أيضاً .

وقد قام بليشيف بترجمة رحلة^(٣) اللورد الانكليزي بلتيمور من اللغة

(١) معجم السير الروسي (المجلد بلافلشيكوف - بريمو) ، سانت بيترسبورغ ، ص ١١٣ - ١١٥ (مع المراجع) ؛ « الجغرافيا الاقتصادية الوطنية في القرن الثامن عشر - القرن التاسع عشر » ، مقالة ن . ب . نيكيوتين ، موسكو ، ١٩٥٧ ، ص ٩٩ - ١٠٣ .

(٢) « مذكرات يومية لرحلة من جزيرة الأرخييل باروس التابعة لروسيا إلى سوريا والأماكن التي تستحق الاحترام الواقعة في حدود أورشليم (القدس) مع تاريخ موجز لفتوحات البيشيف » ، سانت بيترسبورغ ، ١٧٧٣ .

(٣) « رحلة اللورد الانكليزي بلتيمور من القسطنطينية خلال روميل ، وبولغاريا ، ومولدافيا ،

الإنكليزية إلى اللغة الروسية وهي تبدأ من القسطنطينية عن طريق روميلي^(١) ،
ومولدافيا ، وبولونيا ، والمانيا ، وفرنسا ، وتنتهي بلندن . ويصلح هذا الكتاب أن
يكون دليلاً ، وقد أضاف بليشيف إليه بعض الزيادات ، والملاحظات ،
والتعليقات ، وصدرت له طبعتان (١٧٧٦ و ١٧٧٨) .

البحارة والموانئ

بعد توقيع معاهدة كوجوك كاينارجه في استانبول في ١٨ أيلول سنة ١٧٧٤ ،
تحرك الأسطول الروسي من الارخبيل بقيادة الرئيس إ.أ. بوريسوف « لاختيار الملاحة
الحرية في البحر الأسود عبر الدردنيل والبوسفور » .

وكان الضابط المهندس البارون فون دير بالين المرافق لبوريسوف يدير « مجلة
الرحلات الى القسطنطينية » ، وقد كتب فيها وصفاً للأماكن التي قام بزيارتها^(٢) .

ولـ « مجلة الرحلات إلى القسطنطينية » شأنه الخطير ، وأثرها البارز في تاريخ
دراسة الشرق الأوسط من قبل الروس ، لأن المؤلف رسم بدقة مخطط تروي
والقسطنطينية وبذلك أضاف معلومات جديدة على الدراسات التي قام بها الروس
لتلك الأماكن .

ومن المفيد الإشارة هنا أيضاً الى كتاب ف. أ. إمين « وصف موجز للدولة
[الباب العالي] العثمانية »^(٣) الذي كان قد زار تركيا ، ويذكر فيه معلومات قيمة في

وبولونيا ، والمانيا ، وفرنسا إلى لندن » ، ترجمها من الإنكليزية س. إ. بليشيف ، الطبعة الثانية ، سانت
بيترسبورغ ، ١٧٧٨ .

(١) كانت روميلي في القرنين السابع عشر والثامن عشر تتألف من بولغاريا ، وصربيا ، وألبانيا ،
ومكدونيا ، وإيسر ، وفيصاليا ، أي بلدان شبه جزيرة البلقان التي احتلها السلاطين العثمانيون . وكانت
بولغاريا غالباً ما تعتبر خارج نطاق روميلي . وقد انكشفت حدود روميلي في القرن التاسع عشر بسبب تحرر
اليونان وصربيا ، واستقلال بولغاريا من النبر التركي . وفي الوقت الحاضر تطلق تسمية روميلي أحياناً على
الأراضي القليلة في تركيا الأوروبية الواقعة في منطقة المضائق وبحر مرمرة (فراكيا الشرقية) .

(٢) « النشرة الوطنية » ، العدد ٣٨ ، ١٨٢٣ .

(٣) « وصف موجز للأوضاع القديمة والجديدة للدولة [الباب العالي] العثمانية » ، موسكو ، ١٨٢٨ .

تاريخ وجغرافية البلاد ، ويتناول أصل وجوهر الدين الإسلامي ، ويتحدث عن الحياة الاجتماعية ، والقوات المسلحة .

رحلة إيگناتي

يحتل « وصف رحلة الأب إيگناتي الى تساريغراد ، وجبال أيون ، والأرض المقدسة ، ومصر في سنوات ١٧٦٦ - ١٧٧٦ »^(١) مكاناً بارزاً في أدب الرحلات .

توجه إيگناتي في مايس سنة ١٧٦٦ من كورسك عن طريق كييف ، زابوروژی ، أوجاكوف الى استانبول ، فدخلها في حزيران سنة ١٧٦٧ . أقام فيها مدة ثلاثة أسابيع وفي نهاية تموز سافر الى أيون . ومن أيون توجه إلى مصر ، وعكا ، ومدينة القدس ، وكذلك زار مرسى الاسطوك الروسي في باروس . وعاد الى بلاده في آب سنة ١٧٧٦ . وحينما لزم إيگناتي دير ساروف^(٢) شرع بكتابة مذكراته عن الرحلة .

وهكذا يقول إيگناتي عن تساريغراد (القسطنطينية) انها « مبنية على سبعة تلال ، وهي تقع على خليج خلقدونيا . وعندما دخلتها أدهشني جمال المدينة وفخامتها . والميناء ملائم للسفن ، وهي تأتي من جميع انحاء البحرين الابيض والاسود . . . »

والمنازل في تساريغراد مبنية من الحجر ، ويتكون كل منزل من أربع غرف أو خمس مع المخادع ، وشوارعها ضيقة جداً لا تستطيع العربات التي تجرها الخيول ان تمر فيها ، وهكذا فانهم في الغالب يسرون مشياً على الاقدام ، ويسافرون على الخيول . . . »

ويقول عن مصر : « ان مدينة مصر [القاهرة] مدينة كبيرة جداً ، وهي أكبر

(١) مجموعة فلسطين الارثوذكسية ، النشرة ٣٦ ، المجلد ١٢ ، سانت بيتر سورغ ، ١٨٩١ .

(٢) دير ساروف : دير للرجال في قضاء نيميوكوفسكي التابع لمحافظة تامبوفسكي في أواسط القسم

الأوروبي لروسيا .

من تساريگراد بمرتین ، ويقولون ان عدد مساجد العرب فيها وحدها اكثر من
عشرين ألف . اما الازدحام ، وكثرة الناس ، والصخب فقد كانت مبعث استغراب
شديد . والشتاء غير موجود هناك ، أما حرارة الشمس فهي عظيمة جداً . . .

ومن الجدير بالذكر انه عندما يفيض نهر النيل ، ثم يعود الى حالة النقصان
يزرعون القمح ، فيكون الإنتاج عظيماً ، وأحياناً يحدث ارتفاع متوسط في نهر
النيل ، حينئذ يكون الإنتاج أقل . وينضج القمح عندهم في شهر شباط حينما يكون
الشتاء عندنا في أوجه .

رسائل تساريگراد للمؤلف المجهول

نشر في سنة ١٧٨٩ كتاب «رسائل تساريگراد»^(١) ، وقد ألفه على ما يظهر
مؤلف مجهول على معرفة جيدة بتركيا في سنوات ١٧٨٧ - ١٧٨٩ ، وهو أثر نفيس
بمثابة دليل يقوم بتعريف تركيا بشكل جيد (من المحتمل ان يكون مؤلفه هو ب . أ .
ليقاشوف المار ذكره)^(٢) .

ويقع الكتاب في أربعة عشر فصلاً (أي أربع عشرة رسالة) كالآتي :

- ١ - عن الاختلاف والتباين بين الترك القدامى والمعاصرين .
- ٢ - عن أحسن المباني في تساريگراد ، وبيوت المسافرين وما شابهها .
- ٣ - عن السراي (القصر) ، والحريم ، المكان الذي تحفظ فيه النساء .
- ٤ - عن ضواحي تساريگراد .
- ٥ - عن معاملة الترك لسفراء ، ووزراء البلدان الأجنبية .
- ٦ - عن مكائد الحب وحيله عند الرجال والنساء الترك .

(١) «رسائل تساريگراد عن الترك القدامى والمعاصرين ، ووضع قواتهم ، وعن تساريگراد وجميع
ضواحيها» ، سانت بيترسبورغ ، ١٧٨٩ .

(٢) ان افتراضنا لا يستند على سعة اطلاع ليقاشوف على الحياة في تركيا فقط ، وكذلك ليس على التشابه
الموجود بين أسلوب «الرسائل» وبعض ملاحظاته الشهيرة الواضحة ، وإنما مضمون «الرسائل» نفسه
يحملنا على الاعتقاد بأن مؤلفها كان ديبلوماسياً .

- ٧ - عن سرعة غضب (تهور) الترك ، وهي قدوة غريبة .
 ٨ - عن الدردنيل والمضايق وما شابهها .
 ٩ - عن نمط الحياة عند الترك .
 ١٠ - عن قصور السلاطين وخدمهم المقربين .
 ١١ - عن السلاطين وشؤونهم المهمة .
 ١٢ - عن الأنظمة ، واللغة ، وبلدان الشعوب الواقعة تحت سلطة الدولة التركية .
 ١٣ - عن انتخاب البطريرك ، وعن الوضع الحالي للكنيسة اليونانية .
 ١٤ - عن احتفالات اليونانيين ، وأساطيرهم ، والجزية وما شابهها .

لا شك ان هذه القضايا التي يتناولها الكتاب تجلب الإنباه وتشير إلى تنوع في مضمونه . وترد في الكتاب معلومات عن سراي السلطان : « يُقال بأنه يتم هناك استهلاك أكثر من أربعين الف من الثيران الطرية والمملحة المكبوسة في السنة الواحدة ، وعلى المتعهدين أن يزودوا القصر في كل يوم بمائتي خروف ، ومائة حمل ، وعشرة عجول ، ومائتي دجاجة ، ومائتي زوج من فروخ الدجاج (الكتاكيت) ، ومائة زوج من الحمام ، وخمسين إوزة ، ونفس العدد من الديك الرومي » .

ويقول عن استانبول : « إذا أردنا أن نحكم على جمال المدينة ، علينا أن نقول بأنها فردوس أرضي ، أو الجنة التي هبطت الى الأرض ، ولكن إذا شرعنا بالإمعان فيما يحدثه وباء الكوليرا في كل صيف هناك ، والحرائق الرهيبة التي تحدث غالباً ، وعلاقة الترك البربرية بالمسيحيين ، والخطر الدائم الناجم من التمرد ، والعصيان ، والفتن ، لا شك ان المدينة تكون في مثل هذه الأحوال أكثر شبيهاً بالجحيم منه إلى الجنة . . . »^(١)

ويتحدث المؤلف عن حياة الترك . ويشير بارتياح إلى امتناع الترك من تعاطي المسكرات في كل مكان تقريباً ، واعتدالهم في الأكل .

ثم يقف عند وحشية وتعسف القضاء : « ان الإعدامات التي تتم هنا بالموظفين والناس البسطاء تدعو إلى الاشمزاز ، فعلى سبيل المثال ، ان الإنكشاريين والبحارة

(١) « رسائل تساريكراد » ، ص ٤٢ .

وغيرهم هم الذين يقومون بهذه الأعمال دون سابق إنذار وبسرعة خاطفة ، وبدون أي تحقيق ضروري ، أو النظر في القضية الى انها تستحق الموت أولاً ، وهكذا يحدث غالباً ان تكون مدة قصيرة ، أو لحظة من الزمان مساوية لحياة كثير من الأبرياء . . . » (١) .

ويتعاطى الترك في نطاق واسع الأفيون ، والتبغ : « يدخنونه في كل مكان وبكثرة ، وانهم ينامون دائماً مع غليونهم » .

رحلة بارانشيكوف

ليس بإمكاننا إغفال الرحلة الإجبارية للتاجر فاسيلي بارانشيكوف (٢) وهو من مدينة نيترنى - نوتسكورود .

كان بارانشيكوف قد وصل الى كوبنهاغن لأعمال تجارية ، وقد شوهد وهو في حالة سكر ، فقبض عليه رجال الإستخبارات ، وسلموه الى إحدى السفن . وأصبح هناك ضحية لتجار الرقيق الأوربيين ، وخلال سبع سنوات ابتداءً من سنة ١٧٨١ خدم كجندي في الجيش الدانماركي الاستعماري . وكان عبداً في المزارع الإسبانية الكبيرة في الهند الشرقية ، وأسيراً بيد القراصنة الترك في فلسطين ، وحالاً في الميناء في استانبول ، وبحاراً في سفينة يونانية وانكشارياً في حرس قصر السلطان .

وعند إحدى محاولاته للهروب قد قبض على بارانشيكوف و « ضرب بقسوة بعضى في قدمه ، ولم يستطع السير اكثر من شهر ، بل كان يزحف على الأرض » .

أما المحاولة الثانية فقد كانت ناجحة . إذ بعد خروجه من بيت لحم توجه بارانشيكوف الى يافا ، ثم سافر إلى مدينة القدس ، ثم عاد مرة أخرى إلى يافا ، وعمل كبشار بأجرة في إحدى السفن، فوصل الى استانبول. هنا تزوج بتركيات ، وقد

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

(٢) « المغامرات النعسة » لفاسيلي بارانشيكوف التاجر الصغير من مدينة نيترنى - نوتسكورود ، في الأقاليم الثلاثة من العالم : في أميركا ، وآسيا ، وأوروبا ، من سنة ١٧٨٠ وحتى سنة ١٧٨٧ ، (فيما بعد « المغامرات النعسة ») سانت بيترسبورغ ١٧٨٧ .

خدع اثنتين من النساء ، ثم هرب من استانبول ، فتجول في بولغاريا ، وبعد غياب طويل عاد عن طريق فالاكيا ، وبولونيا الى مدينة نيثنى - نوغورود .

وعن خدمته في صفوف الإنكشارية يقول : « يقدمون مرة واحدة في اليوم الطعام السلطاني ، والمائدة عندهم تتكون من الخبز الأبيض وعصيدة الدخن فيها ما يكفي من اللحم ، أما الدخان فيقدمون بقدر ما يحتاجه الشخص ، ويتناولون الطعام جماعات ، فكل جماعة تتألف من عشرة أشخاص يأكلون مع بعضهم ، وهناك مقرر للجماعة وهو رئيسهم ، ويسمونه برئيس العشيرة . . . »^(١)

ويتطرق بارانشيكوف بكبقية السباح إلى قسوة القضاء التركي ، وبشكل خاص الخداع والحيل التي يمارسونها في تجارة المواد الغذائية . فبائع الخبز الذي بترت أصابع ثلاثة في يده يقول : « لقد قطعت ثلاثة أصابع من يدي في أوقات مختلفة وذلك لأن القوانين التركية تقضي بالآتي : إذا نقص الوزن المقرر ولو بمقدار عشرة دراهم في الرغيف الواحد فإن المندوبين الذين يرسلون للمراقبة يجردون الفاعل من أحد أصابعه حيث يرافقهم جلاذ يقوم بقطع الأصبع بدون أي حكم قضائي ، ويقال بأن الأيدي والأصابع مذنبه . أما إذا كان النقص ٤ أو ٥ أو ٧ أو ٨ أو ٩ دراهم فإن العقوبة تكون بجلد الفاعل خمس جلدات »^(٢) .

ولا شك ان « الملحق » يستحق الاهتمام الخاص ، لأنه يرد فيه وصف مدينة تساريكراد ، والأمراء والرؤساء الترك العسكريين والمدنيين .

وعند دراسة مذكرات بارانشيكوف لا يستطيع المرء إلا أن يوافق على آراء س. أ. فينغروف الذي يقول : « من الصعوبة الإقناع بأن « المغامرات التعسة » بأكملها حصيلة قلم بارانشيكوف . . ولا تخرج انطباعات هذا السائح بالإكراه عما يأكلونه في جزيرة « سانكتو - توماس » ، وما يشربونه في فلسطين ، وما شابه هذه الأشياء ، غير أن المرء يصادف في هذا الكتاب بعض الأقوال والمعلومات ، لا يمكن أن تخرج إلا من شخص أكثر ثقافة . كما أنه من الجائز الاعتقاد بأن الوصف المنظم الوارد

(١) « المغامرات التعسة » ، ص ٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٥ .

للحياة التركية لا يعود إلى بارانشيكوف وحده»^(١) .

ففي الوقت الذي تتعرض فيه أصالة الأحداث إلى الشك وهي المغامرات التي رواها بارانشيكوف ، ظهرت هناك آراء تقول بأن بارانشيكوف هو نفسه شخصية خيالية مختلفة .

غير أن ر. أ. شيتلمارك^(٢) يقول في روايته الوثائقية الرائعة بأن بارانشيكوف لم يكن شخصية خيالية ، وإن أثره « المغامرات التعسة » تمت إلى الواقع بصلة بالرغم من أننا نستطيع أن نعتقد بأنه قد أضاف من عنده أشياء .

رحلة ميليتي

كانت لرحلة الراهب ميليتي في سنتي ١٧٩٣ و ١٧٩٤ إلى مدينة القدس أهمية كبيرة جداً^(٣) .

خرج ميليتي من موسكو إلى تاغانروك في ١٠ آب سنة ١٧٩٣ ، ثم توجه من هناك عن طريق البحر إلى استانبول . وكان على متن السفينة مع المسافرين الآخرين خمسة عشر شخصاً قدموا من بخاري وكانوا في سفر لأداء فريضة الحج إلى مكة .

ويذكر ميليتي بأن الترك يتصرفون مع الروس بروح مليئة بالبغضاء والكراهية : « كان الترك ينظرون إلينا بغضب وعنف ، ويخاصموننا بهدوء عندما يعلمون بأننا روس . لكن شركاءنا كانوا يتصرفون تجاهنا في المقابل بشكل مغاير طبعاً » . (الظاهر الكلام عن اليونانيين) . وقد شاهد ميليتي وصول سفارة م. إ. كوتوزوف إلى استانبول . وكانت علاقة السلطة التركية العدوانية قد وصلت إلى حد

(١) س. أ. فينكروف ، المعجم الانتقادي لسيرة الأدباء والعلماء الروس ، المجلد ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩١ ، ص ١٢٣ .

(٢) ر. أ. شيتلمارك ، رواية عن الروسي المتجول ، كلمة الختام بقلم الأكاديمي ن. إ. كونراد ، موسكو ، ١٩٦٢ .

(٣) « رحلة راهب الدير في ساروفسكي ميليتي في سنتي ١٧٩٣ و ١٧٩٤ إلى اورشليم (القدس) » ، (الطبعة الثانية) ، موسكو ، ١٨٠٠ .

مع الروس منعت « رعاياها » من الحضور لمشاهدة مراسيم دخول أركان السفارة إلى المدينة .

ويتناول ميليتي مدينة القسطنطينية بوصف مفصل ، ويتطرق الى سوق العبيد « حيث يباع الإنسان من كلا الجنسين ، الرجال والنساء ، من العرب السمر ، والجورجيين وآخرين أتوا بهم من أماكن مختلفة » .

وفي طريقه إلى القسطنطينية زار عدداً من جزر الأرخيبيل اليوناني ، ومنها جزيرة قبرص .

« إن هذه الجزيرة هي من أكبر الجزر في تركيا . . . تتوفر فيها ثمار مختلف الأشجار التي تنمو وترعرع في المناخ الحار ، والأعشاب ، والحمرة البيضاء والحمراء ، والزيت النباتي ؛ وهي تفتخر بحبوبها وقمحها ، وتنتج فيها كميات كبيرة من القطن الذي يصنعون منه القماش القطني الغليظ ، ومختلف أنواع الأقمشة القطنية المنقوشة الملساء الأخرى . وهناك الصابون القبرصي الذي يختم بأختام غير كبيرة يصل حتى الى روسيا . أما بواطن الجبال فهي مليئة بالمعادن والأصباغ . وهناك تربية المواشي ، خصوصاً الأغنام ، وهي كثيرة لا يستهان بها . أما جبن هذه المنطقة الذي يكون في قطع غير كبيرة فهو لذيد جداً . . . والسكان فيها من حيث الأصل والمنشأ في ثلاثة أجناس : الترك ، واليونانيين ، والارمن ، وعدد اليونانيين أكثر من الجنسين الآخرين . . . »^(١)

وفي أوائل كانون الأول سنة ١٧٩٣ وصل ميليتي الى فلسطين ، وقد اهتم بالعلاقات بين القوميات وهي كثيرة ومتنوعة ؛ وكذلك بالنزاع بين الشخصيات الدينية المنتمية إلى المذاهب المسيحية المختلفة .

كان هناك في مدينة القدس مع ميليتي عدد هائل من الحجيج الارثوذكس عددهم خمسة آلاف شخص حسب تقديره هو .

وفي كانون الأول وصل الى يافا .

(١) المصدر السابق ، ص ٧١ .

« جميع البيوت مبنية من الحجر المنحوت ، والشوارع ضيقة ، ومتعرجة ، وغير نظيفة ؛ ولا وجود لأية بناية جيدة . . . اما المرفأ للسفن فهو معدوم تقريباً . . . وترسو السفن بعيداً في البحر في أثناء هبوب العواصف الشديدة ، وهي عرضة للكوارث . أما الضواحي في الجانبين عند شواطئ البحر فهي واطئة ، وهناك أراضي خصبة في الأماكن المرتفعة في فلسطين ، تنمو في بسايتها النخيل ، والتين ، والبرتقال ، والليمون ، والنارنج ، وما شابه ذلك . وتشتهر هذه الأصقاع بالرقمي وهو أفضل مما في القسطنطينية ، وتتوفر فيها النباتات التي تستعمل في الطبخ ؛ وفيها القصب الحلو (قصب السكر) أيضاً . وأما الإلتاء القومي للسكان فما عدا العسكريين ، والأوساط الحاكمة من الترك مع عدد قليل من اليهود فالجميع هنا من العرب ، وفيهم عدد غير قليل يدين بالمذهب الارثوذكس المسيحي ، والبقية هم من الكاثوليك والمحمديين (المسلمين) »^(١) .

وصل ميليتي في كانون الأول إلى مدينة القدس ، فوجه اهتمامه إلى أساليب توزيع المياه في المدينة .

« تجمع المياه في أشهر الشتاء في مدينة القدس من الأمطار في مجمع تحت الأرض بين الأحجار كاحتياطي للصيف ، أما مياه الأمطار على سطح الأرض فتكون بسواقي صغيرة ، وهي سريعة الجريان ، ويتم جمع هذه المياه أيضاً ، ولا يوجد حول مدينة القدس أي نهر أو ساقية »^(٢) .

ويشير في ملاحظاته كذلك إلى أنه : « لا وجود للأنهار في جميع أنحاء فلسطين عدا نهر الأردن . . . ويستعمل الناس مياه الأمطار في احتياجاتهم ، وهي اما تجمع في احواض تنبع من الأرض على شكل جداول وتحفظ في الحفر أو الصهاريج ، وتنخلص من الشوائب وتصبح صافية في باطن الأرض . والمياه هنا بشكل عام صافية وباردة »^(٣) .

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

فالمعلومات التي يقدمها السياح عن الطبيعة ، والحياة الزراعية ، والإقتصادية لبلدان الشرق ، وعن التجارة والصناعات المحلية لها أهمية كبرى كما نعتقد . أما ما يتعلق بوصف « الأماكن المقدسة » فإن الرحالة ، والسياح ، والمسافرين قد اقتبس بعضهم المعلومات من البعض الآخر بدون شك . وقد أشار ن . ك . جيرنيشيسكي إلى هذه الظاهرة في حينه : « يصف ميليتي الأماكن المقدسة بصورة مفصلة جداً ، غير أن في كتابه اقتباسات من الرحالة الذين سبقوه ، وهي قضايا معروفة لدى الجمهور في المجتمع الروسي »^(١) .

سفارات الروس في استانبول

كانت للبلاغات الدبلوماسية التي يعيها المقيمون الدائمون الروس ، والسفراء فوق العادة ، وكذلك أخبار البعثات الروسية والمترجمين في استانبول الأهمية الكبرى في دراسة الشرقيين الأدنى والأوسط كما اشرنا الى ذلك سابقاً . وكان دبلوماسيون ممتازون يمثلون روسيا في قصر السلطنة في النصف الثاني في القرن الثامن عشر من أمثال : أ . م . اوبريسكوث (١٧٥١ - ١٧٦٨) ، ون . ف . رينين (١٧٧٤ - ١٧٧٦) ، و . ي . ل . بولجاكوث (١٧٨١ - ١٧٨٧) ، و . م . ل . كولنيشيف - كوتوزوف (١٧٩٣ - ١٧٩٤) .

ولقد قام المترجم في البعثة الروسية في استانبول نيكولاي بويدبي^(٢) عند عودته الى بيترسبورغ في سنة ١٧٥٢ بتأليف « تصريح موجز عن أوضاع الدولة (الباب العالي) العثمانية في ذلك الحين » ، ويشير فيه الى الإفلاس التام للولايات التركية ،

(١) ن . ك . جيرنيشيسكي ، مجموعة المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢ ، موسكو ، ١٩٤٩ ، ص

(٢) خدم بويدبي في استانبول في البعثة الروسية في عهد أ . ل . نيبيلويث وخليفته أ . م . اوبريسكوث . يراجع مقالة : أ . س . تشيريتينوف ، في تاريخ العلاقات الروسية - التركية في عهد إليزابث ، « الاستشراق السوفياتي » ، المجلد ٦ ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٩ ، ص ٣٢٠ ، مقالات في تاريخ الإستشراق الروسي ، المجموعة ٤ ، موسكو ، ١٩٥٩ ، ص ٢٤ .

وبشكل خاص الولايات التي تقع على الشواطئ الآسيوية . وكان الإفلاس حصيلة ابتزاز الحكام للأموال بصورة لا حدود لها .

رحلة أوبريسكوڤ

كان الفتى أ.م. أوبريسكوڤ وهو شاب في سنه الثانية والعشرين قد عين في سفارة أ.إ. روميانتسيف فوق العادة في القسطنطينية بعد إكماله مدرسة الدراسات الحربية المتوسطة للأمراء المحليين البولونيين في سنة ١٧٤٠ . وبحكم معرفته للغتين التركية واليونانية وخلال ١٠ سنوات التي أقام فيها في عهد مقيمة أ.أ. فيشنيكوڤ ، وأ.إ. نيبلويف اضطلع أكثر من مرة بمهام خطيرة . ثم عاد أوبريسكوڤ في سنة ١٧٥٠ الى روسيا إلا أنه بعد وفاة أ.إ. نيبلويف في سنة ١٧٥١ عين في منصب قائم بالأعمال في القسطنطينية ، ثم أصبح مقياً^١ . وقد بقي في هذا المنصب حتى حرب سنوات ١٧٦٨ - ١٧٧٤ .

وفي بداية الحرب ، وبعد امتناعه عن تسليم الانذار النهائي الحشن جداً كان قد قبض على أوبريسكوڤ مع آخرين من ممثلي البعثة الروسية ، وزجوا في سجن القلعة ذات الأبراج السبعة . كان الوضع في القلعة سيئاً وصعباً جداً ، ومع ذلك كان بإمكان أوبريسكوڤ ان يبعث الأخبار الى بيترسبورغ ، وكان يوضح ويصف أوضاع البلاد فيها .

وكان نشاط أوبريسكوڤ في القسطنطينية موجهاً الى حل قضية البحر الأسود . وكانت المهمة الخطيرة في هذا الصدد تتمثل في عقد معاهدة عن التجارة البحرية ، ولكن أوبريسكوڤ لم يستطع تحقيق مثل هذه المعاهدة .

وبعد دراسة مستفيضة للأوضاع في تركيا ، قدم أ.م. أوبريسكوڤ في سنة ١٧٥٦ الى بيترسبورغ مذكرات خاصة فيها رأي^٢ « حول الوصايا التي يمكن أن

(١) المقيم : هو الوكيل الدبلوماسي الذي يرأس البعثة ، وقد سمي رئيس البعثة الدبلوماسية بعدئذ سفيراً ، أو مبعوثاً ، وأحياناً كانوا يسمونه وزيراً مقياً أو مفوضاً .

(٢) ف.أ. أوليانيتسكي ، الدرديل والبوسفور والبحر الاسود في القرن الثامن عشر ، موسكو ،

تؤدي إلى ازدهار صالح ومفيد للتجارة مع الأمبراطورية التركية والمناطق الأخرى الواقعة في الأرخبيل وعلى سواحل بحر الأدریاتیک والبحر الأبيض المتوسط عن طريق البحر الأسود .

لقد حاول أوبريسكوڤ بدأب في أثناء حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) أن يحافظ على حياد تركيا التي كانت تسعى جاهدة تحت ضغط الدبلوماسية بين الإنكليزية والبروسية لأيجاد حجة للحرب ضد روسيا .

بقي أوبريسكوڤ انساناً روسياً أصيلاً بالرغم من انه عاش حياته كلها تقريباً في الخارج بعيداً عن الوطن . ففي تقاريره وبلاغاته التي دونها باللغة الروسية بدون استثناء قدم صورة شاملة للحياة في تركيا ، وأحوال سكانها ، واهتم بصورة خاصة بالأقليات القومية ، وأوضاع القوات المسلحة ، والمالية .

رحلة ريبنين

ومن المصادر القيمة لدراسة العلاقات الروسية - التركية بعد انتهاء حرب ١٧٦٨ - ١٧٧٤ هو تقارير ن.ف. ريبنين . كان قد عُين نيكولاي فاسيليتشيف ريبنين سفيراً فوق العادة ومفوضاً في تركيا لتسوية القضايا المتعلقة بتطبيق وتحقيق بنود معاهدة كوجوك - كاينارجه .

وصل ركب أركان السفارة الروسية الذي كان يتكون من حوالي سبعائة من الأشخاص مع الحرس والحماية الى استانبول في ٣٠ تشرين الأول سنة ١٧٧٥ .

وصلتنا مدونات عن رحلة هذه السفارة . فيها قضايا طريفة عن وصف الإحتفال المعقد لاستقبال السفراء ، وتبادل المندوبين ، وحفلات الإحتفال والغداء ، أما ما يخص المعلومات ذات الطابع الجغرافي والاقتصادي ، ووصف الحياة والواقع اليومي فهي شحيحة جداً .

إن المعلومات التي نشرها ن.ف. ريبنين في تقاريره وبلاغاته تبين بشكل واضح الأوضاع في البلاد خصوصاً محاولة الدولة في تغيير بعض مواد معاهدة كوجوك - كاينارجه ، وعلى الأخص البنود المتعلقة بالقرم .

رحلة بيتيرسون

بعد توقيع معاهدة كوجوك - كاينارجه أقام في تركيا خ. إ. بيتيرسون^(١) وكان يشغل منصب القائم بالأعمال . وإن تقاريره إلى الكونت ب . أ . روميانتسيف - زادونايسكي وملاحظاته التي دونها في السجل أثناء عمله مع السفراء الترك في فترة عقد المعاهدة جديرة بالاهتمام لأنها تتعلق بوصف اللقاءات والمقابلات الدبلوماسية .

وهكذا وعلى سبيل المثال يصف زيارة الفيلدمارشال ب . أ . روميانتسيف الذي رافقه ن . ف . ريبينين ، وأ . م . أوبريسكوڤ للمندوبين الترك بهذا الشكل : « كان السادة المندوبون ينفذون قواعد الرسميات المتبعة عندهم ، فقد قاموا بتبديل الغليون للكونت ثلاث مرات ، وقدموا له القهوة مرتين . وخلال الحديث والمناقشة قدموا له عصير الفواكه ، والمربي ، والشيكولاته ، ثم بدأوا يرشون ماء الورد على الحاضرين ، وفي نفس الوقت كانت رائحة البخور قد ملأت الجو ؛ وبكلمة واحدة ، إنهم حاولوا أن يطبقوا جميع تقاليدهم ، وأن يريحوا حاستي الشم والذوق عند الحاضرين »^(٢).

رحلة ستاخيف

أقام أ . ستاخيف في القسطنطينية من ١٢ شباط ١٧٧٦ وحتى ٩ كانون الأول سنة ١٧٧٩ بعد أن خلف بيتيرسون في وظيفته .

وكان ستاخيف يبعث بشكل منتظم معلومات عن الوضع السياسي الداخلي في البلاد إلى بيترسبورغ . ويلفت فيها نظر الحكومة إلى كثير من الأحداث التي كانت تجري في تركيا في تلك السنوات ، أخبر دولته عن الاشتباكات على حدود كردستان

(١) « قراءات في الجمعية الامبراطورية للتاريخ والتاريخ القديم الروسي في جامعة موسكو » ، موسكو ، ١٨٦٥ ، أرشيف المكتب الحربي المتنقل للكونت ب . أ . روميانتسيف - زادونايسكي ، المجلة التي صدرت بإشراف بيتيرسون ، القسم ٢ ، ص ٣١١ - ٣٣٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٦ .

بين الترك والعجم ، وكانت الهزيمة من نصيب الترك في تلك المعارك ، وعن انتشار الوباء في القسطنطينية ووباء المواشي الذي كان له تأثيره الكبير على تجارة اللحوم . وكان وباء الطاعون في سنة ١٧٧٨ ضارياً ، أحدث كارثة لجميع أفراد الشعب بشكل عام . كان يموت في كل يوم ألف وخمسمائة شخص في القسطنطينية ، ومجموع ما قضى عليهم بسبب الطاعون كان يتجاوز ٢٥٠ ألف شخص حسب ما ورد في إحصائية ستاخيف . أما أخبار الشقاة والمتمردين في القاهرة فهي كثيرة جداً في تقارير ستاخيف . وحينئذ يتكلم ستاخيف عن الصراع الداخلي في المقاطعات المختلفة في الأمبراطورية فإنه يكشف عن المعرفة الغزيرة التي كان يتمتع بها في الموقف السياسي في الشرق الأوسط .

رحلة بولجاكوف

حل حى . إ . بولجاكوف في سنة ١٧٨١ في وظيفة ستاخيف ، وكان من المطلعين على الشؤون التركية منذ زمن . وقد أقام هناك وهو في منصب الوزير فوق العادة المنتدب إلى نهاية سنة ١٧٨٧ .

ومن أهم الخدمات التي قدمها بولجاكوف كان التوقيع على الاتفاقية التجارية مع تركيا في سنة ١٧٨٣ ، والتوقيع على الوثيقة التي وافقت بموجبها تركيا على الحاق القرم بروسيا (أعلنت الوثيقة ببيان كاترين الثانية في ١٩ نيسان سنة ١٧٨٣) .

وتبرز التقارير الدبلوماسية التي قدمها بولجاكوف السياسة الداخلية والخارجية لتركيا بشكل واضح .

وفرت معاهدة ياسى للصلح التي تم التوقيع عليها في أعقاب الحرب الروسية - التركية الثانية (١٧٨٧ - ١٧٩١) أمن الحدود الجنوبية وحرية التجارة الروسية في البحر الأسود ، وكانت هذه من القضايا الحيوية بالنسبة لروسيا .

رحلة گولينيشيف - كوتوزوف

توجه في سنة ١٧٩٣ إلى تركيا ميخائيل ايلارونوفيتش گولينيشيف - كوتوزوف

بعد أن عين سفيراً فوق العادة . ولم تكن هذه السفارة بعثته الدبلوماسية الأولى .

ولقد استطاع كوتوزوف أن يحل بمهارة جملة من المسائل المهمة لصالح روسيا ، وقد نبعت تلك المسائل من معاملة ياسي للصلح ، ونجح بالإضافة إلى ذلك في تحديد وتقليص تأثير انكلتريه وفرنسا العدائي تجاه روسيا في السياسة الخارجية التركية ، وساعده في نفس الوقت على تقوية تأثير نفوذ الدولة الروسية . وخلال إقامته في تركيا درس كوتوزوف باتقان أوضاعها الاقتصادية والسياسية ، وإن تقاريره تشهد على معرفته العميقة لهذه البلاد^(١) .

وصلتنا طائفة من المدونات عن سفارة م . إ . كوتوزوف ، منها « وصف مفصل لطريق سفارة الأمبراطورية الروسية فوق العادة المفوضة بعد صلح ياسي من روشوك عن طريق شوملا إلى القسطنطينية في سنة ١٧٩٣ »^(٢) .

أخبر م . إ . كوتوزوف في ٢٦ أيلول سنة ١٧٩٣ كاترين الثانية في القسطنطينية بملاحظاته وانطباعاته الأولى عن الجيش التركي ، والأوضاع الداخلية في البلاد ، وعن إصلاحات السلطان سليم الثالث .

يقول م . إ . كوتوزوف : « جميع الاحتكارات بيد الحكومة . ويقال إن تزويد العاصمة بالخبز يجلب وحده للحكومة عشرين ألف قرش يومياً ، وقد ألغيت جميع المالكانات^(٣) فأدى ذلك إلى افتقار الذين كانوا يتمتعون بها . ومن السهل على المرء أن يتصور أي قدر من التدمير يمكن أن تخلق مثل هذه العمليات »^(٤) .

ولقد كتبت هذه المعلومات منذ سنوات كثيرة قبل التمرد والعصيان الذي أدى إلى تنحية سليم الثالث . وكانت الضرائب الإضافية التي فرضها السلطان أحد الأسباب الخطيرة للتمرد .

(١) م . إ . كوتوزوف ، الوثائق ، إعداد : ل . ك . بيسكروفتني ، المجلد ١ ، موسكو ، ١٩٥٠ ، المقدمة ، ص ١١ .

(٢) « عهود الروس القديمة » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٨ ، ص ١٠٣ - ١٢٤ .

(٣) مالكانه : هي الحق في جباية الضرائب من الفلاحين ويمنح هذا الحق لمدى الحياة وينتقل كذلك بالوراثة . وتعني الكلمة أيضاً : الضيعة ، والمقصود هنا على ما يبدو هو حق جباية الضرائب .

(٤) م . إ . كوتوزوف ، الوثائق ، إعداد : ل . ك . بيسكروفتني ، المجلد ١ ، ص ٢٣٧ .

وحين يحلل أوضاع الجيش ، والأسطول ، والأحوال الداخلية في البلاد (التمردات ، اختلال التوازن المالي) يتوصل م . إ . كوتوزوف إلى قناعة بأنه بالرغم من استعدادات تركيا للقيام بالحرب ، والتهيء لها وظهور الشائعات عن حرب جديدة مع روسيا ، إلا أنها غير مهيئة للقيام بالحرب^(١) .

وبالإضافة إلى ذلك تتصف رسائل وتقارير م . إ . كوتوزوف بمسحة من النزعة الشعرية ، والذوق الفني . وهكذا وعلى سبيل المثال ، يكتب عن القسطنطينية إلى زوجته سى . إ . كوتوزوفا في ٤ تشرين الأول ١٧٩٣ : « القسطنطينية هي كالاتي : عندما تشاهد من المدن التركية ، بما فيها أدريانوبول (أدرنة) أيضاً ، تظن بأنك تستطيع أن تتصورى القسطنطينية ، لكنك تخطئين في سدا الظن . إن البنايات هنا مبنية بصورة متقنة إلا أنها مضحكة إلى حد يفوق التصور والتخيل . . . المنازل عالية ، وفيها شبابيك ونوافذ كثيرة ، والشرفات تلتصق بالطوابق العليا . وهناك على سطح داري برج صغير . عندما تصعد إلى تشاهدين جميع مناظر القسطنطينية : السراي ، والمرفا وهو واسع جداً ، وهو مليء دوماً بالسفن والقوارب التي يمكن مشاهدة الآلاف منها بالعين في أي وقت . وتشمخ القسطنطينية بأيا صوفيا ، والسليمانية ، والمصايح ، والفناديل ، ومضيق القسطنطينية الرائع الذي كان القدامى يسمونه بوسفور فراكيا ، وحوها ضواحي أسكودار في آسيا ، وفيها ٢٠٠ ألف من السكان ، وأماكن أخرى كثيرة ، تشاهدين كل هذه العجائب والمعجزات التي لا يمكن تصورها فتضطرين حينئذ لا إلى الابتسام وإنما إلى البكاء من الشعور بالرقة واللذة^(٢) .

وكان ميخائيل إيلاريونوفيتش قد حضر مائدة الغداء عند القبطان باشا كوجوك حسين ، فيكتب إلى زوجه في هذا الصدد : « لأجل أن أصور لك الطبايع الآسيوية الممتازة ، ينبغي التكلم عن الغداء عند القبطان باشا . هو رجل شاب من المقربين من السلطان والمحسوبين عليه ، ومتزوج من أخت السلطان ، وهو رائع ولا يبالي بصرف المال وهو مدين بثلاثة ملايين من القروش ، وهو لبق ولطيف . كانت

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

المفروشات عنده والملابس التي كان يرتديها الناس جديدة ، وأما عدد الخدم فيقارب الألف وهم يلبسون الديباج ، والأبسطة قرمزية اللون ، ومخملية ناعمة موشاة بالذهب ، والأرائك مطعمة بالأحجار الكريمة ؛ والخدم المقربون يتزينون بمخشلات كثيرة من الماس . وهو يمارس الألعاب أي سباق الخيل . وإن جميع الخيول في اسطبله بطبيعة الحال من خيول الدرجة الأولى في العالم «^(١) .

وفي التقرير المقدم إلى كاترين الثانية في ٢٠ كانون الأول سنة ١٧٩٣ يجبر كوتوزوف عن حدوث التمرد والعصيان في الأماكن المختلفة في أنحاء الأمبراطورية : « وردت أخبار مزعجة من مختلف الجهات عن الاضطرابات الداخلية ، وهي تخلق المتاعب بشكل أكثر وتعرقل تحقيق أي رأي كان في قضية التسعيرة » .

وفي الرسالة المؤرخة في ١٥ مارت سنة ١٧٩٤ المرسلة إلى ث . ب . كوجوبيي المعين مبعوثاً في تركيا ، كتب م . إ . كوتوزوف قبل سفره من استانبول : « إن الضرائب الفاحشة التي كانت السبب في تزايد استياء الشعب ساعة بعد أخرى ، وإن التذمر والقلق الواضح في جميع أنحاء الروميلي والأماكن الأخرى ، وسببه الوحيد هو استياء الشعب ، يشهد على مدى الكره الذي يكنه الشعب لشكل الحكم ولأسلوب جباية الضرائب »^(٢) .

رحلة كوجوبيي

وبعد انتهاء أعمال م . إ . كوتوزوف قدم إلى استانبول لاشغال وظيفته الأمير فيكتور بافلوويچ كوجوبيي في شباط سنة ١٩٧٤ .

وخلال السنوات الأربع التي عاشها في تركيا وضع ث . ب . كوجوبيي عدداً من المذكرات عن مالية تركيا وتجارها مع روسيا^(٣) . وإن رسائل ومذكرات كوجوبيي

(١) المصدر السابق ، ص ٢٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٤ .

(٣) أرشيف الأمير فوروتسوف ، الكتاب ٨ ، موسكو ، ١٨٧٦ ، ص ٨ .

(فيما بعد نائب المستشار للشؤون الداخلية) تبرزه كديبلوماسي خبير بشكل جيد في القضايا التركية^(١) .

ونستطيع أن نعلم من الرسالة التي بعث بها إلى الكونت س . ر . فورنتسوف في ١٠ شباط سنة ١٧٩٧ بأن كوجوبي أرسل إلى أخ الكونت أ . ر . فورنتسوف مخطوطة تحمل اسم « دراسة موجزة عن أوضاع الأمبراطورية العثمانية » . كتب ث . ب . كوجوبي فيها : « إنني حاولت بقدر الإمكان جمع معلومات صحيحة عن كل شيء »^(٢) . إن هذا العمل ، وكذلك المذكرات عن مالية تركيا المشار إليها في أعلاه لم تنشر لحد الآن على ما نعلم .

المدوب الروسي في تركيا

كان المبعوث الروسي في تركيا هو قاسيلي سيتبانو فيج تامارا في الفترة من سنة ١٧٩٨ وحتى سنة ١٨٠٢ . ويرتبط اسمه بتوقيع ما تسمى بمعاهدة تحالف القسطنطينية بين روسيا وتركيا في ٢٣ كانون الأول سنة ١٧٩٨ ، حيث قبلت تركيا المساعدة التي اقترحتها روسيا . وهكذا دخل الأسطول الروسي بقيادة الأميرال الشهير ف . ف . أوشاكوف في البوسفور . ودخل تحت إدارة أوشاكوف الأسطول التركي أيضاً .

رحلة ميتاكسا

كان أحد الضباط المشتركين في هذه الحملة وهو إيگور بافلو فيج ميتاكسا قد كتب مذكراته اليومية ، وللمعلومات التي وردت فيها أهمية واضحة للمؤرخين ، والجغرافيين ، والانتوغرافيين . فتطرق فيها إلى السفرات والرحلات الدبلوماسية ، وكتب عن الأسطول التركي ، وسرد تحليلاته للعمليات الحربية للأسطول المتحد .

(١) أرشيف الأمير فورنتسوف ، الكتاب ١٤ ، موسكو ، ١٨٧٩ ، ص ٢٨ - ٩٥ .

(٢) أرشيف الأمير فورنتسوف ، الكتاب ١٨ ، موسكو ، ١٨٧٩ ، ص ١٣١ .

كان ميتاكسا يونانياً من جزيرة كاندي ، أنهى سنة ١٧٩٠ المدرسة البحرية في
بيترسبورغ ، وخدم في أسطول البحر الأسود ، فالتحق في سنة ١٧٩٨ ببعثة
أوشاكوف كمختص يتقن اللغة التركية .

وقد نشرت مذكرات ميتاكسا التي حفظت منذ سنة ١٨٦٣ في قسم المخطوطات
في المكتبة العامة في بيتروغراد بعد سنين طويلة في سنة ١٨١٥^(١)

ويشير ميتاكسا إلى أن التوافق المتوازن بين العبقرية في التنظيم الحربي والإدارة
وبين القابلية الممتازة كديبلوماسي كان من الأمور التي تميز أوشاكوف . وكان يحدث
أحياناً أن لا يتلقى الأوامر شهراً كاملاً من بيترسبورغ ، غير أنه كان يستطيع بحصانة
عالية ومعرفة كبيرة لعمله أن يقرر ويحل بشكل صحيح قضايا وواجبات ديبلوماسية
معقدة^(٢) .

القنصليات الروسية من أرجاء الأمبراطورية العثمانية

بعد معاهدة كوجوك - كاينارجه حصلت روسيا على حقوق تتيح لها تسمية
وتعيين قناصل لها في عدد من مواقع الأمبراطورية العثمانية . ومنذ ذلك الوقت
أصبحت التقارير القنصلية أهم مصدر للتعرف على الوضع الاقتصادي للمناطق
المختلفة من الأمبراطورية .

وفي سنة ١٧٨٢ أرسل قنصل روسي إلى سمرنا (إزمير) ، ومن ثم تم تعيين
قناصل آخرين في الاسكندرية ، والبانبا ، وصيدا ، وقبرص ، ورودوس ،
وخيوس ، وساموس^(٣) (١٧٨٤) ، ودمشق ، وبيروت (١٧٨٥) ، وطرابزون
(١٧٨٦) .

(١) مذكرات الضابط البحري إيگور ميتاكسا وهي تتضمن قصص المآثر الحربية للأسطول الروسي
الذي سيطر بمساعدة الباب العالي العثماني (الحكومة العثمانية) على الجزر الأيونية بقيادة الأميرال فيودور
فيودوروفيتش أوشاكوف ، سانت بيترسبورغ ، ١٩١٥ .

(٢) قواد الأسطول الروسي . الأميرال أوشاكوف ، المجلد ٢ ، موسكو ، ١٩٥٢ ، ص ٢٥٤ .

ومما يجدر ذكره هو أنه في سنة ١٧٨٣ كانت قد عقدت إتفاقية تجارية بين روسيا وتركيا ، قدمت بموجبها تركيا إلى التجار الروس نفس التسهيلات والامتيازات التي كان يحصل عليها الفرنسيون ، والانكليز ، والتجار من البلدان الأخرى . وكان الباب العالي يسمح للمواطنين الروس بـ «الملاحة وإرسال تجارتهم إلى جميع أرجائه (يقصد أرجاء الدولة العثمانية - م.خ .) سواء بالطرق البرية ، أو بواسطة البحار والطرق المائية الأخرى ، وكذلك بواسطة نهر الدانوب ، وإلى أي مكان آخر يريدونه » .

وكانت قد تأكدت الإتفاقية التجارية لسنة ١٧٨٣ في معاهدة ياسي للصلح المعقودة في سنة ١٧٩١ .

وكانت المعلومات عن بلدان الشرق الأوسط قد وردت في المعاجم الروسية الجغرافية الأولى أيضاً . ففي معجم لانكير^(١) يجد المرء أسماء الأماكن المختلفة في الأمبراطورية العثمانية مع الإشارة إلى خطوط الطول والعرض كما فيه فصول عن الأمبراطورية العثمانية ككل ، وعن أقسامها المختلفة أيضاً .

فعل سبيل المثال ورد في فصل « تركيا الأوروبية » وصف للأوضاع الجغرافية : المساحة ، والسكان ، وخصائص الظروف الطبيعية ، والاقتصاد . وهناك إشارات إلى إدارة الدولة ، والمالية ، وأحوال الجيش والأسطول ، والتقسيم الإداري .

وهكذا نرى أن مجموعة كافية من المعلومات المختلفة جداً عن الشرق الأوسط قد اجتمعت في روسيا خلال القرن الثامن عشر .

ومما لا شك فيه أن دراسة الشرق الأوسط في روسيا في القرن الثامن عشر لم

(١) « المعجم الجغرافي الكامل ، وهو على حروف الهجاء ويتضمن وصفاً مفصلاً شاملاً لجميع أنحاء العالم ، أعده كارل هينريك لانكير » ، موسكو ، ١٧٩١ .

تقدم ، ولم يكن باستطاعتها أن تقدم النتائج التي قدمتها دراسة سيبيريا ، والشرق الأقصى ، وشواطئ المحيط الهادي الأمريكية .

ويشير ث . ف . بارتولد بصدق في هذا الصدد : « لم نحصل على أية اكتشافات جغرافية في مقدمة آسيا في القرن الثامن عشر ، فالرحلات التي قام بها الروس إلى الأماكن الكثيرة كان الأوروبيون قد زاروها من قبل ، ومع ذلك أن هذه الرحلات لم تبق بدون جدوى من حيث دراسة آثار الماضي ، ومن حيث المخطوطات والمواد الأخرى ، ومن حيث دراسة الحياة المعاصرة كذلك »^(١) .

إن هذه المقولة بكاملها تنطبق كذلك على أعمال الرحالة ، والحجيج ، والديبلوماسيين ، والعسكريين ، والعلماء الروس . إنهم قدموا الكثير لدراسة تركيا وعدد من البلدان العربية . وإن أعمال هؤلاء الروس التي نسيت منذ زمن بعيد ، والتي نشير إليها هنا في عملنا هذا هي عبارة عن أفضل دليل لاهتمام الروس ببلدان الشرق الأوسط ، وبحياة وواقع شعوبها .

(١) ث . ف . بارتولد ، تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا ، لينينغراد ، ١٩٢٥ ، ص ١٢٢ .

الفصل الخامس

القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

قبل أكثر من مائة سنة حينما كان ك. ف. سفينسكي يقوم بدراسة نتائج الرحلات الكبرى والاكتشافات الجغرافية في آسيا ، كتب بهذا الشأن : « لم يتطور أي فرع من فروع الدراسات الشرقية في الوقت الحاضر كالتطور الذي حدث في الدراسات اللغوية الآسيوية . . . وإن هذا العلم مدين في نجاحاته السريعة بشكل خاص إلى تحمس الرحالة الذين كانوا لا ينجشون العمل وصرف الجهود لدراسة فروع هذا العلم المتنوعة المتشعبة في مكان وجودها . . . ومن البلدان التي يجري فيها بنشاط كبير بحث ودراسة اللغات الشرقية من الواجب الإشارة بحق وقبل كل شيء إلى بلادنا »^(١) .

وأشار كذلك إلى دور العلم الروسي في حقل الدراسات الشرقية في القرن التاسع عشر الأكاديمي ف. ف. بارتولد : « ربما تكون دراسة الشرق في روسيا في القرن التاسع عشر قد حققت نجاحات أكثر مما حققتها في أوروبا الغربية . . . ففي أكاديمية العلوم ومنذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر توجهت العناية إلى العلوم الإنسانية ومنها الدراسات الشرقية وأحرزت مكانتها اللائقة بها أكثر من ذي قبل »^(٢) .

وعن القضية نفسها قال الأكاديمي إ. ي. كراچكوفسكي أيضاً : « ان نظام

(١) ك. ف. سفينسكي ، عرض للرحلات الكبرى والاكتشافات الجغرافية خلال السنوات العشر من ١٨٣٨ حتى ١٨٤٨ ، بشر الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية لسنة ١٨٥١ ، القسم ١ ، الكتاب ١ ، الفرع ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥١ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢) ف. ف. بارتولد ، تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا ، ص ٢٣٢ .

الجامعة لسنة ١٨٠٤ فتح عصراً جديداً للاستعراب الروسي ، فقد وضع الخطط والبرامج لأول مرة لتدريس اللغات الشرقية في مناهج المدارس العليا ، وتأسيس كرسي خاص لتلك اللغات . . . فاللغات الشرقية عندنا قبل كل شيء هي عبارة عن جميع اللغات في الشرق الإسلامي المتاخم لروسيا ، وقد كانت للغة العربية بطبيعة الحال المكانة الأولى بين تلك اللغات «^(١) . وإن فضل بلادنا ودورها الكبير جداً لا ينحصران في دراسة اللغات الشرقية فحسب وإنما في دراسة البلدان الشرقية بشكل عام ، وبلدان الشرق الأوسط بشكل خاص أيضاً . وقد تناولت الدراسات الجغرافية الطبيعية والاقتصادية ، والتاريخ ، والسياسة ، والانتوغرافيا ، والحياة الاجتماعية والمعيشة اليومية .

وفي القرن التاسع عشر زار بلدان الشرق الأوسط باستمرار العلماء ، والكتاب ، والصحفيون ، والديبلوماسيون ، والضباط ، ورجال الدين الروس . ولقد ترك كثير من هؤلاء مذكرات ، وكتباً ، ويوميات ، وسجلات ، ودفاتر ، ودراسات علمية خاصة .

الرحالة الثلاثة

تمت في بداية القرن التاسع عشر (١٨٠٤ - ١٨٠٥) رحلة إ. ل. فيشنيكوف ، ف. إ. فيشنيكوف ، م. ل. نوفاكوف إلى مدينة القدس .

قام المسافرون في ٢٩ آب سنة ١٨٠٤ برحلتهم من أوديسا متوجهين إلى القسطنطينية على ظهر سفينة تجارية من سفن نابولي ، وبعد أن صادفوا أعاصير شديدة وصلوا إلى بيوك درة في اليوم الأول من تشرين الأول حيث مكثوا فيها ثلاثة أيام . وبعد هدوء العاصفة واصل المسافرون السفر فدخلوا القسطنطينية ، ونزلوا في دار السفارة الروسية ثم شاهدوا آثار ومعالم القسطنطينية ، وبعد مرور بعض الوقت سافروا بحراً إلى يافا . وقد جلبت انتباه المسافرين في الشاطئ الآسيوي لمضيق الدردنيل في جنناق - قلعة معامل الفخار والخزف « يصنعون فيها أطباقاً جيدة مخرمة

(١) إ. ل. كراچكوفسكي ، مقالات في تاريخ الاستعراب الروسي ، ص ٧٣ . .

ذات ألوان متعددة وهي مزخرفة ومذهبة ، ، وأشاروا أيضاً إلى أنهم شاهدوا « كثيراً من النساجين من الأتراك واليونانيين يتدربون على صنع الأقمشة القطنية . . . والمرأة اليونانية تباع القودكا المستخرجة من العنب في كل بيت ، والقودكا تقطر من الخمر المصنوع من العنب عن طريق الزبيب الجاف بطريقة غلاية التقطير ، أما الخمر المصنوع من الخبز والقودكا فغير معروفين في جميع أنحاء تركيا . والرجال يعملون في البساتين وحرثة الأرض »^(١) .

وبسبب من الطقس الممطر اضطر المسافرون إلى التوقف في رودوس ، وكان الرحالة قد تجولوا في السوق ، وكان بإمكان المرء أن يقوم في السوق بشراء « أبسطة جيدة ، وكثير من الشمع لبيعه في مدينة القدس ؛ ويظهر أن تربية النحل ممتازة في هذه الأصقاع ، ويُباع في السوق بكثرة الشمع ، والعسل ، والأعشاب ، والجوز ، والسّمك البحري الطازج المصطاد بحربة صيد السمك »^(٢) .

ومكث المسافرون بعض الوقت في قبرص . وقد انصب اهتمامهم على النشاط الاقتصادي للسكان : « الخبز أبيض للغاية ؛ أما الأغنام والماعز فهي كثيرة يسوقها أصحابها من الريف حتى سوق اللحوم ؛ وإن القبارصة في قرى المسيحيين يقومون بتربية الخنازير بكثرة ، وأما الترك فلا يمنعونهم من ذلك خوفاً من ارتفاع أسعار لحوم الأغنام ؛ غير أن بيع لحم الخنازير في داخل المدن وفي القرى التي يعيش فيها الترك يمنع منعاً باتاً ، فإنهم يوافقون على تربيتها في الأماكن التي لا يوجد الترك فيها وكذلك على شواطئ البحار »^(٣) . « إن القبارصة يصدرون الحبوب ، والغلال ، والملح ، والمؤن المتنوعة ، والقطن ، والشيت ، واللحف ، وما شابه ذلك ، وبصورة خاصة أجود أنواع الخمور إلى أماكن كثيرة »^(٤) .

(١) مذكرات الرحلة إلى المدينة المقدسة القدس وضواحيها للتبيلين [الأخوين] فيشنيانوف من محافظة كالوغا والتاجر نوفيكونوف وهو من مدين في سنة ١٨٠٤ و ١٨٠٥ ، ، موسكر ، ١٨١٣ ، ص ٢٠ -

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

وهناك ملاحظات طريفة وممتعة للرحالة ، منها : « هناك في قبرص وحدها ما يقارب ثلاثمائة دير يوناني ، والأديرة هذه تمتلك الأراضي الزراعية ، وغابات التوت ، وبساتين الكروم ، ويعتمد الأهالي على الرعي وتربية دودة القز ، وفيها الحرف والصناعات المهمة ، ويؤلف ذلك المهنة الرئيسية التي تدر عليهم الأموال التي تلزمهم لدفع الضرائب للحكومة ولرئاسة الأبرشية »^(١) .

وبعد سبعة وستين يوماً من الإبحار من القسطنطينية وصل المسافرون إلى يافا . وقد لاحظ الرحالة في كل مكان ، في سوريا وفلسطين بأن الشعب العربي يكره الترك كرهاً شديداً ، ولا يتحمل النظام التركي الشاق العنيف الذي ابتلي به ، ولذلك السبب وبشكل خاص يدرك المرء حالاً بأن جميع الموظفين المتنفذين الكبار في المدن هم من العرب .

« خلال وجودنا في يافا شاهدنا عدداً كبيراً من الأساطيل التجارية الأوروبية ذات الجنسيات المتنوعة منها التركية ، وكان بعض هذه السفن محملة بالقطن وحده ، أما البضائع والسلع الأخرى فإننا لم نشاهدها . وتصل من سوريا وفلسطين بصورة متواصلة قوافل الجمال المحملة بالأقمشة القطنية »^(٢) .

ثم توجه الأخوان فيشنيانكوث ورفيقهما نوفيكوث مع قافلة تضم مائة وخمسين رجلاً وبحماية تركية من يافا عن طريق اللد والرملة إلى مدينة القدس .

ويشير الرحالة إلى الخصائص والمميزات الاقتصادية في هذه الأصقاع أيضاً ويقولون عنها : إن أراضيهم [العرب] المهيئة لزراعة الحبوب تعطي الغلال في السنة مرتين بشكل اعتيادي لذلك لا يحدث أي نوع من البطالة مطلقاً . . . والعرب شعب يحب العمل ، وإن ما يحتاجه المجتمع من العيش هو من زراعته للحبوب^(٣) .

والقسم الأعظم من البساتين يتكون من التين المصري ؛ وتزرع الحنطة في الأراضي السهلية التي فيها منخفضات أرضية رغم أنها رملية ، وهذا دليل على

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٨ - ٩٩ .

خصوبتها ، وعلى أنها أراضي صالحة لزراعة الحبوب ، وهناك بساتين الزيتون وهي تزيد من جمال الأراضي والسهول العريضة ، وشاهدنا قطعان المواشي وهي كثيرة في المراعي «^(١) .

والقسم الأعظم من السكان هم من العرب ، وعدد اليهود كثير . أما عدد الترك فقليل جداً . وتعلم اللغة العربية والتكلم بها شيء صعب ، ويعزي الرحالة صعوبة اللغة العربية إلى أصواتها وكلماتها التي تخرج من الحنجرة ، « والعرب المدنيون (الذين يعيشون في المدن - م.خ .) يلبسون على الطريقة التركية ، والنساء يجدلن شعورهن في صفائر كثيرة ، ومنها يصنعن على رؤ وسهن عقداً تشبه الورود ويعلقون بها سلاسل ذهبية وفضية ، وجيدهن مزين بقلائد من النقود المعدنية والمرجان . . . يلبسن ملابس حريرية أو قطنية طويلة ، ويغطين رؤ وسهن بشال قرمزي اللون ، وعند خروجهن إلى خارج الدار يغطين وجوههن بقماش من الحرير شفاف أسود . أما ملابس عرب الريف فلا تشبه ملابس أهل المدن ، وتكاد أن تكون شيئاً آخر : فهم يرتدون رداء طويلاً فقط ، أما الملابس الداخلية فلا وجود لها ، ويتمنطقون بالأحزمة ، وهي تصنع عادة من جلود الجواميس بعرض ربع آرشين^(*) وهي مزينة بابزيم ومطرزة بخيوط من الحرير والذهب ذات ألوان زاهية متنوعة وفي الحزام يحملون السكاكين ، والمسدسات ، وفؤوساً من نوع خاص ذات رؤ وس حادة جداً وهي مثبتة على أعواد معينة ، وكرات مصلعة من النحاس والحديد ، وآلات أخرى مشابهة ؛ وفوق كل هذه الأثقال يحملون على أكتافهم بنادق طويلة . . .

وملابسهم الخارجية مشابهة للمعاطف بدون الأكمام ، وهي من الأقمشة الصوفية المقلمة ، ولكنها قصيرة ؛ ويغطون رؤ وسهم بالمناديل أو يلفونها بأقمشة ذات ألوان متعددة ، أما الجوارب فلا يستعمله الجنسان أبداً ، وإثم يلبسون في أقدامهم نعالاً من الجلود البيضاء وهي تشبه جلود القبط الروسية ، ولا يقصون لحاهم ، ولا يخلقون وجوههم ، بل يخلقون رؤ وسهم فقط .

وتلبس العربيات في الريف ملابس قطنية زرقاء اللون ، طويلة وفضفاضة ،

(١) المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(*) آرشين : مقياس طول روسي قديم يساوي (٧١) سنتيمتراً (المترجم) .

ويطرحن على رؤ وسهن شالاً ذا لون قرمزي ، وهو يغطي جميع أجزاء الظهر . . .
وأحذيتهن مشابهة بأحذية الرجال «^(١) .

ولا شك أن لمذكرات الأخوين فيشنيكوف أهمية أخرى لما تتضمنها من
التفصيلات الأخرى عن الحياة والواقع اليومي المعاش .

رحلة برونيشكوي

في أثناء البعثة الأرخيلية الثانية في سنة ١٨٠٥ - ١٨٠٧ تم إرسال عمارة بحرية
من بحر البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط بقيادة نائب الأميرال د. ن. سينايفين .

ترك أحد المشاركين في هذه الرحلة وهو الضابط البحري ف. برونيشكوي
مذكراته ، وبجانب ما يقدمه من وصف للعمليات الحربية في منطقة الأرخيل في سنة
١٨٠٧ يسرد معلومات متنوعة عن الطبيعة والحياة اليومية لسكانها^(٢) .

ويصف بلغة واضحة ومعبرة جزر الأرخيل اليوناني ويقول : « تعتبر ساموس
واحدة من جزر الأرخيل الكثيرة العدد تغطي سطحها جبال تعرف باسم
أمبيلوس ، وفي منحدراتها تنمو الكروم التي تصنع منها الخمور الطيبة المعروفة
عندنا باسم مالفازيا . . . والحر الشديد في الجزيرة ترطبه الرياح البحرية ، والندى
الليلي ، يحافظ دوماً على رطوبة الأرض . وإن القطن ، والصوف ، والزيت هي
مصدر ربح وفير للسكان ، وبالإضافة إلى ذلك ينسج السكان هنا قماش الجوخ الذي
يستعملون في صنعه خيوطاً من مواد أخرى وهو مقبول عند اليونانيين والترك^(٣) »

ومذكرات برونيشكوي تقدم بالإضافة إلى ذلك تعريفاً دقيقاً لطبيعة
الأرخيل ، ومناخه ، واقتصاده ، وسكانه ، والعلاقات بين اليونانيين والترك .

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٧ - ١٠٩

(٢) ف. برونيشكوي ، مذكرات الضابط البحري المشارك في حملات البحر الأبيض المتوسط بقيادة
نائب الأميرال ديمتري نيكولايفيتش سينايفين ، القسم ١ - ٤ ، سانت بيترسبورغ ١٨١٨ - ١٨١٩ (فيما
بعد « مذكرات الضابط البحري ») .

(٣) المصدر السابق ، القسم ٣ ، ص ٧٦ .

ويستحق الاهتمام الكبير وصفه للترك ومميزاتهم الشخصية التي كان برونيثسكوي يراقبها طيلة فترة خدمته المديدة في البحرين الأسود والأبيض المتوسط .

« الشجاعة الشخصية ، والسخاء ، والرجولة تلك هي مميزات الترك . . . وإن الطبيعة الهادئة المتأمللة النبيلة التي يستثيرها الحماس في بعض الأحيان تجعل الأتراك أشخاصاً كثيري الشكوك ، قساة على الأعداء . ومع ذلك فيهم من لا ينتقمون ، وينسون الأذى عن طيب خاطر . . . إنهم أصحاب عمل يجيدون صنعتهم ، وهم قانعون ، وصابرون ، وورعون . أما البخل والطمع في سبيل الثراء فلا يوجد إلا عند الوجهاء وأصحاب المقامات الكبيرة فقط . . . وأما نزاهة الترك فهي مبعث اهتمام خاص . . . والقوانين التركية صارمة ، ودقيقة ، وقرارات المحاكم وتنفيذها تتم بسرعة فائقة »^(١) .

وعن الأرخييل عامة يجبرنا المسافر : « إن سطح أرض جزر الأرخييل عبارة عن طبقة خصبة من التربة فوق حجر الغرانيت الصلب ، الذي يقع على عمق قد يكون بعيداً أو قريباً ، وفي أكثر الجزر تقريباً وبصورة خاصة في باروس ، وتينو وغيرهما توجد أفضل أنواع المرمر السميك ، ومقادير لا بأس بها من حجر اليشب الثمين . ويحفظ هذا الأساس الصخري في الأرض الرطوبة المفيدة للتبريد (أي يساعد على تبريد الجو - م . خ .) . والنباتات بشكل عام لا تنمو بسرعة ، كما هي الحال في مناخنا ، إلا أنهم يزرعون الأرض مرتين في السنة ، وهي تقدم لهم المحصولات ، والحياة فيها دائمية ومستمرة . الأماكن التي أزيلت عنها الغابات أو لم تكن فيها غابات في الأساس حيث لا وجود لظلال الأشجار التي تحمي الأرض تكون بطبيعة الحال محرومة من الرطوبة الضرورية ، ومما لا شك فيه هو أن الأماكن المجردة من الغابات تكون فيها المنابع جافة والتربة تنجرد من مستلزمات الخصوبة وبمرور الزمان تتحول إلى أراضي قاحلة .

وبرغم ذلك ، وعدا عدد قليل من التسيكلاد^(٢) ، فالطبيعة العارية التي تتجلى

(١) المصدر السابق ، القسم ٣ ، ص ١٤٧ - ١٥٠ .

(٢) تسيكلاد أو (كيكلاذ) : مجموعة جزر الأرخييل اليوناني .

في سفوح جبال الجزر الأخرى تدهش النظر بضخامتها ومناظرها الخلابة الزاهية المتنوعة»^(١).

وفي المعارك التي وقعت في مشارف أيون ، وفي الدردنيل في سنة ١٨٠٧ حطم الأسطول الروسي الأسطول التركي ، وظفر بالسيادة على بحر إيجه ، وعلى أثر تلك المعارك طلبت تركيا الصلح .

وقام شخص آخر بوصف نشاط الأسطول الروسي في الأرخبيل ، وقدم كذلك معلومات غزيرة عن الجزر وعن الشعوب التي تؤلف سكانها وهو أحد المشاركين في الحملة وهو الموظف الديبلوماسي الملحق بالعمارة البحرية والكاتب والصحفي ، ومصدر « النشرات الوطنية » فيما بعد بافل بيتر وثيغ سفينين^(٢).

رحلة كراسنوكوتسكي

كان الضابط الروسي الآخر كاپيتان فوج إيشيرون أ . ك . كراسنوكوتسكي الذي قام بزيارته لتركيا في خريف سنة ١٨٠٨ ، أصبح شاهداً للأحداث التي أدت إلى مقتل الصدر الأعظم مصطفى باشا بيرقدار في القسطنطينية .

وإن لمذكرات هذا الرجل^(٣) أهمية خاصة ليس فقط للمؤرخين وإنما للجغرافيين أيضاً ، وهي تتضمن وصفاً للطبيعة ، والسكان ، والمدن ، والاقتصاد في بلدان الشرق الأوسط .

بدأت رحلة كراسنوكوتسكي من بوخارست ، ومر بمواقع جورجيا ، وروشوك ، ورازغراد ، وجوما ، وعثمان - بازار ، وسليقنا ، ويامبول ، وأدريانوبول ، وبورغاز ، وجورلا ، وسيليفري . ثم عبر نهر الدانوب ، عند

(١) ف . برونشكوي ، مذكرات الضابط البحري ، القسم ٣ ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) بافل سفينين ، مذكرات في الأسطول ، القسم ١ - ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨١٨ - ١٨١٩ .

(يراجع : القسم ٢ ، الفصل ٣) .

(٣) المذكرات اليومية لأليكساندر كريكوريثيغ كراسنوكوتسكي في رحلته إلى القسطنطينية في

سنة ١٨٠٨ كتبت من قبله ، موسكو ، ١٨١٥ .

روشوك واستمر كراسنوكوتسكي في سفره مستخدماً الدواب . وأثناء الرحلة أشار إلى المسافات (بالساعات) بين عدد من الأماكن المسكونة . « لم أر في الطريق أي شيء بارز جدير بالذكر ، عدا عيون ماء كثيرة وجميلة تتوفر فيها بغزارة المياه الصافية » .

وقد وصف كراسنوكوتسكي جبال البلقان في المنطقة الواقعة بين عثمان - بازار وسليقنا . ومن المعلوم أنه قبل حرب ١٨٢٨ - ١٨٢٩ لم تمر القوات الروسية خلال البلقان لذلك يعتبر الوصف الموجز الذي كتبه كراسنوكوتسكي للجبال ، من أولى المحاولات في الأدبيات الروسية^(١) .

وبسبب من الاضطرابات التي كانت قائمة في روميليا ، فقد سلك كراسنوكوتسكي طريقاً آخر للعودة خلال سيليثري - رودوستو وبمحاذاة ساحل بحر المرمر ، ثم سلك طريق روزلوغ ، وفيليبوبول وقازانلق . « لقد سرت لمسافة ٢٥ فرسخاً على الأقل بين حدائق الورد الواسعة ، وكانت هذه الأزاهير هي المحصولات الوحيدة لمدينة قازانلق ، حيث يصنعون منها أفضل أنواع دهون الأزاهير ، وماء الورد ، والعطور . . . ثم وصلت إلى قرية شيبكا ، ويوجد بالقرب منها جبل يسمى باسم القرية ، ويبلغ علوه أكثر من جميع جبال البلقان في تركيا . وإن منظر ذلك الجبل يولد الرعب لدى المشاهدين ، وبالإضافة إلى ذلك يؤدي هبوب الرياح الخفيفة أن يكون السفر خلاله مخطراً . والقمة عارية تماماً ، ليس فقط من الأشجار وإنما لا وجود للأحراج فيها أيضاً . وفي مواسم هبوب الرياح على تلك الجبال يموت خلق كثير ؛ وعلى سعاة البريد الذين يحملون الرسائل المهمة والخطيرة أن ينتظروا الجوال اللطيف الملائم أحياناً لأكثر من أسبوع . . . وإنني شخصياً كنت مغطى بالندى الغزير بشكل مفرط . وبعد انقضاء تسع ساعات وصلت أخيراً أعلى قمة في الجبل . . . »^(٢) . كان هذا أول وصف في الأدبيات الروسية لشيبكا التي اشتهرت فيما بعد .

(١) المصدر السابق ، ص ٦ - ١٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٢ - ١١٤ .

رحلة كوتلياريفسكي

إن مذكرات الكاتب الأوكراني الشهير إ. ب. كوتلياريفسكي التي تعود إلى الحرب الروسية التركية ١٨٠٦ - ١٨١٢ جديرة بالاهتمام وهو مؤلف ملحمة «فيرغيكيا» ومسرحية «ناتالكا بولتافكا» المكتوبتين باللغة الأوكرانية . وفي بداية الحرب اختير إ. ب. كوتلياريفسكي مرافقاً لمييندورف . وقد عهد إليه بالعمل في سبيل استمالة السكان المسلمين في بوجاك الذين يسمون بتاتار بوجاك إلى جانب روسيا ، وهم يعيشون في منطقتي أكرمان وبندر في بيسارابيا . وقد كان القيام بإنجاز هذه المهمة من الأمور الصعبة جداً ، إلا أن الحالة كانت هادئة واعتيادية لأن القيادة الروسية كانت في تعاملها مع السكان المحليين إنسانية إلى حد بعيد .

وبعد احتلال بندر في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٨٠٦ « أعلن القائد أن على الترك أن لا يقلقوا بأي شكل من الأشكال ، وأن لا يسيئوا تفسير التعليقات التي أصدرها وإن النظام هو كالاتي : الشرطة وحرس مخازن الأسلحة يتبادلان المحافظة على الأمن . وطمأن القائد الناس بأنه لا تكون هناك عراقيل أمامهم في أمورهم الدينية ، وفي عاداتهم وتقاليدهم ، وتجارتهم ، وحرفهم ، وصناعاتهم اليدوية ، ويجب أن يعتبروا الروس مدافعين عنهم ، ولذلك يجب أن يكونوا هادئين »^(١) . ثم كانت قد عهدت إلى كوتلياريفسكي مهمة « إقناع شيوخ التاتار إلى قبول المقترحات المتعلقة بالصلح والسلم ، ووعدهم بالصدقة وتقديم مساعدات ومنافع غزيرة من القوات الروسية ، إذا ما بقوا على إخلاصهم لروسيا والتزموا الهدوء عند مرور القوات على أراضيهم » . وعلى العموم قد نجحت هذه المحاولات ، لأن الأنباء عن العلاقات الإنسانية التي يسلكها الروس بأزاء السكان المحليين في البندر وصلت إلى المناطق الأخرى أيضاً .

ومن المعلوم أن تعيين م. إ. كوتوزوف بطل معارك إسماعيل ، وماجين ، وباباداغ في آذار سنة ١٨١١ قائداً عاماً لجيش الدانوب ساعد على أن تحل بسرعة

(١) « مذكرات إ. ب. كوتلياريفسكي عن العمليات الأولى للقوات الروسية في الحرب التركية سنة ١٨٠٦ » ، « آثار كييف » ، المجلد ٧١ ، كييف ، ١٩٠٠ ، ص ٣٤١ .

المسائل التي لم يكن بمقدور أسلافه حلها ، وتعني انتهاء الحرب التي كانت قد طالقت قبل أن تبدأ الحرب مع نابوليون وعقد صلح مشرف لروسيا . وقد انجزم . إ . كوتوزوف المهام والواجبات الحربية والديبلوماسية التي عهدت إليه بشكل باهر .

رحلة تسيكولين

إن لرحلة الفلاح في محافظة ريازان ديميتسي إيثانوف تسيكولين إلى إيران والقدس أهمية كبيرة جداً .

توجه تسيكولين إلى إيران في سنة ١٨٠٨ لأعمال تجارية . وقرر في طريق عودته أن يهجم إلى « الأماكن المقدسة » في فلسطين . وفي طريقه إلى بغداد كان بعض قطاع الطرق قد نهبوه ، ومن ثم قبض عليه خان كرمانشاه . وبقي في خدمة خان كرمانشاه ثلاث سنوات وأربعة أشهر ، وكان يقوم برعي قطعان أغنامه ومواشيه و« تحمل أنواع الأذى والمعاملات البربرية » . وفي أحد الأيام أغار عليه قطاع الطرق مرة أخرى ، وسرقوا المواشي التي كان يرعاها ، أما هو نفسه فقد باعوه لقاء ثمن إلى الـ « سردار » . وبقي هناك في الأسر سنة وسبعة أشهر و« تحمل أنواع الاضطهاد » مرة أخرى . وأخيراً استطاع الهرب مما أدى إلى أن يواجه مختلف المشقات والمخاطر المؤذية المؤلمة حتى وصل إلى بغداد ، ثم توجه إلى البصرة . وهكذا وخلال هذه الفترة الطويلة من الرحلة والتجوال زار تسيكولين مناطق كثيرة من بلدان الشرق الأوسط ، وكذلك عرج على الهند وزار انكلترا ، ولم يعد إلى روسيا إلا بعد ثلاث عشرة سنة .

وفي كتابه المتواضع الساذج كثير من توافه الأمور والخزعبلات ، فيه معلومات جغرافية خطأؤها واضح ، كأسماء الأماكن والمواقع المأهولة بالسكان . ومع ذلك فإن صاحب الكتاب اهتم إلى حد ما بالري الاصطناعي ، والمأكولات ، والأغذية ، والملابس ، ومنازل السكان المحليين . وفي مذكراته ملاحظات عن أشجار التمر (نخيل التمر) يقول بهذا الصدد : « ينضج فيها ثمر من حيث مظهره يشبه بشكل واضح جوزة البلوط ، أما عن طعمه ، فلا أعلم شيئاً . ولا شك في أنهم يجيدون استعماله . والعرب يعتقدون بقدسية ذلك الثمر . وانهم يشربون الماء فقط لأنهم لا يعرفون صنع شراب حامض من أي نوع كان ، وانهم تعلموا شرب الماء إلى

حد حتى أصبح من العادات المألوفة عندهم»^(١) .

ويتكلم تسيكولين عن خصائص زراعة الحبوب عند الإيرانيين : « انهم يزرعون الحبوب بطريقة تختلف عما يزرعها الروس ، وهم لا يحرثون بالمحارث ، وإنما يحفرونها بالمجارف المصنوعة من الحديد أو المعازق . تحفر الأرض بهذه الطريقة وتصنع منها أحواض زرع ، ويفتحون مجاري للمياه بين حوض وآخر ، ثم يزرعونها بالحنطة ، ولا يوجد عندهم الخبز الأسود أبداً . . . وتسقى الحبوب المزروعة والمحاصيل الأخرى المختلفة والمتنوعة من الخضار والكروم وبساتين العنب بالمياه لأن المطر صحيح جداً في تلك البلاد وهذا مما أدى إلى الاعتماد على المياه حتى في سبيل الحصول على الحبوب أيضاً»^(٢) وإن السكان يدفعون الأتاوات إلى الشاهزاده لأجل الحصول على موافقته لأرواء البساتين .

وترد في الكتاب ملاحظات وانطباعات مهمة وممتعة عن بغداد « إن موقع مدينة بغداد في فضاء سهل ومنبسط ، وبهذه الصورة أنك لا تجد في جميع أنحاء المدينة وضواحيها أي واد أو تل أو رابية . وإن مدينة بغداد في الوقت الراهن تقع على نهر الشط^(٣) ، وقد بني عليه جسر نشط يستند على أعمدة مبنية على الطريقة العربية . . . وإن قسماً من أهالي بغداد ينون بيوتهم بدون سقوف (على الطريقة الغربية أي غير مسطحة) وذلك لتكون ملائمة لجريان المياه إلى جهة واحدة»^(٤)

ومن بغداد مشى تسيكولين سيراً على الأقدام حتى « المدينة المقدسة » القدس ، حيث مكث فيها يومين « . . . في هذه الأونة التقيت بطريق الصدفة بقبطان انكليزي ، وقد أغراني القبطان ورغب في حضوري على ظهر سفينته ، ووعدني بالمكافأة ، ولكن المحاولة كانت خديعة ولم يسمح لي فيما بعد الخروج من السفينة ،

(١) « مسيرة ورحلة غير اعتيادية للفلاح الروسي ديميتسي إيفانوف تسيكولين إلى آسيا ، ومصر ، والأقسام الشرقية من الهند من سنة ١٨٠٨ حتى سنة ١٨٢١ وقد كتبت من قبله « . الأرشيف الشاهي » ، العدد ٨ ، نيسان ، ص ٣٤٨ - ٣٦٢ ؛ العدد ٩ ، مايس ، ص ٤٧ - ٦٧ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، العدد ٨ ، ص ٣٥٢

(٣) يقصد به دجلة وقد جعل خطأ من لفظة « الشط » المتداولة في بغداد اسماً للنهر (المترجم)

(٤) المصدر السابق ، العدد ٩ ، ص ٥٣ .

وفي الليلة القادمة توجهنا إلى مصر»^(١).

ثم يذكر تسيكولين بعدئذ بأنه وصل إلى مدينة جدة على ظهر نفس الباخرة (إن هذا الكلام غير مفهوم بالتأكيد ، إذ كيف استطاع أن يصل إلى هناك عن طريق البحر بنفس الباخرة التي نقلته إلى مصر) ثم إلى بومباي ، ومسقط ، وبوشير ، وعاد إلى بومباي ثانية^(٢) . وأخيراً تهيات له الظروف أن يرحل من هناك إلى انكلترا ، ثم توجه عائداً إلى روسيا .

رحلة بيرك (ف . ف)

بعد الحرب الوطنية في سنة ١٨١٢ بدأت دراسة ممتلكات الأباطورية العثمانية المجاورة لروسيا : مولدافيا ، وقلالاقيا ، وبولغاريا ، والمناطق الواقعة على سلاسل جبال البلقان بشكل منهجي منظم . وفي أثناء الحروب الروسية التركية كان يتم إجراء التعقيبات والتعليقات الحربية ، والملاحظات والانطباعات الفلكية والجيويدسية في حدود الأقاليم التي كان يجري الاستيلاء عليها نتيجة العمليات الحربية . وفي ضوء جميع هذه الأعمال أنجز في سنة ١٨٢٢ وضع خريطة توبوغرافية لمولدافيا ، وقلالاقيا ، وبولغاريا ، وكذلك أكمل الوصف التوبوغرافي في الطريق من الدانوب المنتهي بالقسطنطينية ، وبشكل خاص الطريق من روشوك خلال شوملا وأدريانوبول ، والطريق من غالانتس خلال براقودا حتى أرابورغاس^(٣) .

يرتبط نشاط بعثة ف . ف . بيرك الذي لم يدرس بما فيه الكفاية في الأدب الروسي بدراسة الطريق الممتد من الدانوب إلى القسطنطينية .

وهكذا قام كابيتان الأركان العامة ف . ف . بيرك في سنة ١٨١٩ برحلة من القسطنطينية إلى اسماعيل فوصف الطريق من ايساكجه خلال باباداغ ، وقارنا ، وبورغاس ، وميديا . وقد وضع وصفاً إحصائياً - حربياً لتركيا^(٤) .

(١) المصدر السابق ، العدد ٩ ، ص ٥٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦١ .

(٣) ن . ب . كليلينيسكي ، تاريخ الأركان العامة الروسية ، القسم ١ ، سانت بيترسبورغ ،

١٨٨٣ ، ص ٣٦٢ .

(٤) « المشوه الروسي » ، العدد ١٨ ، ١٨٧٤ ، ص ٣ .

وقد تم تعيين بيرك في سنة ١٨٢٦ في ملاك السفارة الروسية في القسطنطينية .
 واجتمعت كحصيلة لنشاطات ف . ف . بيرك معلومات مسهبة عن المناطق
 المشار إليها ، ورسمت خطط توبوغرافية للطرق الرئيسية في تركيا الأوروبية .
 ثم شرع ف . ف . بيرك في تهيئة تقارير توبوغرافية وذلك بالإضافة إلى الرسوم
 التخطيطية للطرق ، وقد تضمنت التقارير عرضاً مفصلاً لوصف الطريق من بويوك
 دره خلال ميديا ، وبورغاس ، وقارنا ، وتوزلا ، وباباداغ حتى ايساكجه وقلعة
 قارنا ، وتولج- ايساكجه^(١) .
 وقد أصبح ف . ف . بيرك فيما بعد واحداً من مؤسسي الجمعية الجغرافية
 الروسية ، وعضواً لمجلسها ، وعضو شرف فيها . وقد ثمن ب . ب . سيميونوف -
 تيان - شانسكي بشكل خاص دراساته عن وهاد أورال - قزوين ، واكتشافه أوست -
 أورته^(٢) .
 أما وصف الطريق من شوملا حتى فاكا ، فقد قام بانجازه أحد أعضاء بعثة
 بيرك ، الضابط أ . و . ديوكاميل^(٣) .

رحلة بر ونيكوف

ترك الكونت الإقطاعي شيريميتيف كبير بر ونيكوف مذكرات لها أهمية معينة
 وغير قليلة ، وكان قد زار في سنة ١٨٢٠ - ١٨٢١ مدينة القدس ، ومصر ،
 وسيناء ، وأيون^(٤) .

-
- (١) ن . ييسانجين ، مقالات عن حملة سنة ١٨٢٩ في تركيا الأوروبية ، القسم ١ ، سانت
 بيترسبورغ ، ١٩٠٥ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .
 (٢) ب . ب . سيميونوف ، تاريخ نشاط الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية في نصف قرن ،
 القسم ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٦ ، ص ١٦٨ .
 (٣) وصف حربي - توبوغرافي للطرق من شوملا حتى براقودا ؛ ومن براقودا خلال أيدوس حتى
 بورغاس ؛ ومن بورغاس حتى فاكا ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٢٧ .
 (٤) « رحلة إلى الأماكن المقدسة الواقعة في أوروبا ، وآسيا ، وأفريقيا ، قام بها في سنتي ١٨٢٠
 و١٨٢١ كبير بر ونيكوف وهو أحد ساكني قرية بافلوف » ، موسكو ، ١٨٢٤ .

كان غرض بروننيكوف عندما أقدم على القيام بهذه الرحلة الطويلة هو تسجيل انطباعاته وملاحظاته عن كل شيء يقع تحت نظره بعد عودته إلى البلاد « لكي لا يظل مغموراً » . وبالرغم من أنه لم يكن متعلماً إلى المستوى المطلوب ، ولم يعرف اللغات الأجنبية ، إلا أن لمذكراته قيمة لا بأس بها .

خرج بروننيكوف من قرية باقلوف إلى موسكو ، ثم توجه في ١٨ تموز سنة ١٨٢٠ إلى أوديسا ، فأبحر بعدئذ على ظهر باخرة إيطالية إلى القسطنطينية ، وفي ٢٥ أيلول وصل إلى مدينة القدس ، ومن القدس سافر إلى جبال سيناء بصحبة القوافل البرية .

هناك أشياء كثيرة جلبت انتباه بروننيكوف في الطريق . ولقد اهتم بالحياة التجارية والاقتصادية في القسطنطينية حيث تباع في البلق - بازار (*) الأنواع المختلفة من الأسماك المملحة والطازجة ، والسرطان النهري ، والكافيار الروسي والدانوبي ، واللحوم ، والخبز ، والأحذية المختلفة المتنوعة ، والملابس ، والألواح الخشبية ، والصحون ، والحديد ، والأواني النحاسية .

يقول بروننيكوف عن مدينة يافا : « إن السكان في تلك المدينة كلهم من العرب المحمديين (أي المسلمين : م.خ .) تقريباً ؛ ويوجد في بعض قطاعات المدينة من يدينون باليونانية ، وتكثر الأسواق التجارية فيها ، غير أنه لا تشاهد السلع والبضائع الجيدة في الحوانيت ، أما الحبوب فهي تستورد إليها من المناطق المجاورة ومن مصر أيضاً عن طريق البحر ، واللحوم كثيرة ، والأسماك متوفرة ، وفيها ثمر جميع أنواع النباتات بغزارة ووفرة » (١) .

وشاهد بروننيكوف في طريقه إلى مدينة القدس قطعان الأبقار ، والماعز ، والأغنام في المراعي : « إن الأغنام هنا تشبه الأغنام القرغيزية ، غير أن صوفها أنعم وليست لها أليات » (٢) .

(*) بالبق - بازار : أو (بالغ - بازار) أو (بالك - بازار) تعبير تركي يعني « سوق السمك »

(المترجم)

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

ولم يغب عن باله الوضع الشاق الذي يعيشه السكان القرويون من العرب :
« إن هؤلاء الناس الفقراء في هذه الأوصاف يعيشون ظروفاً صعبة جداً وهم في حالة
عوز وفقر وحرمان ، وذلك بسبب رداءة الموقع ووعورة الطرق »^(١).

ويقول بروننيكوث عن مدينة القدس : « إن الأكثرية الساحقة من السكان
فيها هم من العرب ويدينون بالدين المحمدي (أي الدين الإسلامي : م.خ .) :
هناك بعض منهم يدين بالمذهب المسيحي ، وعدد الترك قليل ، وأما عدد اليهود فهو
كثير إلى حد ما . ول هؤلاء منازل جيدة ، والقطاع الذي يعيشون فيه يقع بجوار هيكل
سليمان من الجهة الشرقية ، وهو منعزل عن السكان الآخرين ، ول هؤلاء اليهود
أسواقهم الخاصة لبيع المأكولات ، ويمارسون التجارة والحرف المتنوعة »^(٢).

ولقد توجه ستة أشخاص بصحبة بروننيكوث إلى جبل سيناء ، كان من بينهم
ضابط الحرس الخيالة من بيترسبورغ ي.م.م. بيساروفيتش وكان يتقن اللغة التركية
إتقاناً تاماً . وكان ثاني الأصحاب من الستة هو رئيس دير تايسي وكان هذا يتكلم
العربية والتركية واليونانية . وفي طريقه وصف بروننيكوث الصحراء الرملية بهذه
الصورة الرائعة : « في تلك الأماكن الخالية الموحشة ، كان الشيء الغريب بالنسبة لنا
على وجه الخصوص هو أنه كنا نشاهد تكوّن جبال هائلة من الرمال نتيجة لحركة
الرياح ، وفي نفس الوقت كانت تتهدم وتتبدد جبال أخرى »^(٣) ، وكان طريق
المسافرين من مدينة القدس يمتد عبر الرملة ، وغزة ، والسويس .

ويذكر بروننيكوث بأن في السويس « لا وجود للخبز ، ولا يقتصر الأمر على
هذا وإنما لا وجود لماء الشرب في جميع أنحاء المدينة أيضاً ، والعرب يجلبون الماء للبيع
من موقع يبعد بعشرة فراسخ من السويس على ظهور الخيول والحمير . . . وأما الخبز
والمؤن والمأكولات الأخرى فتجلب عن طريق البر من القاهرة إلى السويس حيث
يستغرق الطريق ثلاثة أيام ، والناس يتوجهون إلى السويس بالطرق المائية مصطحين

(١) المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٢ - ٩٣ .

بضائعهم وسلعهم التجارية معهم وبشكل خاص من الهند وذلك لتوفر الأرصفة والموانئ ، وعدد هؤلاء المسافرين هائل ، وإنهم يكدسون البضائع في السويس ومن ثم يرسلونها إلى القاهرة»^(١) .

وفي طريقه من السويس إلى سيناء كان برونيكوث يراقب حياة العرب : « هؤلاء الناس يعيشون حياة البداوة ، ويسكنون الخيام ، ويمارسون تربية الماشية . وهم يقومون بتربية المواشي في الجبال ، كالبغال ، والجمال ، والنعاج ، والماعز ، والطيور الأهلية . ومواشيهم ضعيفة وقليلة السمنة ، وذلك بسبب قلة العشب الذي يوجد في الأودية الموجودة في الأماكن الصخرية فقط . وقد قمنا بزيارتهم حيث يعيشون في مضاربهم ، واستضافونا بما استطاعوا تقديمه لنا »^(٢) .

ثم توجه المسافرون من سيناء إلى القاهرة .

وكان المسافرون الذين كانوا يراقبون كل شيء قد وجهوا اهتمامهم إلى طريقة بيع الحليب : « الظاهر انه في المناخ الحار ليس بالإمكان حفظ الحليب الطازج ولو لمدة قصيرة ، ولذلك السبب فإنهم لا يبيعونه في الأواني كما هو مألوف عندنا ، وإنما يتجول البائعون بصحبة مواعزهم في الشوارع ويمرون على البيوت يبحثون عن الذين يحتاجون إلى الحليب ، ويقومون بحلب الحيوان أمام الدار بالمقدار المطلوب »^(٣) .

وعاد المسافرون إلى مدينة القدس في نهاية شهر كانون الأول ، وفي ٢١ نيسان توجهوا من يافا إلى أيون .

وهناك معلومات شيقة عن وضع الأديرة والكنائس في أيون :

« يملك كل دير في أيون أراضي واسعة ، وغابات وبساتين في الجبال . والعقارات التي تعود إلى الأديرة يملكها الرهبنة أنفسهم ويقومون بالإشراف عليها والعمل فيها ، وأما الأراضي الفائضة عن الحاجة فإنهم يقدمونها أو يبيعونها للرهبنة الآخرين . وطريقة البيع مبنية على الأسس التالية : بنيت في أكثر الأراضي الجيدة

(١) المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

التي تعود إلى الدير صوامع ومناسك وأديرة صغيرة ولكنها جميلة على حساب الدير ، ولكل منها أراضي صالحة للزراعة مع قطع من البساتين الصغيرة . فالشخص الذي يقوم بالشراء يجب أن يكون راهباً ، ويستطيع شخصان شراءها على شرط أن يكونا راهبين . وثمن كل صومعة يتراوح بين ألف وألف وخمسمائة ليث حسب سعة الأراضي الملحقة بها . وعند الشراء يتم عقد اتفاق بين المشتري والدير الذي يقع في القرية التي تباع فيها الصومعة ، والمشتري يكون مالكا للصومعة وجميع ملحقاتها وممتلكاتها حتى بعد مماته تبقى مسجلة باسمه . وهو يعمل ويزرع الأرض والبساتين ، وعليه أن يبيع الحبوب والخمور والتمر ، حيث يغطي بنقودها حاجاته من الملابس وغيرها . . .

ويحق للمالك بعد موته أن يعيد صومعته مع كافة ملحقاتها وممتلكاتها إلى نفس الدير الذي كانت تعود إليه أو إلى تلميذه ؛ والدير عادة لا يعيق هذه الرغبة من جانبه ، إلا أنه وبالرغم من أن الصومعة كانت تنتقل من يد إلى يد خلال سنوات طويلة عن طريق الوراثة فإن الدير كان ينزع من المالك الجديد بعض أقسامها دفعة واحدة . . .

والأديرة نفسها كانت تمتلك بعض الصوامع ، أو المناسك الصغيرة بدون كنيسة ، بجانب قطعة أرض صغيرة لزراع الخضار ، وتعطي الصومعة الصغيرة للمشتري طيلة حياته بثمن يتراوح بين مائتي وثلثمائة ليثاً وبنفس الشروط التي تباع فيها الصوامع الكبيرة . ويسكن فيها الفقراء الذين يعيشون على أعمالهم اليدوية . . . وبالإضافة إلى ذلك ان القادمين إلى الجبل من رجال الدنيا والدين يستطيعون شراء صومعة صغيرة داخل الدير يعيشون فيها على حسابه ، أي ان الدير يقدم لهم الطعام والشراب ويستطيعون البقاء فيها للمدة التي يرغبون فيها . ولا يجبر هؤلاء على التردد على الكنيسة أو القيام بأي عمل من الأعمال لأجل الدير^(١) .

رحلة داشكوف

وفي نفس الفترة التي قام كبير بروننيكوف برحلته تمت رحلة المستشار الثاني في

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣٠ - ٢٣٢ .

السفارة الروسية في القسطنطينية ديميتري فاسيلييفيتش داشكوف .

كان د. ف. داشكوف (١٧٨٨ - ١٨٣٩) الأديب والكاتب والناقد هو أحد مؤسسي الجماعة الأدبية « أرзамاس »^(*) (أو « الأوزات الأرماسية » بالمشاركة مع ف. أ. ژوكوفسكي في سنة ١٨١٥ ، وكان كل من ك. ن. بايتوشكوف ، ب. إ. فيازيمسكي ، أ. س. يوشكين وآخرين أعضاء في هذه الجمعية ، وقد قام د. ف. داشكوف بكتابة مجموعة من الأعمال تخص أسفاره في الشرق . إننا هنا نقف عند عمله « الحجيج الروس في مدينة القدس »^(١) فقط . وقد سكن في القسطنطينية في دار البعثة الروسية أربع سنوات . ودرس اللغة اليونانية بصورة جيدة ، وخصص وقتاً كثيراً للبحث والتنقيب في الخزائن المختلفة التي تحتفظ بالمخطوطات القديمة .

يقول داشكوف في زيارة قام بها إلى قرية بالقرب من البحر الميت : « عند خروجنا من القرية التقينا بعدد من النساء ، كن يسرن وعلى رؤسهن جوار من الطين طلياً للماء ، وكن يرتدين ملابس زرقاء فضفاضة وقد طرحن أغطية رؤسهن إلى الوراء ؛ وإن اقترابنا منهن لم يكن مبعث قلق لهن . وخلاصة القول إن كلمة الحاج قد أرضت فضول الجميع ، وأوقفت كل الأسئلة . . . »^(٢).

« إن الوقت الذي أقام فيه الحجيج في القدس كان موسم الحصاد بالنسبة لسكان تلك البلاد . وهذا الموسم هو الوقت الوحيد الذي تنتعش فيه البلاد التي لم تجش بالحليب والعسل (لم تعرف الازدهار - م. خ .) منذ وقت طويل لأن الزراعة متدهورة ، والصناعة معدومة ، وحيث الشعب وقع ضحية لمختلف أنواع النهب والاضطهاد »^(٣).

(*) يراجع عن هذه الجماعة : « تاريخ الاستشراق والدراسات العربية والكردية في المتحف الآسيوي ومعهد الدراسات الشرقية في لينينغراد ١٨١٨ - ١٩٦٨ » ، ألفه باللغة الروسية مجموعة من المستشرقين السوفيات ، ترجمه إلى اللغة العربية وعلق عليه وقدم له الدكتور معروف خزنده دار ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(١) « الأزاهير الشمالية » لسنة ١٨٢٦ ، طبعة جديدة ، ملحق « الأرشيف الروسي » ، ١٨٨١ ، موسكو ، ١٨٨١ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

وقد زار فلسطين الفنان الأكاديمي م. ن. ثورويثف بصحبة د. ف. داشكوث^(١). وان طائفة من رسومه التي أنجزها في الفترة التي قام فيها بالرحلة لا زالت محفوظة لحد الآن .

رحلة سينكوفسكي

من الضروري الوقوف بشكل خاص عند رحلة و.إ. سينكوفسكي لأنه معروف جيداً كمختص لغوي في تاريخ الاستشراق الروسي ، وقال عنه ن. ك. جيرنيشيفسكي : « واما ما يتعلق بالشرق ، فإنه كان في حينه واحداً من أفضل المستشرقين في أوروبا »^(٢). ولا شك بأن و.إ. سينكوفسكي هو قبل شهر إلى حد كبير كرجال وسائح . وبعد إنهاء دراسته في جامعة فيلنيسكي في سنة ١٨١٩ توجه إلى آسيا الصغرى ، وسوريا ، ومصر ، وبلاد النوبة للاستزادة من معرفة اللغتين التركية والعربية . تجول في الأمصار مدة سنتين . وكان يبعث من أماكن مختلفة مواداً للطبع إلى المجلات البولونية ، وعند عودته إلى روسيا طبع مقتطفات من مذكرات رحلته في « الأرشيف الشمالي » و« أبناء الوطن » . وفي سنة ١٨٢٢ وجهت أكاديمية العلوم اهتمامها إلى العالم الشاب والرحال فأصبح وهو في سن الثاني والعشرين من عمره أستاذاً للفتين العربية والتركية . فكان أول أستاذ مختص بالدراسات العربية في جامعة بيترسبورغ ، وقد قال عنه إ. ي. كراچكوفسكي : « كان إنساناً كله حيوية ونشاط ، وهو الوحيد من بين جميع معاصريه من أساتذة اللغات الشرقية الذي زار الشرق العربي ، وعرفه بشكل جيد خلال انطباعاته الشخصية الخاصة »^(٣).

ثم زار و.إ. سينكوفسكي القسطنطينية في نهاية سنة ١٨١٩ . وتوجه بعدئذ إلى سوريا حيث عاش مدة سبعة أشهر في أحد الأديرة المارونية^(٤) ، وفي تشرين الثاني

(١) عن داشكوث ورحلته ، يراجع « كشف موسكو » ، العدد ٨ ، ١٨٤٦ .

(٢) ن. ك. جيرنيشيفسكي ، المجموعة الكاملة لمؤلفاته ، المجلد ٣ ، موسكو ، ١٩٤٧ .

ص ٤٥ .

(٣) إ. ي. كراچكوفسكي ، مقالات في تاريخ الاستعراب الروسي ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٤) المارونيون (نسبة إلى مؤسس المذهب مارون) هم ممثلو كنيسة مسيحية خاصة في سوريا ولبنان ،

وهم يعترفون بالسلطة الكنسية لبابا روما .

سنة ١٨٢٠ وصل إلى الاسكندرية . وبعد مرور ثلاثة أشهر بدأ برحلته إلى حوض النيل ، وزار الأهرام واطلال مصر القديمة ، ثم دخل بلاد النوبة ، والأقسام العليا من الحبشة حتى دارماهان . وهكذا فإنه زار أماكن نادراً ما ارتادها الرحالة الأوروبيون في تلك الفترة .

وقد صادفت رحلة سينكوفسكي في بلدان الشرق الأوسط بداية الانتفاضة اليونانية ضد السيطرة التركية . وكان محمد علي يحكم مصر في ذلك الوقت^(١) . ولا ريب بأن انطباعات الرحال عن نشاط هذا المصلح جديرة بالاهتمام .

فهو يشير إلى : « أن الباشا الحالي في مصر فتح خلال ستة أشهر قناة في الإسكندرية حتى النيل يبلغ طولها ١٤ ميلاً فرنسياً ، وعرضها ١٤٤ قدماً ، وهي في عمق معتدل ، وأمر بجمع (٣٠٠ ٠٠٠) ثلاثمائة ألف عربي للقيام بهذا العمل ، وقد هلك منهم ١٧٥٠٠ شخصاً من جراء العمل الشاق ، والجوع ، والطقس الرديء ، والأحداث الأخرى التي لا مفر منها في مثل هذه الأحوال . وبنفس الطريقة بنيت الأهرام أيضاً يخبرنا هيرودوت بأن خوفو الذي بنى الهرم الكبير كان محبوباً من قبل المصريين بنفس القدر من الحب الذي يكنه المصريون في الوقت الحاضر إلى محمد علي باشا . هذا الباشا الذي فتح القناة لنقل الفول والحبوب المغتصبة من السكان الفقراء من الاسكندرية »^(٢) .

ويقدم سينكوفسكي صورة واضحة لفقر السكان المصريين في مقاله « محمد علي » المنشورة في سنة ١٨٤٠ ، وهي في الحقيقة مقالة انتقادية عن كتاب أ . س . نوروث « رحلة إلى الكنائس السبع المذكورة في أبوكاليسيس » يقول مستغرباً : « في

(١) محمد علي (١٧٦٩ - ١٨٤٩) حاكم مصر منذ سنة ١٨٠٥ حتى ١٨٤٨ ، وقد استولى على السلطة نتيجة لحركة شعبية موجهة ضد زمرة الحكام من المماليك . وقد اعترفت الحكومة العثمانية به رسمياً كحاكم ، وفي واقع الأمر أصبح حاكماً مطلقاً . حاول فصل مصر عن تركيا . وشن حرباً ضد العثمانيين في ١٨٣١ - ١٨٣٣ ، وبنتيجةها ألحق سوريا وفلسطين ولبنان بمصر . وفي سنة ١٨٣٩ بدأ بحرب أخرى ضد الترك ، غير أن التدخل الانكليزي أرغمه أن يكف عن محاولاته لتحقيق استقلال مصر .

(٢) مجموعة مؤلفات سينكوفسكي (البارون برامبيوس) ، المجلد ١ ، سانت بيترسبورغ ،

١٨٥٨ ، ص ١٥ - ١٦ .

شيء واحد فقط يستحق محمد علي لقب مصلح مصر ، فقد حوّل بلداً خصباً ومزدهماً بالسكان إلى صحراء ! كانت هناك في سنة ١٨٢١ مدن مزدهرة وعامرة ، وقرى مزدهمة أهلة بالسكان ، وهي الآن مهدامة ، مقفرة ، هرب سكانها ، وبقيت الحقول غير محروثة وبدون زرع ، وانتشر الفقر والفاقة ، والرعب ، والفرع في كل مكان . . . أما بعض المزارع ومعامل الأقمشة التي أسسها محمد علي ، هل هي حقاً لأجل مصر ، ولفائدة سكانها ؟ أبداً . فقد أنشأ هذه المؤسسات كلها لنفسه فقط ، وعلى الأراضي التي كان يملكها ، ولحسابه الخاص لأجل زيادة دخله الشخصي هو نفسه . وقد تحولت مصر كلها إلى عقار إقطاعي له ؛ وأعلن عن نفسه بأنه صاحب جميع أراضيها ومحاصيلها ، وتعود له وحده ثمرة جهود المزارعين ، وقد منح الحق لنفسه فقط في بيع المحاصيل في الأسواق المحلية أو الخارجية بأثمان كان يحددها هو بنفسه . وكانت مصر عبارة عن هذا الشخص وحده ، فهو صاحب الحقل ، وصاحب المعامل ، وهو التاجر . . . « (١) .

« وإنه لم يكتف باغتصاب جميع المحاصيل من المزارع تقريباً ، وإنما كان يقوض الزراعة من جذورها بشكل متهور وطائش ، وهي تؤلف بدون شك قاعدة الثروة المصرية ؛ وكانت كل شجرة مثمرة ، وكل قطعة من الماشية ، وكل بئر لأرواء الحقول وهي المادة الأولى للحياة ، وجميع الوسائل التي تؤدي إلى الحصول على الرزق معرضة وبشكل مفرط إلى الأناوات وهي في مبالغ باهضة » (٢) .

وقد رسم لنا الرحال المتتبع جملة من اللوحات الدقيقة الباهرة ذات الطابع الاثنوغرافي . نورد هنا جانباً منها وبشكل خاص الصور المتعلقة برحلته إلى بلاد النوبة .

« كوشتامبه - قرية واسعة وكبيرة جداً ، يعيش فيها من السكان مائة وعشرون شخصاً . وإن المنازل والمساكن عند النوبيين واطئة إلى درجة لا يمكن للإنسان أن يجد نفسه فيها إلا أن يكون جالساً . . . وتحيط بالمنزل قطعة من الأرض صغيرة ودائرية الشكل ، يستخدمونها لتربية الدجاج والحمام ، ويدخرون كميات قليلة من القمح .

(١) المصدر السابق ، المجلد ٦ ، ١٨٥٩ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

وتتألف كافة ممتلكاتهم من بقرتين أو ثلاث بقرات ، وزوج من الثيران ، وعدد قليل من الماعز والأغنام . . . ويملك السكان أحياناً عدداً كافياً من الحمير أو الجمال . . .

وأما عن ملابس البنات فهي تشد بحزام مصنوع من شريط من الجلد سميك . . . أما الشباب والرجال بصورة عامة فيسيرون عراة ، ويرتدون مآزر من قماش الكتان الأبيض دون أي شيء آخر . . .

ويغطون رؤوسهم بقبعة من قماش الكتان الأبيض ، وهي تسمى عند المصريين بـ « الطاقية » . والنوبيون يحتفظون بقسم كبير من شعرهم الطويل المجعد وهو يشبه الشعر المستعار (الباروكة) الممشط ، وفي منتصف الرأس يفتلون الشعر ويجعلونه بشكل ضفائر رفيعة تتدلى على الجانبين . وهم يستعملون بكثرة لهذا الغرض دهوناً لزجة ، يصنعونها من بعض أنواع الأتربة السوداء الغنية بالمواد الدهنية ويفركونها بالزيت . . .

وإن النوبيين عموماً ، والنساء والأطفال بوجه خاص يحملون في الجانب الأيسر تحت أكتافهم كيساً صغيراً من الجلد مع طلسم (تعويذة) يشترونه من رجل الدين التقى . أما أسباب البذخ والترف والكماليات للجنسين فهي محدودة جداً . تتزين النساء بأساور من الزجاج الأزرق يضعنها في سواعدهن وأحياناً في سيقانهن ، ويعلقن أقراطاً معدنية مزينة بعدد من القطع الزجاجية في انوفهن وكذلك عقوداً زجاجية في جيدهن . هذا هو إسراف المرأة النوبية . والمرأة التي تضيف على هذه الممتلكات حلقتين لمنخريها (أنفها) ، وقرطين كبيرين معدنيين لأذنيها فهي تعتبر نفسها سعيدة جداً . . . والرجال يحملون في الأذن اليسرى حلقة معدنية مسطحة^(١) .

يقول سينكوفسكي في رسالة له من القاهرة بتاريخ ١١ (٢٣) كانون الأول سنة ١٨٢٠ بأن سكرتير محمد علي قال له ان الأوروبيين لهم عادات وتقاليد كثيرة ومتنوعة : « تختلف تماماً عن عاداتنا وتقاليدنا وهي مضحكة كثيراً . . . إنهم يتناولون الأرز بالملاعق ، واللحم بالملاقط ، والأنكى من ذلك وأكثر مهزلة أنهم يقبلون أيدي

(١) مجموعة مؤلفات سينكوفسكي ، المجلد ١ ، ص ٣٥ - ٣٨ .

نسائهم بإجلال واحترام ، وهؤلاء النساء يلبسن في رؤوسهن قبعات من القش ولا يستعملن غطاء الرأس ، وإنهم يشربون القهوة بالسكر والحليب . كانت الملاحظة الأخيرة مبعثاً للضحك والقهقهة عند جميع الحاضرين بما فيهم الباشا نفسه . وقد أدى هذا الوضع بأحد الواقفين في وسط الصالون أن يصرخ قائلاً : « كافر ! أي انهم كفار »^(١) .

وأما عن مصر فقد كتب سينكوفسكي :

« من الممكن تسمية جميع هذه البلاد بمجرى هذا النهر العظيم [النيل] الذي يتراجع في موسم الصيف مفسحاً المجال للزراعة ، وبعد مرور أشهر يفيض على جميع مواقع ومناطق الوادي من جديد . وفي الحقول ترى الشعير ناضجاً وهو في دور السنبل ، والحنطة مرتفعة بمقدار قدم واحد ، والكتان تفتق زهراً . ويبدأ الفلاحون بزرع الخيار والباميا^(٢) . . . يزرعون الباميا والخيار عادة في حقل اعتيادي ، ويصنعون حول كل منهما سياجاً من سعف النخيل والقصب المثبت في الأرض ، ويكون السياج مائلاً نحو الجنوب لحفظة من الرياح الشمالية . ومن عادة العرب ترك قسم من حقولهم بدون زرع بين سنة وأخرى لتعيد نشاطها . . . »^(٣) .

الأعمال العلمية الجغرافية لضباط الأركان العامة

بيردين وايسين واورتينبيرك

وثر ونجسينكو وديتلس

لقد ساعدت حرب سنتي ١٨٢٨ - ١٨٢٩ على الشروع بدراسة الأراضي ، وإنجاز مجموعة من المسوحات الآلية في تركيا الأوروبية والآسيوية . وكانت المسوحات الفلكية والبارومترية قد بدأت في تركيا الأوروبية وآسيا الصغرى

(١) المصدر السابق ، ص ٧ .

(٢) باميا : نبات يشبه القول التركي ، يستعمل ثمره القرني غير الناتج كخضار في الطبخ ، وتستعمل بدوره المشوية بديلاً للبن وثهيء منها القهوة .

(٣) مجموعة مؤلفات سينكوفسكي ، المجلد ١ ، ص ١٠ .

والقفقاس في سنة ١٨٢٨ ، واستمرت في سنوات الحرب فانتتهت في سنة ١٨٣٢ . وكانت فصائل خاصة يرأسها ضباط الأركان العامة بيردين ، وايسين ، واورتينبيرك ، وقرونجينكو ، ودينارس قد هيات مواد ومصادر أساسية ممتازة لتحديد الوضع الجغرافي لعدد من المواقع^(١) . ثم كان الأكاديمي ث . ي . ستروثي قد قام بمعالجة تلك المواد فيما بعد وبالتحديد في سنة ١٨٤٥ .

وفي نطاق الأعمال المنجزة من الممكن القول بأنه قد تم تحديد الوضع الجغرافي لسبعة مواقع في مولدافيا ، ولسبعة وأربعين موقعاً في فالاكيا وبولغاريا وخمسة عشرة موقعاً في روميلي ، ولأثني عشر موقعاً من صربيا ، والعشرين موقعاً في آسيا الصغرى والقفقاس .

وفي الوقت الذي أنجزت فيه المسوحات الآلية تمت المسوحات البارومترية أيضاً ، وكان من نتائجها تحديد ثمانين موقعاً في تركيا الأوروبية من حيث ارتفاعها عن سطح البحر .

رحلة أوشاكوف

يقدم ن . ن . أوشاكوف وصفاً^(٢) لحمسة من الباشالقات (آخالتيسخ ، وقارص ، وبايزيد ، وأرضروم ، وموش) ، وفيه يسرد بصورة مفصلة الوضع الجغرافي ، والإدارة الحكومية ، والسكان ، ومميزات المناخ ، والوضع الزراعي ، والثروات والمكونات الطبيعية المفيدة ، والطرق والمواصلات لجميع الباشالقات التي مرّ ذكرها .

(١) « التحديد الفلكي في تركيا الأوروبية ، وآسيا الصغرى ، والقفقاس - جمع وإعداد وإنجاز الأكاديمي ث . ي . ستروثي من الملاحظات الفلكية التي توصل إليها ضباط الأركان العامة من سنة ١٨٢٨ حتى سنة ١٨٣٢ » . « نشرة المقر الحربي - التوبوغرافي » ، القسم ٢١ ، الفصل ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٠ ، ص ١٧ - ٩٩ .

(٢) ن . ن . أوشاكوف ، تاريخ العمليات الحربية في تركيا الآسيوية في سنتي ١٨٢٨ و ١٨٢٩ ، في قسمين ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٣٦ ، القسم الأول ، ص ٣٥ - ١٢٠ .

وهناك في هذا العمل فصل مخصص للکرد ، ورد فيه :

« يسكن الكرد الآن في آسيا ، ويشغلون قطاعاً واسعاً من الأرض يمتد من آارات حتى خليج فارس (يقصد الخليج العربي : م.خ.) تقريباً ، أو بصورة أدق حتى خوزستان . وتُعرف هذه البلاد عموماً باسم كردستان ، وهي لا تملك التركيب الكامل الخاص بنفسها ، لأن القسم الأعظم من كردستان تدخل في ممتلكات إيران وتركيا ، ويعيش فيها بعض الفرس ، والأرمن ، والتترك ويدخلون ضمن سكانها ... »

إن بنية الكرد قوية بشكل عام ، وهم معتدلون ومتقشفون ، جريؤون وبواسل ، وأذكاء حاذقون . . . يعمل قسم منهم بالزراعة ولذا فان هؤلاء من المستقرين بصورة مؤقتة ، وتنحصر فترة استقرارهم في الفترة بين موسم البذر وموسم الحصاد ؛ أما في الأوقات الأخرى فيعملون في الرعي ، ينزلون من الجبال بصحبة قطعانهم الكثيرة إلى الأودية بحثاً عن الغذاء الذي يعانون من شحته بسبب المناخ الجبلي القاسي . وهم عادة ينامون ليلاً في الخيام المحاطة بسياج من القصب ويحملون هذه البيوت معهم أينما ذهبوا . . . أما الوضع السياسي عند الكرد فيذكرنا تماماً بأوروبا في القرون الوسطى بجميع أبعاد وقيم المجتمعات الإقطاعية التي تدار بنظام ديموقراطي مقتبس من روح « النظام الأبوي القديم »^(١) .

رحلة ديوكاميل

(١)

بعد توقيع معاهدة أدريانوبول وإبرامها من قبل محمود الثاني توجه الضابط أ.أ. ديوكاميل إلى جبهة آسيا الصغرى في ١٦ أيلول سنة ١٨٢٩ حاملاً رسالة إلى إ.ف. باسكيتش^(٢) حول عقد الصلح . وقد سلك في سفرته هذه طريقه من

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) إ.ف. باسكيتش منذ سنة ١٨٢٧ إحدى فيالق القفقاس ، وقام بإدارة منطقة القفقاس .

ومناسبة اشتراكه في الحرب مع فارس منح لقب « كونت باسكيتش الأريثاني » .

أسكودار خلال ميرزيفون حتى سامسون ، ثم توجه عن طريق البحر فوصل إلى طرابزون .

ومن طرابزون سافر ديوغاميل إلى بايبورت ، وعاش في معسكر سرعسكر^(*) عثمان باشا ، ثم في معسكر باسكيثيخ الذي كان يقع بالقرب من بايبورت . وزار أرضروم ثم توجه إلى القسطنطينية⁽¹⁾ . « كنت أرغب في مشاهدة المناطق الداخلية من آسيا الصغرى التي لم تيسر لي مشاهدتها أثناء سفري من القسطنطينية إلى طرابزون ، ولذلك قررت السفر مباشرة إلى توكات وبهذه الصورة أصبح بالإمكان المرور بجميع أنحاء البلاد »⁽²⁾ .

سافر ديوغاميل عن طريق ترجان ، وأرزنجان ، وقره حصار ، ونيكسور ، فوصل توكات ، وهي أفضل مدينة في هذا القسم من آسيا الصغرى : « فيها تجارة رائجة جداً للصناعات النحاسية ، والأقمشة القطنية والحريرية ، وتعتبر مدينة توكات في نفس الوقت مخزناً للبضائع والسلع المستوردة من القسطنطينية ، وبغداد ، وحلب ، وأرضروم . . . وأما النظافة التي يشعر بها المرء في توكات فإنها من الأشياء النادرة جداً في المدن التركية . . . »⁽³⁾ .

عاد السائح عن طريق أماسيا ، وميرزيفون ، وعثمان جيق ، وتوسيا ، وبولا ، وإيسنيك ثانية إلى أسكودار . وفي طريقه من أماسيا حتى عثمان جيق جلب انشغال السكان بتربية دودة القز انتباه ديوغاميل ، ثم توجه إلى كوجه كيسار ، ويقول انه « يشاهد المرء في جانبي الطريق قطعان الماعز وهي كثيرة جداً ، ويكاد أن يكون شعره من حيث الدقة والملمس الناعم أفضل من شعر الماعز الأنغوري ؛ أما جلود الماعز هنا فهم يصبغونها باللون الأحمر والأزرق ، ويستعملها الترك عادة كمفروش يجلسون عليها »⁽⁴⁾ .

(*) سرعسكر: (رئيس المعسكر) وهو القائد العام للقوات المسلحة التركية قديماً، ثم أصبح لقباً لوزير الحرب في السلطنة العثمانية (المترجم).

(1) «سيرة اليكساندر أوسيبويفيتش ديوغاميل بقلمه»، موسكو، ١٨٨٥، ص ٣٣ - ٤٠.

(2) المصدر السابق، ص ٣٨.

(3) المصدر السابق، ص ٣٩ - ٤٠.

(4) المصدر السابق، ص ٤٠.

هذا وكان ديوكاميل في ذلك الوقت واحداً من الروس الاوائل الذين سافروا الى آسيا الصغرى من الجهة الشرقية . ثم توجه من القسطنطينية الى بورغاس . ويذكر ديوكاميل بأنه في فترة وصول القوات الى روميلي كانت العلاقات الطيبة سائدة بين الجنود الترك والروس .

رحلة مورافيتش (أ.ن.)

بعد انتهاء حرب ١٩٢٨ - ١٩٢٩ قام برحلته الى فلسطين الكاتب اللاهوتي الشهير ، والمؤرخ البورجوازي للكنيسة الارثوذكسية ، والموظف في الشعبة الدبلوماسية التابعة لأركان الجيش الثاني آنذاك أندري نيكولايفيتش مورافيتش (١٨٠٦ - ١٨٧٤) ، وهو شقيق أحد المشاركين في الجمعية السرية للديسمبريين « اتحاد اليسر » اليكساندر مورافيتش .

كان الوازع الديني من أسباب قيامه بالرحلة ، لذلك يتضمن كتابه^(١) القضايا الدينية وتشغل فيه الجانب الكبير . ويعتقد ف.ن. خيتروفو بأن أ.ن. مورافيتش « هو أول من كتب باللغة الأدبية ، وأما ما كتب قبله في هذا الصدد فهو دون ريب كتابات حجيج غير متعلمين^(٢) » .

ويصف مورافيتش أدريانوبول في سنة ١٨٢٩ وذلك بعد ان احتلها الجيش الروسي ، وبقي فيها مدة ثلاثة أشهر : « في فترة الثلاثة الأشهر لم يحدث أي خصام حتى وإن كان صغيراً بينهم [الروس والترك] ، ولم يستطع أي مظهر من مظاهر الفوضى والشغب أن يحدث أي تدهور في خلق الروس . إن هذا الوضع غير المعتاد الذي كان يضطر الأجانب أن يندهشوا رغماً عنهم . . . أصبح في النهاية مسألة طبيعية تماماً . »^(٣) .

وهناك صور طريفة لانطباعاته وملاحظاته عن استعراض القوات الروسية في

(١) «رحلة الى الأماكن المقدسة في سنة ١٨٣٠» ، القسم ١ و٢ ، الطبعة ٣ ، سانت بيترسبورغ ،

١٨٣٥ .

(٢) ف. خيتروفو ، فلسطين وسيناء ، القسم ١ ، النشرة ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٦ ، ص ٤٢ .

(٣) «رحلة الى الأماكن المقدسة في سنة ١٨٣٠» ، القسم ١ ، ص ١٢ .

أدريانوسول ، الذي كان الوجهاء الترك يتوقون إلى مشاهدة ذلك الاستعراض ، وعن المظهر الخارجي للقسطنطينية .

ومن القسطنطينية توجه مورافيثف الى مصر ، زار فيها الاسكندرية ، والقاهرة ، وعرج على الأهرام .

ولقد صور انطباعه الأول عن الاسكندرية بالأسلوب التالي : « كانت وجوه السكان شاحبة وهزيلة ، هم يتجولون كالاشباح المشردة في أردية بيضاء أو زرقاء في الأسواق القذرة والضيقة ، كانوا يسرون وراء جماهم وحميرهم النحيلة . وإن كل شيء يحمل طابع الفقر والفاقة والكآبة المتناهية . . . »^(١) .

وخلال رحلته في نهر النيل وقناة المحمودية ، يشير سائحنا مرة أخرى الى مظاهر البؤس والعوز : « إن فقر السكان كبير ، وقد بلغ حداً يشاهد المرء في الطريق ، وفي مسافة مسيرة ساعتين حتى نهر النيل ، وبدون توقف النساء والأطفال وهم يجمعون بنهم في سلاهم العدس الذي كان يتناثر من الأكياس [المحمولة على ظهور الحمير] ، وتكرر هذه المشاهد بكثرة وفي مناطق كثيرة في مصر »^(٢) .

وبعد زيارة الأهرام واطلال ممفس توجه أ.ن. مورافيثف بصحبة احدى القوافل عن طريق صحراء سيناء الى فلسطين . وعند مروره بغزة ، تناول المدينة بالوصف على الشكل التالي : « إن هذه المدينة نشطة وفي حركة دائمة ، وتمر بها القوافل دون انقطاع . . . وتعتبر مدينة غزة في الوقت الحاضر واحدة من أغنى المدن في فلسطين بتجارتها ، وهي بالإضافة الى ذلك بمثابة مخزن لكثير من المؤن والمواد الغذائية التي ترسل الى الصحراء العربية ؛ وفيها يحصل البدو الذين يعيشون بالقرب منها على جميع المتطلبات المتواضعة لحياة التنقل والرحلة »^(٣)

ثم سافر أ.ن. مورافيثف من فلسطين الى بيروت.

(١) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٣ .

« ان هذه المدينة . . . هي أغنى مدينة في شواطئ سوريا بمينائها الجيد الملائم ، وهو أفضل مكان لتخزين السلع والبضائع للحفاظ عليها ، وقد جذبت المدينة الى نفسها قوافل الشرق »^(١) . وفي طريق عودته مكث مورافيث في قبرص ، وفي سمرنا ثم توجه في ٢ حزيران سنة ١٨٣٠ عن طريق آق - كيسار وبالكيسير الى القسطنطينية .

خصّص أ. س. بوشكين لرحلة أ. ن. مورافيث جملة كلمات : « قرأنا بغبطة عفوية رقيقة كتاب السيد مورافيث . . . قام برحلته عبر اليونان . . . هو لا يقف عند حد ، يتحرك ويستعجل ، ويتحدث مع المصلح المصري الغريب الأطوار ، ويتغلغل الى أعماق الأهرام ، ينزل الى الصحراء الزاخرة بالخيام السوداء للبدو وقوافل الجمال ، يدخل ارض الميعاد ، وأخيراً يشاهد بشكل فجائي من الأعالي مدينة القدس »^(٢) .

وكتب ن. ك. جيرنيشيفسكي بهذا الصدد أيضاً : « طالعت « رحلة الى الأماكن المقدسة » بارتياح ولذة ، وهي في الحقيقة تقرير في انطباعات صالحة وسعيدة لكاتب روسي مثقف يرقى غالباً بجلاله وببلاغته إلى الفصاحة »^(٣) .

والمعروف بهذا الشأن هو أن سعف شجرة النخل الذي جلبه مورافيث معه الى روسيا قد أوحى الى م. ي. ليرمونتوف الخيال والقدرة ، فانسابت قصيدة « قل لي يا غصن فلسطين » من أعماق قلبه .

وبعد مرور عشرين سنة ، قام أ. ن. مورافيث برحلته الثانية الى الشرق الأوسط^(٤) . ولقد زار فيها القسطنطينية ، وجزر بريتشيا ، وبروسه ، وأيون ، وسالونيك ، وأثينا ، ثم بيروت ، وسوريا ، وفلسطين .

(١) المصدر السابق ، القسم ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٢) أ. س. بوشكين ، مجموعة الأعمال الكاملة ، المجلد ٧ ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٩ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٣) ن. ك. جيرنيشيفسكي ، مجموعة الأعمال الكاملة ، المجلد ٢ ، موسكو ، ١٩٤٩ ، ص ٥٢٠ .

(٤) أ. ن. مورافيث ، رسائل من الشرق في سنوات ١٨٤٩ - ١٨٥٠ ، القسم ١ و ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥١ .

وفي « رسائل من الشرق » يقدم لوحة رائعة جميلة لبروسة ، ومساجدها ، ويصف أديرة أيون بأسلوب فصيح وكذلك الأماكن المقدسة في مدينة القدس .

وتثير رسالة أ. ن. مورافيف المؤرخة في ٩ كانون الأول سنة ١٨٤٩ اهتماماً كبيراً ، يتحدث فيها الكاتب عن رحلته الى لبنان وسوريا : « ينبغي على المرء أن يدهش بالجهود التي يبذلها المارونيون في الجبال ، انهم يزرعون أينما كان حتى في التربة غير الصالحة للزراعة والممزوجة بالأحجار الناعمة . وتمتد بصورة متلاحقة حقولهم الضيقة وبساتين الزيتون على شكل مساطب من أعالي الجبل حتى أعماق الأودية ، وتنتشر قراهم في الأماكن العالية غالباً ، وتوجد أحياناً حول قلاع الشيوخ أيضاً »^(١)

وزار مورافيف بعليك^(٢) (هيكل اله الشمس) : « بعليك الجبارة . . . جنحت شمس الشتاء نحو الأصيل ، وعكست لونها الذهبي على الأعمدة العجيبة لهيكلها ، الهيكل الذي اصفر بمرور الزمان . . . ومن القمم العالية تراءت لنا الأطلال الضخمة بكامل فخامتها . . . »^(٣)

« وكلما يقترب المرء من دمشق يشاهد افتقار الجبال الى السكان : وأخيراً ظهر بشكل مفاجيء من وراء كتل تلك الجبال الجيرية سهل دمشق الباهر الفسيح بجميع ابعاده ، حتى جبال حران البعيدة ، وكانت عاصمة الخلفاء نفسها قريبة منا ؛ المدينة التي أبدعت الأغاني والأناشيد الشرقية ، وخلقت حكايات الف ليلة وليلة الممتازة ، والخيال العربي القريد . . . ثم يغيب سحر المياه الرقراقة والبساتين . وعند الدخول الى المدينة نفسها ، تشاهد القاذورات في الأرض كما هي الحال في جميع المدن التركية ؛ أما جمال البيوت وثرأء السكان فيكمنان في داخل المنازل ، وحيثما عاش أصحاب

(١) المصدر السابق، القسم ٢، ص ١١٥ .

(٢) بعليك : مجموعة هياكل أقيمت تكريماً لجويتر وباخوس وقينوس في القرن الأول - الثالث بعد الميلاد . وان أكثر الأبنية فخامة من حيث الفن المعماري هو هيكل جويتر .

بقيت الى يومنا هذا ستة أعمدة من هيكل جويتر (كان عدد الأعمدة ٥٤ عموداً)، وبعض اجزاء الجدران والسلالم وأثار المذبح، وبقي أيضاً جزء من هيكل باخوس وهيكل قينوس . وتشاهد على جدران الهياكل والأعمدة رسوم بارزة وتمائيل .

(٣) أ. ن. مورافيف، رسائل من الشرق في سنوات ١٨٤٩ - ١٨٥٠ ، القسم ٢ ، ص ١٢٠

المنازل حياة مترفة ، تقابلها مظاهر الفقر بصورة واضحة وبارزة «^(١)» .

وعلى العموم ينعكس في وصف الرحلة الثانية وإلى حد كبير جداً وأكثر من الرحلة الأولى المزاج الديني المتصوف المبهم للمؤلف الذي تكوّن خلال السنوات العشرين التي درس فيها مورافيثف تاريخ الكنيسة بشكل متقن ودقيق .

وأخيراً أن كتاب مورافيثف وهو سجل لملاحظات مسافر يكون بدون شك مصدراً قيماً لدراسة سوريا وفلسطين .

رحلة بوشكين

من المعروف أن اليكساندر سيرغييڤيڤ بوشكين قام برحلته الشهيرة إلى أرضروم في فترة حرب سنة ١٨٢٨ - ١٨٢٩^(٢) . بقيت نسخة مخطط الطريق الذي سلكه في رحلته من تفليس حتى أرضروم محفوظة ، وكان ديڤليڤك هو الذي استنسخها ، وقد دخلت هذه النسخة في سنة ١٨٣٠ في هوامش^(٣) كتاب « رحلة إلى أرضروم » .

سافر الشاعر عن طريق تفليس إلى قلعة گومري (مدينة لينينكان حالياً) . ثم سلك الطريق خلال قرية جاموملي ، وخليف - اوغلي ، ومدينة قارص ، وقرية كوتانلي ، واطلال جيريجلي ، ونهيري اينجه - سو ، وگونگير - سو ، وقلعة زيوان ، وقرينى أردوس ، وكيڤيريكيوڤ ، وقرية حسن قلعة ، حتى وصل إلى أرضروم .

ومن قارص حتى المعسكر الواقع على ضفاف نهر قارص - جاي ، كان بوشكين « يسير في أرض مزروعة بالقمح ، وكانت القرى تشاهد في جميع الجهات ، غير أنها كانت خالية : لأن سكانها كانوا قد هجروها . وكان الطريق ممتازاً ولكنه

(١) المصدر السابق، ص ١٢٨ .

(٢) «رحلة إلى أرضروم في فترة حمله سنة ١٨٢٩»، أ.س. بوشكين، مجموعة المؤلفات الكاملة، المجلد ٦، موسكو - لينينغراد، ١٩٤٩، ص ٦٣٧ - ٦٩٩ .

(٣) المصدر السابق، ص ٧١١ - ٧١٢، والملاحظات في ص ٧٨٩ .

كان موحلاً في الأماكن التي تكثرت فيها المستنقعات ، وقد أقيمت على الجداول الصغيرة قناطر حجرية . والأرض كانت ترتفع بشكل ظاهر ، وبدأت تتراعى للعين التلال والهضاب الأمامية لسلسلة ساغانلو (طوروس القديمة)^(١) . . .

ويقول يوشكين عن طريقه الى أرضروم حينما ترك وراءه جبال ساغانلو المكسوة بالثلوج والغابات : « إننا شاهدنا نهر آراس وهو يجري بسرعة في ضفافه الصخرية . وعلى مسافة ١٥ فرسخاً من حسن قلعة كانت هناك قنطرة جيدة وقوية مبنية على سبع قباب غير متساوية . . .

وتعتبر حسن قلعة مفتاح أرضروم ، والمدينة مبنية على سفح صخرة كبيرة تقوم في أعلاها قلعة »^(٢) .

ثم زار يوشكين النبع الساخن المشبع بالأملاح الحديدية والكبريتية : « في ٢٦ حزيران كنا في الجبال على بعد خمسة فراسخ من أرضروم . والجبال هذه تسمى بأق داغ (الجبال البيضاء) ، وهي جبال جيرية . . . »^(٣) .

وفي ذكرى موقعة بولتافا في ٢٧ حزيران سنة ١٨٢٩ ، عندما سلم الترك المدينة الى القوات الروسية ، كتب يوشكين : « اتنا دخلنا الى المدينة ، وهي تظهر بصورة عجيبة . وكان الترك ينظرون إلينا بوجه عابس ، وأما الأرمن فكانوا يتزاحمون بصخب في الطرقات الضيقة . . . وكانت شوارع المدينة ضيقة ومتراصة ، والمنازل عالية جداً ، والناس كثير ، والحوائيت كانت مغلوفة . . .

وتعتبر أرضروم المدينة الرئيسية في تركيا الآسيوية . فيها من السكان مائة الف شخص ، غير أن هذا العدد مبالغ فيه الى حد كبير . البيوت هنا مبنية بالأحجار ، والسقوف مكسوة بالأعشاب ، مما تجعل المدينة ان تكون في منظر غريب جداً ، وبالأخص عندما تنظر إليها من مكان مرتفع .

(١) المصدر السابق ، ص ٦٧٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٨٦ - ٦٨٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٨٨ .

وتتم التجارة البرية الأساسية بين أوروبا والشرق عبر أرضروم . إلا أن البضائع والسلع تباع فيها بقلّة ، ولا تخزن فيها الأموال التجارية . . .

ومناخ مدينة أرضروم قاس ، وهي مبنية في قاع منخفض ، يعلو من سطح البحر بمقدار سبعة آلاف قدم . وتكسو الثلوج الجبال المحيطة بها في أغلب أيام السنة . والأرض خالية من الغابات ولكنها مثمرة وخصبة . وهي تروى من ينابيع غزيرة ، وتمتد قنوات المياه الى كل مكان . وتشتهر أرضروم بمياهها ، والفرات يجري على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة . والنافورات كثيرة وهي في كل مكان . كل انسان في هذه الأصقاع يحمل بوتقة في الصفيح مربوطة بسلسلة ، والمسلمون الطيبون يشربون الماء بكثرة ولا يملون من شربه «^(١)» .

وأشار الشاعر إلى أن في المدينة التي يحتلها الجيش الروسي قوامه عشرة آلاف محارب « لم يشك أي شخص من سكان المدينة حتى مرة واحدة من تسعف جندي روسي »^(٢) .

وكتب العالم الخبير في شؤون القفقاس ف.أ. بوتو في أحد كتبه : « كانت الحرب في تركيا الآسيوية في سنة ١٨٢٨ - ١٨٢٩ القفقاسية ، وهي غنية بانتصارات مجيدة بشكل خارق ، وتتألاً بأسماء جديدة بأن تحتل مكاناً بارزاً في التاريخ . غير أن المرء يصادف من بين الأسماء الضخمة لهؤلاء المحاربين المتوجة بأكليل من الغار الدامي ، اسم الشاعر الأعظم اليكساندر سيرغييفيچ بوشكين وهو الاسم العزيز لروسيا . . .

وينتمي بوشكين الى القفقاس كشاعر أهداها قصائد مستوحاة منها ، وكرجل شارك مع القوات القفقاسية في حملاتها الحربية ، وفي أعمالها والمخاطر التي صادفتها »^(٣) .

(١) المصدر السابق ، ص ٦٩٠ - ٦٩٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٩٦ .

(٣) ف. بوتو ، الحرب القفقاسية في بعض من الأحداث والأساطير والسير ، المجلد ٤ ، النشرة ٤ ،

تفليس ، ١٨٨٨ ، ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .

رحلة لسييراندي

يعود نشاط الضابط (الجنرال فيما بعد) أ. ب. لسييراندي (١٧٩٠ - ١٨٨٣) الذي درس تركيا الأوروبية طيلة سنوات عديدة الى فترة حرب ١٨٢٨ - ١٨٢٩ وما قبلها .

لقد حاز لسييراندي شهرة محزنة في قضية البيتراشيفيين^(١) . وكان نشاطه من أسباب تدمير جماعة البيتراشيفيين .

إلا انه مع ذلك لا نعتقد بوجود أي مبرر لغض النظر عن أعمال لسييراندي في حقل دراسة الشرق الأوسط التي خصص لها سنوات كثيرة من عمره .

بذكر لسييراندي بأنه بدأ بدراسة تركيا الأوروبية في بيسارابيا . وسافر في فترة ظهور جماعة گيتيريا^(٢) أكثر من مرة الى القلاع التركية ، وجمع معلومات عن أعمال الترك في أمارات حوض الدانوب . وأرسل في بعثة الى القلاع التركية في سنة ١٨٢٦ ، وفي سنة ١٨٢٧ زار بروت والدانوب ، وفي الفترة التي سبقت الحرب وضع نشرات وتقارير منتظمة بالمعلومات التي كان يعرفها^(٣) . وقاد لسييراندي في سنة ١٨٢٨ - ١٨٢٩ حملة فصائل الأنصار المتطوعين . وبعد ذلك زار أمارات حوض الدانوب في سنة ١٨٣٦ . وكانت المواد التي جمعها لسييراندي في الحقبة التي كان يتجول فيها في تركيا الأوروبية ، وكذلك المصادر التي جمعت ونسقت من المصادر الأدبية قد نشرت فيما بعد بوقت طويل ، أي قبيل الحرب الروسية - التركية في ١٨٧٧ - ١٨٧٨ . ولا ريب بأن أعمال إ. ب. لسييراندي تعكس معلومات عن

(١) يراجع عن قضية البيتراشيفيين أو جماعة البيتراشيفيين: «تاريخ الاستشراق والدراسات العربية والكردية في المتحف الآسيوي ومعهد الدراسات الشرقية في لينينغراد ١٨١٨ - ١٩٦٨» ، الفه باللغة الروسية مجموعة من المستشرقين السوفييات ، ترجمه وعلق عليه وقدم له الدكتور معروف خزرنه دار ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٢٧٥ .

(٢) گيتيريا: جمعيات سرية وطنية (اتحاد) ، أسسها بعض اليونانيين في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر في سبيل النضال ضد الحكم التركي ، والكلام هنا عن الجمعية التي تأسست في مدينة أوديسا في سنة ١٨١٤ .

(٣) «قراءات في جمعية التاريخ والتاريخ القديم للإمبراطورية الروسية في جامعة موسكو» ، الكتاب ٣ ، موسكو ، ١٨٧٧ ، ص ٥٣ - ٨٠ .

الجغرافيا الطبيعية والاقتصادية ، واثنوغرافية مناطق تركيا الأوروبية ، وتتضمن كذلك الشؤون السياسية والعسكرية في ذلك الزمان . وقد اهتم اهتماماً كبيراً بوصف بولغاريا وأمارات حوض الدانوب^(١) .

وكانت أعمال ليراندى قد نشرت في طبعات مستقلة ، كما وطبعت في « الارشيف الروسي » .

ويتكلم الصحفي إ.أ. أرسينييف عن ليراندى كما يتكلم عن لغوي مثقف ذي ثقافة انسكلوبيدية قام بجمع مكتبة واسعة وعامرة عن الشرق الأوسط^(٢) .

أما عن مكتبته فقد كتب ليراندى نفسه : « في مكتبتي يوجد كل ما نشر عن تركيا بجميع اللغات ، منذ البداية الأولى لظهور الكتاب المطبوع وحتى سنة ١٨٥٣ . وقد بدأت بجمع الكتب منذ سنة ١٨٢٠ ، وفي سنة ١٨٣٠ أصبحت المكتبة معروفة لدى المجتمع العلمي الأوروبي » .

ويعتقد ب . بارتينييف بأن ليراندى كان بشكل أو بآخر أحد المعارف المقربين من أ . س . بوشكين في مدينة كيشينوف ، وكان الشاعر غالباً ما يستعير الكتب من ليراندى « الذي كان يملك في ذلك الوقت مجموعة ممتازة ومتنوعة من الكتب الاثنوغرافية والجغرافية »^(٣) .

رحلة مورافييف (ن . ن)

ان الأحداث المتعلقة بالحرب التركية - المصرية الأولى في سنوات ١٨٣١ - ١٨٣٣ (انتفاضة محمد علي) ، وإنزال الفيلق الروسي في البوسفور ، وتوقيع معاهدة هينغاراسكله سي في سنة ١٨٣٣ وجدت لها انعكاساً في أعمال ن . ن . مورافييف^(٤) ، أخ الكاتب أ . ن . مورافييف . (وقد مرّ ذكره كرحال - م . خ .) .

(١) يراجع : « دليل جميع المطبوعات الدورية لجمعية التاريخ والتاريخ القديم للإمبراطورية الروسية التابعة لجامعة موسكو (عن سنة : ١٨١٥ - ١٨٨٣) ، موسكو ، ١٨٨٣ ، ص ١٧٢ .

(٢) مجلة « السنابل » ، العدد ٥ ، ١٨٨٥ ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٣) ب . بارتينييف ، بوشكين في جنوب روسيا ، « الارشيف الروسي » ، النشرة ٨ - ٩ ، ١٨٦٦ ، ص ١١٢٦ ، ١١٤٠ ، ١٢٧٤ .

(٤) « تركيا ومصر في مذكرات ن . ن . مورافييف (كارسكي) ١٨٣٢ - ١٨٣٣ » ، المجلد ١ - ٤ ، موسكو ، ١٨٦٩ .

كان المشارك في العمليات الحربية ضد فارس في سنة ١٨٢٦ - ١٨٢٧ ،
والحرب الروسية - التركية في سنة ١٨٢٨ - ١٨٢٩ الجنرال ن. ن. مورافيف قد أرسل
في سنة ١٨٣٣ الى القسطنطينية ضمن ملاك البعثة الدبلوماسية التي كانت تعمل في
سبيل إيقاف العمليات الحربية لباشا مصر ضد الحكومة العثمانية (الباب العالي) .
وقاد ن. ن. مورافيف فيما بعد القوات الروسية التي نزلت في البوسفور .

وكانت مذكرات مورافيف وملحقاتها التي تتضمن نسخاً من تقاريره ورسائله
معروفة بصورة جيدة . ولا تنحصر أهميتها للمؤرخ فقط وإنما لها أهميتها للجغرافي
والانثوغرافي أيضاً . والملاحظات والانطباعات التي دونها عن الناس وحياتهم ، وعن
مدينتي القسطنطينية والاسكندرية معبرة وصائبة .

« اننا نكشف هنا في الاسكندرية عن مناظر تلاحظ في مصر تظهر في صور
النساء اللاتي يحملن الجرار على رؤسهن وهي مليئة بالماء ، وهن يتحركن كأنهن
شخصية جميلة واحدة ، ومن بعيد يذكرن المرء بالتماثيل الرشيقة الانيقة لفناني
الاغريق القدماء . إلا ان السحر يتلاشى عندما تقترب منهن : هنا تبرز الوجوه
المنهوكة النحيفة المغطاة بالاسمال البالية . اما بائعات الفواكه وعلى الأخص بائعات
البرتقال فيتجمهرن في الشوارع ويملأن الجو بالضجيج والصياح والصخب الحاد ،
وكانت هذه الأصوات العالية كما ترجموها لي في الغالب عبارة عن مجرد إطراء
للبضائع ، يستعملن فيها أنواع التشبيهات والاستعارات والاشعار » (١) .

وقد ساعد وجود القوات الروسية في البوسفور التي كان يقودها ن. ن.
مورافيف إمكانية القيام بمسح جانب من المنطقة . ولقد تم رسم مضيقي البوسفور
والدردنيل ، وقلاع الشاطئ الآسيوي ، ووضع خط مفصلة للمناطق القريبة من
شواطئ القسم الآسيوي لتركيا (٢) .

وكان ن. ن. مورافيف أول أوروبي قدمت له التسهيلات اللازمة لمشاهدة

(١) المصدر السابق ، المجلد ٣ ، ص ٨٨ .

(٢) ن. ن. مورافيف ، الروس في البوسفور ، موسكو ، ١٨٦٩ ، الملاحظات ١ ، ص ٣٦ -

مخازن الأسلحة في باحة السراي القديم حيث يحفظ فيها عدد كبير من الدروع والخوذ والأسلحة القديمة ، وهي تعود الى عهود الفروسية .

رحلة ديوگاميل

(٢)

كان أ. أو. ديوگاميل أحد المشاركين في حملات ن. ن. مورافيف . وقد أشغل منصب القنصل العام في مصر منذ سنة ١٨٣٤ وحتى سنة ١٨٣٧ .

ولدى دراسة أ. أو. ديوگاميل لمصر بشكل متقن توصل الى استنتاج هو أن : « مصر أصبحت خالية من الناس ، والمناطق التي جرى الاستيلاء عليها لا تطمئن الى نوع الحكم السائد فيها ، والناس ينتظرون بفارغ الصبر الفرصة المناسبة لدفع الظلم البغيض عن أنفسهم »^(١) .

وزار ديوگاميل في نفس الفترة بيروت وعدداً من مدن لبنان الأخرى ، وسوريا وفلسطين التي انتقلت الى الإدارة المصرية في سنة ١٨٣٣ . وقد أشار هو إلى أن الحكم المصري في سوريا « كان ظمناً ثقيلاً جداً على الشعب لأن الضرائب الباهظة والتجنيد الإجباري لم يكونا معروفين لديه قبل ذلك الوقت ، وكانت هذه الظاهرة بصورة عامة وازعاً لإثارة كره شديد ضده من أفراد الشعب كافة . غير أنه ، وبالرغم من هذا ، نرى من الجهة الأخرى ان الحكم المصري قد نجح باجراءاته الصارمة في تأمين النظام في البلاد ، حيث كانت الفوضى سائدة في السابق بشكل تام . أما في الوقت الحاضر ، فبالامكان السفر والتنقل في جميع أنحاء سوريا من أقصاها إلى أقصاها بدون أي حارس ودون التعرض لأي خطر مهما كان ضئيلاً »^(٢)

ومع ذلك يشير ديوگاميل ، وهو الخبير الممتاز في الوضع السياسي لتلك الحقبة من الزمان ، إلى أنه بعد وقوع سوريا تحت سيطرة مصر : « انخدع جميع السكان المسلمين في توقعاتهم وتوصلوا إلى قناعة بأن الحكم المصري أكثر تعسفاً من الحكم

(١) « سيرة اليكساندر أوسيبوفيتش ديوگاميل بقلمه » ، ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٦ - ٧٧ .

ويصف ديوغاميل بوضوح شخصية محمد علي : « . . . لقد سنحت لي الفرصة أن أكون في علاقات عملية مع كثير من ذوي المقامات العليا من الترك ، غير أنني لم أشاهد حتى شخصاً واحداً من الممكن ، وبأي شكل من الأشكال أن يقارن بمحمد علي . . . انه لم يتلق أي نوع من التعليم ، ولا يعرف الكتابة مطلقاً ، أما قراءته فهي رديئة ؛ إلا أنه يتمتع بالشيء الذي لا يستطيع أي تعليم أن يقدمه وهو : الحس المرهف في جميع القضايا ، ومعرفة الناس ، واتقاد الذهن ، والقدرة لإدراك كافة القضايا الخطيرة . وكان له الإمكانية والقدرة أن يكون سنداً للإمبراطورية العثمانية إذا ما استطاع السلطان ان يستميله اليه «^٢» .

ثم يتكلم ديوغاميل عن رحلته بالقارب في أعالي نهر النيل : « إنني سعدت حتى أسوان . وهي تقع في المنطقة الإستوائية ؛ وهناك بالقرب منها مقالع حجر الغرانيت ، حيث كان الفراعنة يجلبون الحجر منها لنحت النصب التذكارية ، والمسلات ، وأبي الهول ، وأسس البوابات ، وما شابه ذلك . . . وبتعبير آخر جميع ما استعملوه من الأحجار لتجميل الآثار التي شيّدوها ، لأنه لا يقدم حجر الغرانيت أي سهل في المناطق الجبلية التي تحاذي وادي النيل عدا أسوان «^٣»

وكان ديوغاميل يهتم بكل شيء . ففي رسائله التي كان يبعثها الى أبيه يصف عادات وتقاليد السكان ، وأنظمة الحكم ، والنباتات المختلفة المتنوعة ، ونظام ري الحقول بأشكاله المتباينة ، والآثار ، والعاديات التاريخية .

رحلة الفنانين

بر يولوف وداقيدوف ويقيموف

زار الفنان المعروف ك. ب . بر يولوف الجزر الأيونية واليونان وتركيا في سنة

(١) المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

١٨٣٥ . وقد أخذ باقتراح وملاحظات ف. ب. دافيدوف المحب للعلم والفن ،
وتوجه في بعثة غير كبيرة بمحاذاة شواطئ آسيا الصغرى واليونان . وقد التحق به عضو
أكاديمية الفنون الروسية المهندس المعماري ن. ي. ييفيموف .

خرج المسافرون من ايطاليا في مايس سنة ١٨٣٥ وزاروا الجزر الأيونية ،
ووصلوا الى سميرنا في شهر تموز .

هنا وفي السفارة الروسية تعرف ف. ب. دافيدوف بالمهندس الجيوديسي
م. ب. فرونجينكو الذي كان في ذلك الوقت قد انتهى من وضع الخريطة الطبيعية
لآسيا الصغرى .

وفي القسطنطينية استطاع دافيدوف وجماعته زيارة حرم آياصوفيا المكان الذي لم
يكن في متناول المسيحيين في ذلك الزمان . وقد اهتم دافيدوف بوجه خاص في
مذكراته^(١) بالهندسة المعمارية وتخطيط بنايات ومنازل المدن ؛ ويصف سوق العبيد ،
وهو المشهد المقرف والقبيح ، وكذلك القصر السلطاني . « تشبه القسطنطينية المناظر
المرحية (الديكورات) ، فهي مدينة متألقة مثلها ، وتثير تماماً نفس الاهتمام الذي
يشيره المشهد المسرحي الذي نراه لأول مرة في حياتنا . وبدخولنا وراء الكواليس ،
يكون عجبنا شديداً لما في المسرح من القذارة ، والفقر ، والبشاعة التي أغوتنا من
بعيد . فالشوارع ضيقة ، ومتعرجة وغير نظيفة ، والمنازل من الأخشاب وهي منقوشة
بالوان مختلفة ، يأتي الواحد بعد الآخر وكلها متلاصقة مما يسبب تشويه المنظر »^(٢)

ثم « سافر الرحالة الى أيون وزاروا أطلال وخرائب طروادة وبروسه . وفي
دفتر مذكراته صور دافيدوف بصورة دقيقة مشاهد الحياة اليومية المختلفة ، ووصف
سميرنا ، والدردنيل ، والقسطنطينية ، وجزر برينتسيث ، وبروسه . والتقى
دافيدوف في القسطنطينية وفي السفارة الروسية ب. ب. أ. جيخاجيف الباحث الشهير

(١) مذكرات الرحلة المدونة في فترة زيارة الجزر الأيونية واليونان وآسيا الصغرى وتركيا في سنة ١٨٣٥
من قبل فلاديمير دافيدوف ، القسم ١ - ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٣٩ ، ١٨٤٠ .
(٢) المصدر السابق ، القسم ٢ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

فيما بعد لألتاي وآسيا الصغرى . وفي ١٧ تشرين الأول سنة ١٨٣٥ كتب بهذا الصدد : « كان جيخاجيف الشاب المنسب للعمل ضمن البعثة الموجودة هنا ، قد عاد من الرحلة الطويلة والخطرة الى مصر ، وعرج على أماكن طريفة مختلفة في آسيا الصغرى ، وفي جزيرة رودوس نجا من الموت بأعجوبة من الكارثة التي صادفت السفينة »^(١) .

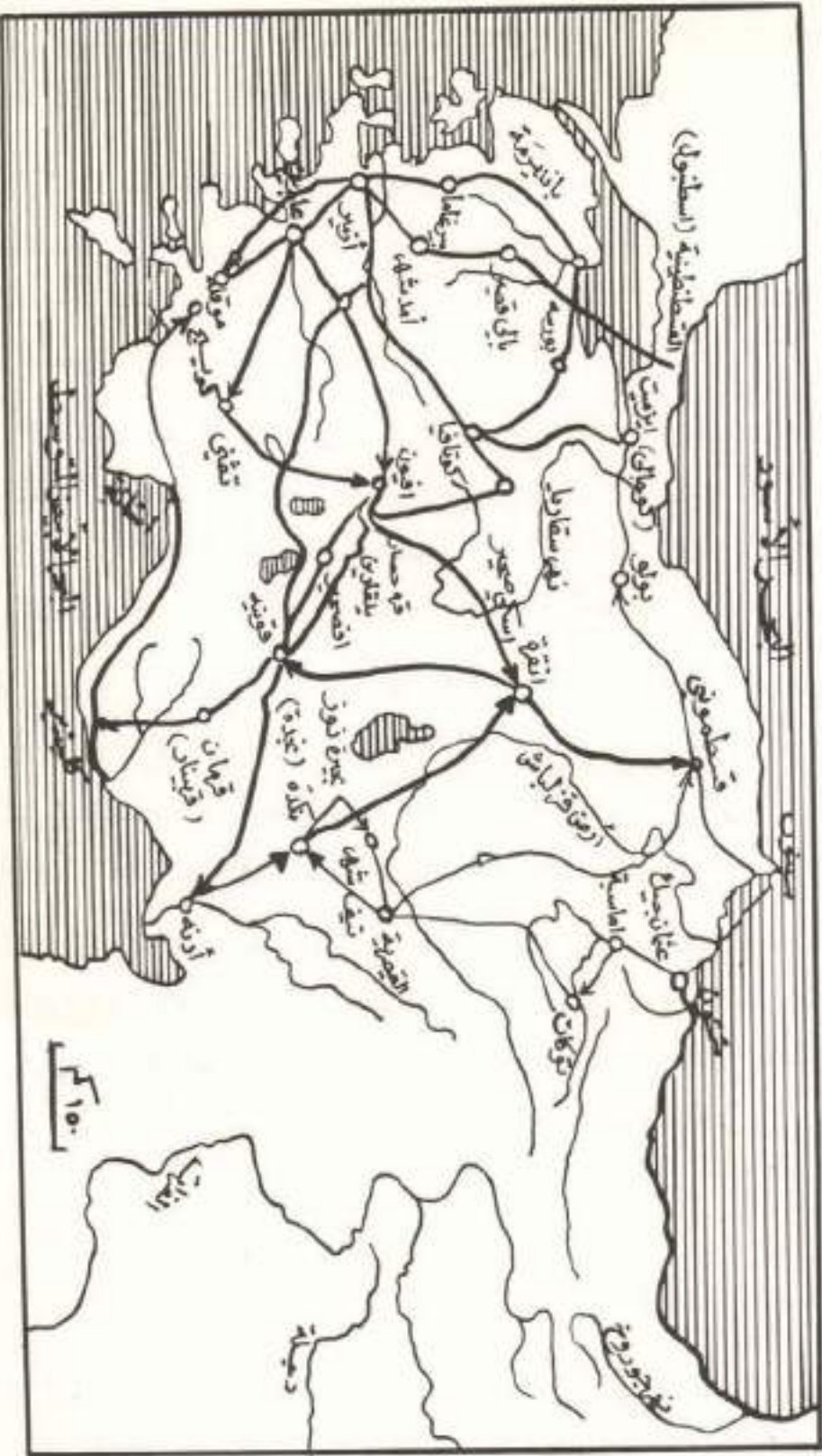
وأخيراً أوحى الرحلة التي قام بها إلى بلدان الشرق الأوسط الى بريولوف أن يكتب ويرسم موضوعات وأنماطاً تجسدت فيما بعد في الصور التالية : (« الفتاة التركية وغطاء الرأس » ، « المرفأ في القسطنطينية » ، « نافورات حديقة القصر (باغجه سراي) » ، « الترك الذين يمتطون الخيول » ، « مياه الشرب في القسطنطينية » ، « موعده حب في تركيا » ، « المقبرة التركية في أسكودار » وغيرها)^(٢) .

رحلة فرونجينكو

كان ميخائيل بافلوفيتش فرونجينكو واحداً من مشاهير الرحالة الروس في القرن التاسع عشر . ولد في سنة ١٨٠١ في محافظة ماغيليشسكي من أسرة دينية . درس الابتدائية ، ثم تلقى العلم في كلية اللغات بجامعة موسكو ، وقبل أن ينهي الدراسة دخل في الخدمة العسكرية . وفي سنة ١٨٢٣ أرسل وهو برتبة ملازم ثان الى محافظة ليتوفسك - فيلينسك لإنجاز المسح التوبوغرافي . وبطلب خاص توجه في سنة ١٨٢٤ الى جامعة ديريتسك حيث استمع الى محاضرات البروفيسور المعروف ف. ي. ستروفي (فيما بعد مدير مرصد بولكوفسكي) في الجيوديسي والفلك ، ومحاضرات الأساتذة الآخرين أيضاً لمدة ثلاث سنوات . ثم درس اللغة الالمانية واللغة الانكليزية دراسة جيدة الى حد الاتقان (ودرس فيما بعد التركية ، والبولغارية ،

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .

(٢) يراجع : قائمة بأسماء مؤلفات ك . ب . بريولوف في كتاب أو . لياسكوفسكي « ك . ب . بريولوف ، موسكو ، ١٩٤٠ ؛ ويراجع أيضاً : ك . ب . بريولوف » ، تصنيف وتقديم البروفيسور ن . ك . ماشكوفسيف ، موسكو ، ١٩٥٢ ، ص ٨ .



خط و رسم خالد الخالدي

خارطة طريق م . ب . ثرو نجينكو

واليونانية القديمة والحديثة) ، وقد تحول م. ب. فرونجينكو الى متزجم ممتاز^(١) .
كتب ف. ك. بيلينسكي عن ترجمته لـ « هامليت » : « ... ان عمل فرونجينكو
جدير باحترام كبير ؛ وقد قدم الكثير في سبيل التعرف على شكسبير »^(٢) .

وبعد إكماله الدراسة في جامعة ديريتسك عاد م. ب. فرونجينكو الى
بيترسبورغ للعمل في الوزارة الحربية . أما في فترة حرب ١٨٢٨ - ١٨٢٩ وبعد
انتهاءها فكان يعمل ضمن الفرقة الجيوديسية التي قامت بمسح جيوديسي في مولداقيا ،
وإتاليا ، وبولغاريا ، وروميلي ، وصربيا .

وكان فرونجينكو قد كلف في سنة ١٨٣٣ للقيام بدراسة متقنة ودقيقة لآسيا
الصغرى وكانت العلاقات الروسية - التركية التي تكوّنت بعد توقيع معاهدة هينغار
- اسكله سي في سنة ١٨٣٣ تساعد على تسهيل هذا العمل . ولأجل تحقيق هذا
الغرض بالذات كان قد عين سكرتيراً للقنصلية العامة في سميرنا^(٣) (إزمير) .

وخلال ما يقارب الثلاث سنوات من اقامة م. ب. فرونجينكو (١٨٣٤ -
١٨٣٦) في آسيا الصغرى قام بعدد من الرحلات الى جهات وأصقاع مختلفة . بلغت
المسافات التي قطعها بصورة عامة عشرة آلاف فرسخاً ، وأما الأراضي التي ارتادها
فهي واسعة جداً تتحدد من الجهة الشرقية بخط سامسون - توكات - أدنة .

وبعد أن قطع م. ب. فرونجينكو آسيا الصغرى طولاً وعرضاً عاد الى بيتر
سبورغ في سنة ١٨٣٦ يحمل معه الشيء الكثير من المواد والمصادر والأدبيات عن البلاد
التي قام بزيارتها . وقد أنجز تقارير كثيرة مزودة بعدد هائل من الخرائط والتصاميم
والتخطيطات . ففي مقدمته لكتابه « استعراض عن آسيا الصغرى في وضعها

(١) أشهر ترجمات م. ب. فرونجينكو هي : « هامليت » (١٨٢٨) ، « ماكبيت » (١٨٣٧)
لشكسبير ؛ « مانفريد » (١٨٢٨) لبايرون ؛ « فاوست » (١٨٤٤) لڤوتته ؛ القسم الثاني من
« دزيادي » (١٨٢٩) ليشكفيش .

(٢) ف. ك. بيلينسكي ، المؤلفات ، المجلد ٢ ، دار نشر سولداينكوف ، موسكو ، ١٨٥٩ ،
ص ٢٩٢ .

(٣) « ميخائيل بافلوفيتش فرونجينكو » ، سيرة حياته وضعها أ. ف. نيكتينكو ، « مجلة وزارة
المعارف الوطنية » ، تشرين الأول ١٨٦٧ ، ص ١٧ - ٤٥ . (هناك في الملاحق مقتطفات من يومياته) .

الحالي»^(١) يقول م. ب . فرونجينكو بأن الكتاب يقوم على المبادئ التالية :

١ - استرشد بالمعلومات التي استطاع الحصول عليها هو نفسه أو نتيجة البحث والسؤال فقط ، ولم يستمد أو يقتبس أي شيء من الكتب المدونة عن آسيا الصغرى القديمة منها والجديدة . . .

٢ - درس ودقق في المنظر الخارجي للأرض : الجبال ، والسهول ، والمياه ؛ وكذلك في محاصيل وإنتاج المنطقة ، أياً كان نوع هذه المحاصيل والإنتاج ، وقد تناول كل هذه الأمور في الناحية الجغرافية والاحصائية فقط ، ولم يدخل في أي نقاش من وجهة نظر الطبيعة التكوينية أو التاريخ الطبيعي .

٣ - وكتب عن الشعوب التي تسكن آسيا الصغرى من حيث (منازلهم ، وحياتهم البيئية ، وأعمالهم ، وتجارتهم ، وعن الإدارة أيضاً) على أساس حالتها في الوقت الحاضر .

كما ونرى بأن م. ب . فرونجينكو لم يضع لنفسه أية خطة تستهدف القيام بدراسة جيولوجية ، وزبولوجية (علم الحيوان) ، وأثرية ، أو عن تاريخ المنطقة .

ويتألف الكتاب عموماً من قسمين ، يضمان سبعة فصول . ففي الفصل الأول يرد وصف الأراضي ، وحدودها ، والشواطئ البحرية ، والجبال ، والسهول ، والأنهار ، والبحيرات ، والمياه المعدنية ، والمناخ ، أي انه يقدم بتفصيل وبشكل جيد عرضاً للوضع الجغرافي الطبيعي . وفي الفصل الثاني يصف « منتجات » المنطقة . وهو في الواقع عرض دقيق للوضع الإقتصادي الجغرافي . وفي الفصل الثالث ينظر في مسألة السكان وظروف السكن . وفي الفصل الرابع يصف أوضاع المواطنين في البلاد . أما القسم الثاني (الفصل السادس والفصل السابع) فقد ورد فيه وصف للمدن ، والعلاقات بين شعوب آسيا الصغرى ، وخصائص الفلاحة والزراعة ، ومميزات الصناعة والتجارة . هذا ويقول ن. ك . جيرنيشيفسكي عن كتاب م. ب .

(١) نشرات المركز الحربي - التوبوغرافي ، القسم ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٢٨ ، القسم ٥ ، ١٨٤٠ . وقد الحق بالاستعراض دفتر الملاحظات الفلكية في آسيا الصغرى . صدر الكتاب في سنة ١٨٣٩ - ١٨٤٠ بشكل مستقل بنفس الاسم وببعض الحرفين الأولين من اسم المؤلف ولقبه (م . ق .)

فرونجينكو : « كان بإمكان العمل العظيم لفرونجينكو ان يكون إنجازاً أساسياً في الأدبيات الغنية جداً ، غير أن المؤلف يتكلم عن الوضع الحالي فقط في آسيا الصغرى ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، وهذا أكثر أهمية ، ان العمل كتب بهدف جمع مواد ومراجع غنية للعلماء المختصين ، وليس لمطالعة الجمهور الواسع أبداً ، ولهذا السبب أعطى السيد فرونجينكو لكتابه هذا طابعاً من شأنه أن يضيفه الى ما يسمى Handbuch'ov (*) الصعبة المنال للقارئ الاعتيادي . . . وان السيد فرونجينكو حينما يسرد المعلومات (عن عادات وتقاليد الشعوب) خلال عدد من فصول كتابه يثبت بأنه يتمتع بموهبة عظيمة كراوى ، إلا أنه يفضل بحق الأسلوب العلمي الجاف الذي منحه الطاقة والإمكانية أن لا يغض الطرف عن تفاصيل حتى وإن كانت صغيرة للقارئ ، غير انها شيء جوهرى للدراسات الجغرافية المتكاملة » (١) .

ويقول الأكاديمي ل . س . بيرك (٢) بأن م . پ . فرونجينكو كان يهتم بالقضايا الجغرافية بحماس ، وقد كان أحد مؤسسي الجمعية الجغرافية الروسية في سنة ١٨٤٥ مع آخرين كثيرين ، وهم وجوه جغرافية شهيرة ومعروفة بصورة جيدة في تاريخ الجغرافية في بلادنا .

ومن الأهمية بمكان أن نقف بايجاز عند كتاب م . پ . فرونجينكو . ففي مقدمة كتابه يقول :

« لا شك أن البقاء في المنطقة لمدة سنتين لا تكفي لدراسة عادات ، وتقاليد ، وشؤون الحياة اليومية للسكان بشكل مفصل ودقيق ، وبالإضافة الى ذلك ، ان الحياة الخاصة التي يميناها الترك لا تكون في متناول الأجنبي دائماً ، غير انها ليست في وضع لا يمكن اختراقها كما يتوهم الكثيرون من الذين كتبوا في هذا الموضوع . . . » (٣) .

وأن المعلومات عن آسيا الصغرى لها أهميتها الكبيرة وهي قيمة وثمينة جداً ،

(*) أي الكتاب الأساس أو المرجع أو المصدر (المترجم) .

(١) ن . گ . جيريشيفسكي ، مجموعة المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢ ، ص ٥٣٧ .

(٢) ل . س . بيرك ، الجمعية الجغرافية لعموم الاتحاد السوفياتي في مائة سنة ، موسكو - لينينغراد ،

١٩٤٦ ، ص ٣٧ - ٣٩ .

(٣) « نشرات المركز الحربى - التوبوغرافى » ، القسم ٣ ، ص ١٥ .

وخصوصاً ما جمعها الرحالة بصورة مباشرة في أماكنها . وقد دخلت انطباعات وملاحظات سائحا الشخصية في بناء وصف الخلق ، ومميزات العادات والتقاليد ، والحياة اليومية للسكان .

وفي القسم الأول من الكتاب يقدم وصفاً شاملاً لدور السكن في المدينة والريف ، ويشير الى اختلاف دور المسلمين عن دور المسيحيين واليهود . وتبنى الدور من مواد البناء المختلفة حسب تباين المكان والمناطق ، لذلك تبنى الدور في شواطئ البحر الأسود من الأخشاب ، وأما في المناطق التي لا وجود للغابات فيها فتبنى الدور من الطابوق المصنوع من الطين والأحجار . وفي بعض المناطق الأخرى كالقيصرية ، ونوشهر ، فالمساكن عبارة عن كهوف محفورة في الصخور ، وقد تبنى جدران جنبها ، أو أمامها . أما البناء الداخلي للمساكن المبنية من الأخشاب في المناطق المركزية لآسيا الوسطى فهو بسيط جداً . هناك غرفتان عادة ، واحدة للرجال ، والأخرى للنساء .

ويصف فرونجينكو الخانات ، والمقاهي ، والمساجد ، والسجون ، والأسواق ، والحمامات ، وصالونات الحلاقة ، وبنيات المدينة ، وتوزيع المياه ، والتدفئة . ويشير الى أن توزيع السكان في آسيا الصغرى ليس بمستوى متساو أو متكافئ : هناك أماكن مزدحمة وملیئة بالقرى ، تقابلها مساحات شاسعة لا وجود للناس فيها تقريباً^(١) .

ونجد في فصل « التكوين السكاني » ملاحظات طريفة : « تتباين طائفتان من السكان بشكل جوهري ، في المدن الكبيرة والصغيرة في آسيا الصغرى كما هي الحال في جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية وهما : الحاكمون والمحكومون ، ينتمي كل انسان الى هذه الطائفة أو تلك بحكم الواقع ، بغض النظر عن انحداره وأصله ، أو عقيدته ، أو ثروته . وبطبيعة الحال يمكن وجود هذا التقسيم في جميع البلدان الأخرى أيضاً ، إلا أن الطبقة في تركيا ليست من مظاهر الوجاهة أو الرفعة فقط ، وإنما يملك الحاكمون من جانبهم حقوقاً ومنافع وأفضلية ، بشكل يمتزج المحكومون في فئة واحدة تنقسم الى فئات أصغر تقف مثلها امام الحاكمين بدون شعور بالمسؤولية وتابعة الى

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

اضطهادهم وتعسفهم^(١) .

ويشير فرونجينكو الى نظام الضرائب الذي يسبب هلاك السكان : « من الصعوبة جداً تعداد جميع أنواع الضرائب التي تجبى من مختلف الفئات والطبقات ، فهي متنوعة ومتباينة ، وعلى الرغم من أن كل ضريبة لوحدتها ليست باهظة ، غير أن الضرائب مجتمعة تشكل مبلغاً كبيراً ، ولكن حتى هذا المبلغ ما كان سيصبح مرهقاً للسكان ان لم يزيده باضافات عديدة ، والكثير منها يسمونه موقتاً ولكنه مع ذلك يتكرر دون انقطاع ولأكثر من مرة في السنة الواحدة^(٢) » . « ان المزارعين الموسرين قليلون جداً ، وعددهم ينقص باستمرار وذلك بسبب ارتفاع مبالغ الضرائب . والأغلبية الساحقة منهم تعيش حياة الفقر والفاقة ، وهم قانعون بالغذاء الزهيد جداً ، ويكاد يصعب عليهم الحصول على الملابس الكافية لتغطية عريهم . ويصل نهب الوكلاء الى حد يفرضون فيه الضرائب على أنواع مختلفة من السلع والمواد الغذائية يقبضونها بشكل عيني أو نقدي ، وتؤدي هذه الحالة بالقرويين إلى الفقر المدقع ، لذلك يضطر كثير من الأسر الى ترك بيوتها ، ويتشرد كل فلاح إلى المكان الذي يأمل أن يجد فيه العيش محتملاً ، وهكذا يقل عدد سكان القرية وأحياناً تصبح خالية تماماً . وبهذه الصورة يكثر عدد الفقراء يوماً بعد يوم وتزداد الفاقة بالتدرج^(٣) » .

وفي القسم الثاني من « الاستعراض »^(٤) يرد بشكل مفصل وشامل وصف المدن والقصبات ، والتجارة الداخلية والخارجية ، ووضع الطرق ، والآثار القديمة ، ويتحدث فرونجينكو المواقع والمناظر الخارجية لأكثر من ثلاثين مدينة ، وعن عدد البرك وأحواض المياه ، ونظام توزيع المياه .

ومن الممكن أن نستنتج من وصف المدن بصورة خاصة بأن الوضع الصناعي كان متدهوراً في الثلاثينيات من القرن الماضي في عدد من مناطق البلاد .

ويتناول وضع الفلاحين بالتحليل ، ويذكر بأن العمل الأساسي عندهم هو

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .

(٤) نشرات المركز الحربي - التوبوغرافي ، القسم ٥ .

الرعي . وفي بعض الأحوال يقدم شيئاً من المعلومات عن إنتاج بعض السلع والمحاصيل الزراعية .

وفي فصل « العلاقات الاجتماعية والحياة اليومية لسكان آسيا الصغرى » يقدم صوراً من الوصف عن قوميات آسيا الصغرى ، وهي تتناول بصورة خاصة المميزات الدينية ، والحياة الاجتماعية ، ونمط الحياة ، والملابس ، والمأكولات ، والعلاقات بين الترك ، والتركمان ، والكرد ، والعرب ، واليونانيين ، والأرمن ، والأوروبيين ، واليهود ، والغجر .

ويشير فرونجينكو بأن الناس الأغنياء فقط يتزوجون بأكثر من امرأة واحدة ، ولا يوجد تقريباً من تزوج بأربع نساء ، أما الناس البسطاء الاعتياديين فيكتفون بزوجة واحدة . ويحدث أحياناً في المدن أن يتزوج التركي بالمسيحية ، أما زواج المسيحي بالمسلمة فعقوبته الموت .

وهناك فصل خاص بعنوان « الزراعة ، والصناعة ، والتجارة » ، وهو عبارة عن بحث في اقتصاد البلاد : « ان آسيا الصغرى ليست من البلدان التي تمتلك معامل المنسوجات ، غير أن السكان انفسهم يقومون بتهيئة بعض المنتجات الضرورية للحياة البيتية . . . وسكان آسيا الصغرى بالاضافة الى ذلك يستعملون الخبز الذي ينتجونه بأنفسهم ، ومن بين جميع المواد التي يستعملونها في الغذاء لا يستوردون إلا الكافيار ، وزبد البقر ، والتمر ، والبن ، والسكر ، والتوابل ، وربما بعض الأشياء الأخرى القليلة . وأما بقية الأشياء فهي عطاء الطبيعة في المنطقة نفسها بمساعدة كبيرة أو صغيرة لجهود الانسان » (١) .

ومن الضروري هنا أيضاً ذكر وصف أدوات الزراعة : « المحراث عندهم عبارة عن شيء مصقول من جذع شجرة ، وقد ربط بغصن قوي معقوف فيه كعب مقلطح من الحديد » (٢) .

ويعدد البضائع والسلع الصناعية التي تصنع في آسيا الصغرى ، منها :

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٩ .

الجفناص الحشن الذي يستعمله الناس لصنع القمصان والملابس الداخلية ،
والقمصان الحريرية (من بروسة) ، وأقمشة للعلماء ، وأغطية للرأس ، والمناديل
(من الغزل المستورد) . وتصنع الأقمشة القطنية الحشنة في قسطنطيني ، واكبر
دره ، وكاسبه ، ويصنعون الجوخ أيضاً إلا أنه حشن « وهو من أبدأ الأنواع » ،
وينسجون كذلك البسط الصوفية ، « والأحذية الجلدية التي يلبسها سكان آسيا
الصغرى هي من صنعهم . . . » .

وفي فصل « منتوجات المنطقة » يتكلم عن الموارد الطبيعية في البلاد : الثروات
الطبيعية المفيدة (الفضة ، والرصاص ، والنحاس ، والملح ، ونباتات البوتاسيوم ،
والمرمر) ، والنباتات ، وعالم الحيوان (١) .

« أما ما يتعلق بالنباتات المزروعة وقابلية الأرض للزراعة والفلاحة ، فما عدا
المناطق الصخرية ينبغي تسمية الأراضي بالصحراء القاحلة غير المثمرة ، كما هي الحال
في الأماكن التي تحيط بالبحيرة المالحة قوجه - كيساري الكبيرة ، والبقية كلها من الممكن
أن تمنح جهود الفلاح النعم ، بالرغم من أنه يكون على درجات ومستويات متباينة ،
لأن نوعية المناخ وسهولة أو صعوبة الري الإصطناعي لتوزيع المياه على الحقول ، كل
ذلك يتحكم في كمية المحصول » (٢) .

ويصف المؤلف أوضاع الغابات (حسب المناطق ونوع الغابة) والصناعات
التي تعتمد على الأخشاب ؛ ويعدد بشكل مفصل المناطق التي ينمو فيها التين ،
والجوز ، والكستناء ، والتوت ؛ والفواكه المتنوعة : التمور ، والزيتون ،
والأعناب ؛ والكتان ، والزهور ، والحبوب ، والقطن ، والخضار .

أما في فصل « الموقع » فإن ثرونجينكو لا يصف مناخ آسيا الصغرى فقط ،
وإنما يوزع المناطق حسب مناخها ثم يقوم بالوصف مشيراً فيه إلى الخصائص التي تمتاز
بها كل منطقة وتختلف عن الأخرى . فهو يقسم شبه جزيرة آسيا الصغرى إلى خمسة
أقسام ، ليس على أساس القطاعات وإنما على أساس علو المكان ووضعه بالنسبة إلى

(١) « نشرات المركز الحربي - التوبوغرافي » ، القسم ٣ ، ص ١٣٣ - ١٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

الجبل والبحر :

- (أ) الساحل الجنوبي .
- (ب) الساحل الغربي .
- (ج) الساحل الشمالي .
- (د) الاقليم الأوسط العالي .
- (هـ) قمم الجبال .

وأخيراً ان كتاب السائح الجيوديسي م . ب . فرونجينكو عبارة عن حصيلة للانطباعات والملاحظات والاستنتاجات الشخصية الخاصة ، لذلك كانت لهذه الميزة أثرها الكبير في تحديد أهمية الكتاب ليس للحقبة التي صدر فيها وإنما لعصرنا الحاضر أيضاً ، وهو يُقرأ بدون شك باهتمام لا يقترب منه السأم ، وهو بالتالي مصدر لا يقدر بثمن لدراسة آسيا الصغرى في فترة الثلاثينيات في القرن الماضي .

رحلة بازيلى

يعتبر عمل الدبلوماسي والكاتب كونستانتين ميخائيلوفيتش بازيلى أثمن وأهم مصدر لوصف تركيا في منتصف القرن الماضي . قضى الكاتب طفولته في مدينة القسطنطينية . وتلقى التعليم في روسيا حيث درس مع ن . ف . گوگول في مدرسة نيژنى . وقد أشغل بازيلى منذ سنة ١٨٣٠ وحتى سنة ١٨٣٣ منصب السكرتارية في القسم الدبلوماسي التابع للاميرال ريكورد قائد الاسطول الروسي في المياه اليونانية ، وفي سنة ١٨٣٩ وحتى سنة ١٨٥٣ أشغل منصب القنصلية ، وفيما بعد عين قنصلاً عاماً في سوريا وفلسطين ؛ وعاش مدة طويلة في بيروت وفي مدينة القدس .

كتب ف . ك . بيلينسكي عن كتاب بازيلى « مقالات عن القسطنطينية » :
« ان أهميتها الأساسية تنحصر بدون شك في أنها تُقرأ باهتمام ، ولا ينتاب الملل والغضب القارىء ولو لحظة واحدة . وهو لا يقدم لنا على العموم أي شيء جديد أو غير واضح وغامض ، إلا أنه يجعل من القديم جديداً كما هو الحال عند المشاهد الذي يعيش الأحداث . . . واننا لا نلتقي في كتابه بالهيكل العظمي النحيف الجاف فحسب وإنما نشاهد تركيا الحية بتعصبها الذي ما زال رغم انطفائه يشتعل من حين لآخر .

وكذلك جهلها ، والنظام البربري ، وصراع القديم مع الجديد ، والخرافة مع الإصلاح ، وأخيراً محمود العجيب الذي يحكمها ، هكذا ينظر كتاب السيد بازيل اليه من وجهة نظره هو طبعاً «^(١)» .

ولقد تعرف ن . ف . گوگول على عمل بازيل « سوريا وفلسطين » في فترة وجوده في فلسطين سنة ١٨٤٨ ، وقد علق بأن : « بازيل كتب شيئاً عجيباً ، وهو يقدم الشرق بشكله الحقيقي الواقعي الى أوروبا . . . وان معارفه غزيرة ، ومهمة ، ومثينة ، أنا لا أعرف أي كتاب آخر يستطيع أن يقدم المعارف الى القراء عن واقع المنطقة بهذا القدر »^(٢) .

وأما كتاب ك . م . بازيل « الأرخبيل واليونان »^(٣) فهو مكرس أساساً لليونان في فترة حكم الكونت كاهوديستري . ويحتل وصف طبيعة الأرخبيل ، والقسم الساحلي لآسيا الصغرى ، والحياة اليومية للسكان مكاناً كبيراً فيه .

ويعصور كذلك بوضوح التجازة الرائجة في سميرنا ، ويقول بازيل بهذا الصدد : « شاهدت سميرنا في شهر آب ، كان النشاط التجاري في المدينة في أوجه . تنضج الكروم والأعناق المستخدمة للخمور في شهر آب ، وهي ترسل من جميع ضواحي سميرنا ، وينتظرنا عدد كبير من السفن في المرفأ . . . ويعمل جميع سكان المدينة في شهر آب في أمور الأعناق . يبيعونها ، ويشترونها ، ويحفظونها في العلب ، ويشحنونها . وتجري كل هذه الأعمال مصحوبة بالنقاش والمشاحنة ، والصياح والضجيج ، والمهرج والمرج الذي لا يطاق . . .

والناس هنا خليط ، قدموا من جميع أنحاء الكرة الأرضية . . . فالتجارة ، والمال ، والمصالح قربت الهندي من البخاري ، والسويدي من الجزائري في زاوية

(١) في . ك . بيلينسكي ، مجموعة المؤلفات الكاملة ، نشرها س . أ . فينكيروفه ، المجلد ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٠ ، ص ٤٤٦ .

(٢) مؤلفات ورسائل ن . ف . گوگول ، المجلد ٦ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٧ ، ص ٤٥٣ .

(٣) ك . بازيل ، الأرخبيل واليونان في سنتي ١٨٣٠ و ١٨٣١ ، القسم ١ و ٢ ، سانت بيترسبورغ ،

من زوايا آسيا الصغرى . . . ولا شك بأن السفن الأميركية تغص بالحريير والشال
الفارسي والسجاد التركي»^(١) .

وصل بازيلى إلى القسطنطينية قادماً من الأرخييل بعد انتهاء الحرب التركية -
المصرية الأولى مباشرة . وبعد عدة أيام من قدوم بازيلى كان الأسطول الروسي قد
ترك القسطنطينية .

وفي كتاب « مقالات عن القسطنطينية »^(٢) نجد معلومات عن واقع المدن ،
والحريم ، وحفلات الزواج ، وسوق العبيد ، والأسواق العامة .

وفي مقدمته لكتاب آخر « البوسفور ومقالات جديدة عن القسطنطينية » يشير
بازيلى إلى أنه : « لقد قيل عن تركيا الكثير من الهراء بحيث يصعب على الخيال مهما
كان قوياً أن يميز بماذا يصدق ، ، وإنما كأقرب جار مع الترك ، ينبغي أن نعلم أخباراً
كثيرة جداً عنهم وان يكون لدينا تجاههم الحزم الكثير ، والصراحة الكثيرة ،
والوضوح الكثير»^(٣) .

وبالإضافة إلى الصور الحية للحياة إننا نجد في الكتاب معلومات غير قليلة عن
الطبيعة ، والاقتصاد ، والحياة الاجتماعية ، والتجارة . وهناك في الكتاب كما يقول
بازيلى نفسه « عن طريق المصادفة اتحد الوصف ، والحدث ، والرواية ،
والمذكرات ، والانطباعات في إطار واحد » .

وفي هذا العمل تناول بازيلى مسألة التيارين الموجودين في البوسفور : من
البحر الأسود إلى بحر مرمرة ، ومن بحر مرمرة إلى البحر الأسود . يطرح بازيلى آراء
مارسيل ، ويسرد تاريخ دراسة المسألة منذ القرن السابع عشر . ومن المعلوم بهذا
الشان أنه بعد مرور خمسين سنة كانت المسألة قد حلت على يد س . أو .

(١) المصدر السابق ، القسم ١ ، ص ٦٣ - ٦٦ .

(٢) ك . بازيلى ، مقالات عن القسطنطينية ، القسم ١ ، ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٣٥ .

(٣) ك . بازيلى ، البوسفور ومقالات جديدة عن القسطنطينية ، القسم ١ ، سانت بيترسبورغ ،

١٨٣٦ ، ص ٣ .

ماكاروف^(١) .

ويصف بازيلى الطرق المتباينة لصيد الأسماك فى البوسفور والسواحل الأخرى التى تصطاد فيها الأسماك والتى تقع فى الأماكن الضحلة التى تكون منازل لصيادى الأسماك . ويقوم الصيادون ببنائها فى مضائق البوسفور أما على هيئة أكواخ مصغرة ، أو بشكل السلال الموضوعة على سارية عالية .

كما ويتكلم بازيلى عن الوضع التجارى : « إن التجارة الخارجية بأجمعها هي فى أيدي الأجانب ، وإن تسعة أعشار التجارة الداخلية هي فى أيدي اليونانيين والشعوب الأخرى الخاضعة للدولة العثمانية ، أما عمليات تداول العملة النقدية فهي فى أيدي الأرمن واليهود »^(٢) .

وعن الزراعة والفلاحة يوضح بازيلى ، بأن درس محصول الحبوب يتم بمساعدة « لوحة خشبية ثبتت فى قسمها الأسفل بشكل متين أسنان سيلكونية » . ويقرر المؤلف بأسف « بأن ثقل العبودية على الفلاحين فى تركيا هو أكثر مما على الرعاة . وإن الزراعة بقيت تقريباً فى نفس المستوى من التطور الذى كانت عليه فى أيام قسطنطين الكبير » . ويصف بازيلى بتفصيل نظام تزويد العاصمة بالحبوب ، ويتكلم عن التعسف الذى يرافقه ويحول « هذه العملية إلى ضرائب ثقيلة جداً للمنطقة ، وإلى وبال على الزراعة فى جميع أنحاء الأمبراطورية »^(٣) .

ويعزو بازيلى الوضع السيء للفلاحين إلى الضريبة المفروضة على الحبوب . إنه لا يرى الأسباب الحقيقية لإفلاس الفلاحين التى تنبع من نظام ملكية الأرض الإقطاعي . كذلك بجانب بازيلى الصواب حين يؤكد بأنه فى ضواحي العاصمة « لم تدهشه تلك الصور المحزنة للفقر والاضطهاد التى تظهر للسائح بشكل أبشع فى الباشالقات كلما كانت تلك الباشالقات أبعد عن مركز الأمبراطورية . فهنا يكون

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

(٢) ك . بازيلى ، البوسفور ومقالات جديدة عن القسطنطينية ، القسم ٢ ، ص ٩ - ١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٩ .

صولجان السلطان مسلطاً على الجميع بالتساوي لكن الاستبداد الآسيوي يصبح أعنف كلما استطاع أن يمد يده أبعد وكل باشا ، أو بك ، أو آغا ، كل هؤلاء الأوباش من صغار الطغاة الذين يتحكمون بمصائر الناس البسطاء يستسلمون لنزواتهم الوحشية بشكل أسهل كلما ضعفت إمكانية وصول صوت شكاوى الشعب إلى أسماع السلطان»^(١). وهكذا لم يستطع بازيلى بسبب ضيق أفقه الطبقي أن يفهم بأن السلطان نفسه يقف على رأس هذه القمة المستغلة .

وبحكم كون بازيلى قنصلاً وقنصلاً عاماً في سوريا وفلسطين استطاع أن يدرس هذه البلدان والشعوب التي تسكنها ، وقد كتب عنهم في كتابه الآخر^(٢) .

وبخلاف كتاب لامارتين ، الشاعر الفرنسي ، والشخصية السياسية الذي زار الشرق في نفس السنوات تقريباً (١٨٣٢ - ١٨٣٣) ، فإن كتاب بازيلى يخلو من كثير من التلفيقات ، والأمزجة الدينية ، والمذهبية . وإذا ما تجاوزنا الدراسة الموجزة عن تاريخ سوريا منذ أيام الفتح العربي ، فإن الكتاب يعكس تماماً تاريخ سوريا منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتى نهاية الأربعينيات للقرن التاسع عشر . وقد دون الكتاب عموماً في ضوء المواد التي جمعها المؤلف في مواقع الرحلة ، وأضاف إليها انطباعاته الخاصة . والكتاب يشكل مصدراً مهماً من تاريخ الحرب التركية - المصرية الثانية ، ويصف الوضع في البلاد بعد إعادة السلطة العثمانية إلى سوريا وتصفية الحكم المصري فيها .

ويرفض بازيلى بشكل قاطع النزاع الديني كسبب للصراع بعد أن شاهد بصورة مباشرة الصراع بين الطوائف المختلفة في لبنان ، ويشير بهذا الصدد إلى أنه «بالإضافة إلى العناصر الداخلية التي تسبب الخصومة بين أهم طائفتين في لبنان ، فقد لحق بها عنصر خارجي يبتند على التنافس الدائم بين دولتين غريبتين»^(٣) .

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) ك . بازيلى ، سوريا وفلسطين تحت الحكم التركي ، القسم ١ و ٢ ، أوديسا ، ١٨٦٢ .

(٣) المصدر السابق ، القسم ٢ ، ص ٥١ .

فالانكليز يساندون الدروز^(١) ، والفرنسيون يساندون المارونيين .

ويشير بازيبي بوجه خاص إلى دسائس ومكائيد المبشرين الأميركيين . « الذين استقروا في بيروت منذ أكثر من خمس عشرة سنة قبل الآن ، وإنهم بدلاً عن أن يقوموا بنشر الدعوة المسيحية بين غير المؤمنين ، كما يجب أن يقوم به المبشرون ، فقد بذروا الخصومة والخلاف في الكنائس المسيحية فقط . . . وفي الشرق حيث يؤمن الناس بالدين بشكل عام وهم متدينون ، ولا يميزون بين الأميركيين والانكليز ، فإن المبشرين استغلوا هذه الظاهرة ليكسبوا نفوذاً جديداً في عبون الشعب بشأن تدخل انكلترا في شؤون سوريا »^(٢) . وإن الضباط الانكليز و« بأمل تقويض النفوذ السياسي الفرنسي الذي يستند على إخلاص المارونيين لهم وهم على مذهب واحد ، شرعوا مع المبشرين الأميركيين يتجولون في الجبال »^(٣) .

والمعروف أن دور المبشرين الأميركيين لم يكن مادة للدراسة من قبل الباحثين عن تاريخ هذه الفترة .

وإن ما تسمى بـ « ملاحظات إحصائية عن القبائل السورية وحكمهم الديني » له أهمية كبيرة . فقد وردت فيها معلومات عن عدد السكان ، والوضع الاقتصادي ، والعلاقة بين القبائل ، وإسكانها وإدارتها . وطرحت فيها أيضاً معلومات عن البدو ، والكرد ، والتركمان ، وسكان الجبال ، والحضر من سكان السهول . ويعالج المؤلف القضايا الدينية أيضاً ، فيكتب عن المسلمين ، والمسيحيين ، واليهود . وفي ملاحظاته يورد معلومات عن ميزانية باشا القصر ، مصر ، وباشا القصر سوريا ، ويقدم وصفاً للزراعة ، والاقتصاد ، وحياة السكان اليومية .

(١) الدروز : جزء من سكان سوريا ولبنان ، وهم من أنصار أحد المذاهب الشيعية المتطرفة المتفرعة من الإسماعيلية (يراجع : س . أ . بيلبايثف ، المذاهب الإسلامية ، موسكو ، ١٩٥٧ ؛ الموسوعة التاريخية السوفياتية ، المجلد ٥ ، ص ٣٨٧) .

(٢) ك . بازيبي ، سوريا وفلسطين تحت الحكم التركي ، القسم ٢ ، ص ٤٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٦ .

رحلة فسيقولوجسكي

كانت مذكرات ن. س. فسيقولوجسكي (١٧٧٢ - ١٨٥٧) الرحال والمؤرخ والكاتب^(١) قد جلبت انتباه جمهور القراء بخفتها وعباراتها الزاهرة الرشيقة في حينه ، وهي في الحقيقة بخلاف عمل بازيلي المستند على دراسة مطولة لبلدان الشرق تتألف من صور سطحية فقط^(٢) .

بدأ فسيقولوجسكي برحلته في سنتي ١٨٣٦ - ١٨٣٧ عن عمر يناهز الرابعة والستين . ويقول عن الغرض في القيام برحلته : « أثارت الأوضاع في الأمبراطورية العثمانية ، ابتداءً من التغييرات التي أحدثها السلطان الحالي ، وانتهاءً بانفصال مصر وسوريا عندي الفضول بشكل قوي . فأردت أن أكتشف هذا اللغز في موقع الأحداث ، ولم أستند لا على حكايات الصحفيين ، ولا على الآراء التي كانت تسمع من مكاتب الوزراء الأوروبيين لذلك قررت أن أثبت بنفسني عما يمكن انتظاره من هؤلاء »^(٣) .

وهكذا زار فسيقولوجسكي القسطنطينية ، وبيروسة ، وبعض المواقع على شواطئ بحر إيجه ، والأرخييل ، وبنغازي في أفريقيا .

ويصف المؤلف بطرافة شوارع القسطنطينية التي كان يشاهدها من نوافذ فندقه : « أرى أمامي يتزاحم الناس وهم من مختلف القبائل والشعوب ، أشاهد الترك بزيمهم العسكري ، وملابسهم القديمة ، وعمائمهم ؛ والأرمن بقبعاتهم الكبيرة ، واليونانيين ، والأوروبيين . . . وأخيراً هناك النساء ، إنهن مغطيات بشكل لا يمكن معرفة انتائهن القومي إلا من لون أحذيتهن . وها هي العربات (وهي

(١) مصادر معجم الكتاب الروسي ، جمع س. أ. فينكبروف ، المجلد ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٠ ، ص ٦٥٨ - ٦٥٩ .

(٢) ن. س. فسيقولوجسكي ، رحلة عن طريق روسيا الجنوبية والقرم وأوديسا ، إلى القسطنطينية ، وآسيا الصغرى ، وأفريقيا الشمالية ، ومالطا ، وصقليليا ، وإيطاليا ، وفرنسا الجنوبية ، وباريس ، المجلد ١ و ٢ ، موسكو ، ١٨٣٩ (فيما بعد : رحلة عن طريق روسيا الجنوبية) .

(٣) المصدر السابق ، المجلد ١ ، ص ٣ .

من عربات النقل التي لها سقف (يجرها طاقم من الثيران ، وهي مزركشة بالأشرطة والأوشحة ، أو مزينة بقصاصات من الجوخ والأجراس . وهذه هي مركبة السيدات التركيات . ثم الجمال وصفوف من الحمير وهي تحمل قرب المياه أو الحطب ؛ كانت كل هذه الأشياء تجتمع في شوارع ضيقة لا تتسع لهذا الازدحام ، وكان كل شيء يدفع ما بجواره . وبالإضافة إلى ذلك كان قطعان من الكلاب القبيحة الجائعة تتجول بين هؤلاء الناس ، ولا أحد يقتلها ،^(١) .

وفي بروسة تسلق فسيقولوژسكي على جبل أوليمب^(٢) ، ثم زار أطلال وخرائب طروادة .

وعندما زار فسيقولوژسكي كورينف وميكينا في اليونان في طريقة إلى مالطا كانت العواصف قد جرفته إلى شواطئ أفريقيا إلى بنغازي .

« تقع بنغازي في أقصى زاوية من صحراء البربر الرملية . والبدو وغالباً ما يرحلون إلى هنا للمتاجرة مع السفن القادمة من مالطا وجينوه . وهم ينتظرون أصحاب السفن بفارغ الصبر ، يبيعون الثيران ، والجلود ، وكميات كبيرة من وبر الجمال ، ويتلقون بالمقابل البارود ، والرصاص ، ومقادير غير قليلة من الجوخ السميك ، والبضائع الدقيقة ، ومختلف أنواع الأمتعة والحاجيات الأخرى اللازمة للتسليح ، وبالإضافة إلى ذلك كميات كثيرة من الطحين والغلل^(٣) .

وانتهز فسيقولوژسكي فرصة وجوده في بنغازي ، فزار مضارب البدو ، وكانت تقع على بعد مسيرة خمس ساعات من المدينة على الجمال في واحة صغيرة . ويحتل وصف الاستقبال الحافل بالاحترام والضيافة عند الشيخ مكاناً مهماً وممتعاً ورائعاً في الكتاب^(٤) .

وكان لكتاب فسيقولوژسكي صدى إيجابياً عند ن . ك . جيرنيشيفسكي .

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) جبال أوليمب تقع بالقرب من بروسة ، وهي غير الجبال المعروفة في اليونان على شاطئ خليج

سالونكي التي تحمل نفس الاسم .

(٣) ن . س . فسيقولوژسكي ، رحلة عن طريق روسيا الجنوبية ، المجلد ١ ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٠٣ - ٤١٨ .

التسلق على جبال آارات (آكري داغ)

قام أستاذ الفيزياء في جامعة ديربت فريدريك باروت في سنة ١٨٢٩ بالتسلق على جبال آارات بالاشتراك مع مجموعة من العلماء الشباب العاملين في جامعة ديربت أيضاً من أمثال : ادلير سكرون ، وغانك ، وشيان ، وفيودوروف (الفلكي تلميذ ف . ي . ستروفي) .

لقد كانت تلك أول عملية تسلق لهذه القمة التي كانت تعتبر حتى ذلك الوقت من القمم المنيعه . ويسجل المؤلف بهذه المناسبة إنطباعاته عن الرحلة في جورجيا وأرمينيا ، وتسلفه جبال آارات ، وملاحظاته عن الكرد والنسطوريين في كتابه^(١) المنشور في سنة ١٨٣٤ .

وفي نفس السنة ١٨٣٤ التي صدر فيها هذا الكتاب صعد على آارات سياسكي أيضاً ، وفي سنة ١٨٣٥ تسلق الجبل كارل بيرينس ، أما في سنة ١٨٤٨ فكان التسلق من نصيب الانكليزي سيمور .

وفي آب سنة ١٨٥٠ تسلقت على جبال آارات بعثة قوامها ٦٠ شخصاً بقيادة رئيس المسح المثلي لما وراء القفقاس إ . خودزكو .

وبالإضافة إلى إنجاز الدراسات الجيوديسية فقد قامت البعثة بالأرصاد الجوي أيضاً^(٢) .

رحلة جيخاجيف

بدأ بيوتر اليكساندروفيج جيخاجيف في أواسط الثلاثينيات بدراسة تركيا . وقد وجد نشاطه مجالاً أوسع في السنوات العشرين القادمة (١٨٤٧ - ١٨٦٣) ،

(١) «Reize zum Ararat von Dr. Freidrich Parrot», Berlin, 1834.

(٢) ستينكي ، عرض لأهم الرحلات والاكتشافات الجغرافية في الخمس سنوات من ١٨٤٨ وحتى ١٨٥٣ ، المجلد ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٥ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

ولهذا السبب فقط نتخطى إلى حد ما التتابع الزمني الذي وضعناه كنهج لعرض الآراء ، وننتقل إلى التكلم عنه .

أدركت مؤلفات هذا الدارس الروسي الشهير لألتاي وآسيا الصغرى ، وأعظم سائح من بين سياح القرن التاسع عشر مصيراً فريداً من نوعه . لا شك بأن اسمه معروف بصورة جيدة ، تناولته مجموعة كبيرة من المعاجم ودوائر المعارف ، ولا زالت صورته الشخصية معلقة في أحد مصانع الجمعية الجغرافية لعموم الاتحاد السوفياتي ، غير أن الناس الذين قرأوا أعماله قليلون ليس في روسيا ما قبل الثورة فقط وإنما في الاتحاد السوفياتي أيضاً . وقد سمع الناس عنه أكثر مما قرأوا له ، وسبب ذلك يعود بالدرجة الأولى ، إلى أن ب . أ . جيخاجييف كتب باللغات الأجنبية (الفرنسية والألمانية) إلا فيما ندر ، ونشر أعماله في الخارج ، وهي لم تترجم مطلقاً إلى اللغة الروسية في فترة ما قبل الثورة ، باستثناء جزء ضئيل منها فقط^(١) .

ولهذا السبب على ما نظن كتب عنه الأكاديمي ف . ف . بارتولد : « إن كتاب جيخاجييف عن ألتاي ، أو بالأحرى جميع نشاط هذا العالم مرتبط بشكل أو ثقل بالمؤلفات العلمية الأوروبية الغربية منه بالروسية »^(٢) . ثم يستطرد قائلاً : « قام جيخاجييف في آسيا الصغرى وخلال ١٦ سنة (١٨٤٧ - ١٨٦٣) بعدد من الرحلات . . . وكانت الأعمال الواسعة لـ جيخاجييف عن آسيا الصغرى والمكرسة بالدرجة الأولى للوصف الجيولوجي للبلاد (١٨٥٣ - ١٨٦٩) قد نشرت باللغة الفرنسية وهي كبقية إنتاجات هذا العالم لا يمكن أن تعد ضمن الأدبيات العلمية الروسية »^(٣) .

وقد ورد في المعجم الانسيكلوبيدي لبروكهاوزن - بيفرون^(٤) في المادة الخاصة

(١) قائمة أعمال ب . أ . جيخاجييف ، وضعتها ن . أ . بيلوزيرسكايا ، يراجع : « أخبار الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية » ، المجلد ٢٧ ، النشرة ٦ ، ١٨٩١ ، ص ٦١٠ - ٦١٤ ؛ ف . ف . تسيولسكي ، ب . أ . جيخاجييف - الباحث والسائح ، موسكو ، ١٩٦١ .
(٢) ف . ف . بارتولد ، تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا ، الطبعة ٢ ، موسكو ، لينينغراد ، ١٩٢٥ ، ص ٢٣٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٨ .

(٤) المعجم الانسيكلوبيدي لبروكهاوزن - بيفرون ، المجلد ٣٨ ، (٧٦) ، ص ٨٨٤ . المادة



خط ورسم خالد الخالدي

خارطة رحلات ب . أ . جيمس جيف

ب . ب . أ . جيخاجيف ما يلي : « تلقى جيخاجيف ثقافته العلمية في الخارج ، ونشر جميع أعماله باللغة الفرنسية أو اللغة الألمانية ، وقضى في الخارج (الجزء الأكبر في باريس) القسم الأعظم من حياته ، لذا لا يمكن أن يُعد جيخاجيف عالماً روسياً ، ولكن العلم الروسي مدين له بالعمل المهم جداً عن جيولوجية وجغرافية ألنابي » .
 بهذه السهولة يحذف جيخاجيف من العلم الروسي ، وفي نفس الوقت لا يوجد هناك أدنى شك في عدم شرعية الادعاء بأن جيخاجيف لم يكن عالماً وسائحاً روسياً . وإن خدمات جيخاجيف وخصوصاً كعالم وسائح روسي تم تثبيتها أكثر من مرة في أدبياتنا لما قبل الثورة . وهكذا كتب إ . إ . ستينيتسكي (١٨٣٢ - ١٨٩٧) الذي يرتبط اسمه بمجموعة أعمال تخص رسم الخرائط الجغرافية ، والتقدير الدقيق للأبعاد ، والمسح الجغرافي في القفقاس ، وفي آسيا الصغرى : « توفي في ١٣ تشرين الأول سنة ١٨٩٠ في فلورنسا واحد من أشهر جغرافيين ورحالة الروس : بيوتر اليكساندروف فيج جيخاجيف »^(١) .

ويشير ستينيتسكي إلى أن ب . أ . جيخاجيف « كان واحداً من أشهر علماء وجغرافيين القرن التاسع عشر ، وقد شيد برحلاته وأعماله نصباً لنفسه تعجز القدرة الإنسانية صنعه »^(٢) .

وفي كلمة رثاء خاصة بجيخاجيف أشير إلى أن اسم جيخاجيف كان أشهر بكثير في الخارج منه في روسيا « إلا أنه بالرغم من أن جيخاجيف قد قضى حياته في بلاد الغربية ، غير أنه بدون ريب بقي إنساناً روسياً في اهتماماته وأعماله ، ويعتبر ممثلاً لامعاً للعقلية والموهبة الروسية بين علماء العالم وأوروبا الغربية »^(٣) .

موقعة باسم ب . ب . بود ، وهو الاسم الذي كان يستعمله الجيولوجي ب . ك . بولينوف في كتاباته .
 (١) « أخبار الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية » ، المجلد ٢٧ ، النشرة ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩١ ، ص ١ .

(٢) إ . إ . ستينيتسكي ، بيوتر اليكساندروف فيج جيخاجيف ، « أخبار الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية » ، المجلد ٢٧ ، النشرة ١ ، ١٨٩١ ، ص ١ - ١٠ . مع ملحق بالصور والخرائط المتعلقة بالطرق في آسيا الصغرى .

(٣) « مجلة وزارة المعارف الوطنية » ، القسم ٢٧٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٠ ، كانون الأول ،

ولد بيوتر اليكساندروفيش جيخاجيف في سنة ١٨٠٨ في أسرة غنية
أرستقراطية على رأسها عقيد فوج الحرس لمنطقة بريوبرازينسكي ، ومدير قصر
الأمباطورة ماريا فيودوروفنا في گاتجينا^(*) . كانت والدة جيخاجيف وهي آنا
فيودوروفنا جيخاجيفا التي كانت كنيثها قبل الزواج بيستوژيفا - رومينا من قريبات
الديسمبري الشهير الذي يحمل نفس اللقب .

تلقى جيخاجيف الدراسة في طفولته في بيت أبويه على يد أساتذة مدرسة
القرية القيصرية ، ودرس العلوم التطبيقية الصرفة (علم النبات ، والفيزياء ، وعلم
الحيوان) فيما بعد ، ثم استمع إلى محاضرات أكاديمية فريبورغ الطبيعية في سكسونيا
لمدة سنتين . ودرس الكيمياء ، والجولوجيا ، وعلم التعدين ، وعلم الحفريات في
ميونيخ ، وبرلين ، وباريس .

ويخبرنا معجم أ. ف. ستارجيشسكي^(١) بأن ب. أ. جيخاجيف كان في
السفارة الروسية في القسطنطينية إعتباراً من سنة ١٨٣٠ ، ثم سافر من هناك إلى
مصر ، وسوريا. واليونان أكثر من مرة ، وأما في سنة ١٨٣٥ فقد عمل بالجيولوجيا
في فريبورغ . ويصادف المرء نفس المعلومات تقريباً في المعجم الروسي للسير^(٢) .
وبالإضافة إلى ذلك تحدد سيرة جيخاجيف التي كتبها ن. أ. بيلوزير سكايا في
فترة دراسته في فريبورغ وهي تعود إلى ما قبل سنة ١٨٣٥ ، أما ما يتعلق برحلته إلى
الشرق ، فهي تقول بأنه بعد إكمال دراسته في الخارج بدأ برحلته إلى الشرق ، وقد

(*) گاتجينا : مدينة في منطقة لينينغراد في الجنوب الغربي منها ، وتبعد عنها بمسافة ٤٥ كم ، فيها
قصور بنيت في القرن الثامن عشر ، كانت من ممتلكات القيصرية الروس ، وتحولت بعد ثورة أوكتوبر إلى
متاحف ، وقد عبث بها الغزاة النازيون في الحرب العالمية الثانية غير أنها أعيدت إلى حالتها الأصلية
(المترجم) .

(١) المعجم الأنسيكلوبيدي للاستعلام ، إعداد : أ. ف. ستارجيشسكي ، المجلد ١٢ ، طبعة
ك. كرايبي ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٧ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) المعجم الروسي للسير ، (المجلد جاداييف - شفتيكوف) ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٥ ،
ص ٤١٥ - ٤١٨

جذبه ماضي الشرق الشعري وما يتعلق به من الذكريات التاريخية بشكل خاص . ويظهر من الحكايات الشفاهية التي احتفظت بها ذاكرة أحد أقربائه وهو فيودور بلاتونوفيتش جيخاجيف ، إنه زار مصر في هذه الفترة ، ومن هناك توجه إلى فلسطين عبر صحراء ليبيا ، وسيناء ، وصحراء سوريا ، ثم عرج على القسطنطينية أيضاً . وقد سحرت عاصمة الأمبراطورية العثمانية ب . أ . جيخاجيف ، بميزاتھا الخاصة وشمسھا الجنوبية إلى حد وجد لنفسه مكاناً في السفارة الروسية في سنة ١٨٣٥ ، وأشغل هنا منصب مساعد السكرتير ، ثم عين بوظيفة المترجم في سنة ١٨٣٧ بالإضافة إلى وظيفته السابقة ، وهكذا نعتقد بأنه استطاع في هذه الفترة أن يتعلم اللغة التركية^(١) .

كان جيخاجيف في سنة ١٨٣٥ في القسطنطينية بدون شك ويعمل في السفارة . وكان قد التقى به دافيدوف في تلك السنة في القسطنطينية كما أشير إلى ذلك سابقاً . ونجد هذه المعلومات في تقويم السنة الكبيسة^(٢) أيضاً بأنه بقي في تركيا منذ سنة ١٨٣٤ وحتى سنة ١٨٣٦ ثم توجه فيما بعد إلى إيطاليا . وقام هناك في ضواحي نيتسا وتورين بدراسات جيولوجية ، وصدرت في برلين لأول مرة أعماله باللغتين الألمانية والفرنسية^(٣) التي أصبحت سبباً مباشراً لاختياره عضواً في الجمعية العلمية في مدينة ريجي ياكالا بريا بإيطاليا .

ثم كلف جيخاجيف في سنة ١٨٤٢ عندما كان يشغل وظيفة في وزارة المالية من قبل قسم التعدين بصورة رسمية للقيام بدراسة القسم الشرقي من ألثاي وسلسلة جبال ساينس .

وبعد رحلة استغرقت خمسة أشهر في ألثاي هيا ب . أ . جيخاجيف تقريراً

(١) ن . بيلوزيرسكايا ، ب . أ . جيخاجيف ، « بشير أوروبيا » ، ١٨٩٣ ، تشرين الأول ، ص ١٦٢ - ٢١٣ .

(٢) تقويم السنة الكبيسة ١٨٣٦ ، سانت پيترسبورغ .

(٣) «Geognostische Schilderung des Monte Gargano in den Jahren 1839 und 1840 Leonhard's N. Jahrbuch für Mineralogie. 1841», P.39 - 58. «Coup d'œil sur la constitution géologique des provinces méridionales du Royaume de Naples. Suivi de quelques notions sur Nice et ses environs». Berlin, 1842.

تمهيداً^(١) عن الأعمال التي أنجزها قدمه إلى وزير المالية سي . ف . كانكرين . وكان التقرير قد طبع في المانيا في سنة ١٨٤٢ ، ثم قدم ب . أ . جيخاجيف في سنة ١٨٤٤ إلى أكاديمية العلوم في باريس النتائج الرئيسية لملاحظاته العلمية بمذكرة بعنوان « ملاحظات عامة عن طبيعة ألتي »^(٢) .

ونشر في سنة ١٨٤٥ في باريس التقرير الكامل عن رحلته في ألتي بعد أن أقرته لجنة خاصة لأكاديمية العلوم في باريس^(٣) .

وبعد العودة من ألتي عاش في القسطنطينية لمدة سنتين كملحق في السفارة الروسية . واستمر في دراسته للغة التركية حيث استطاع بسرعة فائقة أن يتقنها منتهى الاتقان ، وخصوصاً اللغة العامية منها . وبطلب من الحكومة الروسية زار سوريا ومصر ، والتقى بمحمد علي وتحدث معه بدون الاستعانة بالترجم ، وشاهد المعالم الأثرية المصرية . وقد رسم الفنان ك . بريولوف بريشته ب . أ . جيخاجيف بالبزة الرسمية المصرية وبكامل الأسلحة التي أنعم بها عليه محمد علي ، وكانت صورة ناجحة .

وتشير بيلوزيرسكايا إلى أن جيخاجيف لم يستطع الحصول على البعثة على نفقة الحكومة إلى آسيا الصغرى ، والأمر هذا حدى به أن يترك الخدمة في سنة ١٨٤٤ وأن يتوجه إلى هناك على حسابه الخاص . ولتحقيق هذه الرغبة باع جيخاجيف عقاراً ورثه من أمه بما يساوي (ألفي ورقة من ذوات العشر روبلات) في محافظة ساراتوف .

(١) يراجع : ن . أ . بيلوزيرسكايا ، ب . أ . جيخاجيف ، « بشير أوروبا » ، ١٨٩٣ ،
تشرين الثاني ، ص ١٧١ (الهامش ١) .

(٢) «Comptes rendus, Paris, 1844, t.XIX, p. 970- 980. (٢)

(٣) Voyage scientifique dans l'Altai Oriental et les parties adjacentes de la
frontière de Chine, Paris, 1845, par. Pierre de Tchichatchef.

وكان جيخاجيف يختلف عن بقية الرحالة ، لأنه لم يهتم بالتاريخ والآثار في آسيا وحسب وإنما اهتم بدراسة الجغرافية الطبيعية بالرغم من أنه عمل في الآثار أيضاً . ولم يهتم جيخاجيف ، بخلاف غيره من الرحالة بتاريخ وآثار آسيا الصغرى ، وإنما اهتم بالبحث في جغرافيتها الطبيعية على الرغم من أنه درس آثارها أيضاً^(١) .

وكان يرافق ب . أ . جيخاجيف في رحلاته خادم فرنسي (مات في سنة ١٨٤٩ بمرض الكوليرا) ، وتاتار (وهذا ليس بشخص تاتاري كما ترجمته خطأ بيلوزيرسكايا وإنما هو ساعي البريد) ، وأدلاء مع دوابهم لنقل أمتعة السفر .

قام جيخاجيف من سنة ١٨٤٧ وحتى سنة ١٨٥٨ بعدد من الرحلات المتعاقبة إلى آسيا الصغرى وأرمينيا ، ومن ثم في سنة ١٨٦٣ قام بسفريات في ضواحي القسطنطينية^(٢) . وكان مجموع بعثاته العلمية التي نفذها في آسيا الصغرى ، وأرمينيا ، وشرقي فراكيا ، وكردستان ثماني رحلات . ويجد المرء وصف جميع هذه الرحلات في دفتر رحلات^(٣) جيخاجيف .

وفي الفترة الواقعة بين رحلة ورحلة كان جيخاجيف يترك تركيا ويعيش في أوروبا ؛ وسافر إلى روسيا أيضاً ، إلا أنه كما يصرح بنفسه « كان عليه ولأسباب خاصة وبشكل غير متوقع أن يسافر من روسيا في أوائل سنة ١٨٥٠ »^(٤) . أما أن نعتبره

(١) *Asie Mineure, description physique, statistique et archéologique de cette contrée par P. de Tchichatchef.*

(٢) تشرين الأول - كانون الأول ١٨٤٧ ؛ مايس - كانون الأول ١٨٤٨ ؛ نيسان - تشرين الأول ١٨٤٩ ؛ تموز - آب ١٨٥٠ ؛ مايس - آب ١٨٥٣ ؛ مايس - أيلول ١٨٥٨ ؛ تموز - أيلول ١٨٦٣ في ضواحي القسطنطينية . أما إلى آسيا الصغرى فإنه سافر إليها قبل ذلك ، فعلى سبيل المثال في سنة ١٨٤٦ (يراجع : *Revue des deux Mondes, juin 1850, p.84*) ترجم إلى اللغة الروسية قسم من « دفتر مذكرات ب . جيخاجيف في آسيا الصغرى » مقترنة بملاحظات كيبيرت الملحقه بالمجلد الرابع من « أخبار قسم القفقاس من الجمعية الجغرافية الروسية » ، تفليس ، ١٨٧٦ .

(٣) *P.V. Tschichatschefs Reisen in Kleinen Asien und Armenien 1847-1863. Itinerare redigirt und mit einer neuen construction der Karte von Klein Asien begleitet von H. Kiepert Gotha. 1867*

(٤) ن . أ . بيلوزيرسكايا ، ب . أ . جيخاجيف ، « بشر أوروبا » ، ١٨٩٣ ، تشرين الثاني ، ص ١٨٢ .

لاجئاً سياسياً فلا يوجد هناك أي دليل على ذلك . وهو نفسه لم يتطرق مطلقاً بتفصيل أكثر من هذا عن أسباب خروجه من روسيا .

وكان جيخاجيف يصف في دفتر يومياته بشكل مستمر الطرق التي كان يقطعها ، ويشير إلى المسافات بين القرى والمدن والمواقع والمحطات ، ويذكر علو ومميزات الأماكن . وبالإضافة إلى ذلك هناك في مذكراته كثير من المعلومات المفيدة المهمة عن الوضع المعاشي وهي تعكس الموقف الذي تمت فيه الرحلة والصعوبات التي تعرض لها المسافرون .

وكان پ . أ . جيخاجيف قد عرض ملاحظاته وانطباعاته عن الرحلتين الأوليتين في سنة ١٨٤٧ و ١٨٤٨ في رسائل بعثها إلى البروفيسور ليونارد في هايدلبيرغ ، ثم نشرها بين آونة وأخرى في الجريدة الألمانية « البلدان الأجنبية » .

وفي روسيا كانوا يتابعون باهتمام رحلات پ . أ . جيخاجيف في الجمعية الجغرافية . وهكذا ذكرت^(١) « الأخبار الجغرافية » في سنة ١٨٤٨ عن ذلك ما يلي :

« يستفاد من الأخبار الواردة من القسطنطينية أن السيد جيخاجيف (بيوتر اليكساندروفيچ) مواطننا وممثلنا لشؤون الدولة الخارجية وصل إلى سواحل البوسفور في رحلته من آسيا الصغرى في نهاية السنة المنصرمة [يظهر في دفتره بأنه وصلها في ٢١ كانون الأول سنة ١٨٤٧] .

كانت رحلة السيد جيخاجيف تلك التي استمرت ثمانية أشهر قاسية ، رافقه فيها كثير من الحرمان الشديد والمشقات ، وقد شملت أجزاء كبيرة من باشالقات سيواس ، وقونية ، وأدنه^(٢) . . . ولم يخش السائح الشجاع من التوغل حتى إلى قبائل الإفشار والكرد المتعصبة والتي تسكن بلاداً لم تدرسها العلوم الطبيعية إلا قليلاً . . . إلا أن الأهم من ذلك كله هو أنه أسس في كثير من المواقع في آسيا الصغرى مؤسسات على طراز محطات الأرصاد الجوي زودها بالآلات والأدوات

(١) « الأخبار الجغرافية » ، النشرة ١ ، ١٨٤٨ ، ص ١٤ .

(٢) إن المعلومات الواردة عن الأراضي التي زارها في سنة ١٨٤٧ ليست صحيحة بأكملها ، فهو لم

يزر في سنة ١٨٤٧ منطقة سيواس .

اللازمة . . . وقام بتسليمها إلى من توسم فيه من السكان المحليين الأهلية والاستعداد على أن يستعملها بنجاح » .

ونشرت « الأخبار الجغرافية » في نفس سنة ١٨٤٨ مضمون رسائل ب . أ . جيخاجيث إلى البروفيسور ليونارد في هايدلبيرغ بشكل موجز جداً : « من أجل أن لا يحرم الروس من أن ينعموا بالبطولات والإنجازات العلمية لابن جلدتهم ، نرى من الضروري أن نطرح هنا ولو بإيجاز مضامين هذه الرسائل المهمة التي يبلغ عددها العشرة » . لا تحمل الرسالة الأولى والثانية أي تاريخ . أما البقية فهي مؤرخة . وهي تعود إلى الفترة من ١٠ حزيران سنة ١٨٤٧ حتى ١٥ آذار سنة ١٨٤٨ . وقد بعث هذه الرسائل من القيصرية ، وسامسون ، وسيواس ، وسميرنا ، والقسطنطينية . ولا شك بأن مجموع المسائل والقضايا التي كان يهتم بها الرحال كانت كبيرة جداً ، وهي تخرج إلى حد بعيد عن نطاق الحقل الجغرافي والجيولوجي . فهو كان يهتم بقضايا الملاحة بين القسطنطينية وطرابزون ، وتطور التجارة الانكليزية باتساع في السواحل الشمالية من آسيا الصغرى (وبشكل عام آسيا كلها) ، والنظام المالي في تركيا . وهو يصف أوضاع إنتاج مصانع النحاس في البلاد . وفي رسائله التي بعث بها من القسطنطينية يشرح الأحوال السياسية في البلاد ، والأحداث المختلفة في المدينة^(١) .

ومن الضروري الإشارة إلى حقيقة غير معروفة جيداً وهي أن الاهتمام برحلات جيخاجيث لم يقتصر على الجمعية الجغرافية وحدها . فهي جلبت انتباه الأوساط الحكومية . وتشهد على هذا نسخة مذكرات بيوتر جيخاجيث عن آسيا الصغرى المحفوظة في أرشيف الوثائق القديمة الحكومي « آسيا الصغرى من وضع بيوتر جيخاجيث الفنصل العام في القسطنطينية ، ١٨٤٩ »^(٢) .

والمذكرات هذه هي باللغة الفرنسية ، وتتألف من ٩٨ صفحة من القطع الكبير ، وتتضمن الفصول التالية :

(١) « الأخبار الجغرافية » ، النشرة ٤ ، ١٨٤٨ ، ص ١١١-١١٣ .
(٢) الأرشيف المركزي للوثائق القديمة الحكومي . الدليل ، القسم ١ ، موسكو ، ١٩٤٦ ، ص ١٧٩ .

- ١ - الوضع التوبوغرافي ، والمصادر والموارد الطبيعية ، والصناعة ، والحبوب ، والمحصولات الصناعية (يقصد بها محاصيل النباتات التي تروى) .
- ٢ - تربية الماعز الانغوري .
- ٣ - الطرق والمواصلات .
- ٤ - الموانئ .
- ٥ - التجارة .
- ٦ - المناجم .
- ٧ - إدارة المناجم .

وهناك فصول خاصة عن الوضع المالي ، والعسكري في تركيا ، والإصلاحات التي تمت فيها بموجب مرسوم گولخانہ . ويظهر من مضامين المذكرات بأن جيخاجيخ كان يعرف بشكل جيد اقتصاد البلاد ، وحياتها الاجتماعية والمعاشية ، والوضع السياسي وما إلى ذلك . وقد تطرق ب . أ . جيخاجيخ إلى هذه القضايا في مقاله المطولة المنشورة في سنة ١٨٥٠ في المجلة الفرنسية « مجلة العالمين » بعنوان « آسيا الصغرى والأمبراطورية العثمانية »^(١) . وتعكس هذه المقالة الأوضاع الاقتصادية ، والثروة الطبيعية ، في آسيا الصغرى ، وكذلك الوضع العسكري والسياسي والمالي في تركيا . ومما يجدر ذكره هو أنه قبل صدور المقالة المشار إليها في « المجلة الحربية »^(٢) ، كانت قد نشرت مقالة بعنوان « معلومات عسكرية - إحصائية عن الأمبراطورية التركية » . وفي تعليق من هيئة تحرير المجلة وردت : « ان مؤلف هذه المقالة المهمة بيوتر اليكسياندر وقيج جيخاجيخ الذي يشغل مكاناً كبيراً في الأدبيات الأوروبية برحلاته العلمية في شمالي أفريقيا وشرقي سيبيريا سمح لهيئة التحرير أن تزيّن صفحات « المجلة الحربية » بنشر ما معروض هنا مقتطفات ومقتبسات من كتاباته غير المطبوعة لحد الآن عن رحلاته المختلفة في سنوات ١٨٤٦ ، ١٨٤٧ ، ١٨٤٨ في آسيا الصغرى » .

«Revue des deux Mondes», 1850, tome sixième, 15 mai, p.705-732; 15 (١) juin, p.840-863.

(٢) يراجع : « المجلة الحربية » ، العدد ١ ، ١٨٥٠ ، ص ١٤٥ - ١٦٤ .

وخلال رحلاته الكثيرة كان جيخاجيف قد سافر وعرج على جميع أنحاء شبه جزيرة آسيا الصغرى وجهاتها المختلفة ، من بحر مرمره وبحر إيجه حتى أرمينيا وبلاد فارس ، ومن البحر الأسود حتى بحر الأبيض المتوسط . وقد قام بأكثر من ستين سفرة ، وجمع مجموعات كبيرة من المكنونات الطبيعية المفيدة ، النباتات ، وحدد ارتفاع ٧٥٠ موقعا ، وقام بتبعات ورصد جيولوجي وفلكي بشكل واسع .

أما الطرق التي سلكها جيخاجيف كانت في الاتجاهات التالية :

١ - الشمالية : من أسكودار إلى أزمده ، وبول ، وقسطموني ، وأماسيا ، وتوكات ، وأرضروم مع تفرع إلى الشمال نحو البحر الأسود - سامسون ، وكيريسون ، وأخرى .

٢ - الوسطى : إزمير ، وكوتاهيا ، وأنقرة ، ويوزغاد ، والقيصرية .

٣ - الجنوبية : من آيدن إلى قونية ، والقيصرية ، والبستان .

٤ - بمحاذاة البحر الأبيض المتوسط : آيدن ، وموگلا ، وأنتاليا ، وطرطوس .

كانت هذه الطرق الرئيسية قد أضيف إليها طرق ثانوية كانت تخترق في بعض الأماكن سلاسل طوروس وانتي طوروس . وبلغ مدى الطرق التي قطعت في هذه الرحلات ١٤ ألف فرسخاً .

وكانت الخريطة التي توضح الطرق التي سلكت في الرحلات قد هيأها كيبيرت ونشرها في سنة ١٨٦٨ في المانيا بمقياس (١ : ٢٠٠٠٠٠٠) .

وكانت نتائج رحلة جيخاجيف قد تمخضت عن نشر عمل كبير جداً في ثمانية مجلدات باللغة الفرنسية ، فظهر المجلد الأول في سنة ١٨٥٣ والمجلد الأخير في سنة ١٨٦٩^(١) . ولا يوجد في المجلدات الثمانية المشار إليها عدا عنوان المجلد الأول أي

Asie Mineure, description physique, statistique et archéologique de (١) cette contrée par P. de Tchichatchef - Première partie: Géographie physique comparée, Paris, 1853.

Asie Mineure, Climatologie et zoologie Deuxième partie, Paris, 1856.

Asie Mineure, Botanique I. Paris, 1866.

وصف لآسيا الصغرى من حيث الآثار والإحصاء (أي الوصف الاقتصادي -
الجغرافي) .

ولدراسات جيخاجيف في علم الحفريات أهمية أكثر ، إذ أن المجموعات التي جمعها أسفرت عن اكتشاف ٣٢٣ نموذجاً جديداً من العاديات والثروات المخزونة في باطن الأرض . وقدم الجيولوجي الانكليزي المعروف رودريك مورجيسون تلميذاً عالياً للأعمال الجيولوجية التي قام بها جيخاجيف في آسيا الصغرى . وهو واحد من مؤسسي علم الجيولوجيا الستراتيغرافية المعاصرة . ففي كلمة ألقاها مورجيسون في ٢٤ مايس سنة ١٨٦٩ في الجمعية الجغرافية الملكية عدد خدمات ب . أ . جيخاجيف ، واختتم خطبته بكلمات من رسالة دي أرشياك ، مضيفاً إليها بأنه يشارك تماماً رأى الجيولوجي الفرنسي الشهير : « إنني وضعت لنفسي هدفاً ينحصر في البرهنة عملياً على أن أعمال ب . جيخاجيف عن آسيا الصغرى تدخل بصورة حقيقية في عداد الآثار العلمية الرائعة العظيمة في القرن الحالي ، لأن أي باحث في البلدان غير المعروفة لم يقدم بشكل جيد أعمالاً أكثر تفصيلاً ودقة بشأن كافة حقول العلوم الطبيعية كما فعل جيخاجيف ، كان يدرس بلاداً نصف متوحشة وصعبة المنال خطورة خطورة وخلال بضع سنين ، وهي لا تبلغ فرنسا من حيث السعة والمساحة^(١) .

أما مورجيسون نفسه فقد قال عن عمل ب . أ . جيخاجيف : « إن صديقي الكريم الفاضل السيد بيوتر جيخاجيف الذي صرف من عمره ثمانين سنوات للقيام بالدراسات الشخصية ، وعشرين سنة تقريباً للأعمال العلمية والأدبية

Asie Mineure, Botanique II. Paris, 1866.

Asie Mineure, Description physique de cette contrée par P. de Tchichatchef. Paléontologie. Par A. d'Archiac, P. Fischer et E. de Verneuil. Ouvrage accompagné d'un Atlas grand in 4°. Paris, 1866,

Asie Mineure, Description physique de cette contrée par P. Tchichatchef. Quatrième partie. Geologie I. Paris 1867; Geologie II. Paris 1869; Geologie III. Paris, 1869

(١) ن . بيلوزير سكايا ، ب . أ . جيخاجيف ، « بشير أوروبا » ، ١٨٩٣ ، تشرين الثاني ، ص ١٩٦ .

اختار في مجال اختصاصه آسيا الصغرى ، وسجل جهوده التي لا تكل في مجلدين عن الطبقة الثانية والثالثة في هذا البلد الكلاسيكي . . . وهي حصيلة أعمال سنوات كثيرة ، وصرف مبالغ طائلة ، وتعرض لأخطار لا حدود لها ، هكذا قضى حياته ؛ جمع بتحمس لا يقهر معلومات عن الجغرافيا ، والنبات ، والتاريخ الطبيعي ، والجيولوجيا لبلاد واسعة ، وهي جديرة باحترامنا البالغ . . . »^(١) .

وهناك في أعماله مجلدات مخصصة لعلم المناخ ، وعلم الحيوان ، وعلم النبات لآسيا الصغرى .

وفي باب تثمين أعمال جيخاجيف كتبت « مجلة وزارة المعارف الوطنية » في سنة ١٨٦٨ : « يخرج مؤلف السيد جيخاجيف من صفوف الأشياء الاعتيادية . فكل ما كان مدوناً عن آسيا الصغرى ابتداءً من الكتاب القدماء وانتهاءً بنا نحن المعاصرين ، استنفذ تماماً وتم تدقيقه وفحصه بالملاحظات الانتقادية الشخصية للمؤلف »^(٢) .

أما عمل جيخاجيف « البوسفور والقسطنطينية » يعتبر مصدراً مكملًا للمعلومات التي تضمنتها المجلدات الثانية ، وقد وسع المؤلف إلى درجة كبيرة هنا هذا الفصل المشابه الخاص بالبوسفور في العمل الأول . وفيه يصف المؤلف تكوين الأرض من حيث التربة ، وتوزيع المياه ، وتاريخ جيولوجية ضواحي القسطنطينية ، ويتطرق إلى مسائل عن تجمد البوسفور وما إلى ذلك^(٣) .

وفي القسم الختامي الذي يجلب الانتباه بشكل خاص يقدم جيخاجيف صورة واضحة للحياة في القسطنطينية في ستينيات القرن التاسع عشر .

وفي سنة ١٨٦٨ نشر جيخاجيف عملاً جديداً ليس كبيراً من حيث الحجم في

(١) « كشف موسكو » ، ١٩ آب ١٨٦٩ .

(٢) « مجلة وزارة المعارف الوطنية » ، القسم ١٣٨ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٨ ، نيسان ،

ص ٢٤٣ .

(٣) Le Bosphore et Constantinople avec perspectives des pays limitrophes

Paris, 1864 (1866) Par P. de Tchichatchef.

جغرافية آسيا الصغرى^(١) ، وهو يعتبر نصاً مبسطاً موجزاً لعمله الكبير المنشور في المجلدات الثمانية . وقد ألحق بالكتاب وعرضاً عاماً للثروات الطبيعية في آسيا الصغرى .

ولم يدرس ب . أ . جيخاجيف الجغرافية الطبيعية لآسيا الصغرى وجيولوجيتها ، وحيواناتها ، ونباتاتها فقط ، وإنما عرف بشكل جيد اقتصاد البلاد ، والوضع المالي ، والبناء السياسي ، والحياة الاجتماعية والمعيشية ، والتركيب القومي للسكان أيضاً . ولقد وضع هذه الجوانب من حياة الأمبراطورية العثمانية في عدد من الكرايس السياسية الخاصة .

وفي التقرير الانتقادي عن الكراسية « رسائل عن تركيا »^(٢) المنشور في المجلة الفرنسية « مجلة الآراء » كتب الأكاديمي سين مار ژيراردين : « قرأت كتباً كثيرة عن الشرق ، وبصورة خاصة عن تركيا . إنه [جيخاجيف] العالم الأوروبي من الطراز الأول ، ويمكن قراءة دراساته ورحلاته في آسيا الصغرى بمتعة وثقة . وقد أعجبتني بشكل خاص من رسائل جيخاجيف ميزتان : الأولى ، أن المؤلف يهوى الحقيقة أكثر من أي شيء آخر ، والثانية للمؤلف شخصيته المميزة الخاصة ، وطابعه الخاص وذكاءه الخاص »^(٣) .

وفي الكراسية « La Turquie Mirés »^(٤) يقدم جيخاجيف عرضاً للوضع المالي السوء في تركيا ، والسبب لذلك كما يعتقد المؤلف هو تعسف السلطات واستبدادها ، ووقوع الدولة التركية تحت طائلة فروض ضخمة وكبيرة .

(١) Une page sur l'orient. Paris, 1868 par P. de Tchichatchef.

في سنة ١٨٨٧ كان قد نشر النص الموجز للمجلدات الثمانية باللغة الألمانية أيضاً . وبدلاً عن الفصل الخاص بالوضع السياسي في تركيا الذي حذف من الكتاب فقد تم نشر فصل عن شعوب آسيا الصغرى فيه .

(٢) Letters sur la Turquie par M.P. de Tchichatchef, Bruxelles - Paris, 1859.

في سنة ١٩٦٠ كانت قد نشرت هذه الرسائل باللغة الروسية ، يراجع : ب . أ . جيخاجيف ، رسائل عن تركيا ، قدم له وعلق عليه ف . ف . تسيبولسكي ، موسكو ، ١٩٦٠ .

(٣) يراجع : « المكتبة الروسية للصور » ، المجلد ٥ ، العدد ١٥ ، ١٨٥٩ ، ص ١١٥ .

(٤) La Turquie Mirés, Paris, 1861.

(٤)

وفي الوقت الذي بفضح فيه جيخاجيف سياسة فرنسا وانكلترة اللتين تعملان من أجل مصالحهما بحجة الدفاع عن تركيا ، فهو في نفس الوقت يرسم لوحات عن السيطرة الكولونبالية القاسية للانكليز على الهند والبلدان الأخرى التابعة لها .
ومن الجدير هنا أن نذكر بضع كلمات عن رحلة جيخاجيف إلى الجزائر وتونس . وقد قام بها في سنة ١٨٧٧ حيث كان يبلغ من العمر التاسعة والتسين . وكانت حصيلة الرحلة كتاب نشر في سنة ١٨٨٠ في شكل رسائل موجهة إلى صديقه ميشيل شيفاليه^(١) . وإن كتاب جيخاجيف هذا كبير ومهم ، ومكتوب بشكل بديع وفي مجلد واحد ، يقدم عرضاً للجغرافية الطبيعية ، وجيولوجية البلدان التي قام بزيارتها ، وكذلك وصف الوضع الاجتماعي ، ويتصف إلى حد بعيد بالسطحية ، وهو لا يشكل دراسة مستقلة ، ويختلف بشكل جوهرى من هذه الناحية عن الأعمال الأخرى التي أنتجها عن آسيا الصغرى .

أما في الوقت الحاضر فإن اسم ب . أ . جيخاجيف في الواقع منسي عندنا في بلادنا ، إلا أنه في طريقه إلى بعث جديد حيث تناوله مجموعة من أعمال الباحثين السوفيات . منهم ف . ف . تسيبولسكي الذي كرّس سنوات كثيرة من عمره لدراسة حياة ونتاج ب . أ . جيخاجيف^(٢) .

وكتب ج . بيكر في كتابه^(٣) : « إن الدراسات التي قدمها كيبيرت عن آسيا الصغرى لا تنافسها إلا دراسات السائح الروسي ب . جيخاجيف »

وخصص ب . أ . جيخاجيف سنين طويلة من حياته لآسيا الصغرى ، دارساً تركيبها الجيولوجي ، والأوروغرافي (علم وصف الجبال والسهول - م . خ .) ، والمناخ ، والتربة ، والنباتات ، وعالم الحيوان ، وقد تكلم عن الشعوب التي تسكنها ، وعن تاريخها وثقافتها .
وهكذا أضافت أعمال جيخاجيف أشياء جديدة كثيرة في دراسات آسيا

(١) Espagne, Algérie et Tunisie Lettres à Michel Chevalier, par P. de Tchichatchef, Paris, 1880.

(٢) ف . ف . تسيبولسكي ، ب . أ . جيخاجيف - الباحث البارز لألتاي ، كيمبروفس ، ١٩٥٩ ، وله أيضاً ، ب . أ . جيخاجيف - الباحث والسائح ، موسكو ، ١٩٦١ .

(٣) ج . بيكر ، تاريخ الاكتشافات والدراسات الجغرافية ، ترجمة من الانكليزية باشراف وتعليق | . ب . ماجدوفيسج ، موسكو ، ١٩٥٠ ، ص ٢٩٣ .

الصغرى . وهي تحفظ بأهميتها إلى يومنا هذا ، وتعتبر مصادر مهمة جداً لجميع الذين يدرسون تركيا .

رحلة نوروف

قام المستشرق والكاتب الشهير أفرام سيميونوفيتش نوروف (١٧٩٥ - ١٨٦٩) برحلته الأولى الى الشرق في سنة ١٨٣٥ .

ولقد اشترك في الحرب الوطنية ، وجرح في معركة بوردينو بشظية ، وعلى أثرها فقد احدى رجله ، فاضطر أن يترك الخدمة العسكرية في سنة ١٨٢٣ وكان برتبة العقيد ، فالتحق بالخدمة في وزارة الشؤون الداخلية ، ثم عين مساعداً لوزير المعارف الوطنية في سنة ١٨٥٠ ، وأما في سنة ١٨٥٤ فتم تعيينه وزيراً . وكان يتقن عدداً من اللغات الأجنبية (الفرنسية ، الألمانية ، والانكليزية ، والايطالية ، وفيما بعد تعلم اللغات اللاتينية ، واليونانية ، والعبرية القديمة) .

وقام بسفرة الى أوروبا في سنة ١٨٢١ ، زار فيها المانيا ، وفرنسا وايطاليا ، وكتب كتاباً عن صقليا .

واشتهر أ.س. نوروف كمتضلع في الأدب أيضاً ، وخبير وهاو للكتب ، فقد أسس مكتبة فريدة خاصة . وكان عضواً أصيلاً في أكاديمية العلوم في قسم اللغة الروسية وآدابها .

وزار أ.س. نوروف فلسطين ، ومصر ، وبلاد النوبة . وفي طريق عودته عرج على ساحل البحر الأبيض المتوسط في آسيا الصغرى . وكانت حصيلة رحلاته ان ظهر له عدد من الكتب . ففي الكتاب الأول « رحلة في الأرض المقدسة »^(١) ، يصف

(١) أ.س. نوروف ، رحلة في الأرض المقدسة في سنة ١٨٣٥ ، القسم ١ - ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٤ .

المؤلف الرحلة من مصر عن طريق برزخ السويس الى فلسطين . وخصص القسم الأعظم من الكتاب لمدينة القدس وضواحيها . والفصول التي يصف فيها المدن تعكس صوراً حية عن حياة البدو ، وتطرح الاهتمام الذي يخرج بعيداً عن إطار واجبات الحجيج الضيقة . وان هذا « بدون شك أفضل وأجمل وصف للأرض المقدسة وأكثرها تفصيلاً من جميع ما موجود في الأدبيات الروسية »^(١) . وقد أبدى هنا رأياً ظهر بطلانه فيما بعد ، ومفاده انه لا يمكن شق قناة خلال برزخ السويس لأسباب فنية ، ولقلة سكان مصر . وبالإضافة إلى ذلك فهو يستطرد : « وعلاوة على ذلك ان مثل هذا الطريق يفيد الانكليز أكثر مما يفيد مصر ، ومن الممكن أنه يستعبد أوروبا »^(٢) .

وترد في الكتاب معلومات عن الطبيعة ، والاقتصاد ، والمدن ، والحياة الاجتماعية والمعيشية ، والوضع السياسي في فلسطين .

وهكذا يشير إلى : « إن قسماً صغيراً من أفخاذ البدو يسمون بالرعاة ، فهم يعملون في زراعة الحقول ؛ والآخرون أحرار كالهواء ، يرحلون مع قطعان الخيول ، والجمال ، والجواميس ، ومع قطعان مواشيهم من سهوب تدمر حتى الأطلسي . وفي مصر وحدها هناك ٥٠ فخذاً من البدو منهم ١٥ من الرعاة »^(٣) .

ولدى وصفه الطريق من دمياط عبر صحراء برزخ السويس وحتى مدينة القدس يذكر معلومات مهمة وممتعة كثيرة : « في هذه الصحراء المليئة بالأحراج في منطقة السويس يمكن مشاهدة الأثل الذي يسميه علماء النبات بـ « Tamarix manifera » أي حامل المن . . . والمن نادراً ما يظهر، ومن أفضل ما موجود في الصحراء العربية ، وفي شبه جزيرة سيناء ؛ وأن هذا الشيء عبارة عن نوع من الندى حلو المذاق وطيب الرائحة ، يظهر في أشهر الصيف الحارة على أوراق بعض النباتات بعد المطر ، وبشكل خاص على الأثل » ، والعرب يجمعونه قبل شروق الشمس ، وذلك قبل أن

(١) ف . خيتروفو ، فلسطين وسيناء ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) أ . س . نوروف ، رحلة في الأرض المقدسة في سنة ١٨٣٥ ، القسم ١ ، ص ١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣ - ١٤ .

يذوب بتأثير الحرارة ، ثم يحولونه الى أقراص شبيهة بالكعكة الرقيقة الصفراء ^(١) .
ومن مدينة القدس توجه نوروف الى البحر الميت ، زار يافا ، ونابلس ،
والسامرة ، ونازاريت (الناصرة) ، وبحيرة طبرية . وكان إعجابه شديداً بصورة
خاصة بمدينة يافا : « . . . تنبسط بشكل جميل بين البساتين الكثيفة على هضبة في
ساحل البحر . يملأ أريج أشجار البرتقال وال نارنج الاجواء المحيطة ، ويزحف الى
أماكن بعيدة . وفي جانبي الطريق أحراج كثيفة في ظلال الأشجار البديعة ، وهي
تمتزج بأشجار الغار والأس ودالية الكروم الملفوفة وهي تغوي وتغري الانظار .
والأحواض المرمرية المزينة بكتابات من القرآن ترحب بالمسافر المتعب عند أول دخوله
الى المدينة . ويافا مدينة تحيط بها الأسوار ، ويرى المرء عدداً من الأبراج في زوايا
السور . والشوارع غير منسقة ، إلا انها تضم محلات تجارية كثيرة ، وفيها حركة
كبيرة ، وبرك المياه وفيرة ؛ ورغم ان المرفأ خطر غير أن الناس يرتادونه بكثرة . . . ^(٢)
وأن عدد المسيحيين في يافا لا يزيد عن ٦٠٠ شخص ، وأما عدد المسلمين
فيلغ أكثر من ٤٠٠٠ شخصاً . وتجارها مع مصر واسعة ومزدهرة ، ولا شك بأنه كان
من الممكن أن تكون التجارة أكثر أهمية وازدهاراً لو لم يكن المرفأ خطراً إلى هذه
الدرجة ، ولنا أن نقول بأنه لا يوجد هناك مرفأ أساساً ، فالبواخر تقف بعيدة ، متأهبة
على الدوام للأبحار ^(٣) .

ويعتبر كتاب « رحلة الى الأرض المقدسة » مكملًا للكتاب الذي يروي أحداث
الرحلة إلى مصر وبلاد النوبة ^(٤) ؛ على الرغم من أنه الف قبله . وللكتاب أهمية كبيرة
جداً ، لما ورد فيه من وصف لمصر في الثلاثينيات من القرن المنصرم ، في عهد إدارة
محمد علي . وفيه معلومات وأخبار عن التجارة ، والمالية ، وأسطول البلاد . ويتكلم
نوروف بشكل دقيق وشامل عن توبوغرافية البلاد ، ومناخها ، وسكانها . وهناك

(١) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، القسم ٢ ، ص ١٢٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

(٤) «رحلة في مصر وبلاد النوبة في سنتي ١٨٣٤ - ١٨٣٥ لأفرام نوروف» ، القسم ١ و ٢ ، سانت

بيترسبورغ ، ١٨٤٠ .



خارطة رحلات أ. س. نوروف خط ورسم خالد الخالدي

فصول خاصة مكرسة للزراعة ، والصناعة .

ويشير نوروڤ الى « الزراعة » الخريفية والربيعية ، وفلاحة الأرض . ويعدد المزروعات الأكثر أهمية كالدخن الافريقي ، والذرة ، والقمح ، والشعير ، والفاول ، والارز ، والكتان ، والقطن ، والتبغ ، والزيتون ؛ ثم يتوصل الى الإستنتاجات التالية :

« بغض النظر عن هذا الإختلاف والتنوع في الأشجار والنباتات في مصر ، فإن زراعة هذا البلد الباهر الفخم لا تزال في دور الطفولة . وأن العرب الحاليين يستعملون نفس الآلات والأدوات الزراعية التي كانت تستعمل قبل أربعة آلاف سنة تقريباً والمنقوشة صورها على قبور قدماء المصريين » . وعن اقتصاد البلد يقول بأن « الصناعة المحلية لم تترسخ في مصر لحد الآن ، وبأن تأسيس المعامل الذي يكلف مبالغ ضخمة ، لم يبرر حتى الآن المصروفات التي انفقها عليها محمد علي »^(١) .

ويكتب نوروڤ بأن « مصر تظهر أمام أعين الرحالة والسياح أرضاً قليلة السكان الى أقصى حد . وإذا حكمنا على أساس عدد البيوت والأكواخ التي هجرها أهلها ، يظهر أن المدن والقرى كانت من قبل أكثر سكاناً بكثير مما عليها الآن . والشيء الذي يذهل حقاً هو انه هناك في الحقول عدد قليل من الفلاحين في سن الفتوة . وأن التجنيد الإجباري اختطف جميع السكان الذين هم في عمر الزهور . . . »^(٢) . ويعتقد بأن المجموع العام للسكان هو عبارة عن مليونين ونصف المليون نسمة .

وبجانب وصف مناظر الطبيعة ، والحياة الإجتماعية والمعيشية ، والاقتصاد ان لرحلة نوروڤ بلا شك أهميتها في اللقاءات الخاصة بمحمد علي والمقربين إليه من الوجوه أمثال كلوت بك ، وابراهيم ، وسليمان باشا ، وآخرين .

ثم توجه نوروڤ من فلسطين عن طريق البحر إلى سميرنا (إزمير) ، إلا انه

(١) المصدر السابق ، القسم ١ ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٥٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٠٣ .

غير طريقه أثناء السفر عندما وصل الى أناليا ، قرر أن يسافر الى أعماق آسيا الصغرى وعن طريق بوردور ، ودينيزلي عاد إلى سميرنا^(١) .

وفي أناليا يشير نوروث : « بسبب العداوة والكراهية بين تركيا ومصر ، التحصينات هنا في حالة مقبولة . فيها حصن وقلاع كثيرة ؛ وأسوار متينة وأبراج فيها أقواس على الطريقة العربية وبعضها بيزنطية ، وهي تحمي المدينة في جميع الأطراف والاتجاهات »^(٢)

وفي طريقه إلى بوردور مرّ نوروث بالتركمان الرحل : « كل قطعة من الأرض إذا كانت خالية تصبح ملكاً خاصاً بالتركمان بصورة مؤقتة . وهم يستقرون بالتناوب لرعي قطعانهم الكثيرة ، أو للبذر والزرع ، وهم كالجراد الذي يحمل القحط ، يدمرون المروج ، ويقلعون الغلة والمحصولات ، ثم يتوجهون الى مكان آخر ؛ وأما عند قدوم الشتاء فإنهم يختبئون خوفاً من هبوب الرياح في شعاب الجبال ، حيث يحفرون الكهوف أو يشغلون أكواخ القبائل الأخرى ، التي كانت تتقل هناك في سابق الأزمان أو أكواخهم الخاصة في بعض الأحيان »^(٣) .

وبعد بوردور سافر نوروث عن طريق دينيزلي ، ووادي ميندريس ، وآلاشهر ، وخرائب ساردا ، وآق گيسار الى سميرنا ، ومن سميرنا توجه الى بيرگاما .

وعلى العموم إن الكتاب يضم تأملات في موضوعات مختلفة وردت في الكتاب المقدس والوصايا الجديدة وهي من وحي الآثار التاريخية و« الأراضي المقدسة » التي قام المؤلف بزيارتها . وتحتل المناظر الطبيعية مكاناً بارزاً بجانب الزراعة ، والحياة الاجتماعية والمعيشية . وقد زود الرحلة بملحق خاص وهو دراسة عن أطلانتيس^(٤) .

(١) أ.س. نوروث ، رحلة الى الكنائس السبع المذكورة في سفر الرؤيا ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦١-٦٢ ، ان الوصف بأكمله مقتبس من كتاب قرونجيكو الذي يستند عليه أ. نوروث .

(٤) أطلانتيس وردت في الأساطير بأنها جزيرة في المحيط الاطلسي غربي جبل طارق ، غارت في المياه ، وكان يسكنها شعب (الاطلنت) (المترجم) .

وأما القضايا الأخرى المتعلقة بأطلانتيس لقد قام نوروف بتوضيحها في عمل آخر له أيضاً^(١). ويعتقد نوروف بأن أطلانتيس لم تكن في المحيط الأطلسي، وإنما كانت في القسم الشرقي من بحر الأبيض المتوسط، وكانت تشغل المساحات من قبرص وحتى صقليا ولسبوس، وللبهنة على فرضيته هذه يستند إلى الحقيقة التي تنحصر في أن هذه المنطقة بأجمعها كانت تحت تأثير القوى البركانية. ويطرح نوروف مجموعة من الآراء، وفيها يشير إلى أن عنوان البحر الأطلنطي الذي يذكره أفلاطون يجب أن نفهم منه بأنه هو عبارة عن القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، وأما جزيرة قبرص يجب أن ينظر إليها كجزء يقع في بحر اطلانتيس. والأكاديمي ل. س. بيرك يشير إلى أن مقال أ. س. نوروف « يقدم لوحده حلاً صحيحاً لهذا اللغز الذي كان يقلق المفكرين منذ أكثر من ألفي سنة »^(٢).

ومن سميرنا عن طريق أطلال ظروادة توجه نوروف إلى القسطنطينية.

أما عن الكتابين الأولين اللذين نشرهما أ. س. نوروف، يقول ن. ك. جيرنيشيشكي بأن « الكتابين يشغلان مكاناً بارزاً من الناحية العلمية بين جميع المؤلفات في هذا الموضوع، كنتاج في مستوى عالم، وباحث، وسائح له مكانة كبيرة، وقد تعرف بأبجاذ على جميع البحوث التي أنتجها السلف، كنتاج باحث مدقق يعتمد على ذاته، ويوضح النتائج الإضافية الكاملة التي نالها العلم »^(٣). وعن كتاب « رحلة إلى الكنائس السبع » يقول نيكولاي كافريلوفيش^(٤) بأنه « يتميز بحسن الغرض بقدر تميزه بالجدارة العلمية »^(٥).

(١) أ. س. نوروف، دراسة عن أطلانتيس، « التقارير العلمية للقسم الثاني من أكاديمية العلوم الامبراطورية »، سانت بيترسبورغ، ١٨٥٤، الكتاب ١، ص ٣٣ - ٦٤.
 (٢) ل. س. بيرك، مقالات في تاريخ الاكتشافات الجغرافية الروسية، الطبعة ٢، موسكو - لينينغراد، ١٩٤٦، ص ٢٢٨.
 (٣) ن. ك. جيرنيشيشكي، مجموعة المؤلفات الكاملة، المجلد ٢، موسكو، ١٩٤٩، ص ٥٢١ - ٥٢٢.

(*) هو اسم جيرنيشيشكي واسم ابيه، والتعبير روسي وهو من تقاليد الحياة الاجتماعية الروسية حيث يذكر وينادي الانسان باسمه واسم ابيه احتراماً له، فهذه الصيغة تقابل كلمة « السيد » وما شابهها في اللغات الأخرى حين الحاقها بالاسم أو اللقب (المترجم).
 (٤) المصدر السابق، ص ٥٣٨.

ونتيجة لدراسة عمل نورو ففقد ثمنه ن. ك. جيرنيشييفسكي ونظر اليه كعمل كبير . وأشار بهذا الشأن الى أن « هذه الأعمال تشغل مكاناً عالياً ليس في الأدب الروسي فقط وإنما في الأدب الأوروبي بشكل عام ، لأنها دفعت العلم إلى الأمام إلى حد بعيد ، ثم طرحت وحلت مجموعة من المسائل والقضايا المهمة العريضة في التاريخ القديم والجغرافيا والآثار»^(١) .

وبعد مرور سنوات طويلة وفي سنة ١٨٦١ ، وفي سن السادسة والستين قام نورو ف برحلته الثانية الى الشرق^(٢) ، زار في هذه المرة الاسكندرية ، ومدينة القدس ، وسيناء التي لم يكن باستطاعته زيارتها في رحلته الأولى . وهو يشير الى أنه خلال ٢٧ سنة التي مضت على الزيارة الأولى له فان الاسكندرية مدينة أعيد تنظيمها حيث : « اختفت نهائياً الوحشة التي كانت تلف هذا الشاطئ ، والمرفأ أصبح نشطاً ، فيه عدد كبير من الأساطيل ، والسفن ، والبواخر الحربية ، والتجارية»^(٣) .

ومن الاسكندرية توجه نورو ف بالباخرة الى يافا ، وفيما بعد سار مع القافلة عن طريق اللد إلى مدينة القدس ؛ زار المدينة وضواحيها ، وعاد مرة أخرى الى يافا . ومن يافا سافر الى الاسكندرية ، ثم إلى القاهرة . واستمر السائح في سفره حتى انتهى به المطاف في السويس حيث وصلها بالقطار ، ومن هناك ركب الباخرة وأبحر في البحر الأحمر .

« ها هي سلاسل من الجبال الهائلة العارية الرائعة بقممها المختلفة المتنوعة ترتفع الواحد من وراء الأخرى ، قد غطت الأفق الشرقي كله ، وامتزجت بالسماء الزرقاء الصافية ؛ إن هذه هي جبال شبه جزيرة سيناء»^(٤) . وبعد مرور ١٧ ساعة من الابحار في السويس وصلوا إلى الطور . ومن هناك قطعوا الصحراء برفقة قافلة كبيرة من الجمال ووصلوا إلى دير سيناء . ثم يذكر نورو ف بأن حوالي أربعمائة أسرة من

(١) المصدر السابق ، ص ٥٤٣ .

(٢) « مدينة القدس وسيناء . مذكرات الرحلة الثانية التي قام بها الى الشرق أ.س. - نورو ف » ،

سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٩ .

أحفاد العبيد الذين يُقال بأن الأمبراطور جوستينيان أسكنهم في أطراف سيناء ، وكان بينهم بعض الغجر الولاكيين أيضاً ، لا يزالون لحد الآن يقومون برحلاتهم حول سيناء . « يعيش هؤلاء في الشتاء كالإنسان الأول في الكهوف . . . وفي الصيف يرحلون بصحبة قطعانهم الصغيرة من واد إلى واد ، إلى حيث يجدون المراعي . وبالرغم من أنهم اعتنقوا الإسلام إلا أنه يسمون أنفسهم بالجبليين ، ويعتبرون ذواتهم عبيداً للدير ويفتخرون بهذه العبودية . . . وفي أيام معينة ، وحسب عادة قديمة متوارثة يجتمعون عند جدران الدير . . . وفي ساعة محددة يُنزلون لهم من حائط الدير عدداً من السلال المليئة بالخبز الذي يهيء لهم اللذة الحقيقية . وبالرغم من تمتعهم بلقب عبيد الدير ، إلا أن أهل الدير لا يدعون أن يدخل هؤلاء الضيوف الوحوش إلى داخل الدير أبداً ؛ وبالإضافة إلى ذلك أن أهل الدير لا يستقبلون الرحالة ، والسياح ، والمسافرين في داخل الدير أيضاً ، ولا يمكن أن يدخل الدير إلا من يحمل خطاب توصية . . . وعندئذ يرفعون الزوار كلا على حدة بمساعدة المحالة (البكرة) . وأما عبيد الدير فإنهم يجرسون بدقة الرهبان والحجيج في رحلاتهم ، ويعملون بدأب في عمل معين في البساتين التي تعود ملكيتها إلى الدير مقابل أجره محدودة»^(١) .

ومن سيناء عاد نوروف إلى القاهرة ، ثم عن طريق الاسكندرية توجه إلى تركيا . وما يجدر ذكره هو أن وصف الرحلة الأخيرة أقل أهمية بكثير من الرحلتين السابقتين .

رحلة ييفيموف

ترك الفنان د . ي . ييفيموف ذكرياته عن رحلته إلى الشرق الأوسط . وكان ديمتري سيغورييقيش ييفيموف (١٨١١ - ١٨٦٤) قد درس في الأكاديمية الفنية . وبعد إكمال الدراسة في الأكاديمية بدرجة نال عليها الوسام الذهبي توجه في سنة ١٨٣٣ إلى إيطاليا لإكمال دراسته ، ومنها قام بسفرة إلى مصر ، وفلسطين ، وسوريا ، حيث

(١) المصدر السابق ، ٩٩ .

درس الآثار القديمة في فن العمارة ، وعلى وجه الخصوص هندسة البناء المصري القديم^(١) .

وعن انطباعاته كتب د . ي . ييفيموف في نهاية سنة ١٨٣٤ إلى أصدقائه المهندسين المعماريين : « تمتد في جانبي نهر النيل أخصب الأراضي في الوادي الأخضر ، وهي الأرض التي كانت في زمن ما تمور بالعسل والحليب ، والناس . وتتناثر هنا وهناك غابات النخيل وهي تغطي بظلها القرى الصغيرة التي أعمتها القذارة ؛ وبالقرب من المياه تنبسط بساتين البقول والخضر ، ومزارع قصب السكر ، وحقول القطن الذي يعتبر في الوقت الحاضر واحداً من أهم مصادر الثروة المصرية^(٢) . ثم يصف فيما بعد آثار الثقافة والحضارة المصرية القديمة ويختتم رسالته قائلاً : « إن المصريين في تكوين هندستهم المعمارية^(٣) لم يقتبسوا من الشعوب الأخرى ، وإنما كانوا يقلدون الطبيعة المحلية التي يعيشون فيها فقط » .

غير أن اهتمامات الفنان والمهندس المعماري لم تحف عن عينيهِ الصور الواقعية ، لذلك يلاحظ د . ي . ييفيموف بأن : « الناس يخشون سلطة الرجل الواحد الذي هو كحدأة هرمة مفترسة في عشها ، تلمح من بعيد فريستها ، إنهم يهربون منها إلى أعماق الصحراء ، لكن السلسلة الحديدية تدركهم وتغلبهم في أعناقهم وتقودهم إليها في القاهرة حيث يتحولون إلى جنود جدد . ومع ذلك يذيعون بأنه قد قبض على هؤلاء أثناء السلب والسرقة^(٤) » .

ويستمر الفنان في كلامه ويقول بأن الفلاح العربي يعيش في منتهى الهوان والفقير المدقع : « يدهش الإنسان من العربي الحافي العاري أكثر من دهشته من الأردية الملونة الزاهية التي يلبسها الترك الذين يشكلون بصورة استثنائية طبقة الأفندية

(١) « منار المعارف والثقافة الحديثة » . « أعمال العلماء والأدباء الروس والأجانب » ، القسم ٥ ،

الفصل ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٠ ، ص ٧

(٢) المصدر السابق ، ص ١١ - ١٢ .

(٣) تفصّل بالهندسة المعمارية توافق وتمازج معين في الخطوط والزوايا والأشكال التي يتم بموجبها تنفيذ

النتائج الفني (البناء) ، وقد تكونت خلال التاريخ الطويل مدارس وأساليب مختلفة في هذا النوع من الفن .

(٤) « منار المعارف والثقافة الحديثة » . « أعمال العلماء والأدباء الروس والأجانب » ، القسم ٥ ،

ص ١٧ .

والتجار التي تستعبد الشرق^(١).

ثم يتكلم ييفيموف عن الأسلوب البدائي الذي يمارسه العرب لإرواء الحقول : « تشق القناة القديمة طريقها في الضفة الغربية من نهر النيل وحول بحيرة الفيوم في محافظة الفيوم حتى قرية دندر تقريباً . وهي تسمى في الوقت الحاضر بنهر يوسف . ويساعد هذا النهر الذي يبعد عن نهر النيل بمسافة كبيرة جداً مساعدة كبيرة في خصوبة المحافظة المشار إليها ، كما إن الفلاحين في مصر يقومون بالزراع في فصول السنة كلها ، ويبدون أنواع الحبوب وأحياناً في الأراضي غير المحروثة ، وذلك لسقي تلك الأراضي بالمياه عندما تكون أوطأ من مستوى النيل في الشتاء ، ويقوم العرب برفع المياه ليلاً ونهاراً وبدون توقف بمساعدة آلة تتألف من عجلة أفقية مسننة ومتاريس تتحرك بقوة الثور أو البقر ، ويمكنهم الحصول على المياه بوساطة دلو من الجلد يصبها في الميزاب وهو يوزعها عن طريق قناة صغيرة تمتد إلى جانب أحواض الأرض المزروعة أو التربة الممزوجة بالرمل التي جمعتها الأيدي . ويرافق جميع هذه الأعمال دوماً بالدعاء إلى الخالق ، وإلى واهب جميع الخيرات النيل ، وإلى الروح الحزينة التي تمزق الأغنية التي تسمع من بعيد في أوقات الليل الصامتة مع صرير العجلات المتحركة للماكنة^(٢) .

ثم يكتب ييفيموف بوفاء عن مواهب السكان المحليين : « لا يعمل العربي . أي شيء بدون أغنية . فإنه يؤلفها في نفس اللحظة التي يقوم فيها بالعمل ، وتكون الأغنية عن الشيء الذي يقوم به ، وهي دليل على سعة قريحته الشعرية ، والمعلومات السريعة التي حصل عليها في أفضل مراحل حياته خلال بضعة قرون^(٣) .

رحلة بروسكور ياكوف

كان ضابط الشعبة التوبوغرافية الملازم الثاني ي . س . بروسكور ياكوف قد

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١ .

انضم في نيسان سنة ١٨٤٢ إلى البعثة المؤلفة لمراقبة الحدود الروسية - التركية في
گوريا ، وكان العقيد داينيزه يشرف على البعثة . وخلال عدد من السنين شارك هو
في المفاوضات بشأن تحديد الحدود بين روسيا وتركيا ، وفي فترة لاحقة شارك في أعمال
اللجنة الدولية لتخطيط الحدود بين فارس وتركيا .

وكانت حصيلة عمل متواصل لست سنوات تقريباً مذكرات وملاحظات
ى . س . بروسكوريانوف عن تركيا ، وقد كتبها في سنة ١٨٦٧ إلا أنها رقدت مدة
عشرة سنوات في القسم الحربي - التوبوغرافي في القفقاس ، ثم طبعها في سنة ١٩٠٥
فقط^(١) .

زار بروسكوريانوف مدينة باطوم التي كانت في ذلك الوقت تحت السيادة التركية،
ثم وصل إلى أرضروم عن طريق آتفين وأولتا ، ومنها توجه إلى تفليس ثم عاد ثانية إلى
أرضروم ؛ وقد مكث بروسكوريانوف بعض الوقت في طرابزون . وهنا شارك في
المفاوضات التي جرت بصدد تخطيط الحدود بين فارس وتركيا ، وكانت انكلترا
وروسيا هما الدولتان اللتان توسطتا في حل الموضوع . وكان على بروسكوريانوف
بحكم عمله ونوعه وظيفته أن يسافر إلى مواقع مختلفة من المنطقة . وقد توفرت له
الأسباب لأن يدرس المنطقة بصورة دقيقة وشاملة ، وان يقوم بمسح المنطقة . ولا شك
بأن لهذه الظاهرة أهميتها الخاصة بالنسبة إلى الرحلة . ويشير فيها إلى سير المفاوضات
والوضع السياسي الداخلي في تركيا .

ومن حصيلة أعمال بروسكوريانوف تجدر الإشارة إلى خرائط وادي أرضروم
حتى سفوح جبل بينگول - داغ ، نهر جوروخ ، وبحيرة تورنوم ، وكذلك الخرائط

(١) ى . س . بروسكوريانوف ، ملاحظات عن تركيا ، منشورات الجمعية الجغرافية الروسية -
قسم القفقاس ، الكتاب ٢٥ ، النشرة ١ ، تفليس ، ١٩٠٥ . والعنوان الأصلي هو « ملاحظات عن
الحدود الروسية - التركية في گوريا ، والمفاوضات في أرضروم حول تخطيط الحدود بين تركيا وإيران ،
ووصف مفصل لأعمال المسح والأعمال الأخرى التي أنجزت خلال المفاوضات المستمرة ، وهي مفتتسة من
المذكرات اليومية التي سجلت منذ سنة ١٨٤٢ وحتى سنة ١٨٤٨ » ، يراجع أيضاً « عرض تاريخي لنشاط
الشعبة الحربية - التوبوغرافية (١٨٢٢ - ١٨٧٢) » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٢ ، القائمة رقم ١ ،
الهامش ص ٢٤ .

التي تخص طرق المواصلات من طرابزون حتى سورمينه ، ومن أرضروم حتى طرابزون .

وكان قد تعلم اللغة التركية العامية المتداولة ميدانياً ، فكان بروسكوريياكوف يستوضح ويتساءل بطلاقة من المرافقين عن كل شيء يجلب اهتمامه .

وفي كتابه يصف بروسكوريياكوف الاقتصاد ، والطرق من طرابزون حتى أرضروم ، وبابورت . ويذكر : « خلال مكوثنا في الأناضول في سنة ١٨٤٢ حتى سنة ١٨٤٨ لم نجد أي مصنع في طرابزون ، وإنما كانت ولا تزال توجد حتى الآن ورشات صغيرة للمنتجات الحريرية والقطنية والصوفية التي كانت تنسج في البيوت الخاصة . . . أما عدد مشاريع الصبغ ونقش النسيج فيبلغ عشرين وحدة ، ويبلغ عدد مؤسسات دباغة الجلود والسختيان الثلاثين . وعدد معامل صناعة الصابون يبلغ عشر وحدات ، وهناك مصنع لصناعة الآلات الحديدية^(١) .

ويصف بروسكوريياكوف بصورة مفصلة إنتاج السلع الزراعية ، والتجارة ومن الأهمية بمكان هنا الإشارة إلى أن بلاتانا التي تقع على بعد ١٧ فرسخاً عن طرابزون « هي عبارة عن ملجأ للمهربين الذين يجلبون بضائعهم ليس فقط إلى الساحل الجنوبي ، وإنما إلى الساحل الشرقي أيضاً ، وإلى القبائل المختلفة التي تتألف منها الشعوب الجبلية . فإنهم ينقلون مختلف الرسل والمبعوثين ويقومون بإرشادهم ، وكذلك ينقلون أنواع الأسلحة ، والرصاص ، والبارود ، ومختلف الأجهزة ، والأدوات ، والقذائف الحربية الأخرى ، ومنتجات المعامل والمصانع . ويجلبون مقابل السلع والبضائع المنقولة الفتيات الشركسيات الجميلات التي تم شراؤهن ، وحتى المسروقات من قبلهم أنفسهم ، وبالإضافة إلى كل ذلك يحملون بعض المنتجات المحلية للشعوب الجبلية^(٢) .

ويقدم بروسكوريياكوف وصفاً رائعاً لأرضروم وضواحيها ، ولسلسلة جبال

(١) ص ٣٨ - ٣٩ . بروسكوريياكوف ، ملاحظات عن تركيا ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢ - ٤٣ .

دوملو - داغ ، وبحيرة تورثوم ، وحوض نهر تورثوم - سو ، وأعلى نهر الفرات ، وكذلك أعلى مجرى جوروخ ومواقع أخرى^(١) .

ويذكر المؤلف بأنه هناك في أرضروم معمل لنسيج الجوخ ، ومعمل للمنسوجات الصوفية ، ومعمل للصبغ ، ومصانع لطبع ونقش النسيج ، وصناعة الجلود ، والسختيان ، ومصانع للأواني الفخارية وغيرها . ويشير بر وسكور ياكوف إلى الأهمية التجارية الكبيرة لأرضروم التي « يمكن إعتبارها المركز التجاري لآسيا الصغرى ، لأن الوضع الجغرافي لكردستان التي تقع على الطرق المباشرة التي تربط تبريز بطرابزون والقسطنطينية ، . . . جعلت من أرضروم محطة لحزن السلع والبضائع بين هذه المدن . فالقوافل تتقاطر من الأماكن المختلفة من تركيا وفارس إلى هنا على مدار السنة ، وهنا تجري مقايضة البضائع أو بيعها وخزنها لكي تنقل فيما بعد إلى أماكن مختلفة . أما الأمتعة والبضائع التجارية التي تصدرها فارس إلى تركيا للبيع عن طريق أرضروم فهي : كميات كبيرة من الحرير الخام ، والحرير المهيأ للنسيج ، والشال الثمين ، والسجاجيد الإيرانية والهندية ، والأصباغ ، والتبغ الشيرازي أو تبغ النرجيلة ، والشبُّق المصنوع من أغصان شجرة الكرز وقصب الكتابة . أما الحديد ومنتجات المعامل الأوروبية فيمكن الحصول على أغلبها عن طريق أستراخان ورشت ، ولهذا السبب هناك عدد كبير من التجار الإيرانيين يعيشون في أرضروم . . . وفيها تجارة الخيول رائجة حيث يتم التعامل ، والبيع ، والشراء في أسواق تقام أسبوعياً ، وغالباً ما يستطيع المرء أن يجد هناك الخيول العربية الأصيلة جلبت من مكة ، والمدينة ، وأماكن أخرى من الجزيرة العربية عن طريق قوافل التجار وحجاج مرقد محمد^(٢) .

رحلة أومانيثس

أرسلت لجنة خاصة بالحجر الصحي إلى الشرق في سنة ١٨٤٢ بطلب من المحافظ العام لتوفروسيسك ، بيسارابيا ، ونائب القفقاس م . س . فورونتسوف .

(١) المصدر السابق ، ٤٥ - ٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ٥٨ - ٥٩ .

وكان الطبيب فراچكو يرأس اللجنة ، أما الأعضاء فكانوا مدير دار الحجر الصحي أ . أومانيثس ، وطبيب الملاك چيرسيكوف . وكان يعمل في اللجنة إثنان من ضباط الصف هما كيسيليف ، ويولوسوخين ؛ مات الأخير بوباء الطاعون في القاهرة في فترة القيام بالتجارب . وكان على اللجنة أن تقوم « بأجراء تجارب في تطهير الأشياء الموبوءة عن طريق الحرارة العالية » .

خرجت اللجنة من أوديسا في مايس سنة ١٨٤٢ . وكان أحد أعضاء اللجنة وهو أ . أومانيثس قد سافر إلى مصر العليا قبل البدء بالتجارب (وصل إلى تخوم الشلال الأول وجزيرة الفيل) ، وبعد الانتهاء من العمل زار سيناء ثم عاد إلى القاهرة . ومن القاهرة وعن طريق البحر توجه إلى يافا ثم إلى مدينة القدس . وفي أثناء سفرته هذه زار الناصرة ، وصيدا ، وصور ، وبيروت ، ودمشق . ثم عرج على إزمير ، ونيقية ، وبروسه . وكان أومانيثس يدون مذكراته اليومية في الطريق ، وقد دخلت المذكرات مع جميع المقالات التي كان قد نشرها سابقاً في مضمون كتابه الذي أصدره في سنة ١٨٥٠^(١) .

يرد في الكتاب وصف تام وشامل عن الرحلة إلى سيناء في سنة ١٨٤٣ ، والمعلومات الواردة فيه من حيث الثراء والأهمية تتجاوز جميع الأعمال التي أشرنا إليها سابقاً كأعمال گاگارا ، وگريگوروفيتش - بارسكي ، وكير برونيكوف .

وإن الفصل المكرس لمصر مهمة وذلك لأنه يتضمن بعض المعلومات عن محمد علي الذي التقى به أومانيثس مرتين . وهناك تفاصيل أخرى طريفة ومهمة عن الواقع الاجتماعي والمعيشة ، وإننا نقف في هذه العجالة عند واحد من تلك التفاصيل التي تعرض الوضع الممتاز والألوية التي يتمتع بها الكولونياليون الأوروبيون (الناس « الذين يلبسون القبعات المستديرة ») : « إن تأثير الأوروبيين هنا يخرج بعيداً عن حدود العدالة أحياناً : إذا ما خطر لأوروبي أن يلهو بشكل خاص ، يتناول سوطه ويصفع به أذني أول فلاح يصادفه ، يقف الفلاح كأنه مذنب ، ثم يبتعد ويدفع الخطر عن نفسه بالهرب ، أما أبناء جلدته شهود مثل هذه المسرحية فإنه يوقفونه ،

(١) « سفرة إلى سيناء ، مع ملحقات تتضمن نبذاً عن مصر ، والأرض المقدسة لأومانيثس » ، القسم

١ و ٢ ، سانت پيترسبورغ ، ١٨٥٠ .

ويأخذون بالضحك عليه ومنظرهم يشير إلى تعطشهم إلى مزيد من التسلية . وإذا ما قدمت بالإضافة إلى ذلك لأصحاب القبعات المستديرة شكوى ملفقة على المظلوم المهان من قبل الرؤساء المحليين ، فإنهم يعرفون ماذا يعملون به «^(١) .

ويذكر أومانيثس بأنه كان قد شهد اللقاء الذي تم بين محمد علي والقنصل الروسي العام حول الطلب الذي تقدم به محمد علي لإرسال مهندسين روس متخصصين في التعدين لغرض القيام بتعليم العرب شطف وغسل الذهب . في منطقة فازوغا وكان قد استدعى فيما بعد كما هو معروف ي . ب . كوفاليشسكي لتحقيق هذا المطلب . ومن الطرافة بمكان حكاية أومانيثس عن الأعمال التي جرت لإقامة قناة يوسف في الأقسام العليا من مصر : « آلاف من الناس نصف عراة ، ومن جميع الأعمار ، من سبع سنوات حتى ستين سنة ، من الجنسين ، الرجال والنساء ، حتى النساء الحوامل كن منتشرات حول القناة على بعد فرسخين أو ثلاثة فراسخ ، وكن يعملن تحت أشعة الشمس المحرقة . وكان العرق يتصبب بغزارة من جسد العاملین في شق القناة ، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك عشرات بل مئات من المشرفين على العمل بصرخون ويضربون رؤوس العمال وذلك لدفعهم إلى إنجاز العمل بأقصر وقت ممكن . . . إن أشعة الشمس الحامية المتوهجة ، وضرب السياط ، وإنزال الأذى على العاملين ولا سيما على رؤوس الأطفال كانت مذهلة ، وكان الناظر [الرئيس] يتنقل حول القناة ، إن كل هذه الأشياء مجتمعة تعرض صورة مدهشة للغاية «^(٢) . وشقت قناة المحمودية هي الأخرى أيضاً تحت رعب السياط ، وكانت ضحيتها ٢٨ ألف فلاح . وأخيراً يقول أومانيثس بأن نقود محمد علي « اصطبغت بعرق ودماء فلاحى ومزارعى حوض النيل » .

رحلة ديتيل

قام في سنة ١٨٤٢ كل من ويليام فرانتسيشيج ديتيل (١٨١٦ - ١٨٤٨) وإيليا نيكولا ييشيج بيريزين ببعثة علمية الى الشرق لغرض اتقان اللغات الشرقية . ففي

(١) المصدر السابق ، القسم ٢ ، ص ١٨٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

تموز سنة ١٨٤٢ خرج ديتيل من أستراخان الى فارس ، ثم زار بلاد ما بين النهرين ، وسوريا ، وفلسطين ، ومصر ، وأفريقيا ، وآسيا الصغرى . وبعد عودته من الرحلة^(١) التي استغرقت ثلاث سنوات (١٨٤٢ - ١٨٤٥) وكان في التاسعة والعشرين من عمره عُين في منصب البروفيسور فوق العادة في كرسي اللغة التركية (العثمانية) في جامعة سانت پيترسبورغ . ولم يمهل الموت المبكر (بسبب مرض الكوليرا في سنة ١٨٤٨) من دراسة المواد والمصادر التي كان قد جمعها .

كان ديتيل مستشرقاً مثقفاً يهتم بجوانب متعددة في الدراسات الشرقية ، يشهد على ذلك بوضوح مقالته غير الاعتيادية الحية المهمة المتعة عن رحلته^(٢) .

وفي منطقة الموصل زار ديتيل الدير اليزيدي شيخ عادي : « تعود هذه الرحلة الى المحاولات الأولى للأوروبيين المنجزة بحزم إلى مكان بعيد جداً حيث تعيش فيه هذه القبيلة العنيفة . وكما تطلبت رحلته الى كردستان المسماة بحق « الأرض المجهولة » ان يكون دقيقاً في ملاحظاته ، فإنه في طريقه إلى حلب خلال ماردين ، ونصيبين ، ودياربكر ، وأورفة ، عنى السائح وركز اهتمامه على وصف القبائل المتعددة المختلفة من حيث لهجاتها ، والآثار القديمة الباقية في هذه البلاد . وعدد القبائل الذي قام بدراسته يفوق على ما يعتقد هو ما قام بوصفه الأوروبيون . . . » .

وفي كردستان اهتم ديتيل بشكل خاص بالدراسات التي تخص الجانب اللغوي والأنتوغرافي . فقد كتب هو : « انني عرفت هنا حوالي ٢٥٠ قبيلة ، يعرف الأوروبيون منها حوالي السبعين فقط » .

وقدم ديتيل دراسة رائعة عن الكرد ، بالرغم من أنه لم يتجنب الصفة التي كانت غمطاً جامداً في ذلك الوقت وهي أنهم قطاع طرق .

(١) « عرض للرحلة التي استغرقت ثلاث سنوات إلى الشرق قام بها الماجستير ويليام ديتيل » . « مجلة وزارة المعارف الوطنية » ، القسم ٥٦ ، الفصل ٤ ، سانت پيترسبورغ ، ١٨٤٧ ، ص ١ - ٣٠ ، المحاضر السنوية في جامعة پيترسبورغ الامبراطورية لما قبل ٨ شباط سنة ١٨٤٧ ، سانت پيترسبورغ ، ١٨٤٧ ، ص ٥٢ - ٦١ ، « بشير الجمعية الجغرافية لسنة ١٨٥١ » ، القسم ١ ، الكتاب ١ ، الفصل ٣ ، ص ١١٦ .

(٢) « مكتبة للمطالعة » ، المجلد ٩٥ عن سانت پيترسبورغ ، ١٨٤٩ ميس ، « مقالة عن الرحلة إلى الشرق من سنة ١٨٤٢ حتى سنة ١٨٤٥ » ، ص ١ - ٥٦ .

« . . . ان جميع هذه القبائل والاجيال تعيش بصورة اعتيادية بشكل مجموعات من القرى ، أو في المضارب ؛ غير أن بعضاً منهم ، بالرغم من أنهم يعيشون في موسم الشتاء في القرى ، إلا أنهم في الصيف عموماً ينتشرون في أودية كردستان الواسعة وراء قطعانهم وينتقلون من مكان إلى مكان ، ويحملون معهم كالببدو جميع امتعتهم وممتلكاتهم .

ويظهر من كل ما مرّ بأن قسماً من هذه القبائل تعيش حياة متحضرة ، وقسماً آخر في ترحال دائم ، أو أنهم نصف متحضرين . ويبدو أن عدد الكرد الرحل قليل . . . أما الرئاسة والحكم فعلى رأس كل قبيلة في الغالب يقف خان ، وهو يتصرف بشكل مستقل تماماً ، ويفعل ما يشاء ، يفرض الضرائب المعتادة على الرعية أو الأسر الرحالة . . . إلا أنه ليس من المفروض أن يكون لكل قبيلة خان ؛ فالسكان المتحضرون يحكمون من قبل الرؤساء المحليين . . .

والقبائل الكردية تتكلم بلهجات متباينة ، وتختلف الواحدة عن الأخرى بشكل أو بآخر بمسحة ظاهرة . . . »^(١)

« يقدم بدرخان بك الى كل شخص قطعة صغيرة من الأرض ، ويدفع عنها كل كردي بضعة قروش . . . وبالإضافة الى ذلك ، فإنه يفرض ضريبة الرأس على الماشية . إلا أن هذه الأجرة زهيدة أيضاً . ومقابل ما يحصل عليه الكردي يقدم الى الخان ثلث الكمية التي تنتجها أرضه . . .

وان الكرد بشكل عام أثرياء بقطعانهم ، وهي مبعث شوقهم وهواهم ، والمصدر الأساسي لوجودهم ، إنهم يسوقون خرافهم حتى سوريا ، قادمين من أبعد الاصقاع المجاورة للقفقاس . وأما أراضيهم فهي خصبة ومثمرة^(٢) . خرج ديتيل من الموصل وعن طريق ديار بكر وصل الى حلب ، وبيروت ، ومن هناك عن طريق بعلبك ودمشق دخل مدينة القدس ، ثم عاد من جديد الى بيروت ، وبهذا الشكل مرّ بجميع أراضي لبنان . ثم توجه الى مصر عن طريق البحر فزار الاسكندرية والقاهرة .

(١) « مكتبة للمطالعة » ، المجلد ٩٥ ، ١٨٤٩ حزيران ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

رحلة بيريزين

كان قد اتخذ في وقت واحد وفي نفس سنة ١٨٤٢ قرار بأرسال كل من ديتيل الذي مرّ ذكره ، والمجستير في الآداب الشرقية إيليا نيكولايفيتش بيريزين (١٨١٨ - ١٨٩٦) ببعثة الى الشرق ، وهو مستشرق معروف مختص بالدراسات التركية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وقد كان مشهوراً بصورة جيدة كمختص في الدراسات اللغوية ومؤرخ ورحال في روسيا ما قبل الثورة . وكان يعرفه مستشرقو الفترة السوفياتية أيضاً ، وقد ذاع صيته كناشر للمعجم الروسي للسير (١٨٧٣ - ١٨٧٩).

وبعد مروره بجميع أنحاء فارس من الشمال حتى الجنوب ، ومن أردبيل حتى جزيرة خارج في خليج فارس (يقصد الخليج العربي - م.خ .) ، اتجه الى البصرة فوصلها في منتصف سنة ١٨٤٣ ، ثم تعرف على بلاد ما بين النهرين ، وسوريا ، وفلسطين ، وأما في بداية سنة ١٨٤٤ فقد سافر إلى مصر ، وعكف على دراستها خلال البضعة أشهر التي عاش فيها ، وفي منتصف السنة نفسها وصل الى القسطنطينية . وانصرف فيها لمدة سنة كاملة تقريباً لتعلم ودراسة اللغة التركية . فكتب ك.ف. سقينسكي في سنة ١٨٥١ بهذا الصدد : « انه حصل على مجموعة قيمة - بعضها - جديد من المواد عن تاريخ وجغرافية الشرق ، والتقط صوراً لعدد كبير من النقوش والمدونات القديمة بلغ حوالي أربعين مخططاً وتصميماً ، وثلاثمائة صورة ، وجمع معلومات كثيرة عن العادات ، والتقاليد ، وعقائد سكان الشرق . ومن الممكن أن نتوقع بأن وصف هذه الرحلة التي تقع ضمن أخصب الرحلات التي تمت من روسيا الى الأصقاع الغربية ، سوف ترى النور قريباً »^(١)

وتعتبر الأعمال التي كتبها إ.ن. بيريزين عن رحلته الى تركيا أقل شهرة ،

(١) « إستعراض الرحلات والاكتشافات الأساسية في العشر سنوات من ١٨٣٨ حتى ١٨٤٨ » . بشير الجمعية الجغرافية الروسية لسنة ١٨٥١ ، القسم ١ ، الكتاب ١ ، الفصل ٣ ، ص ١١٦ - ١١٧ . قائمة المقالات من إعداد إ.ن. بيريزين . يراجع : ف. ف. كريكورييف . جامعة سانت بيترسبورغ الامبراطورية خلال الخمسين سنة الأولى من عمرها ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٠ (أعدد الحوامش ، والملاحظات ، والحواشي ، والإضافات إ.ن. بيريزين) ص ٦٧ - ٦٨ .

والسبب الرئيسي هو أن هذه الأعمال في الأساس نشرت في مختلف المجالات والدوريات خلال خمس عشرة سنة بعد عودة بريزين من تركيا ، لذلك أصبحت من النوادر ، ولم تكن في متناول الجمهور الواسع . وبالإضافة الى ذلك لا تنحصر أهمية تلك الأعمال في الفترة التي كتبت فيها وإنما لها أهميتها في الوقت الحاضر أيضاً لدراسة تركيا في منتصف القرن الماضي .

وجمع بريزين أثناء رحلاته كثيراً من المصادر والمواد الأساسية الأصيلة . واهتم بحماس بالجغرافيا ، والتوبوغرافيا ، والأنتوغرافيا ، والتاريخ . ومنذ السنوات الأولى من نشاط الجمعية الجغرافية الروسية شارك في أعمالها^(١) . كتب الأكاديمي س. ف. أولدينبورغ في سنة ١٩١٩ بهذا الصدد : « اننا نطلع رحلات بريزين بشوق ، ونجني منها الفوائد حتى في وقتنا الحاضر ، بعد مرور سبعين سنة ؛ فيها معلومات لا نشك في قيمتها لنا ، وفيها صفحات من تاريخ الاستشراق الروسي^(٢) . وبعد مرور أكثر من أربعين سنة اننا نستطيع أيضاً أن نعيد نفس كلام أولدينبورغ .

وفي مقالاته عن الشرق « مشاهد على الفرات » وصف بريزين طريقه في شط العرب . فهو يتكلم عن الثروة الطبيعية في المناطق المتاخمة لضفاف النهر ، وعن بساتين وأحراج النخيل التي لا نهاية لها : « لا شك انه هناك إمكانات في أن يعيش الانسان هنا حياة حرة رغيدة ، ولكن بالرغم من ذلك نرى الغابات الزاهرة هنا خالية ، لأن الانسان يرحل منها ويتركها ، انه يهرب من استبداد الترك . وإذا كان هناك بعض القرى فانها تقع بعيدة عن ضفة النهر ؛ ونادراً ما يشاهد المرء أكواخاً صغيرة يعيش فيها حراس من العرب ، ولا وجود هنا لسكان يعيشون حياة مستقرة ، لأن البدو يفضلون الصحراء على البستان النضر والحرية على السلطة التركية^(٣) .

(١) پ . پ . سيميونوف ، تاريخ نشاط الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية في نصف قرن ، القسم ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٦ ، ص ٣ .

(٢) « مذكرات جماعة المستشرقين التابعة للمتحف الآسيوي في أكاديمية العلوم الروسية » ، المجلد ١ ، لينينغراد ، ١٩٢٥ ، ص ١٧٦ .

(٣) مقالات عن الشرق « مشاهد على الفرات » . « المعاصر » ، المجلد ١١ ، ١٨٤٨ ، أيلول ؛ | . بريزين ، مشاهد في الصحراء . في الخان [الخانات] . « البشر الروسي » ، المجلد ٢٥ ، الكتاب ٢ ، شباط - آذار ١٨٦٠ ، ص ٦٨٩ - ٧٢٣ ؛ المجلد ٢٦ ، آذار ، الكتاب ١ ، ص ٤٩ - ٩١ .

وبعد أن مكث بريزين مدة شهر في البصرة ، توجه على متن باخرة انكليزية الى بغداد^(١) . وفي أثناء وجوده في بغداد زار خرائب طيسفون وبابل ، ومدينتي الحلة وكربلاء^(٢) . ولقد صادفت زيارة بريزين لمدينة كربلاء مباشرة بعد الأحداث الدامية في بداية سنة ١٨٤٣ عندما انتفض العرب الشيعة والفرس ضد السلطة التركية . وقد تم قمع الانتفاضة بجيش باشا بغداد .

فالوصف الذي كتبه عن الأماكن المقدسة الشيعية ، والحجيج الشيعة طريف ومهم جداً . وفي ضوء المعلومات التي يوردها بريزين يمكن الاستنتاج بأن خمسين ألفاً من الحجيج يزورون هذه الأماكن خلال السنة ، ويجلبون اليها للدفن ما يقارب الثلاثة آلاف جثة من البلدان الأخرى .

«... توازي مدينة كربلاء بسعتها مدننا التي هي مراكز أفضية ، أما عدد السكان هنا فهو أكثر بكثير مما عندنا ، وذلك لأن الشوارع في البلدان الشرقية أضيق بكثير من أزقتنا ، والدور تبني غالباً متلاصقة الواحدة بالأخرى ، وفي جميع مدينة كربلاء لا وجود للساحات والميادين . يحيط المدينة سور من الطابوق (الطابوق المجفف بأشعة الشمس) وهو في صفين ، الصف العالي يكون بمثابة مدارج ومشارف ، وأما الصف الواطئ يتكون من أقسام أمامية خالية ومكشوفة يفصل بعضها عن البعض بالحواجز ، وتكون هذه الفروع أحياناً مأوى للفقراء الذين لا دور لهم ، كما هي الحال في بغداد تماماً... »

ويتكون سكان كربلاء من الفرس الذين يعيشون هنا منذ زمان ، والعرب

(١) « مقتطفات من التقرير السنوي للماجستير بريزين الذي قام برحلة إلى الشرق » مجلة وزارة المعارف العمومية ، القسم ٤٦ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٥ ، ص ٢٣ - ٥٠ ، عرض للرحلة التي استغرقت ثلاث سنوات التي قام بها إلى الشرق الماجستير في جامعة قازان . « بريزين » . « مجلة وزارة المعارف الوطنية » . القسم ٥٥ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٧ ، ص ١ - ٢٥ ، « مشاهد في الصحراء . بين البصرة وبغداد » . « البشير الروسي » ، المجلد ١٣ ، الكتاب ٢ ، ١٨٥٨ ، كتابون الثاني ، ص ٣٢٧ - ٣٤٨ .

(٢) مقالات عن الشرق « مشاهد على الفرات » . « المعاصر » ، المجلد ١١ ، ١٨٤٨ ، أيلول ، « البشير الروسي » ، الكتاب ٢ ، شباط ، الكتاب ١ ، آذار ، ١٨٦٠ ، مقالة « كربلاء » وهي مكرسة للحدث عن كربلاء ، « مجلة دراسة الأرض والرحلات » . المجموعة الجغرافية التي أصدرها ن . فرولوف ، المجلد ٥ ، موسكو ، ١٨٥٨ ، ص ٢٠٦ - ٢٣٠ .

الشيعة ، والعثمانيين ؛ والفرس هم الفئة السائدة هنا بين السكان ، لهذا السبب يمكن أن يقال بأن لكربلاء طابع فارسي بالأساس . . . الأ أن الفرس الذين يعيشون هنا يتكلمون اللغة الفارسية واللغة العربية ، أما اللغة الغالبة والأكثر استعمالاً فهي اللغة العربية ، وأما العادات والتقاليد لسكان المدينة فهي خليطة عربية وفارسية «^(١)

وفي أيلول سنة ١٨٤٣ توجه بريزين الى الموصل عن طريق كركوك وأربيل ، ومن الموصل قام بسفرة لمدة شهر الى المكان المقدس عند اليزيديين^(٢) : « للموصل مزيتها أيضاً ، كما لبغداد ، وحلب ، ودمشق ، فهي رمادية اللون ، لأن جميع مساكنها وبنائاتها مبنية بالحجر الرمادي ، وبالمرمر المحلى وهو في لون رمادي أيضاً . ولفن العمارة فيها خصائصه المتميزة كذلك ؛ وان قباب المساجد في بعض الأماكن مخروطية الشكل ، وهي في أضلاع سداسية أو محورية ، وأما داخل المساكن فهناك صالونات مفتوحة ، وبجانباها غرف في طابقين تماماً كما في قصر الأمير فورونتسوف في أوريكا^(٣)» . . .

والأكثرية الساحقة من السكان هنا هم من العرب سكان المدن ، الذين يختلفون عن سكان الصحراء «البدو» ؛ أما العثمانيون فهم في العادة ينحصرون في الموظفين وإلى حد ما الجنود . . . والكرد يشكلون قسماً كبيراً من السكان ، ثم المسيحيون من الكلدان واليعقوبيين والنساطرة ، واليهود . وأخيراً يوجد هنا الأوروبيون أيضاً : الفرنسيون ، والانكليز ، وأناس من امريكا الشمالية . . . وتعطى اللغة العربية السائدة هنا والتي يتكلم بها جميع سكان المدينة بعض الوحدة لهذا الخليط من القبائل . أما اللغة التركية فهي لغة غريبة وأجنبية هنا ، وبدلاً منها

(١) المصدر السابق ، « كربلاء » ، ص ٢١٣ .

(٢) إ. ن. بريزين ، الموصل ، « مكتبة للمطالعة » ، المجلد ١٣٣ ، ١٨٥٥ ، تشرين الأول ، ص ١٧٠ - ١٩٠ ؛ وله أيضاً ، مشاهد في الصحراء « البشير الرومي » ، المجلد ٢٦ ، آذار ؛ المسيحيون في الموصل ، مجلة « الموسكوبيون » ، المجلد ٤ ، ٥ ، ١٨٥٩ ؛ اليزيديون ، « مجلة دراسة الأرض والرحلات » ، المجلد ٣ ، موسكو ، ١٨٥٤ ، ص ٤٢٨ - ٤٥٤ . (اليزيديون هم من الكرد ينتمون الى مذهب ديني خاص) .

(٣) إ. ن. بريزين ، الموصل ، « مكتبة للمطالعة » ، ١٨٥٥ ، تشرين الأول ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

(*) أوريكا : مدينة في شبه جزيرة القرم على ساحل البحر الأسود (المترجم) .

يتكلم عدد كثير من السكان في المدينة اللغة الكردية «^(١)» .

ومن الموصل توجه بيريزين عن طريق نصيبين وماردين إلى ديار بكر ، حيث استطاع أن يتعرف عن قرب على السكان الكرد في المنطقة ، وعلى حياتهم الاجتماعية والمعيشة اليومية ، ثم عن طريق سوفيريك ، وأورفه ، وحلب ، وانطاكيا ، واللاذقية ، وطرابلس ، وبيروت ، توجه إلى مدينة القدس ثم إلى دمشق . ومكث ثمانية أشهر في بلاد ما بين النهرين ، وسوريا .

وفي نهاية شهر شباط سنة ١٨٤٤ أبحر إلى الاسكندرية ، ثم زار القاهرة . وبقي في مصر مدة أربعة أشهر . وفي تموز سنة ١٨٤٤ دخل بيريزين إلى استانبول حيث عاش فيها حوالي السنة .

وعن مقال بيريزين « اليزيديون » كتب ن.ك.ج. جيرنيشيفسكي : « ان المجلد الثالث من « مجلة دراسة الأرض والرحلات » يضم مقالين أتوغرافيين صغيرين فقط هما : « اليزيديون » لبيريزين ، و« ذكريات عن سيبيريا الشرقية » لكورنيلوف . انهما بدون شك سوف يُقرأن باهتمام زائد ، بالرغم من أن المؤلفين المبجلين يقدمان لنا عرضاً مختصراً للأراضي والشعوب التي شاهدها فقط »^(٢) .

وبعد مضي عشرة أو اثنتي عشرة سنة على عودته من الرحلة نشر إ.ب. بيريزين عدداً آخر من المقالات التاريخية عن تركيا وبلدان شرقية أخرى^(٣) .

(١) المصدر السابق ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) ن.ك.ج. جيرنيشيفسكي ، مجموعة الأعمال الكاملة ، ١٩٤٩ ، المجلد ٢ ، ص ٦٢٠ .

(٣) إ.ب. بيريزين ، الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس المسيحية الأخرى في تركيا ، « مكتبة للمطالعة » ، المجلد ٨٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٥ ، ص ١ - ٧ ؛ وله أيضاً ، تركيا المعاصرة ، « المذكرات الوطنية » ، ١٨٥٦ ، كانون الثاني وشباط ؛ وله أيضاً ، المصلحون الشرقيون ، « المعاصر » ، العدد ١٠ ، ١٨٥٧ ؛ إ.ب. بيريزين ، الدين الإسلامي وعلاقته بالثقافة ، « المذكرات الوطنية » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٥ ، كانون الثاني وشباط .

الجمعية الجغرافية للامبراطورية الروسية

(١)

كان قد تطور نشاط المعنيين الروس بشكل أوسع في دراسة الشرق الأوسط في منتصف القرن التاسع عشر .

وكان قد وقع أهم يوم مشهود في تاريخ العلم الجغرافي الروسي في سنة ١٨٤٥ حينما تأسست الجمعية الجغرافية للامبراطورية الروسية التي لعبت دوراً كبيراً في الإنجازات التي حققها الباحثون الروس . وكان من بين مؤسسيها كل من ضابطي الأركان العامة ف. ف. بيرك ، وم . پ . فرونجينكو اللذين مرّ ذكرهما .

وشارك في الاجتماع الأول للجمعية الذي انعقد في ٧ تشرين الأول سنة ١٨٤٥ الجيوديسي م . پ . فرونجينكو والباحث الشهير لألتاي وآسيا الصغرى پ . أ . جيخاجيف^(١) .

كما وتم انتخاب البحار والجغرافي الروسي الكبير ف. پ . ليتكي نائباً لرئيس الجمعية . وحينما قدم ف. پ . ليتكي خطبته المطولة أشار إلى ضرورة دراسة تركيا وفارس .

« ان كلا من تركيا ، وفارس وهما من جارائنا القريبات . . . لهما مع روسيا تجارة مستمرة ، وعلاقات اجتماعية وسياسية ، ينبغي أن تستمر هذه العلاقات وتتعدد جوانبها يوماً بعد يوم بصورة طبيعية وبدون أي تكلف . . .

وأن الساحة التي عليكم أن تفلحوها هي واسعة جداً وموسم الحصاد يوحى بالثراء^(٢) . وفيما بعد ، ولغرض دراسة البلدان المجاورة ، ومن ضمنها تركيا ،

(١) ل . س . بيرك ، الجمعية الجغرافية لعموم الإتحاد السوفياتي في مائة سنة ، ص ٣٨ .

(٢) « الجمعية الجغرافية للامبراطورية الروسية في ذكراها الخامس والعشرين » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٢ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ ؛ « تاريخ نشاط الجمعية الجغرافية للامبراطورية الروسية في نصف قرن » ، تأليف پ . ب . سيميونوف ، المجلد ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٦ ، ص ١٣١٧ - ١٣١٩ ؛ « نشرات الجمعية الجغرافية الروسية » ، الكتاب ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٦ ، ص ٢٩ - ٣١ .

أسست الجمعية علاقات مباشرة لتحقيق هذا الغرض ، بالرغم من أنه لم يكن لجميع السفرات والرحلات إلى تركيا علاقة بنشاط الجمعية .

رحلة أوسبينسكي

عاش الأسقف يورفيري أوسبينسكي مدة طويلة في مدينة القدس ، وكان على معرفة تامة بفلسطين ، وسوريا ، ولبنان .

« لم يكن هذا الرجل بأي شكل من الأشكال مختصاً في الدراسات العربية ، ولا بالدراسات اللغوية العربية ، ولم يكن يتقن بعمق اللغة العربية ، إلا أنه واحد من الأوائل في تاريخ العلم الذين وجهوا اهتمامهم إلى مصادر الآثار التاريخية المتعلقة بالأدب المسيحية العربية ، وقد حافظ على مجموعة من الأسماء غير قليلة من الفقدان والضياع ، ونشر مقتطفات باللغة الروسية لطائفة من الاسفار والمدونات التاريخية التي اكتشفها هو ، غير أن أهم خدمة له في هذا المجال تتركز في حصوله على إحدى أفضل نسخة من مخطوطه تاريخ يحيى الانطاكي التي أصبحت فيما بعد النسخة الأساس للدراسة المعروفة التي أنجزها ف. ر. روزين . وأن المكتبة العامة في لينينغراد تقدم التقدير الفائق عندما يأتي الكلام عن مجموعة المخطوطات الشرقية وقيمتها الكبيرة وهي ماثرة من مآثر هذا الرجل تلقتها المكتبة منه »^(١)

وقد قام ببعثته في سنة ١٨٤٣ إلى الشرق عندما عين رئيساً للكنيسة التابعة للسفارة الروسية في فيينا . وخلال سنوات ثلاث سافر وتجول في أنحاء فلسطين وسوريا ، ثم أشغل منصب رئيس البعثة في مدينة القدس حتى سنة ١٨٥٣ . وفي سنة ١٨٥٨ عاد من بعثته إلى الشرق للمرة الثانية ولمدة ثلاث سنوات أخرى ، حيث حمل معه في هذه الرحلة مجموعة كبيرة جداً من الكتب القديمة والمخطوطات .

ولا شك بأن مقالات أوسبينسكي عن رحلته ، وكذلك يومياته ومدوناته عن سيرة حياته لها أهمية كبيرة جداً .^(٢)

(١) إي. كراچكوفسكي ، مقالات في تاريخ الاستعراب الروسي ، ص ١٥٤ .

(٢) كتاب عن حياتي . اليوميات والسيرة الذاتية والمذكرات التي كتبها الأسقف يورفيري

أوسبينسكي ، المجلد ١ - ٤ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٤ ، ١٨٩٥ ، ١٨٩٦ .

وقد وردت في مذكراته معلومات عن رحلته الى دير سيناء في سنة ١٨٤٥^(١) ، وعن حياة العرب ، ومميزات معيشتهم ، وحياتهم الاجتماعية ، وأعمالهم . وكان الدير يملك بساتين الفواكه ، وحقول الخضار ، وغابات الزيتون والنخيل في سيناء : « لا توجد أراضي صالحة للزراعة بوجه عام في سيناء الصخرية . وسكان شبه الجزيرة والرهبان يشترون القمح من مصر ، وينقلونه على ظهور الجمال مما يكلفهم مالا كثيراً جداً »^(٢) . ويمكن للمرء أن يستنتج من كلام بورفيرى أوسبينسكي بأن دير سيناء كان يملك أراضي ، وعقارات واسعة ، ودوراً مربحة في مصر ، وسوريا ، واليونان ، والهند ، وآسيا الصغرى ، وروسيا . ويشير بورفيرى أوسبينسكي الى أنه تعيش حول الدير مجموعة من القبائل الرحالة العربية . وتعتبر بعض هذه القبائل نفسها عبداً للدير ، وقبائل أخرى يعتقدون بأنهم حماة للدير ، أما البقية فلا علاقة لها بالدير بأي شكل من الأشكال . وكان عدد العبيد الذين يتكلمون اللغة العربية حوالي ٢٠٠٠ شخص بضمنهم النساء والأطفال . يعمل هؤلاء في أراضي الدير ويتلقون مقابل ذلك غذاءً زهيداً : « كان أولئك الناس الفقراء نصف عراة ، وانهم يضطرون أحياناً أن يملأوا بطونهم بالحشائش وجذور الأعشاب البرية ، وهم أكثر الكائنات ذلة ومهانة »^(٣) وتعيش هناك في المنطقة ثلاث قبائل : على قات ، وأولاد سعيد ، وأبريم وهي أفخاذ تتحد فيما بينها وتحمل اسماً عاماً هو كافر ي ، وعلى هذه القبائل بموجب معاهدات خاصة مع الدير أن تدافع عنه في حالة الأغارات والاعتداءات ، وأن تهيب الأرزاق والمؤن الضرورية للحياة بمعونة جمالمهم ، وأن يستقبلوا ، ويرافقوا ، ويودعوا جميع الرحالة والمسافرين . وليس للدير الحق في الإحتفاظ بالخيل والدواب التي تستخدم للنقل .

وفي عمله الآخر^(٤) يصف بورفيرى أوسبينسكي رحلته البحرية من يافا حتى الاسكندرية ، وبقائه في الاسكندرية والقاهرة ، وسفرته النهرية في النيل .

(١) « الرحلة الأولى الى دير سيناء في سنة ١٨٤٥ للاسقف بورفيرى أوسبينسكي » سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

(٤) « رحلة الاسقف بورفيرى أوسبينسكي الى مصر ودير أنتوني الكبير المقدس ودير بافل

فيثيسكي في سنة ١٨٥٠ » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٦ ، ص ٣٩ .

« يجري النيل بنشاط ، وهناك سفن ومراكب كبيرة وصغيرة ، وباحجام مختلفة ، وألوان متنوعة تمخر فيه الى كافة الجهات . ها هم صيادو السمك يلقون شباكهم في الماء ، وها هو القارب يحمل القطن ويمر بسرعة بجانبنا تحت شراع واحد . . . وها هو النوبي الاسود العاري يعوم الأخص والأباريق في الماء ؛ ويصنع منها رمثاً ، ثم يقف عليه ، ويجدف بقوة ، ويصرخ ببشاعة »^(١)

وفي يوميات بورفيري أوسبينسكي يثير اهتماماً كبيراً وصفه للأماكن ، ويقدم ملاحظات أتوغرافية ، وأثرية ، وتوبوغرافية ، ويخصص مكاناً بارزاً وكبيراً لوضع الكنائس وأحوالها . وفي الواقع أن هذه اليوميات ليست يوميات راهب وحاج ، وإنما هي ملاحظات وانطباعات رجل شاهد كثيراً ، وعرف كثيراً بحكم وضعه وعمله في الخدمة ، وخلال قيامه بالواجبات الرسمية .

تعتبر رحلات بورفيري مصدراً ضرورياً لجميع الذين يبحثون ويدرسون شبه جزيرة سيناء ، وهي في الحقيقة تشكل العمل العلمي الوحيد تقريباً المدونة عن ادبيات الحجيج ، وهي في مستوى يمكننا أن نقارنها بأعمال العلماء الغربيين^(٢) .

رحلة أدليربيرك

كان الضابط الشاب المشارك في حرب القفقاس نيكولاي فلاديمبروفيتش أدليربيرك (١٨١٩ - ١٨٩٢) قد قام برحلة إلى الشرق في سنة ١٨٤٦^(٣) . زار فيها اليونان ، ومصر ، وفلسطين ، وعرج على كورفو ، وأثينا ، والاسكندرية ، وبيروت ، ويافا ، ومدينة القدس .

صادفت زيارته لمصر فترة السنوات الأخيرة من حكم محمد علي ، وكان قد وجه اهتمامه الى الأوضاع المزرية التي كان يعيشها أبناء الشعب كغيره من الرحالة الروس

(١) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٢) «رحلة الاسقف بورفيري أوسبينسكي الى مصر في سنة ١٨٥٠» ، سانت بيترسبورغ ،

١٨٥٦ .

(٣) عين فيما بعد محافظاً عاماً في فنلندا (١٨٦٦ - ١٨٨١) .

الأخرين الكثيرين : « الشعب في حالة فقر مدقع ، ونائب الملك الذي يملك مصر كمستأجر لها ، لا يعلم عن جميع أنحاء البلاد قاطبة أي شيء سوى ممتلكاته الشخصية الخاصة . فهو يقدم الأتاوة إلى سلطان العثمانيين في كل سنة ، ويتمتع مقابل ذلك بالسلطة الحقيقية الكاملة في حكمه . أما الشعب فهو في حالة مزرية من جراء الفقر ، والأعمال الشاقة »^(١) .

ويصف أدليربيرك بشكل مفصل سوق الجواربي السوداوات ، ويذكر شواهد مهمة أخرى كثيرة في هذا الصدد .

وفي مقالة انتقادية عن كتاب أدليربيرك وردت إشارات إلى أن مذكراته عن الاسكندرية بصورة عامة ، وما وردت عن الحياة الاجتماعية والمعيشية للسكان وحتى الوضع السياسي في البلاد على وجه الخصوص قد طرحت « بصورة حية ومعبرة ، فيها البساطة والرقّة والجمال »^(٢) .

وبعد مرور خمس عشرة سنة قام أدليربيرك برحلته الثانية إلى الشرق . زار فيها الاسكندرية ، والقاهرة ، ويافا ، ومدينة القدس ، وحيفا ، وبيروت ، ودمشق ، وبعلبك ، وسميرنا ، والقسطنطينية . ثم صنف كتاباً عن نتائج سفراته باللغة الفرنسية^(٣) . والكتاب في مجلدين يتألفان من أكثر من ألف صفحة . ولقد كانت زيارته في هذه المرة بعد موت محمد علي ، لذلك وصف الإصلاحات التي قام بها الباشا بتفصيل أكثر ، ويشير إلى فقر السكان المريع : « لا يوجد هناك عربي من الفقراء يعرف أي شيء يتعلق بتحسين ومضاعفة رفاهية السكان . ولم يحدث أي تغيير نحو الأفضل في مصائرهم ، بل ازداد فقرهم نتيجة ازدياد الضرائب المفروضة من قبل الباشا الذي يبغى من وراء ذلك ثراه الخاص أكثر مما يرغب في تنفيذ مطالب الشعب »^(٤) .

(١) ن. ف. دليربيرك، من روما إلى مدينة القدس ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٣ ، ص ٧٥-٧٦ .

(٢) « المعاصر » ، المجلد ٣٩ ، القسم ٤ ، ١٨٥٣ ، ص ٤٥-٥٢ .

(٣) «En Orient Impressions et reminiscences», vol. 1-2, St. Pet., 1853, p.75-76.

(٤) المصدر السابق ، المجلد ١ ، ص ٥١-٥٢ .

رحلة رافالو فيج

يشير نشاط السائح الروسي المختص في الطب أرتيمي اليكسييف فيج رافالو فيج (١٨١٦ - ١٨٥٦) اهتماماً كبيراً جداً .

كان رافالو فيج مدرس الطب العدلي في مدرسة ريشيليو في أوديسا ، ومنذ سنة ١٨٤١ أختير عضواً في عدد من الجمعيات الطبية في روسيا والخارج ، وابتداءً من سنة ١٨٤٥ شرع في دراسة وباء الطاعون . ولتحقيق هذا الغرض توجه إلى الشرق كعضو عن أقدام بعثة خاصة شكلت لدراسة وباء الطاعون . وخلال رحلته قصد وزار هذا العالم الطبيب كلاً من تركيا ، ومصر ، وسوريا ، وفلسطين ، والجزائر ، وتونس . وكانت حصيلة رحلته أن ظهرت له مقالات وكتاب واحد^(١) . يقول عنه إ.ي. كراجكوفسكي ، بأنه : « يشكل مصدراً قيماً لفهم جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية - الاقتصادية في مصر في هذا العصر ، وهو في الواقع ظاهرة فريدة من بين جميع أدبياتنا لذلك الوقت^(٢) » . وأما ف.ف. بارتولد فهو يشير إلى أن رافالو فيج « حاول أن يجمع معلومات عن الوضع المعاصر في البلاد بعكس أكثر الرحالة الذين انصب اهتمامهم على الآثار القديمة فقط^(٣) » .

وفي الوقت الذي كان فيه يركز رافالو فيج دراسته على وباء الطاعون ، كان يوجه اهتمامه إلى الميزات التوبوغرافية ، والمناخية ، والاقتصادية ، والأنتوغرافية في البلاد أيضاً . وهناك تقارير مفصلة عن ملاحظاته وانطباعاته كانت تنشر بشكل دوري في « مجلة وزارة الشؤون الداخلية » تحت عنوان عام « مذكرات الطبيب الروسي » ، وكانت تترجم المذكرات مباشرة إلى اللغات الأخرى في الخارج .

وفي أثناء وجوده في القسطنطينية وسميرنا درس رافالو فيج أوضاع الشؤون الطبية في البلاد ، والأمراض السائدة فيها ووصف مدرسة الطب والجراحة في قلعة

(١) « رحلة أ. رافالو فيج في مصر السفلى والمناطق الداخلية من الدلتا » ، سانت بيترسبورغ ،

١٨٥٠ .

(٢) إ.ي. كراجكوفسكي ، مقالات في تاريخ الاستعراب الروسي ، ١١٩ .

(٣) ف.ف. بارتولد ، تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا ، موسكو . ليننغراد ، ١٩٢٥ ،

ص ٢٩٠ .

سراي ، والمستشفيات الإسلامية والمسيحية . ثم قدم وصفاً مفصلاً للاسكندرية وإجراءات محمد علي لإعادة بناء المدينة : « ان الشيء الذي يحتاج إلى نفقات ضخمة في أوروبا ، ويستدعي مراسلات لا نهاية لها ، ويولد الخصام بين الخزينة والملاكين ، يتحقق هنا بصمت حيث ينصاع كل شيء إلى اليد الحديدية للباشا الهرم الذي لا يرحم ، وان توفرت الرغبة نهيات السعادة كما يقول المثل ، وهكذا استطاع بتعنته المميز وتحقيقاً لفكرته التي انحصرت في تجميل الاسكندرية ، وبقسوة متناهية وبدون شفقة أن يغتصب المواقع والأماكن ، وأن يطرد أصحاب البيوت والمستأجرين ، بشكل اعتيادي وبدون أي تعويض ، وأخيراً أن يأمر بنقل المقابر إلى خارج المدينة ، ولا شك بأن هذا العمل الأخير في ذلك الوقت قد منح للمدينة وجهاً مغايراً تماماً للخصائص التي تتمتع بها المدن الشرقية المشابهة . . . غير أنه هناك مع ذلك بعض الأحياء التي لم تنلها يد التغيير . . . والمراقب يشاهد توحيد جميع التأثيرات الضارة الممكنة في « القرى » التي نصادفها في أماكن مختلفة داخل المدينة أو في خارج أسوارها . تسكن هذه الأحياء أسر الفلاحين الذين يعيشون في الاسكندرية ، وكذلك نساء وأولاد الجنود الذين يؤلفون في المدينة حامية عسكرية دائمة . . . وأن حالة هؤلاء المتميزة بعدم الراحة ، والوضع السيء ، والقذارة لا يمكن وصفها وتصويرها مطلقاً » (١) .

ويصف رافالو فيج بتفصيل المأكولات والأطعمة ، والألبسة ومظهر السكان ، وضواحي الاسكندرية ، والمؤسسة الطبية . ومن الاسكندرية توجه رافالو فيج إلى القاهرة ، وزار مصر السفلى حتى مدينة الرشيد ، ودمياط ، وشاهد بناء الاستحكامات ، وقضى بضعة أيام عند قناة المحمودية حيث تعرف على العمل في تنظيف القناة .

أما وصفه لدلتا النيل فهو شيء رائع : « ان الدلتا تشبه روضة فاتنة في الشتاء والربيع . . . غير أن مساكن الفلاحين لا تتجاوب مع أوضاع هذه الأرض الطيبة المباركة ، والصورة هنا معكوسة ، وأن كل ما يمكن أن نتصوره من عدم وجود أسباب

(١) « مجلة وزارة الشؤون الداخلية » ، القسم ١٨ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٧ ، ص ٤٩٧ -

الراحة والقذارة وكل ما يضر الصحة يفوق التصور . وأن أعضاء جسم الفلاح تحمل الآثار الحقيقية للتأثير الضار الذي يأتي من شكل الكوخ الذي يعيش فيه ، ومن الطعام الذي يتناوله ، وعموماً من الفقر الذي وصل إليه خصوصاً في عهد محمد علي . وإن المصريين كلهم تقريباً نحاف البنية ، وضعاف الجسم ، ويحملون أمراضاً كثيرة منها : الحمى ، والزحار (الديدنيتيريا) ، والتهاب العين ، والأمراض الجلدية ، وأمراض أخرى كثيرة . . . والنساء والأطفال يرتدون نوعاً واحداً من الأردية صيفاً وشتاءً ، ولا ينزعونه أو يبدلونه إلا عندما يتحول الى خرقة بالية لا يمكن استعمالها . ومناظر القرى محزنة وهي مبعث للأسى في القسم الأعظم من الدلتا ، وأما وضع المدن في جميع أنحاء مصر السفلى فهو أكثر رداءه من وضع الدلتا . . . فالسكان فقراء ، يرتدون الاسمال ، ويتبعون الزوار والمسافرين والرحالة ملتمسين الصدقة والإحسان . . . عندما تشاهد هذا المنظر المخيف من الخراب ، والدمار ، والفقر ، والفاقة ، تتساءل أو تسأل نفسك : هل حدثت زلازل ، أو اعتداء خصوم حتى يؤدي الى اخلاء هذه المدن المزدهرة منذ غابر الأزمان ؟ « ان حكم الباشا الكبير هو السبب في تدميرنا » ، هذا ما يجيب عنه بتأوه السكان . . . « (١) » .

ثم سافر رافالو فيج من مصر الى سوريا ، وعبر جبال لبنان وانطاكيا دخل السائح الى حلب ، ويشير هنا الى انه كان يوجد في حلب سابقاً اثني عشر ألفاً من الأنوال لغزل النسيج الحريري ، غير أنه بقي في الوقت الحاضر ما يقارب الألف فقط . ومن حلب وعن طريق حماة ، وحمص ، زار رافالو فيج بيروت مرة أخرى . وخلال رحلته توصل الى نتيجة تنحصر في أن وباء الطاعون في سوريا هو ليس من الأمراض المستوطنة وإنما يأتي في العادة من مصر أو من البلدان الأخرى .

ومن سوريا عاد رافالو فيج مرة أخرى الى مصر ، زار الاسكندرية ، ثم سافر الى القاهرة ومنها خرج عن طريق نهر النيل الى مصر العليا ، وبلاد النوبة السفلى . وقد قام بوصف جميع أنحاء المنطقة حتى وادي حلفا ، يتطرق فيه الى المميزات

(١) « مجلة وزارة الشؤون الداخلية » ، القسم ١٩ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٧ ، ص ٤٨٦ -

التوبوغرافية ، والجهاز الإداري ، والخدمات الطبية ، والاقتصاد^(١) .

وبعد عودته من بلاد النوبة السفلى مكث رافالو فيش بضعة أشهر في القاهرة ، ثم زار دلتا النيل مرة أخرى . وعن الغرض من رحلته كتب : « ان معرفة الأوضاع الحالية لضفاف نهر النيل من حيث الصحة العامة ، والزراعة ، والصناعة ، تشكل الغرض الرئيسي لرحلتي . وكان اكتسابي معرفة اللغة العربية وهي حصيلة وجودي المستمر في سوريا ، ومصر ، وتعرفني على الحياة الاجتماعية والمعيشية للشعب قد يسر لي عملي وحدد مسار ملاحظاتي وانطباعاتي^(٢) . »

ثم درس رافالو فيش أوضاع الزراعة ، والصناعة في مصر ، وحالة السكان فيها . وعن انطباعاته يقول :

« هناك في الفيوم . . . عدد كبير جداً من مغازل القطن ، ومعمل لصنع الطرابيش يسمى بمعمل ابراهيم باشا يعمل فيها بضع مئات من العمال ، وقد بقي في المدينة المقعدون ، والعميان ، والعرجان ، والكهول ، والعجزة فقط ؛ أما بقية السكان فقد هربوا خوفاً من سوقهم إلى المعامل عنوة ، ولا يدفعون إلى العمال الأجوراً قليلة جداً ، ولا تقدم الأجور اليهم نقداً وإنما يتسلمون بدلاً عنها الطرابيش (القبعات الحمراء) ، والأقمشة الكتانية محسوبة عليهم بأثمان غالية متعسفة ، عليهم أن يبيعوها بأقل مما احتسبت . . . »

ولا شك ان وجود المعامل الكبيرة في مصر . . . يؤدي الى اخلاء المدن من السكان . ولقد شاهدت بنفسي هذه الظاهرة في أماكن كثيرة جداً ، يحتفظ فيها الباشا بمعامله الخاصة . وهناك أسباب أخرى تؤدي إلى النقص في السكان فيها ، منها كوليرا سنة ١٨٣١ ، وطاعون سنة ١٨٣٥ ، والحملة السورية في سنة ١٨٤٠ [أي قمع الانتفاضة في سوريا ضد السيطرة المصرية] ، والوباء الذي قضى على الحيوانات في سنة ١٨٤٣ ، والأوبئة لم تنته نهائياً حتى الوقت الحاضر^(٣) .

(١) « مجلة وزارة الشؤون الداخلية » ، القسم ٢٤ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٨ ، ص ٣٢٩ -

(٢) المصدر السابق .

(٣) « مجلة وزارة الشؤون الداخلية » ، القسم ١٩ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٧ ، ص ٤٨٧ -

ثم يكتب أ.أ. رافالو فيش : « ان الباشا لا يوافق على تخفيض الضرائب أبداً ، بالرغم من أن القسم الأعظم من القرى ليس في وضع يستطيع فيه دفع المطلوب أو الواجب دفعه . لذلك يلجأون إلى سلب الأموال المنقولة للفلاحين لأكمال البقية الباقية من الضريبة المستحقة ، وأخيراً ، استولى الباشا على القرى ووضعها تحت ادارته الخاصة أو وزعها على أولاده وأحبابه ، وألزم هؤلاء المالكين الجدد أن يدفعوا ما يستحق عليها الضرائب وإعطائهم الحق في أن يستعيدوا ما دفعوه من مدخولات القرى بأي أسلوب يشاؤون . وبهذا الشكل يعود القسم الأعظم من الدلتا إلى ممتلكات أولاد الباشا أو أصحاب المقامات العليا . . . » (١)

هذه الصورة وبشجاعة متناهية فضح الطبيب الروسي رافالو فيش طغيان نظام محمد علي في مصر على صفحات النشرة المطبوعة لوزارة الشؤون الداخلية في عهد نيكولاي الأول ، إذ لم يقدم أي رجال أو سائح أوروبي مثل هذه الصورة .

ثم توجه رافالو فيش من القاهرة الى فلسطين عن طريق برزخ السويس . ووصف ببراعة الصحراء ومدن غزة ، ويافا ، والرملة ، ومدينة القدس : « هنا بين حوانيت المواد الغذائية . . . بالقرب من كنيسة القبر الأقدس (يقصد كنيسة القيامة - م.خ .) يزدحم الناس وهم نحيفون شاحبو الوجوه ، رثو الثياب ، حتى أنك لتعتقد بأنهم يتألفون من الفقراء فقط إذا حكمت على أساس شراحتهم التي تطالعك وهم يطلبون منك الصدقة والإحسان . ان فقر السكان في الواقع لا حدود له . ولا وجود للنشاط التجاري والصناعي ، والقسم الأكبر من المسيحيين يعيش على هبات الأديرة ، في حين يعيش اليهود على المبالغ التي يتبرع بها اخوانهم في الدين في مختلف أنحاء العالم . أما المسلمون فليسوا اكثر ثراءً » (٢) .

ومن مدينة القدس توجه رافالو فيش إلى بيروت ، ثم الى طرابلس ، وعن طريق جبال لبنان وانتي لبنان دخل دمشق : « كانت معامل الحرير سابقاً تشكل الصناعة الأساسية في المدينة ، أما في الوقت الحاضر فقد أغلق معظمها بسبب المنافسة

(١) المصدر السابق ، ص ٤٨٨ .

(٢) « مجلة وزارة الشؤون الداخلية » ، القسم ٢٠ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٧ ، ص ١٥٦ -

القاتلة من جانب النسيج الفطني الانكليزي والسويسري ، حيث يكون لونه اكثر حيوية ، وزخرفته اكثر جمالاً ، وأما سعره فلا يمكن أن يقارن بالنسيج الدمشقي لأنه أرخص بكثير من أفضل أنواع النسيج الحريري الذي يتم إنتاجه هنا .

ومن دمشق عاد رافالو فيش إلى بيروت ، وبعد مرور عدة أيام أبحر إلى اللاذقية ثم فيما بعد دخل الإسكندرونة .

وعاد رافالو فيش إلى روسيا في أواخر خريف سنة ١٨٤٨ ، بعد أربعة وثلاثين شهراً من التغيب . وفي مقدمته لكتابه أشار رافالو فيش : « كتبت أشياء كثيرة من قبل الرحالة والسياح من مختلف القوميات والأجناس ، وأكثر من ذلك كان الكلام المحكى ، وأعيدت كتابة ما كتب وما قيل في الصحف عن المؤسسات الفاخرة لمحمد علي على ضفاف النيل ، وعن اجراءاته الانسانية لتحسين حياة الفلاحين ، والقضاء على الظروف المحلية الضارة التي تسبب الطاعون وما شابه ذلك . . . »^(١) « انني وضعت أمام نفسي واجباً رئيسياً أرغب في تحقيقه ، بتجرد وبقدر الإمكان في وجهة نظر موضوعية ينحصر في تشخيص الوضع الواقعي للقرى وسكانها من الفلاحين في مصر السفلى والدلتا ، لأجل أن أوضح عن أية بدعة من بدع الباشا الشهير التي تحققت فعلاً ، وإلى أي مدى انتصرت تلك التقاليع ! إن وصفي لا يتفق دائماً مع الصورة الرائعة لمصر الموجودة في كتب الباحثين الآخرين ؛ أما سبب هذا التناقض فيعود في الغالب إلى أسلوب وطريقة الرحلة في هذه المناطق . من الطبيعي أن السياح الغربيين يمكثون بعض الوقت في الاسكندرية والقاهرة فقط ، وهم يعيشون في فنادق ممتازة تعود للأوروبيين ، ويشاهدون من القرى تلك الواقعة على ضفاف نهر النيل فقط ، وتكون مشاهداتهم من ظهر زورقهم أو سفينتهم السريعة السير ، وتجلب الآثار العتيقة ، والخرائب ، والأطلال ، والمومياء بدون شك انتباههم أكثر من حياة الفلاحين والقرى في وضعها الراهن ؛ وانهم يقومون بأبحاثهم عن طريق المترجم ، وأخيراً يستندون في أحكامهم عن وضع المنطقة وسكانها على التقارير الرسمية للسلطات المحلية ، والظاهر بأن هذا لا يشكل الأداة الموثوقة لدراسة البلاد »^(٢) .

(١) « رحلة أ. رافالو فيش إلى مصر السفلى والمناطق الداخلية للدلتا » ، سانت بيترسبورغ ،

١٨٥٠ ، ص ٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦ - ٧ .

وهكذا يختلف الانسان والشخصية التقدمية أريتمي اليكسيثيخ رافالو فيخ
عن الرحالة الأوروبيين ، وقد أنجز الواجبات والمهام التي وضعها على عاتقه بعمق
ونجاح باهر حين درس واقع البلاد ، ووضع الفلاحين .

وقد ثمن عالياً ب . ب . سيميونوف - تيان - شانسكي^(١) أعمال رافالو فيخ في
دراسة الشرق الأوسط .

وخلال ثلاث سنوات زار فيها أ . أ . رافالو فيخ تركيا ، ومصر ، وسوريا ،
وفلسطين ، والجزائر ، وتونس ، وقد مكث في كل بلد من هذه البلدان بشكل أو
بآخر مدة طويلة . وبعد تعلمه للغتين التركية والعربية ، اهتم بشكل خاص بحياة
سكان البلدان المختلفة ، وجمع أهم المواد والمصادر الغنية عن أتوغرافية هذه
المنطقة .

السائح المجهول

تعود مذكرات أحد المسافرين الى سوريا وفلسطين^(٢) الى سنة ١٨٤٤ -
١٨٤٧ ، فالمؤلف غير معروف لدينا (اننا نعرف عنه فقط ، بأنه قد وصل الى بيروت
في ١٤ نيسان سنة ١٨٤٤ على متن السفينة الحربية « نيارك ») . ولمذكراته أهمية الى
حد ما ، لأنها تطرح بعض القضايا عن ميزات الطبيعة في سوريا وفلسطين ،
والأحوال الزراعية فيهما ، وعن مقابلات ولقاءات المؤلف بممثلي الإدارة التركية ،
وعن ادارة الطوائف المختلفة وملاحظات تتعلق بالحياة اليومية .

والمؤلف يصف بوضوح الأوضاع الطبيعية في البلاد : « التربة هنا وفي نفس
الوقت في جميع الأماكن ليست واحدة ؛ ففي المناطق الداخلية والجبلية تكون التربة
أكثر خصوبة من الأراضي الواقعة على شواطئ البحر ، ولا تتميز ضواحي بيروت
وطرابلس بأية خصائص معينة في النوعية والكمية في إنتاجها عن المناطق الأخرى .

(١) ب . ب . سيميونوف ، تاريخ نشاط الجمعية الجغرافية الروسية في نصف قرن ، القسم ١ ،
سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٦ ، ص ٣١ .

(٢) « مذكرات مسافر الى سوريا وفلسطين ١٨٤٤ - ١٨٤٧ » ، « مكتبة للمطالعة » ، المجلد ١٠٢ ،
١٨٥٠ ، تموز .

ونباتات البساتين من نوع واحد ، والأزهار قليلة وذابلة . . . وتستطيع ضواحي حيفا وصيدا أن تضاهي الأودية المثمرة في انطاكية ، ودمشق . أما جبال لبنان وانتي لبنان فهي غنية بمحصولاتها المتنوعة من النباتات والحيوانات ، لذلك كله لا يجوز الحكم على سوريا ومناخها بأنها غير منتجة لأن بعض المناطق على شواطئ البحر عقيمة ، حيث الأرض اما أن تكون صخرية أو رملية أو ملحية ، وبالإضافة الى ذلك لا يوجد هناك أي شيء يحفظ الأرض من تأثير الشمس المحرقة ، والرياح العاتية ، وبخار البحر المضر . . . ولكن كلما يتوغل المرء في أعماق البلاد يشعر بالتغير ، حيث يكون مستوى ارتفاع الأرض أعلى ، والمياه العذبة الصالحة للزراعة أوفر ، والوضع الواقعي للجبال يخفف مفعول الحر ؛ والرطوبة ، والرياح ، وتوضح جودة المناخ تدريجياً مع زيادة الشعور بالبرد . ودمشق على سبيل المثال ، وبالرغم من بعدها عن البحر ، تحيط بها سلسلتان من الجبال ومع ذلك تشتهر بمناخها الحسن المعتدل «^(١)

ويصف المؤلف بتفصيل النباتات وعالم الحيوان في البلاد ، ويقدم معلومات موجزة عن السكان ، ويتكلم عن العلاقات بين القوميات المتعددة ، وعن أوضاع المعارف والمدارس التي أسسها الرهبانة الكاثوليكيون ، والروحانيون الارثوذكس ، والمبشرون الأميركيون ، وعن المطبعة المؤسسة برعاية القنصل الروسي العام ك.م. بازيل .

ويكشف المؤلف عن أسباب الوضع السيء للشعب في سوريا : « سوريا في الوقت الحاضر ، ثروة بحوزة التجار ، وضحية المرتشين المنسوبين الى الباشا ، والموظفين الآخرين في الباب العالي ؛ فان جشعهم لا حدود له وهو يقضي على الشعور بالعزة القومية بين السكان ، تكون الضرائب غالباً مفرطة ، وغير عادلة وهي تقضي فيهم على أي ميل أو انعطاف الى الصناعة والتجارة الحرة . . . والباب العالي ينظر بلا اكتراث . . . شأنه في ذلك شأن الأجانب عموماً الذين يستغلون التضييق على صناعة الأهالي فيتجمعون كالسحب ويزدادون سمناً وثراءً لأنهم يحتكرون ثروة البلاد كلها دون مقابل . وأن فقر الشعب المدقع واضح إلى درجة بحيث يصعب على أي مشاهد مهما كان ضعيف الإبتباه أن يلاحظ الوضع المحزن للسكان الذين يعيشون

(١) المصدر السابق، ص ١٠ - ١١ .

وسط كل هذه الثروات الطبيعية . . . (١) .

« ونشاهد في الوسط المسيحي في سوريا الإضطرابات وارتكاب الجرائم بشكل مستمر ، وسبب هذه الأحداث يرجع الى غلو بعض مبعوثي روما الذين يستحقون اللوم بدون شك ، وأكثر من ذلك عمل المبشرين الأميركيين الذي يشكل أحد الأسباب المهمة للعداء الماحق بين المارونيين والدروز ، وبالإضافة الى ذلك كان المبشرون الأميركيون يؤسسون المدارس بمساعدة الدروز في قرى المارونيين . وكانوا يستأجرون التلاميذ بين أردا القوى المغرورة . . . وكان المارونيون لهذا السبب بالذات يكرهون هؤلاء المبشرين كرهاً شديداً الى درجة انهم سوف يحرقونهم ويحرقون منازلهم في ضواحي بيروت بالتأكيد بعد أول انتصار لهم على أعدائهم . والدروز من جانبهم يقولون بأن صداقتهم مع الانكليز تركز على شيء واحد فقط هو أن الانكليز ليسوا مسيحيين . وتحمل جميع القبائل الخشنة في سوريا هذه الفكرة عن البروتستانتين (٢) . »

لانشك في أن هذه المقالة القصيرة المنسية منذ زمان طويل لمواطننا المجهول تفيد لدراسة سوريا في الأربعينيات من القرن التاسع عشر .

رحلة آيقاز وفسكي

زار القسطنطينية في سنة ١٨٤٥ الفنان الشهير المختص برسم المناظر البحرية إ.ك. آيقاز وفسكي (١٨١٧ - ١٩٠٠) .

وقد رافق الأمير الكبير كونستنتين نيكولا يقيش منذ نيسان سنة ١٨٤٥ وحتى تموز سنة ١٨٤٦ في رحلته الخارجية إلى سواحل تركيا الأوروبية ، والأرخبيل ، وآسيا الصغرى . وبالإضافة الى القسطنطينية زار جزائر خيوس ، وبياتموس ، وساموس ،

(١) المصدر السابق ، ص ٢٢ - ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠ . في عملنا هذا هناك اشارة الى نشاط البعثات الأميركية في الشرق الأوسط وقد ذكره الرحالة الروس اكثر من مرة . ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تصادف فيها اشارة مفادها ان الاميريكان كثيراً ما اعتبروا انكليزاً .

وميتيلينا ، ورودوس ، وخرائب ، واطلال طروادة القديمة ، وسينوب . وكانت حصيلة هذه الرحلة ان حمل إ.ك. آيغازوفسكي معه عدداً كبيراً من الرسوم التخطيطية^(١) . ومن ثم رسم الفنان بعض اللوحات الشهيرة نتيجة لانطباعاته ومشاهداته في هذه الرحلة منها : (« جزائر بريتسيف » ، « طروادة » ، « المقهى التركي » ، « المركب والتركيات ») . وقد زار القسطنطينية للمرة الثانية في سنة ١٨٦٧^(٢) . وأما في تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ فزار مصر وحضر في حفلة افتتاح قناة السويس ، فانعكست هذه الرحلة أيضاً في إحدى لوحاته فيما بعد .

رحلة گوگول

قام ن.ف. گوگول بزيارة الى فلسطين في سنة ١٨٤٨ . وكان قد كتب ثمانين رسائل مشهورة ، نصفها في مدينة القدس ، والنصف الآخر في بيروت . ففي رسالة له من بيروت الى س.ب. شيفيريف وهي مؤرخة في ١٨ (٣٠) آذار سنة ١٨٤٨ ، يشير ن.ف. گوگول الى أن ك.م. بازيلي ساعده في سفره الى مدينة القدس عن طريق صيدا ، وصور ، وعكا ، والناصرية . وفي طريق عودته أقام في بيروت ردهاً من الزمن ثم سافر الى القسطنطينية^(٣) .

وبعد أن عاد الى موسكو كتب ن.ف. گوگول وهو يستجيب الى رغبة ف.أ. ژوكوفسكي مقالة عن فلسطين : « ان فلسطين وجبالها الرتيبة المتشابهة تشبه أمواجاً رمادية لا نهاية لها تتحرك في البحر . . . وأنت تصادف أحياناً ، أو بالأحرى بشكل نادر عدداً من أشجار الزيتون لا يتجاوز الخمسة أو الستة في جميع منحدرات الجبال . أما لون التربة فهو رصاصي أو رمادي ، كالصخور الموجودة في نفس الجبال ، وأنت أحياناً تشاهد غشاء طحلب رقيق واحد فقط بشكل خاطف ، وترى قطعة صغيرة من الأرض مخضرة بالحشائش في وسط هذه الأرض العارية المتموجة

(١) «إيقان كونستانتينوفسكي» آيغازوفسكي ونشاطه الفني خلال اثنتين وأربعين سنة ، «عهود الروم القديمة» ، ١٨٧٨ ، أيلول ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، ١٨٧٨ ، تشرين الأول ، ص ٢٨٣ .

(٣) مراجع : مؤلفات ورسائل ن.ف. گوگول ، المجلد ٦ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٧ ، ص

الصخرية ، وخلال سيرك ما يقارب الخمس أو الست ساعات تلتقي أحياناً بكوخ ملتصق بالجبل يسكنه عربي ، وهو يشبه القدر الخزفي ، أو الموقد ، أو كهف الوحوش الكاسرة أكثر مما يشبه مسكن الانسان . . .

وفي وسط مثل هذه الصحراء تشبه مدينة القدس وبيت لحم وجميع المدن الشرقية مجموعة من الأحجار والطابوق مرمية بلا نظام ولا تنسيق «^(١)» .

رحلة فيازيمسكي

قام برحلته الى الشرق الشاعر والناقد المشهور بيوتر اليكساندروف فيازيمسكي في سنتي ١٨٤٩ - ١٨٥٠ ، هو صديق أ. س. بوشكين .

ولقد خرج من ضيعته اوستافييف في ضواحي موسكو في حزيران سنة ١٨٤٩ ، وزار القسطنطينية ، وإزمير ، وجزيرة رودوس ، ومدينة القدس ، وبيروت^(٢) . وقصد طروادة منوجهاً إليها من القسطنطينية على ظهور الدواب ؛ ورافقه في رحلته أندريه مورافيف الذي كان قد قام برحلة أخرى سابقاً الى الشرق ، وكانت هذه رحلته الثانية .

كان اهتمام پ. أ. فيازيمسكي ضئيلاً بالطبيعة والاقتصاد في البلدان التي قام بزيارتها . وأنه أحياناً وبشكل عابر يشير إلى ظاهرة أو أخرى من الظواهر التي تخص الطبيعة الجغرافية : « ان النقص الكبير في مدينة القدس وفي ضواحيها ، وفي الشرق عموماً ينحصر في عدم وجود المروج »^(٣) .

وكان فيازيمسكي قد نزل في بيروت عند القنصل الروس ك. م. بازيبي الذي عرفه (كما عرف ن. ف. گوگول أيضاً) بكتابه عن سوريا .

ومن بيروت توجه فيازيمسكي الى بعلبك . وعند عودته الى بلاده أشار الى أنه في

(١) المصدر السابق ، ص ٤٧٧ - ٤٧٩ .

(٢) «رحلة الأمير پ. أ. فيازيمسكي (١٨٤٩ - ١٨٥٠) الى الشرق» ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٩ .

جزيرة ميتلين أدخلوا الباخرة حوالي مائة من العبيد السود من الرجال والنساء ينقلونهم الى القسطنطينية للبيع . . . هذه هي نتائج تجارة الرقيق التي يتحدثون ضدها (ينتقدونها) بحرية وبلبيرالية يطوفون البحار البعيدة ، ولكنها هنا تجري بشكل علني ومفضوح وتحت العلم النمساوي .

رحلة كوفاليفسكي وتسينكوفسكي

من الأهمية بمكان أن نشير هنا الى الرحلة الشهيرة التي قام بها ايگور بيتروفيتش كوفاليفسكي (١٨١١ - ١٨٦٨)^(١) الى الشرق .

دعي في سنة ١٨٤٧ من قبل محمد علي لأن يتوجه الى مصر لاجراء التنقيب عن مكان الذهب في القسم الشرقي من السودان والقيام بتعدينه . وقبل سنة من هذه الدعوة كان قد رافق كوفاليفسكي مهندسين مصريين قدموا الى روسيا للقيام بدراسة شؤون التعدين في أورال .

كان لأحد أشهر علماء الطبيعيات في القرن التاسع عشر وهو الأكاديمي الروسي ك.م. بير^(٢) الدور الكبير في تنظيم رحلة بي.ب. كوفاليفسكي . وحينما علم مدير قسم الجغرافيا العام في الجمعية الجغرافية الروسية ف.ب. فرانجيل بأن بي.ب. كوفاليفسكي سوف يتوجه الى مصر ، تقدم بمقترح الى مجلس الجمعية للعمل على ترشيح عالم يصاحب كوفاليفسكي في رحلته على أن يكون « عالماً يتقن معلومات أساسية في العلوم الطبيعية ، وأن يقوم بالبحوث المتعلقة بالجغرافيا الطبيعية واتوغرافيا البلاد بأشراف كوفاليفسكي وهي قضايا لا نعلم عنها إلا الشيء الضئيل » . وقد وقع اختيار فرانجيل على الماجستير في جامعة سانت بيترسبورغ ل.س. تسينكوفسكي (١٨٢٢ - ١٨٨٧) . ثم اقترح مجلس الجمعية الجغرافية على ك.م. بير ، وف.ر. براندت ، وي.خ. لينتس أن يقوموا بتهيئة التعليمات

(١) ب.أ. فالسكايا ، رحلة ايگور بيتروفيتش كوفاليفسكي ، موسكو ، ١٩٥٦ .

(٢) ب.أ. فالسكايا ، الأكاديمي ك.م. بير عن رحلات إي.ب. كوفاليفسكي الى مصر والصين في

الأربعينيات من القرن التاسع عشر . (بلدان وشعوب الشرق) ، النشرة ١ ، موسكو ، ١٩٥٩ ، ص ٢٦٣ -

والإرشادات لتسينكوفسكي بنفذهما مع ما يستجد هناك من قضايا تتعلق بالموضوع .

وتسلم تسينكوفسكي من تشرين الثاني سنة ١٨٤٧ التعليمات التي كانت تحمل عنوان « العمل العلمي في أفريقيا » ، وهي مقررّة من قبل مجلس الجمعية الجغرافية . ورد في التعليمات اقتراح يقضي بوجود القيام عند دراسة منظومة نهر النيل بوصف « يتضمن معلومات عن المرتفعات والمنخفضات على سطح الأرض من حيث علم المناخ ، وعن خصائص النباتات والصفات المميزة لعالم الحيوان ؛ وعند وصف السكان يجب الإهتمام بشكل خاص ليس فقط بالمظهر الجسماني ، وإنما بنمط الحياة والتطور الفكري أيضاً »^(١) .

وكان على ل. س. تسينكوفسكي أن يقدم وصفاً لمنظومة نهر النيل بأسلوب يكون في متناول يد كل رجل مثقف . وطلب منه أن يقدم صور السكان الأصليين من القبائل المختلفة في داخل أفريقيا ، ومعلومات عن المأكولات والأطعمة ، وخصائص الحبوب والغلل .

وصل ي. ب. كوفاليفسكي الى القاهرة في نهاية كانون الأول سنة ١٨٤٧ ، أقام هناك أسبوعين ، وكان غالباً ما يلتقى بمحمد علي . وفي بداية شهر كانون الثاني وبمرافقة ضباط مصريين خرج من القاهرة مبحراً على متن الباخرة حتى أسوان التي تقع على بعد ألف فرسخ من القاهرة ، ومن هناك استمروا في السفر على متن زورق حتى كوروسك . وفي كلايس اجتازوا المدار (مدار السرطان) .

« ينعطف النيل من كوروسك انعطافاً شديداً نحو الغرب ، يرسم قوساً في شكل حدوة حصان ، وفي هذا الفضاء الواسع تشاهد الشلالات ومساقط المياه الواحدة بعد الأخرى ؛ ويمكن للمرء أن يعبر النهر سباحة في أوقات الفيضان فقط . وكان على المسافرين أن يتركوا الزورق ويسافروا على الجمال ، أو السير في ضفاف النيل بجميع منعطفاته ، أو خلال صحراء النوبة الواسعة »^(٢) . أما كوفاليفسكي فقد اختار الطريق الثاني ، لأنه أقصر ، ودخل في أعماق الصحراء بمرافقة بضع عشرات

(١) المصدر السابق ، ص ٢٧٠ .

(٢) « الأخبار الجغرافية » ، النشرة ١ ، ١٨٤٩ ، ص ١٠ .

من البدو . وفي الطريق كان يحدد مستوى علو الصحراء بالبارومتر . ثم عادوا الى استعمال الزوارق في بربر مرة أخرى . وفي بداية شباط وصلوا إلى موقع ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق ، وفيما بعد وخلال ثلاثة أسابيع من السفر بالزوارق وصلوا الى روسيروس ، وكانوا يخرجون بين الحين والآخر الى ضفاف النيل الأزرق ، وساحل سنار او الشاطيء الحبشي للارصاد والمتابعة والمراقبة^(١) .

وعند روسيروس ترك المسافرون النيل الأزرق ، وعادوا إلى ظهور الجبال حيث استمروا في السفر بين الجبال حتى تومات في الفرع الأيسر للنيل الأزرق . وكانت تنتظر كوفاليفسكي فرقة حربية قوامها ألفين وخمسمائة شخص بقيادة المحافظ العام لشرقي السودان في تومات على سفوح جبال كاسان . ثم شرعوا بالبحث عن رواسب الذهب ، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً . وفي تومات تم تأسيس أول مشروع لاستخراج الذهب . وبغية دراسة منابع النيل واكتشاف أهم منطقة في أفريقيا الوسطى التي كانت من مقتضيات المصلحة العلمية كان كوفاليفسكي قد بدأ بالسفر في ٣ (٢٥) آذار ، وبعد أن أقام علاقات مسبقة بالمالكين من أصحاب بعض الجبال والقبائل المستقلة . فساروا مسافات طويلة من الطريق مشياً على الاقدام ، ثم وصل الباحثون الى قمم تومات حيث لم يدرك هذه القمم قبل ذلك الوقت أي شخص أوروبي . وفي الجانب الأيسر من تومات كان يجري نهر النيل الأبيض^(٢) .

ثم عاد كوفاليفسكي الى الاسكندرية بطريق آخر خلال دونغلا .

وبخلاف رأي هومبولدت وعلماء آخرين عن أن نهر النيل وفي مدى امتداده ابتداءً من التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق وحتى المصب في البحر الأبيض المتوسط يستقبل رافداً واحداً فقط وهو عطبرة ، اكتشف كوفاليفسكي في صحراء النوبة الصغرى رافداً في الجهة اليسرى وهو يشتهر بين السكان المحليين باسم أبود .

وبعد عودته من افريقيا قدم إ. ب . كوفاليفسكي تقريراً أمام اجتماع الجمعية

الجغرافية .

(١) المصدر السابق، ص ١١ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٣ .

وعن مسألة أصل الزنج وضَّح بأنه « حاول أن يفند جميع الآراء غير المعقولة عن هذا الجيل الكبير من الجنس البشري الذي قالوا عنه مؤخراً بأنه يشكل مرحلة الانتقال من الإنسان إلى الحيوان ، وحاوّل البرهنة على أساس الفيسيولوجيا بأن تكوين الجسم والمخ عند الزنجي هو كما عند الأبيض »^(١)

وكانت حصيلة الرحلة ظهور كتاب^(٢) كبير استقبال باهتمام عظيم جداً . كرس المؤلف نصف كتابه لوصف مصر ، والنصف الآخر عن السودان .

ويذكر إ. ب . كوفاليفسكي بأن الاجراءات التي اتخذها محمد علي لتنظيف المدينة أدت الى أن تظهر مدينة الاسكندرية بمظهر أوروبي أنيق ونظيف . وهو يشير بأن انشاء قناة المحمودية التي تربط الاسكندرية بنهر النيل كلّف الدولة ملايين عديدة من الروبلات ، ومن جراء البناء قتل ثلاثون الف شخص .

لقد ظهرت لوحات فريدة أمام أعين السائح : « كلما تظهر بين حين وآخر غابة كثيفة من أشجار النخيل ، انها دليل على أن في هذا المكان تربض قرية ، ولكنكم لا تشاهدونها بسبب انخفاض الشواطئ ، أو انكم تشاهدون ما يشبه اكدياس الركام وهي أكثر شبةً بعرين الوحوش المفترسة ومأوى الحيوانات أكثر منها بمنازل للناس »^(٣) . وأما مدينة بني سويف بالقرب من قناة بحر يوسف « فتشتهر بسجاجيدها ، وأقمشتها القطنية ، ومن الطبيعي انها من أبسط أنواع الأقمشة المقلّمة التي تستعملها النساء بصورة خاصة للملابس الخارجية »^(٤)

ويصادف المرء بعدئذ في الأقسام العليا من نهر النيل « ليس الاحراج فقط وإنما غابات من النخيل واسعة . وشجرة النخلة تكون جميلة هنا وهي تقف وحيدة في الصحراء التي لا حياة فيها ، أو عندما تكون ثلاثة أو أربعة أشجار ؛ أما الغابة هنا فهي متكاملة ورتيبة لا ظل فيها تقريباً ، لا يرى المرء اخضراراً ناصعاً ، ولا وجود لأية

(١) «الأخبار الجغرافية» ، النشرة ١ ، ١٨٤٩ ، ص ٩-١٥ ، «المعاصر» ، العدد ١٢ ، ١٨٤٨ «صحراء النوبة الكبرى» .

(٢) إ. ب . كوفاليفسكي ، رحلة في أعماق أفريقيا ، القسم ١ و٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٩ .

(٣) المصدر السابق ، القسم ١ ، ص ٦٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

شجرة من نوع آخر سوى أشجار النخيل وحدها»^(١) . وكان كوفاليفسكي يلمح من
الباخرة كيف تسبح بجانبه القرى والمدن : « وان أسوأ ما تتصف به هذه المدن والقرى
هو منظرها الذي يوحى الى الأوحال المجففة ، والسبب لهذا الأمر طبيعي جداً ، لأنها
مبنية من الأوحال أو الطابوق المصنوع من الطمي المزوج بشيء من التبن ويجفف
بأشعة الشمس . هناك ظاهرة واحدة تضيف التنوع على المباني هي برج الحمام . . . »^(٢)

ولا تشاهدون في منازل القسم الأعظم من الفلاحين أي شيء ، اللهم إلا جرة
واحدة وكثيراً من الأطفال ، ويستعمل سعف النخيل كأثاث ، وتقوم حصيرة مصنوعة
من الجريد مقام الفراش ، وتوجد هذه الحصيرة عند كل واحد تقريباً»^(٣) .

ومن الطرافة بمكان وصف الارواث من الأواني الخزفية المعروضة للبيع ، وهي
تعوم في النهر : « ان هذا ابتكار جدّي . آلاف القدور والجرار مرتبطة بعضها ببعض
الأخر بثلاث طبقات ، الطبقة السفلى موضوعة تحت الرقبة ، وهي تطفو بنفسها
بشكل رمث كبير جداً طوله ١٥ ساژين^(٤) ، العرض بنفس المقياس تقريباً ؛ وهناك
أربعة مجاديف تديره الى الأعلى ، ويحملون في أيديهم سعف النخيل عوضاً عن
المجداف . . . وهكذا يعومونه في نهر النيل الى مسافة آلاف الفراسخ»^(٥)^(٦) .

ويعبر كوفاليفسكي في تقريره الذي ألقاه في إجتماع الجمعية الجغرافية وفي
مؤلفاته أيضاً عن آرائه التي تقف ضد العنصرية بشأن وضع الشعوب الافريقية . وهو
يكتب بسخط: «هناك أناس لا زالوا ولحد الآن يضعون الزنجي في أحط درجات
الجنس البشري ، أي درجة الانتقال الى جنس القروء . وفي الأيام الأخيرة قرأنا رأياً
من هذا النوع في الدوريات الأجنبية ، وبعضهم كما سترى . . . مستعد لرميه نهائياً
من السلم الذي حددوا فيه لأنفسهم مكاناً في اعلاه» . وينتهي كوفاليفسكي الى رأي

(١) المصدر السابق ، ٧٦ - ٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٥) ساژين عبارة عن (متر و١٣ سم) (الترجم) .

(٦) الفرسخ عبارة عن (١٠٦٠ متراً) (الترجم) .

وهو أن هذه الظاهرة عبارة عن «غواية المغرور بنفسه عند الناس الذين يعتبرون أنفسهم السلالة الممتازة للبشرية . . .

إنني بعيد جداً عن أن أكون مدافعاً بشكل أعمى ، ولكنني أدافع عن إنسان يريدون أن ينتزعوا منه الكرامة الإنسانية وأعرض كذلك عيوبه باعتبارها مميزات حتمية لشعب مهمل ومحتقر . إن ذنبه من عيوبه هذه أقل من الآخرين . . . إنني أدافع عن إنسان يريدون أن ينتزعوا منه الكرامة الإنسانية . . . إنهم مدينون بتطورهم للطبيعة الخيرة وللخصائص الفطرية التي هي عند الزنجي ليست أقل مما عند الناس الآخرين ، وإنما أعلى مما عند الكثيرين منهم»^(١) .

كان ن . ك . جرينيشيشسكي قد طالع « إلى الزنجي »^(٢) لكوفاليفسكي ، وقال بأن المؤلف قد أعجبه لأنه « يتكلم عن الزوج بحيث يساويهم بنا تماماً عندما يعقد المقارنة بهذا الصدد ، وإنني أوافق على هذا من صميم قلبي . وعندما يتكلمون كلاماً مقرفاً يترأى لي دائماً ، أن هذا أيضاً هراء وسخف مثل كلمات أرسطو طاليس التي يقول فيها بأن الشعوب التي تعيش إلى الشمالي من اليونان محكوم عليها بالعبودية والبربرية بحكم مناخها وعرقها»^(٣) .

أما الأكاديمي إ . ي . كراچكوفسكي فقال بأن كتاب كوفاليفسكي « قد حدد أهمية كبيرة لعصرنا كذلك بوصفه الحي للشعوب والقبائل الأفريقية»^(٤)

وتعتبر دراسة كوفاليفسكي للحياة الاجتماعية والمعيشية للسكان الأصليين للمنطقة ، والقبائل الكثيرة في أعالي النيل وشرقي السودان إضافة كبيرة في علم الانتوغرافيا .

وكان كتاب إ . ب . كوفاليفسكي قد قُدم إلى مسابقة ديميدوفسكي في أكاديمية العلوم غير أنه لم ينل الجائزة . تقول ب . أ . فالسكايا في هذا الصدد بأن المقامات

(١) المصدر السابق ، القسم ٢ ، ص ٨٦ - ٩٤

(٢) « المذكرات الوطنية » ، ١٨٤٩ ، المجلد ٦٢ ، العدد ١ ، ص ١١٦ - ١٢٨ .

(٣) ن . ك . جرينيشيشسكي ، مجموعة المؤلفات الكاملة ، المجلد ١ ، ١٩٣٩ ، ص ٢٣٤ .

(٤) إ . ي . كراچكوفسكي ، مقالات عن تاريخ الاستعراب الروسي ، ص ١١٩ .

العليا كانت تنظر إليه نظرة استنكار واستهجان شديدة لأنها اكتشفت قضايا في الكتاب عن طريق لجنة الرقابة السرية غير مقبولة ومرغوبة لدى الحكومة ، منها مقارنة الزوج العبيد بالمواطنين الروس المكبلين بالأغلال الذين التقى بهم كوقاليفسكي في أثناء رحلته إلى سيبيريا^(١) .

كان رفيق سفر كوقاليفسكي كما أشير سابقاً هو ليف سيميونوفيتش تسينكوفسكي^(٢) الذي أصبح فيما بعد العالم الكبير في علم النبات ، وهو ذو شهرة عالمية : « رافق تسينكوفسكي في سفرته كوقاليفسكي في سنة ١٨٤٧ ، وفي بداية سنة ١٨٤٨ افترق عنه وأقام بضعة أشهر في الإقليم الريفي فازوغلو حيث عمل في دراسة النباتات والتبعاات الجغرافية ، ثم أقام مدة أخرى في وادي النيل بالقرب من الخرطوم بعد سفر كوقاليفسكي . . . أما المجموعات التي جمعها تسينكوفسكي فقد فقدت مع المركب الذي كانت المجموعات قد أرسلت على متنه »^(٣) .

وبعد عودته إلى الوطن كان اهتمام تسينكوفسكي منصباً على دراساته في حقل علم النبات ، لذلك لم يستطع ، ولم يجد أية فرصة لوصف رحلته . ولهذا السبب وصلت إلينا المقالات التي نشرها في الجريدة البولونية « جريدة وارشو » (١٨٥٣) فقط ، وهي مع ذلك تقدم لنا المبررات للحكم على حيوية آرائه وملاحظاته التي كانت لمعرفته المباشرة للغة الأثر الكبير في نجاحه فيها^(٤) . كما ونشرت كذلك باللغة الروسية تقارير ل . س . تسينكوفسكي^(٥) .

(١) يراجع : ب . أ . فالسكايا ، « الأكاديمي ك . م . بير عن رحلات إ . ب . كوقاليفسكي إلى مصر والصين . . . » ، ص ٢٦٨ .

(٢) ل . س . تسينكوفسكي ، فيما بعد البروفيسور ، ورئيس جمعية المختصين في العلوم الطبيعية في نوفوروسيسك . وقد خصصت مقالة كبيرة لسيرة حياته في « نشرات جمعية المختصين في العلوم الطبيعية في نوفوروسيسك » (المجلد ١٣ ، النشرة ١ ، أوديسا ، ١٨٨٨) .

(٣) ب . ب . سيميونوف ، تاريخ نشاط الجمعية الجغرافية الروسية في نصف قرن ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٦ ، ص ٣٠ .

(٤) إ . ي . كراچكوفسكي ، مقالات في تاريخ الاستعراب الروسي ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٥) يراجع : « الأخبار الجغرافية » لسنة ١٨٥٠ ، النشرة ٢ ، ص ٢٠٢ - ٢٢٥ ، بشير الجمعية الجغرافية لسنة ١٨٥١ ، القسم ٣ ، الفصل ٧ ، ص ١ - ٢٢ .

ولا شك أن ملاحظات تسينكوفسكي الاتنوغرافية تعتبر من المصادر الممتعة للغاية ، وأما دراساته في حقل النباتات وعالم الحيوان فلها أهمية كبيرة جداً .

رحلة جيريكوف

قضت المعاهدة الموقعة في أرضروم في سنة ١٨٤٧ بين تركيا وإيران عن تخطيط الحدود بأن تحديد الحدود الدولية سوف يتم بإشراف لجنة خاصة بالاشتراك مع ممثلي الدول الأربع : روسيا ، وانكلترة ، وإيران ، وتركيا . وكان العقيدى . إ . جيريكوف هو المندوب المفوض والوسيط الروسي .

وقد حددت بغداد لتكون مكاناً لالتقاء جميع الممثلين في اللجنة للأطراف الأربعة ، وتنفيذاً لهذا المطلب توجه ممثلو روسيا^(١) من القسطنطينية بحراً حتى سمسون ، وعن طريق أماسيا ، وتوكات ، وسيواس ، وملاطية ، ودياربكر ، وماردين دخلوا مدينة الموصل في ٢٤ نيسان سنة ١٨٤٩ . ثم خرجوا من الموصل في ١٠ مايس وعن طريق دجلة انحدروا نحو بغداد على متن كلك كبير جداً^(٢) كان قد صنع بصورة خاصة لهم من (٥٠٠) قربة مع اكشاك كماوى ومظلة كبيرة عامة .

كان من المفروض ، وفي ضوء التعليقات أن يقومى . إ . جيريكوف بوصف الطرق والقيام برسمها ، ووضع التخطيطات اللازمة لها كلما سحت الإمكانية والفرصة اللازمة لذلك : « إنني كنت أعتقد بهذه المناسبة ، أن مسح وتصوير المدن الآسيوية بشكل مفصل ، وخصوصاً القسم الأكبر من المدن التاريخية يمكن أن يكون ذا فائدة ليس للاجتهادات والدراسات الجغرافية فحسب ، وإنما من حيث وجهة النظر الأثرية أيضاً ، وقد استعملت شخصياً جميع الإمكانيات المتوفرة لأجل أن لا

(١) كان ضمن اللجنة كل من المترجم م . أ . گامازوف وروسكوريكوف الذي مرّ ذكره ، (حل محله تسيكاريق فيما بعد) ، والتوبوغرافي أكرانوفسج . وكانت القافلة تتألف من ٤١ فرساً ، ٢٢ شخصاً كانوا يقومون بخدمة الهيئة .

(٢) يستعمل المؤلف لفظة « كلك » ، وبوضحها بهذا الشكل (كلك : هورميت يتكون من مجموعة من زقاق الأغنام مليئة بالهواء تغطى في الأعلى بالواح من الخشب .

تُغفل أية مدينة ، وأي موقع تاريخي في طريق اللجنة الروسية حتى وإن لم تدخل في المخططات والتصاميم المفصلة^(١) .

وقد قامت اللجنة في بغداد خلال سبعة أشهر بمباحثات تمهيدية . وفي هذه الأثناء زار جيريكوث خرائب بابل ، وطيسفون ، ومدن كربلاء ، والنجف ، والكوفة ، ومنطقة المجرى الأسفل لنهر الفرات .

ثم توجهت اللجنة في كانون الأول سنة ١٨٤٩ على ظهر البواخر في نهر دجلة وشط العرب حتى الخليج الفارسي (يقصد الخليج العربي - م . خ .) . وفي ربيع سنة ١٨٥٠ زارت اللجنة بندر بوشهر وشيراز . وأما في خريف نفس السنة فتوجهت اللجنة إلى أصفهان . وفيما بعد كان طريقها بمحاذاة الحدود التركية - الإيرانية جميعها حتى آارات . هنا أنهت اللجنة في تشرين الثاني سنة ١٨٥٢ أعمالها في تخطيط الحدود التي استغرقت أربع سنوات .

وبهذه الصورة درست اللجنة الحدود جميعها على امتداد ١٠ درجات عرضاً ، وهي تبلغ مع المنعطفات أكثر من ١٥٠٠ فرسخ . وقد دخل قسم من بلاد ما بين النهرين في المناطق التي تمت دراستها^(٢) .

وبعد مرور أكثر من عشرين سنة على انتهاء عمل اللجنة كان قد نُشر دفتر مذكرات سفرى . إ . جيريكوث وهو من إعداد م . أ . گامازوف^(٣) السكرتير السابق للجنة الوسيطة .

يطرح دفتر مذكرات سفر جيريكوث وصف الأحداث والإنطباعات بشكل مباشر . وهو يكمل يوميات گامازوف ، وفيه وصف للطريق من القسطنطينية حتى

(١) « مطالعات ئى . إ . جيريكوث عن أعمال اللجنة الروسية المكلفة لتخطيط الحدود الإيرانية - التركية » ، « بشير الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية » ، القسم ٢٦ ، العدد ٦ ، الجزء ٥ ، ١٨٥٩ ، ص ١٧ - ٢٣ .

(٢) قدمت اللجنة إلى الجمعية الجغرافية أكثر من خمسين مخططاً لمناطق ومدن مختلفة .

(٣) يقول إ . ي . كراچكوثسكي عن م . أ . گامازوف (١٨١٢ - ١٨٩٣) المهندس والضابط السابق بأنه مترجم موهوب جداً ، وقد أنجز مجموعة كبيرة من المهام المعقدة عند زيارته لبلاد ما بين النهرين ومصر . وگامازوف مؤلف مجموعة من الرسوم والتخطيطات التمهيدية الاثنوغرافية ومقالات عن رحلته .

بغداد . وكان الدفتر في حينه قد سلم إلى رئيس القسم الحربي - التوبوغرافي في الدائرة الحربية في القفقاس إ. إ. ستينيتسكي وأصبح معروفاً لدى قسم القفقاس من الجمعية الجغرافية ، وأخيراً قام القسم بطبعه ونشره في سنة ١٨٧٥^(١) .

وإن القسم الأكبر من دفتر المذكرات مكرس لوصف بلاد فارس . أما القطاع الواقع على الحدود الذي مرت به اللجنة فهو يضم سكاناً من القبائل النصف الإقطاعية من اللر ، والبختياريين ، والعرب ، والكرد . ولا شك بأن ملاحظات جيريكوف عن القبائل أهمية كبيرة جداً .

وكان إ. إ. ستينيتسكي قد تعرف على دفتر جيريكوف قبل صدوره ، فكان تمييزه له عالياً : « إن هذا الجهد المتكامل الذي لا يوجد أي شك في المعلومات الواردة فيه ، عبارة عن عمل جغرافي بالنسبة للمعلومات التي جاء بها ، عمل لا يوجد مثله في الأدبيات المدونة ، وإن وجد فهو قليل ونادر »^(٢) . وسجلت في الدفتر مجموعة من المعلومات الجغرافية الجديدة للفترة التي كان فيها صاحبه يدون يومياته ، وأهم ما في المذكرات هو الفصول التي تتحدث عن بغداد وضواحيها ، ووصف السفارة إلى بابل ، والنجف ، وكر بلاء .

وألحقت بدفتر مذكرات المسافر إ. إ. جيريكوف معلومات وأخبار متنوعة مقتبسة من المذكرات اليومية للمسافر م. أ. گامازوف ، ومن بينها وصف طريق اللجنة الروسية من القسطنطينية حتى بغداد .

وأما مذكرات م. أ. گامازوف نفسه ، فإن القسم الأعظم منها مخصص لبلاد فارس أيضاً ؛ ففي الفصل الذي يتكلم فيه عن تركيا يقدم معلومات عن العرب ، ويذكر گامازوف أخباراً عن محمد علي كذلك .

ولقد أعد گامازوف وترجم (كان يعرف بطلاقة اللغات العربية ،

(١) يراجع : « دفتر مذكرات سفر إ. إ. جيريكوف » ، « تقارير الجمعية الجغرافية الروسية ، قسم القفقاس » ، الكتاب ٩ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٥ .

(٢) « نشرات الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية ، قسم القفقاس » ، المجلد ١ ، تفليس ، ١٨٧٢ - ١٨٧٣ ، ص ٤٧ .

والفارسية ، والتركية ، واليونانية الحديثة) في سنة ١٨٧٧ الكتاب التركي الذي ألفه خورشيد أفندي سكرتير المندوب التركي في اللجنة . والكتاب مكرس للمناطق التركية ، أي ولايات البصرة ، وبغداد ، والموصل ويتضمن معلومات جغرافية واثنوغرافية مهمة وممتعة عن المواقع بين آارات وخليج فارس^(١) (يقصد الخليج العربي - م . خ .) . ولقد زود گامازوف الكتاب بـ (٥٣٢) من الملاحظات والفهارس القيمة التي نظمت على حروف الهجاء ، ثم أشار بصدق بأنه « يتضمن بشكل واسع قضايا جديدة ، لم ترد فيها مسائل لا فائدة فيها ، أو معلومات ليست لها أهمية عن مواقع مدروسة بصورة ضئيلة جداً في الشريط الحدودي بين جبال آارات وخليج فارس (يقصد الخليج العربي - م . خ .) .

ونقل هنا فقرات من الوصف الذي ورد في دفتر جيريكوف :

« إن بغداد محاطة بسور مرتفع ، وقد تهدم من الجهة الشرقية منذ فيضانات سنة ١٨٣١ . ولا يوجد هناك أي مسجد فخم من حيث البناء ، ولا توجد منارة أو مئذنة جميلة ؛ وهي جميعها غير عالية ، وثقيلة ، ولا ذوق في أبنيتها ، وهي مغطاة بشكل عام بترابيع إعتيادية . والحمامات رديئة وقذرة . . . والأسواق قديمة ، إلا أن أبنيتها جيدة ، والممرات فيها تحت القناطر والقباب ، أما البضائع والسلع الموجودة في الحوانيت فهي متواضعة ، وأحياناً فقيرة تعلوها الأتربة والأوساخ ؛ والأعمال فيها جامدة . . . أما الشوارع فهي جيدة ، والقسم الأكبر منها عبارة عن أزقة وحارات ضيقة . وأما عن المنظر الخارجي للمساكن فالمرء لا يستطيع أن يقول شيئاً ، إنها تتكون من جدران فقط كما هي الحال في جميع أنحاء الشرق ، والظاهرة هذه بدون شك كان من شأنها أن تضي على المدينة وجهاً حزيناً جداً ، لولا الحدائق والمساجد . أما المنظر الداخلي للمنازل فهو في الغالب على الأسلوب المغربي ، فيه ذوق رفيع ، وزخارف جميلة وبديعة بشكل خارق . . . وهناك في كل مكان نافورات وقنوات المياه ، وأزاهير . . . ثم بساتين النخيل والبرتقال التي تظلل الممرات فهي بديعة جداً . وإن أفضل دار في بغداد فيها أجمل حديقة ، وتمتع بأسباب الرفاهية

(١) سياحت نامہ حدود، وصف الرحلة في الحدود التركية - الإيرانية ، تأليف خورشيد أفندي ،

سانت پیتربورگ ، ١٨٧٧ .

الأوروبية هي دار مقيمة شركة الهند الشرقية . . . فيها عدد هائل من الخدم ،
خمسون شخصاً من المتطوعين^(*) ، والجنود السود ، وعشرة من القواسين^(**) .

وإليكم بعض الملاحظات الطريفة عن العرب :

« يستعمل العرب نوعاً من الطعام يهيوّ ونه من التمر المخلوط ببذور السمسم ،
والجراد المطبوخ ، الأصغر منه فقط ويحفظونه بأشعة الشمس ، أما الجراد الأحمر فلا
يصلح للأكل ، وبعض النباتات القرنية البرية تشبه الباقلاء ، ويصنعون الخبز من
هذه النباتات القرنية ، ويستعمل لحم الضبع عندهم أيضاً في الطعام . . . والعرب
مسلحون دائماً بالهراوي ، وهي من نوعين : أحدهما هراوة طويلة تشبه عود الرمح ،
والأخرى في مؤخرتها قطعة حجر أو كرة من الزيت .

وأسنان العربي قوية جداً . كان أحد عبيد الشيخ أحمد وهو الزنجي سعيد قد
بلع أربع حبات من الحشيش ، ومضغ رصاصات واحتفظ بهما في فمه في سبيل أن يُعبىء
سلاحه بأسرع وقت ممكن . . .

واعتاد العرب بشكل طبيعي أن ينطلقوا إلى مثل هذه الحملات على ظهور
الجمال السريعة ، وذلك رافة بالخيول التي يقودونها معهم ثم يركبونها أثناء الهجوم
ويعيدون الجمال السريعة في حين يعودون هم على ظهور الخيل . وتنقل العرب في
الصحراء يتم على ظهور الجمال . وهم لا يمزجون الجمال السريعة بالجمال
الاعتيادية ، كما هو الأمر تماماً عندهم في الخيول حيث لا يخلطون بين الخيول الأصلية
والخيول العادية . والعرب يحملون سيوفهم في أوقات الرحلة فقط ، أما في الغزوات
البعيدة فإنهم لا يحملونها بل يكتفون في هذه الحالة بالحراب والرماح التي يزرکشون
أسنتها بريش النعام ، غير أن التزويق الأخير يستطيع القيام به الرجال الشجعان فقط
الذين يحملون على أسنة رماحهم رؤوس الأعداء. والعرب لا يقتلون الراقد أو المنبطح

(*) يستعمل المؤلف هنا لفظة «سياهي» وهي تعني (الجندي ، والمتطوع ، والعسكر ، والجيش) ،
وهي تستعمل عند الروس كمصطلح للجيش الذي كان المستعمرون يشكلونه من السكان المحليين في
الولايات الهندية التابعة للإمبراطورية البريطانية (المترجم)

(1) « دفتر مذكرات سفرى . 1 . جيريكوف » ، ص 1 - 2 .

مطلقاً وإنما يذهبون بفرسه فقط»^(١) .

وحينما يصف جيريكواف رحلة اللجنة الروسية من بغداد إلى بابل ، والنجف ، وكربلاء في سنة ١٨٤٩ فهو يعير أهمية خاصة إلى النجف وكربلاء المدينتين المقدستين عند الشيعة :

« تشتهر هاتان المدينتان كربلاء والنجف عند الشيعة باسم (عتبات الأئمة) . تتوجه إلى هنا ومن جميع البقاع التي يسكنها الشيعة وبدون انقطاع قوافل الحجيج [الزوار] التي لا تعد ولا تحصى ، وهم يحملون معهم هدايا كثيرة إلى المسجدين من النقود والأشياء ، وغالباً ما تكون الهدايا ثمينة جداً ، وهم يجلبون معهم جثث موتاهم أيضاً لدفنها في هذه الأرض المقدسة . . . وهنا يعيش كذلك خلق كثير من التجار الأغنياء ، والوجهاء المغضوب عليهم ، والأمراء الذين هم في أواخر أيامهم ، وينتظرون الموت . . . وفي سنة ١٨٤٩ مرّ زوار يبلغ عددهم الثلاثين ألف شخصاً عن طريق بغداد من كربلاء ، ويبلغ في الأحوال الاعتيادية عددهم في السنة الواحدة حوالي العشرين ألف شخصاً . . . وينقلون في الغالب جثث موتاهم إلى كربلاء في فصل الشتاء . . . ويبلغ عدد التوابيت التي تستقبلها كربلاء الخمسة آلاف ، وأحياناً تصل إلى العشرة آلاف في السنة الواحدة . وثمن النقل يبلغ قراناً واحداً (٣٠ كريبكا) عن خمسة توابيت (وهي ضريبة المرور) . ويطالب رئيس مركز الشرطة التركية للحجر الصحي بفحص التوابيت أحياناً ؛ غير أن الفرس لا يرضون بهذا الاجراء بسبب التعصب المذهبي ، بالرغم من أن هذه الاجراءات هي موجهة ضد المهربين . أما أجرة الدفن في أسوار كربلاء والنجف فتبلغ حوالي الألف قران ، وهي تختلف بمدى بُعد أو قرب مكان الدفن عن المسجد ؛ أما في خارج المدينة فتصل أجرة الدفن إلى المائة قران . فالحكومة التركية هي التي تضع هذه التسعيرة ؛ وأما الملاي فلهم حصصهم الخاصة من النقود ، حيث يقبضون عن كل جثة مائة قران في المدينة ، وفي خارج المدينة تكون حصصهم عن كل جثة خمسة وعشرين قراناً . وهناك من يدفن في الصحراء على بعد ساعة عن المدينة . وإذا ما حدث أن نهب الحجاج في الطريق ولم يكن باستطاعتهم دفع ثمن دفن الموتى الذين جلبوهم ، فيتم دفن هذه

(١) المصدر السابق ، ص ٤٠ - ٤٢ .

الجثث على مسافة ثلاث أو أربع ساعات بعيداً عن المدينة»^(١).

وأخيراً بشكل بدون شك دفتر مذكرات سفر جيريكوف مع إضافات
كامازوف عملاً مستقلاً ضخماً ، وهو مشبع بالمواد والمعلومات التاريخية والجغرافية ،
ويعتبر مصدراً مهماً لدراسة الشرق الأوسط وبشكل خاص فارس .

رحلة زاخاروف

كان الفنان إيغان ديمترييفيخ زاخاروف قد زار القسطنطينية في آب سنة
١٨٤٩ ، وأقام فيها بضعة أشهر ، وترك لنا مذكرات طريفة عن رحلته^(٢) . وتنحصر
أهميتها في تصويرها للحياة الاجتماعية ، وذكرها اللقاءات بممثلي الأوساط العليا
بصورة مفصلة .

شاهد إ. د. د. زاخاروف في فترة وجوده في القسطنطينية أشياء كثيرة : « أطلع
على الأقسام الداخلية لجميع قصور السلطان ، والحياة الداخلية للحریم وراء
الكواليس ، والاهتمامات الشخصية والعائلية للسلطان وأبناء السلطان ، أعمالهم ،
وهواياتهم ، واهتماماتهم الشخصية ؛ وزار المؤسسات التعليمية ، والمعامل ،
والمصانع ، وإدارة الأسطول البحري ، والسفن والبواخر ، والشكنات العسكرية ،
والجنود ، والقلاع والتحصينات . . . وشاهد مختلف أنواع الطقوس ، والأعياد ،
والاحتفالات الرسمية ، والاستعراضات العسكرية ، ومخازن التحف ، والأشياء
النادرة ، وزار الباب العالي حيث يجتمع فيه مجلس الدولة . . . »^(٣).

فوضع الفنان الخطط والتصاميم لرسم صورة السلطان (بورتريت) ؛ ولقد
حضر خلال شهر عدة مرات لرؤية السلطان عندما كان يتوجه إلى المسجد ، وفي ضوء
الانطباعات والتخيلات التي جمعها في ذهنه أنجز رسم صورة له .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣ - ٢٥ .

(٢) « مذكرات سفر الفنان الروسي إ. زاخاروف التي جمعت أثناء رحلته في روسيا ، وتركيا ،
واليونان ، وإيطاليا ، والمانيا ، القسم ١ - ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٤ .

(٣) المصدر السابق ، القسم ١ ، ص ٢٠ .

وبعد لقاء مع وزير البحرية ، تلقى الموافقة الخاصة على حضوره ليقوم بعرض الصورة على السلطان . وبعد ذلك منح حق الدخول في القصر للقيام برسم صور لأولاد السلطان . ونظم زخاروف فيما بعد معرضاً في القصر لصوره ، ومجموعة من اللوحات والتخطيطات الأخرى التي أنجزها في القسطنطينية . وإن هذا الحدث شهير إلى درجة كبيرة في تاريخ الثقافة . فكان هذا المعرض أول معرض فني يُقام في القسطنطينية .

ونجبرنا زاخاروف عن لقائه بالتاجر الروسي نوفيكوف الذي يعيش في القسطنطينية منذ أكثر من عشرين سنة و« يتاجر بالأقمشة المستعملة في صنع الأشرطة ، وحبال المرساة ، وأشياء أخرى كثيرة من الأجهزة التي تحتاجها صناعة السفن ، وقد زود الأسطول الحربي التركي بجميع المواد التي تحتاجها تقريباً ، وإن وزارة البحرية مدينة له بمبالغ ضخمة وكبيرة بصورة مستمرة » .

وإن مذكرات إ . د . زاخاروف لم تفقد قيمتها الكبيرة حتى في أيامنا هذه .

الحرب الروسية - التركية

(حرب القرم)

١٨٥٣ - ١٨٥٦

رحلة خودزكو وموراقييف وليخوتين

منذ بداية العمليات الحربية في جبهة القفقاس (في حرب سنوات ١٨٥٣ - ١٨٥٦) وزحف القوات الروسية إلى أعماق تركيا الآسيوية بدأت أعمال فرقة جيوفيزيائية تأسست بصورة خاصة بقيادة اللواء (الميجر جنرال) ي . إ . خودزكو^(١) . قامت الفرقة في سنة ١٨٥٣ برئاسة وإرشاده بمسح منطقة ما وراء

(١) يوسف إيفانوفيتش خودزكو (١٨٠٠ - ١٨٨١) العسكري الجيوديسي التوبوغرافي الأكبر . شارك في الاستطلاعات التوبوغرافية والفلكية في محافظات فيلبينسك وكرودنينسكي ، ومينسك ، وكورلياندسكي ، عندما كان لا يزال ضابطاً شاباً . وقام في سنة ١٨٣١ بالتخطيط في مولدافيا وقلالنيا ، ثم في البوسفور مع فرقة ن . ن . موراقييف . وفي سنة ١٨٣٤ وضع وصفاً للموضع الإحصائي الحربي في مولدافيا وقلالنيا . ورأس منذ سنة ١٨٤٠ في القفقاس أعمال المسح التوبوغرافي . وإن جميع إنجازات المسح لمنطقة ما وراء القفقاس مرتبطة باسمه .

القفقاس . وأنجزت تخطيط الأراضي التي تمتد من اليكساندروبول حتى أرضروم فيما بعد . وفي الفترات التي كانت تعقب العمليات الحربية كان التوبوغرافيون يعملون في التخطيط التوبوغرافي للمواقع . وكانت مناطق التخطيط متناثرة في فضاء واسع جداً ، وقد ربط خودزكو عمله هذا بشكل مباشر بالمسح أيضاً .

وهكذا تم في تركيا الآسيوية في سنة ١٨٥٦ تحديد وضع اثنين وأربعين موقعاً من حيث المسح المثلثي أو البعد المثلثي ، كما وتم تحديد مدى ارتفاع ستة وثلاثين موقعاً ونقطة أخرى عن سطح البحر .

ومن الذكريات الكثيرة للمشاركين في حرب ١٨٥٣ - ١٨٥٦ من الجدير الإشارة إلى كتاب^(١) ن . ن . مورافيتش القائد العام في القفقاس ، وهو معروف عندنا كمؤلف لكتاب « الروس على البوسفور » . فقد دوّن هذا الكتاب الجديد في ضوء مواد ومصادر تاريخية غنية . وأهم ما في الكتاب وصفه للمناطق المختلفة في آسيا الصغرى ، وعلى الأخص منطقة الحدود الروسية - التركية حتى أرضروم ، وقارص ، والمدن الأخرى .

وإننا نرى وصفاً رائعاً للشعب الكردي في مذكرات المشارك الآخر في الحرب وهو اللواء م . ليخوتين^(٢) ، حيث كانت كردستان مسرحاً لأكثر العمليات التي نفذتها الفرقة التي كان يقودها في أيام الحرب .

يشير بهذا الصدد إلى أن « الكرد عبارة عن شعب خاص . . . يعيشون في الأراضي الجبلية التي تمتد في روسيا ، وإيران ، وتركيا بمحاذاة سلاسل جبال آغري داغ حتى السهول الرملية الممتدة لنهري دجلة والفرات في الجنوب . . . ويعملون بشكل أساسي في الرعي ، وهناك عدد قليل من السكان يقومون بزراعة الحبوب ؛ أما منازلهم الشتوية فهي مبنية بشكل بسيط جداً وبسرعة ؛ وإنهم يعيشون حياة نصف

(١) يراجع : ن . ن . مورافيتش ، الحرب في القفقاس في سنة ١٨٥٥ ، المجلد ١ - ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٧ .

(٢) « الروس في تركيا الآسيوية في سنتي ١٨٥٤ و ١٨٥٥ . من مذكرات اللواء م . ليخوتين عن العمليات الحربية لفرقة أريقتان » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٣ .

رحالة من موسم الربيع المبكر حتى موسم الخريف المتأخر ، وإذا ما أرغمتهم الظروف فإنهم يستطيعون قضاء الشتاء كله في خيام دافئة كبيرة ، يسمونها هنا بـ (الجادر) وهي شبيهة بالخيام القره غيزية . وهذه الخيام تكون واسعة وكبيرة إلى حد تسع الواحدة منها لجميع أفراد العائلة مع ممتلكاتها ؛ غير أن الأغنياء يملكون أكثر من خيمة واحدة . . .

والكرد جميعهم جبليون يحبون الأماكن المعتدلة والباردة العالية ؛ وإن السلاسل الجبلية والكهوف الحصينة التي يعيشون فيها تمنحهم بصورة أكثر إمكانية البقاء والحفاظ على ذاتيتهم واستقلالهم . . .

ثم إن الكرد ينقسمون إلى مجاميع كثيرة ومتعددة ، وإلى قبائل وأجيال ، وهم جميعاً يتكلمون لغة واحدة ، أما الإدارة فهي بيد كبير القبيلة أو رئيس العشيرة ، ويكون هؤلاء مستقلون بعضهم عن البعض الآخر^(١) .

وتهيأت الظروف أن يتعرف ليخوتين بشكل خاص وعن قرب بالقبائل الكردية في كردستان الصغرى ، أي جميع أنحاء باشالق بايزيد ، وهي في القسم الشمالي من باشالق وان وموش ، والقسم الجنوبي من باشالق قارص ، وكذلك الأقسام الجنوبية من محافظة أريشان والأقاليم الفارسية في خانية ماكو^(٢) .

ويمكن أخيراً مشاهدة الصور الفريدة في فيضان نهر آراس ، ومدينة بايزيد ، والقلعة ، والتجويف الأرضي بالقرب من ديادين ؛ أما وصف البوابة الجبلية (في الطريق من ديادين حتى أرضروم) المسماة قره دربند (البوابة السوداء) ، ووادي نهر حسن قلا في الطريق إلى أرضروم فهو ظريف وممتع .

الدراسات الشرقية (الاستشراق)

في بيترسبورغ

يتصف النصف الثاني من القرن التاسع عشر بانتعاش الدراسات الشرقية إلى

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٤ - ١٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

درجة كبيرة ، وكان مركز هذه الدراسات مدينة بيترسبورغ . وفي هذه المدينة قام المتحف الآسيوي بواجبه منذ سنة ١٨١٨^(*) ، وكان يقف على رأس هذه المؤسسة الاستشراقية الأكاديمية خ . ب . فرين . ومنذ سنة ١٨٢٣ تم فتح قسم تعليمي لدراسة اللغات الشرقية في وزارة الشؤون الخارجية . وقد جمعت في المتحف الآسيوي مجموعة كبيرة من المخطوطات الشرقية . أما في جامعة بيترسبورغ وخلال علد من السنين (١٨٢٢ - ١٨٤٧) فقد ترأس قسم اللغة العربية أ . إ . سينكوفسكي وهو المختص والعارف والخبير بشؤون الشرق ، المعاصر له ومؤسس مدرسة متكاملة للمستعربين . وتأسست في سنة ١٨٥٥ في جامعة بيترسبورغ كلية اللغات الشرقية . وبعد غلق القسم الشرقي في جامعة قازان تم نقل البروفيسورين إ . ن . بيريزين وأ . ك . كاظم بك إلى بيترسبورغ الذي عين أول عميد لكلية اللغات الشرقية .

وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مرحلة لامية في تطور الاستشراق الروسي .

وفي عملنا الحالي لا يمكننا أن نقدم وصفاً لنشاط المؤسسات الاستشراقية في بيترسبورغ وموسكو حيث تأسس فيها في سنة ١٨١٥ معهد لازارييف . إلا أننا نقف فيما يأتي عند إسهام الجمعية الجغرافية في دراسة الشرق الأوسط .

رحلة أبيخ

قامت طائفة من المواطنين الروس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعدد من الرحلات في الشرق الأوسط .

ولعب الجيولوجي الشهير والباحث البارز في الدراسات القفقاسية كيرمان قبيليهليموويج أبيخ (١٨٠١ - ١٨٨٦) دوراً بارزاً في دراسة جيولوجية أرمينيا والمناطق المتاخمة لها .

(*) تراجع : (تاريخ الاستشراق والدراسات العربية والكردية في المتحف الآسيوي ومعهد الدراسات الشرقية في لينينغراد ١٨١٨ - ١٩٦٨ ، ألفه باللغة الروسية مجموعة من المستشرقين السوفيات ، ترجمه وعلق عليه وقدم له مترجم هذا الكتاب ، بغداد ، ١٩٨٠) .

قدم ك. ف. أبيخ إلى روسيا من ألمانيا في سنة ١٨٤٢ بمناسبة انتخابه أستاذاً في جامعة ديرپت. وقد خصص القسم الأكبر من نشاطه منذ سنة ١٨٤٤ لروسيا ، ودراسة القفقاس والمناطق المجاورة لها من الأراضي الفارسية والتركية . ولغرض التعرف على البنية الجيولوجية لأرمينيا شرع أبيخ في سنة ١٨٤٥ بالتسلق على جبال آارات ، القمة الشرقية منها ، وهي أوطاً من القمة الغربية بمقدار ١٢٠ قدماً ، وقام برحلته الأولى في سنة ١٨٤٦ إلى ما تسمى بأرمينيا التركية . فإنه عبر الحدود عند بحيرة جالدير بمحاذاة وادي نهر آراس حتى وصل إلى أرضروم ، وزار مضائق نهر الفرات ، ثم سار بمحاذاة خط تقسيم المياه في منطقة جورخوفرات ، ثم عاد عن طريق آرتفين وباطوم إلى كوتاييس^(١) .

أما الرحلة الثانية لأبيخ فقد قام بها في سنة ١٨٥٩

« لقد تجنبت في هذه المرة الطرق السابقة ، ونقلت ملاحظاتي من منطقة الفرات النهرية إلى بعض أقسام منطقة جوروخ حيث سرت من بايورت في الطريق المؤدي إلى أرزنجان خلال مضيق سيپينكور وقطعت السهل الذي يحمل نفس الاسم في مختلف الاتجاهات ، وتوجهت بعد ذلك من ماما خاتون عن طريق جبال ميرم إلى آش قلا وأرضروم . . . ثم أخذت طريقي من حسن قلا ، وخلال وادي پاسين حتى وصلت إلى أعماق وادي آراس وقاقزمان خلال السلاسل الجبلية العالية ، ثم رجعت . . . إلى اليكساندروبول^(٢) .

وكانت حصيلة دراساته عن أرمينيا أن كتب كتاباً^(٣) يتضمن على وجه الخصوص الأقسام : هضبة اليكساندروبول ، وهضبة قارص ، ومنطقة پاسين ، والمنطقة السهلية والجبلية في غارين أو أرضروم ، وتنوعات وادي نهر الفرات عند آش قلا ، والتنوعات العليا لوادي جوروخ ، وتنوعات أرزنجان في وادي نهر الفرات ،

(١) يراجع : « أخبار الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية ، قسم القفقاس » ، المجلد ٩ ، موسكو ، ١٨٨٥ ، ص ٢٠٦ . قائمة بأسماء أعمال ح. ف. أبيخ وكلمة رثاء قصيرة ، يراجع : « أخبار اللجنة الجيولوجية » ، المجلد ٥ ، العدد ٩-١٠ ، ١٨٨٦ .

(٢) ج . أبيخ ، جيولوجية السلاسل الأرمينية . القسم الغربي . وصف أوروغرافي وجيولوجي ، ترجمه من الألمانية ب. ز. كولنيكو ، بيتيگورسك ، ١٨٨٩ ، ص ١٣ .

(٣) المصدر السابق .

ونتوءات ترجان في وادي نهر الفرات ، والمناطق المتاخمة للحدود بين ياسين وقاقزمان ، ونتوءات قاقزمان وكولپين في وادي آراس ، وأخرى .

ويقول أبيخ في المقدمة التي كتبها لكتابه : « إن اسم أرمينيا ظاهرة تاريخية وانتوغرافية تامة ، لها علاقة مباشرة بقريبتها من حيث الانتماء العرقي المسماة جورجيا وهي إيريا القديمة ، وقد أطلق هذا الاسم منذ القديم على تلك البلاد الجبلية التي تبدأ من الجنوب من سلاسل القفقاس وتمتد إلى الجهة اليمنى لوادي كوره حتى المرتفعات المحاذية لحدود منخفض بلاد ما بين النهرين ، ثم تلتصق بالمناطق القريبة من هضاب طوروس ، وتضم في امتدادها الغربي القسم الأعظم من بر آسيا الصغرى الشرقية . . . ومن وسط هذه الوحدة الجغرافية تتميز هضبة أرمينيا نفسها باعتبارها أعلى هضبة مركزية كبيرة في مقدمة آسيا . . .

وتجري الأنهار متتبعه الاتجاه الرئيسي لانحدار الأرض ، على شكل أزواج ، فمن جهة هناك كوره وأراكس اللذان يتجهان نحو الجنوب الشرقي إلى بحر قزوين حيث يرسم الأول قوساً كبيراً باتجاه الشمال . ومن الجهة الأخرى هناك الفرات بفرعية (فرات ومراد) ودجلة الذي ينحدر من السفوح الجنوبية للهضبة ، اللذان يغيران اتجاههما الغربي السابق نحو الجنوب والجنوب الشرقي فيحملان مياههما إلى المنخفض العظيم الذي يحتله الخليج العربي (ورد في الأصل تعبير الخليج الفارسي) . وتنبع روافد النهر الجبلي الكبير الخامس جوروخ من السفوح الشمالية الغربية الشديدة الانحدار .

والشيء المهم هنا هو أن جميع السلاسل الجبلية التي تتألف منها هضبة أرمينيا مع الأجزاء الواقعة في أطرافها والمتاخمة لها من جهة الشرق تقع على خطوط إتجاه واحد ، وهي الخطوط التي يمكن أن تعتبر في الوقت الحاضر بفضل الجهود التي بذلها الباحثون الجغرافيون الروس ، خطوطاً سائدة بالنسبة للمنظومات الجبلية في وسط القارة الآسيوية ، بشكل أكثر دقة مما كان ممكناً في عهد ك . ريتتير وأ . هومبولدت اللذين يؤلفان عهداً كاملاً من الدراسات الانتقادية . وإن الاتجاه السائد لتيان شان الذي يتغير باستمرار بين WS و ON مقترناً باتجاه آلتا و NW - SO واتجاه كوثين لونيا WNW يظهر أيضاً في سلاسل القفقاس الجبلية وكذلك في جميع أنحاء النصف

الشرقي من المرتفعات الأرمنية - الجورجية الناتئة . وكلما اقتربنا من منطقة وسط هضبة أرمينيا يتضح بشكل محدد وجود مرتفعات طويلة تعود إلى الأزمنة الحديثة وأصلها بركاني . . . »^(١)

وإن أهم خط لانتصاف النهار هو الذي يكون موضع توزيع المياه بين آراس والفرات ؛ وهو يحدد وضع فوهتين من البراكين الجبارة الفريدة من نوعها ، وهما بالان تيكين ، وبينگول ، اللتين تقعان في موقع يقع فيه محور خط انتصاف النهار بمحاذاة خط العرض . . . »^(٢)

وفيما يلي نعرض مقتطفاً آخر من كتاب أبيخ : « إن البلاد القديمة غارين (كارين) بضمنها المدينة الرئيسية التي تحمل نفس الاسم ، وهي تسمى أرضروم في الوقت الحاضر كانت في عصر فيودوسي الصغير (الابن) عبارة عن جزء من أرمينيا الكبرى ، وقد سميت المدينة في سنة ٤١٥ م تكريماً لفيودوسي باسم فيودوسوبوليس . واشتهرت في الشرق باسم أرضروم كأعظم مدن أرمينيا ، أما اسمها القديم فهو غارين الذي احتفظ به الأرمن حتى الوقت الحاضر .

ومنذ النظرة الأولى عند المرور من مضيق ديوي - بوين نحو الغرب يخلق السهل المرتفع لأرضروم بأبعاده المهيبة الطولية والعرضية (طولاً وعرضاً) انطباعات قوية معبرة ؛ وتظهر الجهة التي تحيط به فيها الأراضي الجبلية تبايناً مدهشاً مع وادي ياسين الذي يقع في الجهة الشرقية »^(٣)

وأخيراً إن أهمية عمل أبيخ لدراسة أوروغرافيا وجيولوجيا أرمينيا عظيمة جداً . ولأعمال أبيخ عن القفقاس عموماً شهرة كبيرة ، وقد استغرقت دراسات هذا العالم مدة اثنتين وأربعين سنة تطرق فيها إلى : وصف وضع القفقاس الجيولوجي ، ومواقع الثروات الطبيعية المفيدة . وتعتبر أعمال هذا العالم لحد الآن مصدر معلومات قيمة لجيولوجية البلدان التي بحثها .

(١) المصدر السابق ، ص ١ - ٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٩ .

رحلة ميليوكوف

زار الكاتب اليكساندر بيتروفيتش ميليوكوف في سنة ١٨٥٧ اليونان وتركيا وترك مذكرات سفره^(١).

ففي فصل « أسرار القسطنطينية » يرسم ميليوكوف التناقضات في المدينة على الوجه التالي : « هنا تجد أروع منظر شامل على وجه البسيطة ، وبجانبيها شوارع قدرة ، ومسجداً فخماً بالقرب من بقايا آثار الحريق ، ودكاكين رخامية بجانب الأكواخ المهدامة الخربة ، ومقابر داخل السوق المزدهمة ، وأريج النارجيلة التي تنفث الدخان وهي في هيئة مزبلة ، وعيوناً جميلة للحسناوات بجانب جروح الفقير المتسول التي يعرضها على الناس^(٢) . . . »

وتشاهد في جميع الشوارع أكوام القمامة والقذارة ، هناك أكوام العظام والخضار الفاسدة ملقاة على قارعة الطريق . والظاهر أنهم هنا لم يغسلوا ولم ينظفوا ولا شارعاً واحداً منذ أيام الأمبراطور قسطنطين . وفي وسط هذه التتانة والقذارة تستقر كلاب قبيحة ، أما منظر المتسولين فليس أقل قبحاً . . . وفي الواقع إن كلاب القسطنطينية هم الأصحاب الحقيقيون للشوارع . . . يصل عدد هذه الكلاب في بعض الأماكن من حيث الكثرة إلى درجة يظهر كأن الشارع بأجمعه مليء بالكلاب . . . »^(٣)

وزار ميليوكوف في أيام العيد (بايرام)^(٤) المساجد والتكايا حيث يميل الدراويش المولوية في رقصاتهم ، وشاهد صلوات أصحاب مذهب الشمس (رقصات بالخنجر) ، وصهاريج تحت الأرض ، وسوق (بيزستان) ، والحمامات .

(١) يراجع : « أئينا والقسطنطينية . مذكرات سفر أ . ميليوكوف في سنة ١٨٥٧ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٤) بايرام : لفظة تركية تعني « العيد » (المترجم)

رحلة بيرك (ن. ف.)

انا نجد قضايا طريفة ومهمة في مقالات^(١) الكاتب والمترجم الشهير نيكولا في فاسيليفيتش بيرك عن رحلاته في سوريا ، وفلسطين ، ومصر خلال سنتين من سنة ١٨٦٠ حتى سنة ١٨٦٢ . فيها ملاحظات وانطباعات غزيرة عن الحياة ، وبشكل خاص عن حياة البدو .

وان اللقاء الطريف بين بيرك وبين أحد البرتغاليين واسمه فرانسح في القاهرة . عن علاقة البدو ونظرتهم الى الأجانب جدير بالاهتمام : « ان هذا الشعب يحب الروس ، ويميل اليهم بالقياس الى جميع الأوروبيين الآخرين ، وهل تعرفون لماذا : لأن الروس يظهرون البساطة معهم ، ويعاملونهم معاملة انسانية . أما الفرنسيون والانكليز ، وعلى وجه الخصوص الانكليز فيعاملونهم كما يعاملون الحيوانات . فالانكليزي لا يمكن أن يتكلم معهم لأي سبب من الأسباب ، ويقذف لهم الجنيه كما يُرمى الأكل الى الكلاب . وهذا الشعب كما يظهر عديم المرح ، وهو نصف عار ، يلف نفسه بقطعة من قماش الكتان الممزق القذر ، وهو فقير وبائس ، وفي ضائقة الى أدنى الدرجات ، وهو حساس أكثر من غيره ، يرنو الى لطف وبشاشة الجوالين الذين يأتون الى صحرائه . إعطِله أقل ، ولكن اعطه بانسانية ، وهو يتذكر هذه الانسانية لمدة طويلة ، وينقل اسمك من جيل الى جيل »^(٢).

أقام بيرك في سوريا أكثر من سنتين . وكتب في سنة ١٨٦٢ تحت تأثير الأحداث السورية مقالة ، يذكر فيها أسباب الأحداث الدامية بين المارونيين والدروز ، ففي رأيه انها حصيلة التناقضات الموجودة بين الانكليز والفرنسيين . وفي هذه الحالة لا ينكر الكاتب حصول صدمات دامية بين هذه القبائل أحيانا بشكل أو بآخر ، ووجود خصومات قبلية قديمة تنبع و« تنمو على قاعدة محلية » ، وقد تعقدت أكثر بسبب تدخل الدول الأوروبية .

(١) عن قائمة مقالات بيرك ، يراجع : فينكبروف ، معجم السير الإنتقادي ، المجلد ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٢ ، ص ٢٦ - ٣١ .

(٢) ن. ف. بيرك ، رحلة الى مصر ، « المذكرات الوطنية » ، ١٨٦٢ ، تشرين الثاني ، ص ٣٢٦ .

وفي طريق عودته الى روسيا في آب سنة ١٨٦٢ توقف بيرك في القسطنطينية^(١) .
الآن لا نصف رحلته في هذا المجال . لكننا نشير فقط الى أن ن.ف. بيرك قد نشر
« دليل مدينة القدس والضواحي القريبة منها » في سنة ١٨٦٣ في بيترسبورغ .

ومن المقالات الكثيرة التي نشرها ن.ف. بيرك نُشير هنا أيضاً الى « جولاتي في
الدنيا » المنشورة في المجلات المتنوعة^(٢) ، وبشكل خاص المتعلقة بالفترة التي زار فيها
سوريا ولبنان في سنة ١٨٦٢ . وفي تلك المقالات صور طريفة عن الحياة في بيروت
ودمشق . والمؤلف يتكلم عن العلاقات بين العرب الأونيين^(٣) والمسيحيين
الارثوذكس ، وعن جهود القنصل الروسي في دمشق بصدد تقوية تأثير الكنائس
الارثوذكسية ، وعن لقائه مع أحد شيوخ البدو وليد علي .

السائح المجهول (س.ن.)

ترك لنا مؤلف مجهول كتب باسم مستعار (س.ن.)^(٤) « رسائل
القسطنطينية »^(٥) للفترة ١٨٦١ - ١٨٦٦ يشير فيها الى مجمل نشاط السلطان عبد
المجيد الذي انتهت الحرب الشرقية باستعباد تركيا التام من قبل الدول الشرقية^(٦) في
عهده ، ويصف الوضع السياسي في البلاد .

وقد كتب المؤلف نفسه مقالة بعنوان « رحلتان الى بروسة »^(٧) يسرد فيها

(١) يراجع : « بشير روسيا » ، المجلد ٧١ ، العدد ٩ ، ١٨٦٧ .

(٢) ن.ف. بيرك ، جولاتي في الدنيا ، « المعاصر » ، العدد ١ ، ٦٢ ، ١٠ ، ١٨٦٣ ، العدد ٧ ،

١٨٦٤ .

(٣) الأونى من الكلمة اللاتينية « unio » ومعناها (الاتحاد ، الوحدة) وهو مذهب من المذاهب
المسيحية تأسس نتيجة وحدة بين الكنيسة الارثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية بزعامه البابا (المترجم) .
(٤) من الممكن اعتباره واحداً من موظفي البعثة الروسية في القسطنطينية في ضوء الفرائض الموجودة في
هذا الشأن ، وقد يكون هو مستشار السفارة نوفيكوف ، وهو الوحيد من الدبلوماسيين الروس في تركيا في
هذه السنوات يحمل اللقب العائلي الذي يبدأ بالحرف «ن» . يراجع :

«Annuaire Diplomatique de l'empire de Russie pour
l'année 1864» , St.Petersbourg, 1864, p.56.

(٥) « البشير الروسي » ، العدد ٥ ، ١٨٦٧ ، ص ٥ - ٦٠ .

(٦) لعله خطأ مطبعي ، يقصد المؤلف الدول الغربية (المترجم) .

(٧) « البشير الروسي » ، العدد ٧ ، ١٨٦٧ ، ص ٢٦٣ - ٢٨٤ .

أحداث رحلته في سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٦٥ ، ويطرح وصفاً مقتضباً لمساجد بروسه ، وحماماتها ، والمنابع الكبريتية ، ومعامل الأقمشة الحريرية ، ويتكلم عن التسلق على جبل أولب .

وعندما يقارن المؤلف وضع صناعة الحرير في سنة ١٨٦٥ بوضعها في سنة ١٨٦١ يستنتج ان إنتاج الأقمشة الحريرية قد انخفض بشدة خلال السنوات الأربع الأخيرة: « جميع الناس هنا يتوجهون نحو الفقر ، ولكنه سير بطيء وتدرجي ، وإن ذلك يلاحظ بوضوح كبير في كل مكان ولكنه يلاحظ هنا في بروسه أكثر من أي مكان آخر . . . كان سابقاً يعمل عشرون معملاً في صناعة الحرير ، غير أنه بقيت ستة أو خمسة معامل فقط . ولم تساعد على غلق المعامل الأخرى سنوات القحط الأخيرة بقدر ما ساعدت على ذلك الضرائب الفاحشة التي تفرض حالياً على أشجار التوت مما أدى الى الإقلال من زراعتها ، وقد سبب هذا الاجراء الى هبوط في إنتاج الحرير . . . ومن الطبيعي ان غلق هذا العدد الكبير من المعامل حيث تعمل وتكسب العيش فيها آلاف الالبيدي ، لا يمكن إلا أن تؤدي الى اشاعة الفقر والفاقة بين السكان المحليين في المدينة »^(١)

ومن ثم يكشف المؤلف عن الاسباب التي تؤدي الى التجاء عدد كبير من مواطني تركيا الى السلب والنهب .

« إن اليأس الذي تسببه الظروف المحزنة العصبية هو الذي دفع الكثيرين الى هذا الطريق . وأنه من الطبيعي ان تضطهد السلطة التركية الناس من جراء هذه الأعمال والمواقف . وهكذا نرى ان أشهر قاطع طريق في الوقت الحاضر هو رجل يوناني يلقب بليقكوراكي (بيلينكي) ، كان في السابق قروياً مسالماً يحب عمله ، فاضطر أن يترك مسقط رأسه الذي ولد فيه ، وهرب الى الغابات لأن باشا بروسه نهب كل ما يملكه ، واستولى على مواشيه ، وحجزه مدة طويلة جداً في السجن ، ونتيجة لهذه الاجراءات ماتت زوجته البائسة حزناً . كان الحقد هو الدافع الرئيسي الذي دفع ليقكوراكي الى أن يقسم بأن يكرس كل حياته لغاية واحدة هي الانتقام والثأر »^(٢) .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .

رحلة جيرگاس

كانت كلية اللغات الشرقية في جامعة بيترسبورغ قد أرسلت ق. ف. جيرگاس ببعثة علمية الى الشرق في ١٧ شباط سنة ١٨٦١ . وفي فترة رحلته التي استمرت منذ سنة ١٨٦١ وحتى سنة ١٨٦٤ زار فيها سوريا ، وفلسطين ، ومصر^(١) .
توجه جيرگاس الى الشرق في آب سنة ١٨٦١ فأقام في مصر وسوريا حتى ١
مايس سنة ١٨٦٤ .

كان جيرگاس قد كلف القيام بواجبات معينة وهي « زيارة المناطق الرئيسية التي تسود فيها اللغة العربية أمثال : سوريا مع فلسطين ، ومصر ، والمواقع التي يمكن للأوروبي أن يزورها في شبه الجزيرة العربية ، ويخصص بعض الوقت لزيارة بلاد ما بين النهرين ، والعراق العربي ؛ ولتحقيق هذا الغرض كان عليه ليس فقط الاعتكاف على دراسة الأدب العربي . . . وإنما كان من واجبه أيضاً أن يهتم بوضع المعارف ومستوى التعليم والوضع الثقافي في البلدان المشار اليها »^(٢) .

وفي تقرير جيرگاس نجد وصفاً لـ « نظام التعليم الإسلامي » وتقييماً للغة العامية في الشرق العربي .

ويشير جيرگاس في وصفه المفصل لنظام التعليم في الأزهر الى أن « في الوقت الحاضر وبشكل استثنائي بوجهون اهتمامهم الى علوم اللاهوت والحقوق ، ويتركون تدريس الجغرافيا ، والتاريخ ، والرياضيات ، والعلوم الطبيعية كموضوعات لا تتصل بالدين . . . »

وأن اقتصار الدراسة على علوم اللاهوت والحقوق بهذه الصورة الخارقة ينهك

(١) يراجع : « مواد لتاريخ كلية اللغات الشرقية » ، عرض لنشاط الكلية في ١٨٥٥ - ١٩٠٥ ، من تأليف السير فيسور ق. ف. بارتولد ، سانت بيترسبورغ ، المجلد ٤ ، ١٩٠٩ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .
(٢) عن مصدر هذه الفقرة ، والمقتبسات الأخرى من التقارير غير المنشورة لكيرگاس ، وعن كل ما ورد عن كيرگاس بصورة عامة ، يراجع : إي. كراچكوفسكي ، ق. ف. كيرگاس بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته ، « مذكرات لجنة المستشرقين » ، المجلد ٣ ، النشرة ١ ، لينينغراد ، ١٩٢٨ ، ص ٦٧ .

القلوب والعقول ، فهذه العلوم تملأ العقل بالمصطلحات التكنيكية وحدها ، وليست لها أية علاقة مباشرة بالحياة . ويمكننا أن نلاحظ تخلفاً غير اعتيادي عند العلماء المسلمين وغياب المبادئ الأولية عن الجغرافيا ، والتاريخ ، ولا مجال طبعاً لكلام عن العلوم الطبيعية والرياضية «^(١) .

ثم يشير جيرگاس الى أن القسم الأكبر من المدارس التي تأسست من قبل محمد علي ، كان خلفه قد قضى عليها ، فقد بقيت مدرسة واحدة للطب فقط .

وبعد أن تعرف جيرگاس على أوضاع التعليم والثقافة لدى المسيحيين العرب توصل إلى نتيجة تلمخص في « ان السكان المسيحيين في الشرق يقفون في قضية التعليم في مستوى أعلى بكثير من المسلمين » .

وبلغت جيرگاس الأنظار الى نشاط البعثات الأميركية : « ان البعثة الأميركية التي ظهرت في سوريا في بداية الثلاثينيات ، وفي مصر في الأربعينيات بهدف استمالة السكان المسيحيين هناك الى مذهبها ، أسست في بيروت ، ودمشق ، ومدينة القدس ، والاسكندرية ، والقاهرة ومدن أخرى في الشرق مدارس لتربية أطفال المسيحيين الشرقيين من كلا الجنسين . . . وقد وضع المبشرون الأميركيون كتب التعليم باللغة العربية ؛ كما أسسوا داراً للطباعة في بيروت . وكان التعليم بجميع أشكاله بالتأكيد موجهاً في سبيل تهيئة التابعين من الجيل الناشئ »^(٢) .

وان تأسيس المدارس من قبل المبشرين الأميركيين في الشرق بنظر جيرگاس ظاهرة ايجابية ، ولم ير فيها سلاحاً سياسياً بيد البلدان الرأسمالية لتقوية نفوذها . ولكن الحقائق التي يشير إليها تشهد بالتأكيد على أن التوسع الأيديولوجي للاستعمار الأميركي في بلدان الشرق الأوسط الذي بدأ في فترة تبعد أكثر من مائة سنة قبل الآن ، أتت بشمارها اليوم وإلى درجة كبيرة للولايات المتحدة الأميركية .

ثم عاد فلاديمير فيودوروفيتش جيرگاس الى بيترسبورغ في سنة ١٨٦٥ ،

(١) المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧١ - ٧٢ .

ودافع عن رسالة الماجستير في موضوع « حقوق المسيحيين في الشرق بنظر النظم والقوانين الإسلامية ». وفي سنة ١٨٧٣ دافع عن رسالة الدكتوراه في موضوع نظريات قواعد اللغة العربية .

رحلة دوختوروف

كانت إدارة تربية الخيول التابعة للدولة قد بعثت الى الشرق الأوسط العقيد م. ن. دوختوروف^(١) في سنة ١٨٦٢ ، وذلك للقيام بمهمة خاصة تتعلق بانتقاء فحول جديدة للحصول على الخيول العربية الأصيلة في إدارات تربية الخيول التابعة للدولة .

فزار دوختوروف القسطنطينية ، وبيروت ، والاسكندرونة ، وحلب ، وأورفة ، وحماة ، وحمص ، وبعليك ؛ وتوجه من سوريا الى مصر ، ثم سافر إلى مدينة القدس ، ودمشق .

وفي بيروت التقى دوختوروف باللجنة الأوروبية التي قدمت للتحقيق في أسباب قيام المذابح بين الدروز والمارونيين في سنة ١٨٦٠ . وعن أحداث تلك الأيام يقول دوختوروف : « أما العداة بين المارونيين والدروز حتى وإن لم يفعل فعله ، فإنه في أحسن الأحوال يؤيد الإعتقاد بأنه حصيلة للدعايات بين الكاثوليكية والإنكليكانية المتخاصمتين . . . »

ومهما قيل عن مذابح سوريا ، إلا أن الأسباب لتلك المذابح بدون شك ليس التعصب الإسلامي وحده فقط^(٢) .

ومن الاسكندرونة توجه دوختوروف مع مرافقيه الى حلب :

« تلعب حلب دوراً مهماً في تجارة تركيا ، فهي تعتبر مخزناً للبضائع والسلع القادمة من أرمينيا ودياربكر ، ومركزاً مهماً للقوافل القادمة من ايران ، وشبه الجزيرة العربية ومصر^(٣) . »

(١) م. ن. دوختوروف ، رحلة الى الشرق ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

ومن حلب توجه م. ن. دوختوروف في ١٤ مارت إلى مضارب القبيلة البدوية المسماة البرازي التي تنتقل بين حلب وأورفة .

« انهم يغيرون أماكنهم في السنة مرتين ، عدا الشيخ الذي يعيش بصورة دائمة في داره . وأن الحكومة تقدم لهم هذه الأراضي مقابل عشر من عصول الحبوب ، لهذا يعمل قسم من البرازيين في الفلاحة ؛ ويبدأ موسم البذر عندهم في كانون الأول ، أما الحصاد ففي منتصف نيسان . وبالإضافة إلى ما يقدمونه إلى الحكومة فإن هؤلاء البدو معرضون لابتزاز رؤسائهم وشيوخهم والسلطات التركية المدنية »^(١)

عبرت قافلة السائح عند بيرة جك نهر الفرات . وفي أورفة شاهد دوختوروف تجنيد العساكر ؛ « كانوا يأخذون المجندين بالقرعة ، كانوا يلبسون كل من تقع عليه القرعة قبقاباً من الخشب في رجله ، ويسوقونه في الحال إلى السجن حيث يبقى فيه إلى أن يرسل إلى الفوج الذي يخدم فيه »^(٢)

ثم توجه دوختوروف في ٢٥ مارت من أورفة مع أصحابه إلى مضارب القبيلة البدوية شمر . وقد استقبل أخ رئيس القبيلة عبد الكريم رزاق المسافرين ، وقد زاروا جميع قطاعات البدو ، ثم استعراضوا وفحصوا الخيول . وفي ٦ نيسان عادوا إلى حلب ، ثم سافروا إلى حماة . وفيما بعد زار دوختوروف قبيلتي عنزة وإربولي .

وكان قد زار دوختوروف حمص ، وبعلبك ، وبيروت . وفي ٢٤ مايس سنة ١٨٦٣ سافر من بيروت إلى دمشق .

ومن دمشق توجه دوختوروف إلى حوران حيث تعيش قبيلة ولد علي ؛ « القبيلة تتألف من ستين ألف أسرة ، منها ٢٣ ألف أسرة من الفرسان ، والبقية من المشاة ، يرعون قطعان الماشية . . .

لا يوجد عندهم القرآن ولا المساجد ، ولا الملا ولا الأئمة ، كما لا يحملون أي تعصب ديني . وأن عادات وتقاليد الأجداد هي عبارة عن دستور وقانون لإدارة القبيلة على النظام الأبوي التقليدي القديم . ويطمرون موتاهم في الصحراء ، ولا

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

يضعون أية علامة على القبور أما مجال رحلاتهم فيمتد حتى المدينة «^(١) . (يقصد بها المدينة المنورة في بلاد الحجاز - م.خ .) استضاف الشيخ محمد دوحى السائح دوختوروف . وبعد شراء الخيول عاد دوختوروف الى دمشق وقام بزيارة لعبد القادر .

لا شك ان مذكرات دوختوروف التي تصف وتقيم حياة ومعيشة مجموعة من القبائل البدوية الرحالة لها أهميتها بشكل عام حتى في الوقت الحاضر للأنثوغرافيين ، والجغرافيين ، والمؤرخين .

رحلة سميشلياييف

كان الباحث الشهير لمنطقة بيرمسكري^(٢) ديمتري ديمترييفيخ سميشلياييف (١٨٢٨ - ١٨٩٣) قد قام برحلة إلى الشرق في سنة ١٨٦١ . وعن نتائج رحلته نشر مقالات وكتباً^(٣) .

يصف السائح بلغة واضحة ومعبرة الأماكن والمواقع التي زارها . وهي ليست صورة سطحية ، وإنما مليئة بتحليل عميق لمشاهد الطبيعة ، والحياة الإجتماعية والواقع اليومي للسكان المحليين :

« من السويس تبدأ صحراء عارية ، وفيها يشاهد المرء أول واحة صغيرة تسمى عيون موسى ، وعلى مسافة قريبة منها وادي غرندل . فهذا الفضاء الواسع عبارة عن أراضي منبسطة تماماً ، ما عدا بعض المرتفعات غير المحسوسة التي تمتد بشكل متوازي فتكون مجموعة أودية شبيهة بالأودية الموجودة في منطقة البراري عندنا . ثم ترتفع

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٢) بيرمسكري : منطقة في أصقاع فولغا الوسطى في البر الروسي (المترجم) .

(٣) يراجع : د. سميشلياييف ، من مذكرات سفر المختص بمنطقة بيرمسكري ، « نشرات للمطالعة » ، الملحق الشهري لـ « إدارات البورصة » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٧ ، شباط وآذار ، ص ٩٥ - ٢١١ ؛ وله أيضاً ، من مذكرات سفر المختص بمنطقة بيرمسكري ، الملحق العلمي والأدبي لـ « إدارات البورصة » ، الكتاب ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٦ ، مايس ، ص ١ - ٢٦ ؛ وله أيضاً ، في الطريق إلى سيناء ، بيرم ، ١٨٧٦ ؛ سيناء وفلسطين ، بيرم ، ١٨٧٧ .

المواقع بالتدرج ، وتتحول التلال الرملية في البداية الى أراضي كلسية ، ثم الى جبال غرانيبية ، وهذه الأخيرة ترتفع أكثر فأكثر وتتصل أخيراً بالسلسلة الجبلية لمجموعة سيناء المستعرضة التي تؤلف أعلى جبال في جميع أنحاء شبه الجزيرة بحيث لا يفصلها عنها إلا وادي سولاف الضيق . أما الرمال التي تمتد من السويس فهي سريعة الانهيار ومغطاة أحياناً بلافا (حمى براكين) . كثيرة حمراء ، وسوداء ، أو رمادية اللون ؛ وهذا الجزء من الصحراء وحتى الجبال الغرانيبية الضخمة يخلو من أي نبات ، ولا يوجد أي أثر للخضرة ، وعدا الواحات التي أشير إليها سابقاً ، يشاهد المرء هناك شجرتين أو ثلاث من الشجيرات اليابسة ذات الأشواك ، تهجم عليها الجمال بنهم أحياناً . . . وأن جميع النباتات التي يصادفها المرء في الطريق هي هشّة ويابسة وذات أشواك إلى حد كبير ، وهي في لون أخضر شاحب باهت ، ويتحول أحياناً الى أصفر شاحب باهت . . . أما الماء فلا يصادفه المرء في جميع أنحاء الجزيرة إلا نادراً جداً ، وهو في آبار طبيعية ارتوازية مياهاها قليلة ، وطعمها في طعم المالح وهي مرة ومالحة . والمياه في هذه الديار غير صالحة للإستعمال مطلقاً ، عدا العيون في وادي براك وفي ثغور النقب . . . وفي وسط هذه الطبيعة الفقيرة تتجول القبائل وهي تنقسم الى ثلاثة أقسام : على كات (ربما العليقات - م.خ .) ويعيشون بين وادي نصب ووادي غرندل ، وأولاد سليمان ويستقرون في ضواحي قرية طور المطلّة على البحر ، وأخيراً الجبليون . . .

إن هذا القسم الأخير (الجبليين) هم خدم الأديرة ، وهم يعشعشون حول الصخور التي تحيط بالدير . ليس لديهم أية ممتلكات أو أمتعة ، انهم يعيشون على صدقات الدير وإحسانه ، ويقومون بجميع الأشغال والأعمال التي يكلفون بها : يزرعون البساتين ، ويخدمون في القرى ، ويعملون كأدلاء وما شابه ذلك . . . والفقر هو من نصيب البدو كلهم ، وأما المعرفة فهي من نصيب قليل منهم ، إنه شيء مدهش حقاً . وأن المرء يصادف دوماً البدوي شبه العاري الهزيل ، الجائع أبداً ، والنائم في الليالي الباردة تحت السماء المفتوحة ، لا شك أن هذا المنظر يشير الرأفة والشفقة بشكل عفوي .

وكلمة البدو وهي تعني « سكان البراري » عند الترجمة : أناس من المسلمين ،

إلا أن المرء يشك في الواقع أن يكونوا على دين أو مذهب معين . . . إننا لم نرهم يؤدون الصلاة ولو مرة واحدة ، انهم يقولون في هذا الصدد : « إننا لا نستطيع القيام بالوضوء ، لأنه لا وجود للمياه في الصحراء ، ولا نتمكن أن نقدم الصدقة والزكاة لأننا فقراء ، ولا نقدر أن نصوم شهر رمضان لأننا جياع على مدار السنة ؛ وليس لدينا المال للذهاب الى مكة لأن الله موجود في كل مكان »^(١) .

ويتحدث سميشلياييف في كراس صغير « في الطريق الى سيناء » عن الاسكندرية والقاهرة ، حيث زارهما في نهاية سنة ١٨٦٤ وبداية سنة ١٨٦٥ .

أما كتاب « سيناء وفلسطين » من حيث المحتوى فهو إعادة للمقالات التي أشرنا اليها سابقاً ، إلا أنه دخلت فيه إضافات كثيرة في وصف فلسطين (يافا ، ومدينة القدس ، والخليل ، وبيت لحم ، ونهر الاردن ، والناصرة ، وحيفا) .

وبعد مرور مدة طويلة ، وفي سنة ١٨٨٥ سافر د.د. سميشلياييف وهو مندوب الجمعية الارثوذكسية الفلسطينية في بيرم (مدينة في الفولغا الوسطى في الأورال - م.خ .) الى فلسطين مرة أخرى ، حيث قام بانجاز مجموعة من المهام التي كلف بها من قبل الجمعية ، وقد أقام في فلسطين حتى سنة ١٨٨٩ .

مذكرات أحد أعضاء السفارة الروسية في القسطنطينية

إننا نجد في مذكرات أحد أعضاء السفارة التي تحمل اسم « اضطرابات القسطنطينية^(٢) » الوصف التالي للوضع في تركيا : « ان ديون الدولة عبارة عن أفعى

(١) د. سميشلياييف ، من مذكرات سفر المختص بمنطقة بيرمسكي ، الملحق العلمي والأدبي لـ « إدارات البورصة » ، الكتاب ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٦ ، مايس ، ص ٢٦ .
(٢) أ.أ. ديمثرييفسكي ، الجمعية الارثوذكسية الفلسطينية الامبراطورية ونشاطها خلال الربع قرن المنصرم (١٨٨٢ - ١٩٠٧) ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٧ ، ص ٣١٨ - ٣٢٧ .
(٣) الملحق العلمي والأدبي لـ « إدارات البورصة » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٦ ، نيسان ، ص

هائلة تلتف حول جميع أنحاء الامبراطورية التركية ، وهي سوف تختنقها بدون شك عاجلاً أم آجلاً ، فالضرائب الجمركية كانت مرهونة ، ومناجم الفحم الحجري في آسيا الصغرى كانت مرهونة أيضاً ، والعقارات والقرى الكبيرة ، وضرائب الارض ، ونقود جيوب أتباع السلطان ، وبعبارة أخرى جميع الأرباح التي تأتي من جزر رودوس ، وخبوس ، وقبرص كلها مرهونة ؛ جميع القصور ، والغابات ، والمناجم ، والمقالع ، والمجوهرات ، والإمتيازات الإحتكارية ، وبقيّة مدخولات الدولة ، كلّ هذه مرهونة لدى الرأسماليين في القسطنطينية ، وازمير ، ومانجستر ، ولندن . أما السلطان ، والأمة ، والدولة فإنهم غارقون في الديون إلى آذانهم ، وهذا الدين ينمو ، وينمو ، وهو مستمر في نموه . . . ولكن من الذي يدفع ، وأي دخل يستطيع أن يغطي هذه الفوائد ، كان الصرف على الحريم ، وعلى بناء جميع هذه القصور ، وعلى الجيش ، وعلى الأسطول ، وعلى البيروقراطية ؟ من يدفع ؟ اسألوا هؤلاء الجنود المتهكين والممزقي الثياب الذين يأكلون في ثكناتهم قشرة الخبز اليابس ، الى أي حد يمكن انتزاع الرواتب منهم حتى يكون بالإمكان اشباع هؤلاء المتخمين السفهاء من خصيان السراي . . .

ما الذي يدعم هذا الوضع المترنح لهذه الدولة الغارقة في الديون ؟ تدعمه النوعية الجيدة للمواطنين الترك : الصبر ، والإخلاص ، وحب العمل بدون كلل . وهناك في أوروبا نظرة خاطئة تماماً عن الترك ، يعتقدون بأنهم نوع من الناس الذين يدخنون دائماً ، ويحلمون بالمدافع الرشاشة . انظروا الى الفلاح . . كيف يكدح بنشاط طوال النهار في حقله ويسوق ثيرانه . . ومن الذي يقوم بجميع الأعمال الشاقة العنيفة في المدن ؟ انهم الحمالون ، وسواق عربات البضائع ، والذين يسوقون عربات نقل الأشخاص ، والبستانيون ، والإسكافيون ، والحدادون ، والحياطون ، والقصابون ، وسعاة البريد ، وأصحاب الحرف اليدوية المختلفة ، انهم جميعاً من الأتراك الأصليين «⁽¹⁾» .

(1) المصدر السابق ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

رحلة رادده

قام مدير متحف القفقاس والمكتبة العامة في تفليس ، والإختصاصي في علم الحيوان والجغرافي ك. إ. رادده برحلة الى ما تسمى بأرمينيا التركية في سنة ١٨٦٧ .

وقد تجول في الهضبة التي يقدر ارتفاعها بستة آلاف وخمسمائة قدم ، والممتدة من طوروس حتى سفوح جبال أديجاريا المتاخمة للساحل .

خرج ك. إ. رادده من أخاليتسيخ في ٤ آب سنة ١٨٦٧ ، وعبر الحدود عند مركز كاجكايشكي الجمركي على الحدود ، ووصل فيما بعد عن طريق أردهان وخلال مضيق سارق بوار الى أردهان :

« لا تبعد منابع كوره من أردهان . . واننا مدينون بدون شك الى التوبوغرافيين الروس لما قاموا به من مسح جيد لهذه المواقع في أثناء الحرب الأخيرة ، ولكن بقدر ما هو معروف لدينا ، لم ينشر أحد منهم شيئاً عن هذه المنطقة . ثم توجه من أردهان نحو الجهة الجنوبية ، وعبر السائح أربع سلاسل جبلية غير عالية ، وهناك بين تلك السلاسل ثلاثة أودية طويلة ، فيها مروج وحشائش وأعشاب غزيرة . وتقع خلف الوادي الرابع والأخير من هذه الأودية ، أرض مسطحة واسعة جداً في زاويتها الشرقية منابع كثيرة للأنهار التي تؤلف نهر الى كوره . ثم علينا أن نعلم بأن مجرى النهر الأساسي هو ليس الذي من أطول المجاري ، وإنما الذي مياهه أوفر . . . وعندما يتوجه المرء من هنا الى قارص ينبغي عليه العبور خلال السلاسل التي توزع المياه ، وهي تفصل منظومة آراس عن منظومة كوره . . وعند الهبوط الى قارص چاي بمحاذاة أحد روافده وهو بيرديوك سو . وصل السيد رادده الى قارص في اليوم التاسع من الشهر . . . وفي ١٣ آب كان السيد رادده على ضفاف بحيرة چالدير . . . ومن بحيرة چالدير سلك الجهة الشمالية الشرقية فوصل رادده مركز خوزيايين الجمركي على الحدود »^(١) .

(١) « عرض موجز لرحلة ك. إ. رادده الى أرمينيا التركية في ١٨٦٧ » ، كتب في ضوء حكاية الرحال نفسه ، « أخبار الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية » ، المجلد ٤ ، العدد ٣ ، ١٨٦٨ ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

يأتي ك . إ. رادده بمعلومات مهمة عن اقتصاد وأتوغرافيا أرمينيا التركية : « أن هذه المنطقة ملائمة لتربية المواشي والأغنام . . . ونظام الحياة في هذه البلاد في الغالب هو حياة الرحلة . والسكان الرحل هنا ينتمون إلى القبائل الجورجية ، والأرمنية ، والتركية ، والكردية ، التركمانية ، وهناك في بعض الأماكن يعيش القره قلباغيون ، وهم نموذج رائع لفقدان التعصب الإسلامي ؛ انهم يتكونون من السنة والشيعة غير أنهم يعيشون في وفاق تام . أما الحضرة هنا فهم من الأرمن والترک وعدد صغير جداً من الجورجيين . وبالرغم من أنه لا تتمتع أية قبيلة من هذه القبائل بوضع مالي جيد إلا أن المرء يدرك بدون شك بأن أفقر جميع هذه القبائل هم الترك . . . »^(١)

وعند منابع كانسي جاي وصلوا الى المنطقة التي تقطنها القبائل الرحالة التركمينية في دوگور (توكور) : « انهم يعتقدون الدين المحمدي (يقصد الدين الاسلامي - م.خ .) ، ولكن مع ذلك يشربون الخمر ، وبصورة عامة لا يلتزمون بتعاليم نبيهم بشكل متين . وأما كرههم للترك فإنه معروف لدى الجميع لأنهم يضطهدونهم بشدة . ويشتهر هؤلاء بمهارتهم في فن نسج السجاجيد والأفرشة ، وتقوم نساؤهم بهذه الأعمال ، وهن مجيدات في عملهن »^(٢) .

هناك أردهان أو أردخان ، ابنتها غير جيدة ، وهي قرية مشتتة لا نظام فيها ، تضم بيوتاً يتراوح عددها بين ٢٠٠ و ٢٣٠ . . . والتجارة المزدهرة فيها هي تجارة الحبوب ، ثم تجارة ماشية الذبح . . . ويرسل القسم الأعظم من قطعان المواشي من هنا الى أرمينيا الروسية حتى يصل إلى أريثان . والفرع الثالث من صناعة أردهان هو جذوع شجر الصنوبر .

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال هو الإشارة الى بضاعة نادرة جداً لها أهمية كبيرة لا متناهية للتجار الترك ، وهي في نفس الوقت نموذج للتجارة الاعتيادية الرائجة كالسلع والبضائع الأخرى ، أعني بها البنات المسيحيات المسروقات ، فبالرغم من

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٢) « تقرير تمهيدي عن رحلة الدكتور ك . رادده الى القفقاس في صيف سنة ١٨٦٧ » ، « نشرات

الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية - قسم القفقاس » ، الكتاب ٨ ، تفليس ، ١٨٧٣ ، ص ٦٠ .

يقظة وحذر الحكومة الروسية ، إلا أنه حتى الوقت الحاضر ، وبصورة مألوفة تسرق هؤلاء البنات عن طريق الإكراه من غوريا ، ثم يأتون بهن عن طريق جبال أديجار ، ويبيعونهن كحريم إلى وجهاء الترك الأغنياء . وقد ذكروا لي عن وقوع أحداث من هذا القبيل في قرية كابوليتي التي تقع بالقرب من اوزوگيت في غوريا ، فالسكان المحليون يهتمون بهذا الأمر ويرغبون في تلقي بعض المعلومات عن هذه البضاعة . ومنذ بضع سنوات كانوا قد جلبوا من هناك فتاتين بهذه الصورة «^(١)

وكان ك. إ. رادده قد سافر مرتين أخريتين إلى أرمينيا فيما بعد في سنة ١٨٧١ وسنة ١٨٧٤ : وصل إلى أعالي نهر الفرات ، وأنجز عملية التسلق على جبال آارات ، ودرس وديان كوبلان جاي ، وجوروخ ، ومنطقة أرضروم . ففي رحلة سنة ١٨٧٤ رافقه الدكتور في العلوم الطبيعية سيثيرس . وكان قد جمع مجموعات كبيرة وغنية من النباتات .

« كانت لهذه الرحلة أهمية خاصة في نواحي كثيرة . لأن مجالها كان واسعاً وكبيراً في الغرب والجنوب من المناطق التي تمت دراستها في أرمينيا وفي منابع نهر آراس ، وجوروخ ، والفرات حيث هيأت الفرص والإمكانية لدراسة المواقع التي لم تدرس في قبل العلماء لحد الآن . . . وكانت نتيجة القيام بدراسة خاصة للمجموعات الغنية التي جمعت أن ظهرت إمكانية القيام بالمقارنة بين نباتات منطقة الألب العليا لسلسلتي آارات ، وآلگز ، وبين بينگول داغ وجبال كابوج وذلك ليس فقط من الناحية المورفولوجية^(٢) ، وإنما من حيث توزيع هذه المناطق بصورة عامة في القفقاس^(٣) . »

وبعد دراسة توزيع النباتات على سفوح جبل آارات الكبير ، يتوصل رادده إلى نتيجة وهي أن الحدود العليا للجبل في هذه المواقع هي أعلى بكثير من سلسلة جبال القفقاس الرئيسية^(٤) .

(١) المصدر السابق ، ص ٦٣ - ٦٥ .

(٢) مورفولوجيا : علم التركيب العضوي للاحياء (الحيوان والنبات) . (المترجم) .

(٣) ب . ب . سيميونوف ، تاريخ نشاط الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية ، القسم ٢ ،

ص ٨٥٤ .

(٤) « تقرير الجمعية الجغرافية الروسية لسنة ١٨٧١ » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٢ ، ص ٨١ .

وفي رحلة سنة ١٨٧٤ كان السيد ك. إ. رادده قد قام بدراسة عميقة ومستفيضة
لينگول داغ^(١) (جبال الألف بحيرة ، منطقة منابع نهر آراس) وقدم وصفاً رائعاً
لنباتاتها الكثيرة المتنوعة .

ثم توجه رادده ورفقاؤه من بينگول داغ الى سهل خنيس : « الذي تنحدر
اليه الالفا المتجمدة على شكل بضعة سيول واسعة وخفيفة الانحدار » ، وكانوا
يجمعون النباتات للتجفيف في كل مكان وموقع ومنطقة يبرون بها .

ولا شك بأنه كانت لأعمال ك. إ. رادده أهمية علمية كبيرة للفترة التي ألفت
فيها ، وانها حافظت على قيمتها بشكل محسوس والى درجة ملحوظة حتى يومنا هذا .
والمؤلف لم يصف الظواهر الجغرافية بصورة سطحية وانما اكتشف العلاقات المشتركة
بينها ، وذكر الشيء الكثير من المعلومات المفيدة في الجغرافيا ، والانتوغرافيا ،
والاقتصاد للاماكن التي تمت زيارتها .

رحلة مالاما

كان الضابط الروسي ي. د. مالاما قد عين سكرتيراً للقنصلية الروسية في
أرضروم في سنة ١٨٧٩ .

وأشغل مدة ثلاث سنوات منصب السكرتير في القنصلية الروسية في أرضروم ،
مما هيا له الظروف أن يقوم بسفريات كثيرة في المنطقة ساعدته أن يقدم وصفاً رائعاً لولاية
أرضروم ، وهو يضم فصولاً عن التقسيمات الإدارية ، والسكان ، والضرائب ،
والتوبوغرافيا ، والمناخ ، والمياه المعدنية ، ونظام ملكية الأرض ، والمزروعات ،
والمواشي ، والرعي ، والمعادن والفلزات ، والصناعات ، والطرق والمواصلات .

وبالإضافة إلى وصف الولاية يقدم ي. د. مالاما معلومات عن أوضاع
الكنائس ، والمعارف الوطنية ، والمالية ، والتجارية وما إلى ذلك . وفي كتابه يقدم

(١) أخبار الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية ، المجلد ٥ ، النشرة ٣ ، تفليس ، ١٨٧٧ -

١٨٧٨ ، ص ٢٠٧ - ٢٣٢ .

وصفاً لسنجق (منطقه) أرضروم : جالدير ، وقارص ، وبايزيد ، ووان ، وموش ، وأرزنجان . وهناك معلومات عن المساحة ، والحدود ، والمناخ ، والسكان ، والنظام الضريبي ، والزراعة ، والصناعة ، والطرق والمواصلات . وهكذا يذكر مالاما بأنه يعيش في الولاية ٦١٠٧٤٤ شخصاً ، منهم ١٨٩ ألفاً من الترك ، و٢٠٧ ألف من الكرد ، و١٥٧ ألفاً من الأرمن . وخلال سرده للأوضاع يؤكد بأن الحكومة ليس فقط لم تستطع حتى الوقت الحاضر القيام بالسيطرة التامة على الكرد الرحالة التابعين لها ، وإنما لم تتمكن حتى في جلبهم إلى جانبها واستمالتهم لها ، ولهذا السبب ترى فيهم : « العنصر الذي يعادي الحكومة ، وهي متهيء عند أول فرصة سانحة له أن ينضم إلى جانب العدو . . . » .

أما الفصل المخصص لوضع العقارات ، وملكية الأرض ، وأحوال الزراعة في ولاية أرضروم فيثير الاهتمام : « بالرغم من أنه هناك ظروفاً ملائمة تماماً لتطوير بذر وزراعة القمح على نطاق واسع جداً ، إلا أنها محدودة بصورة طبيعية ، وهي تفي بحاجة السكان المحليين ، أما سبب هذه الحالة في الزراعة فهو محدودية البيع ، وعدم وجود ضمان للممتلكات ، والضرائب العالية المفروضة عليها ، وعبء جبايتها وغير ذلك من الأسباب »^(١) .

وكان اهتمام مالاما منصباً على النظام الضريبي بشكل واضح .

فيقول المؤلف عن الضريبة التي تجبى عن الأموال غير المنقولة في تركيا : « إن الخطأ ليس فقط في تحديد الدخل الصافي ، وإنما حتى في تقييم الممتلكات التي تحدد إلى درجة كبيرة بشكل غير صحيح ، فإنهم يخفضون قيمة ممتلكات الناس الأغنياء والمتنفذين ، ويرفعون قيمة أكواخ الفقراء »^(٢) .

وعندما يصف ضريبة العشر وأسلوب جبايتها ، يستنتج مالاما بأن لهذه الضريبة تأثيرها الكبير أيضاً « في تخفيض مستوى الحرث والفلاحة » .

(١) « وصف ولاية أرضروم ، كتبه ي . د . مالاما » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٤ ، ص ١٠٧ .

(٢) المصدر السابق .

رحلة كازبيك

كان لنشاط العقيد ك. ن. كازبيك أهمية كبيرة في هذا المجال حيث كتب عملين اثنين^(١) عن جورجيا التركية^(٢)، أو بشكل أدق عن سنجق لازستان في ضوء انطباعاته وملاحظاته الشخصية في رحلته سنة ١٨٧٤ والتخطيطات والرسوم الذي هياها رفيقه في السفر إيلين . ففي مقالته الموسومة « ثلاثة أشهر في جورجيا التركية » يصف الوضع الجغرافي للمنطقة ، ويذكر معلومات قيمة عن الطبيعة ، والسكان ، والعلاقات الاجتماعية .

وقد سلك ك. ن. كازبيك طريقاً امتد خلال شعاب عباس تومسان ، وكوابليان جايي ، القرية الروسية على الحدود في محافظة أديجاليا الشمالية . ولم يمكن ك. ن. كازبيك في هذه المحافظة التركية مدة طويلة ، خرج منها متوجهاً إلى شافشيت ، ومن هناك عن طريق أردانوج وآرتفين وصل إلى لازستان . وقد تهيأت الظروف للسائح ك. ن. كازبيك أن يزور تلك الأجزاء في جورجيا التركية التي لم تكن موجودة على الخرائط ، أو انها وردت بصورة عامة فقط .

وفي أديجاليا الشمالية زار كازبيك عاصمتها حولو ومجموعة من القرى : « إن السكان الأديجاريين كلهم من عرق الشعب الكارتفيلي^(*) . . . فالملابس هنا

(١) ك. ن. كازبيك ، ثلاثة أشهر في جورجيا التركية ، « منشورات الجمعية الجغرافية الروسية ، قسم القفقاس » ، الكتاب ١٠ ، النشرة ١ ، تفليس ، ١٨٧٦ ، « مقالة حربية ، وإحصائية ، وسترراتيجية عن سنجق لازستان » ، تفليس ، ١٨٧٦ .

(٢) يسمى ك. ن. كازبيك جورجيا التركية ويضمنها سنجق لازستان ، بالقسم الشرقي لساحل البحر الأسود في الأمبراطورية العثمانية ، أي بعض أجزاء من أديجاليا الحالية مع باطوم . وهذه الأقاليم علاقة مباشرة بتاريخ الشعب الجورجي ، كانت في زمن ما جزءاً من مملكة جورجيا الغربية المسماة كوخيد ، ثم دخلت فيما بعد ضمن إمارة ناوكلارجيت ، وبعد ذلك أصبحت ضمن جورجيا الانقطاعية الموحدة التي انقسمت فيما بعد إلى دول منفردة .

وبنتيجة الحروب التركية - الجورجية في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر استولى الترك على أديجاليا . وبعد الحرب الروسية - التركية في ١٨٧٧ - ١٨٧٨ وبموجب إتفاقية برلين لسنة ١٨٧٨ أخضت باطوم (تسمى باطوم في الوقت الحاضر) والأقاليم التي تعود لها بروسيا ، وتوحدت مع جورجيا (دائرة المعارف التاريخية السوفياتية ، المجلد ٤ ، موسكو ، ١٩٦٣ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩) .

(*) كارتفيل أو كارتفيلكا : اسم للشعب الجورجي وأقربائهم من شعوب القفقاس (لاز ، ومينكريل ، وسقان) ، وهي من شعوب ما وراء القفقاس (المترجم) .

گوریة . أما الدين فإن الأذجاريين مسلمون وملتزمون بالديانة بشكل صارم .
ويستعملون اللغة الجورجية في حياتهم البيئية وعلاقاتهم الاجتماعية ، وأما البالغون
من السكان فيعرفون كلهم اللغة التركية أيضاً «^(١)» .

أقام السائح في شاقشيت مدة أسبوعين ، وكان غالباً ما يسافر إلى أقصيتها
ونواحيها :

« يتألف سكان شاقشيت من شعبيين : الجورج ، والأرمن . أما المجموع
العام للسكان . . . فيتراوح بين ١٢ و ١٤ ألف شخص . . . والسكان كلهم فيما عدا
١٤٥ أسرة أرمنية (حوالي ٩٠٠ نسمة) هم من عرق الشعب الكارتفيلي ، ويتكلمون
فيما بينهم بلغة جورجية صافية فيها نبرة تشبه نبرة سكان المناطق الجبلية في
جورجيا . . . وبالإضافة إلى ذلك يجد المرء في اللهجة السائدة كلمات كثيرة من
اللهجة الخيشورية المحلية . . . أما سكان القرى الواقعة في محاذة الطريق العام
فإنهم نسوا تماماً وبشكل عام اللغة الجورجية ، إلا أنهم يقولون بصراحة بأن آباءهم
كانوا من الجورج . . . وكلما تقدمنا من أردانوح ، كلما التقينا بصورة أقل بالناس
الذي يتقنون اللغة الجورجية ، على الرغم من أن اثنتي عشرة قرية من القرى الواقعة
في مشارف جبال كومبختيتسي يسميها الناس فيما بينهم بگورجستان (بلاد
الجورج) «^(٢)» . . .

ويعرف السكان في شاقشيت بأن بلادهم قد سلخت بالقوة من جورجيا ، وبأن
ديانة أجدادهم كانت المسيحية . . . ولا تزال بعض التقاليد سائدة حتى الوقت
الحاضر وخصوصاً ما يتعلق باحترامهم للمعبد الجورجي الموجود هنا «^(٣)» .

ثم سافر كازبيك خلال نهر جوروخ ، من آرتفين وحتى بورجخ عن طريق
النهر على ظهر القوارب . ولا شك بأن ملاحظاته بهذا الصدد جديرة بالاهتمام :
« وهكذا شرعت شركات التجار الانكليزي في السنة التالية بشراء الحبوب في قارص ،

(١) ك . ن . كازبيك ، ثلاثة أشهر في جورجيا التركية ، ص ٣٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٥ - ٦٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٠ .

وشافشيت ، وكانت ترسل الحمولة إلى باطوم عن طريق نهر جوروخ . . . وكانت الحبوب تنقل عموماً إلى آرتفين من قبل الكرد بوساطة الثيران والدواب المستعملة للحمل ، ثم ترسل بالقوارب عن طريق النهر . . . ففي سنة ١٨٧٤ الحالية بعث وكيل إحدى الشركات من آرتفين ٤٤ ألف بور(*) من الحبوب .

إن سكان سلاسل جوروخ الجبلية يتكلمون بلغة جورجية راققة وصافية جداً . . . وكانت هذه البلاد ومنذ القدم مهذاً للعرق الجورجي الأصيل «^(١)» .

ولا ريب بأن مجموع مذكرات ك . كازبيك تؤلف مصدراً قيماً لدراسة سنجق لازستان في السبعينيات من القرن التاسع عشر .

قناة السويس

و

رحلة كوفاليشسكي

هناك أعمال روسية كثيرة وكذلك مجموعة من المصادر الأجنبية المكرسة لتركيا ، ولقد أصبحت تلك الأعمال أساساً ومصدراً لتأليف المنتخبات الحربية الإحصائية المسماة «الأمبراطورية التركية» في سنة ١٨٦٨ . وكانت لهذه الطبعة أهمية كبيرة جداً للفترة التي صدرت فيها^(٢) .

وكان بناء قناة السويس قد جلب انتباه الأوساط العلمية والاجتماعية في روسيا . ويجدر بنا بهذه المناسبة أن نقف عند مقالة الضابط البحري [الملازم] الشاب اليكساندر كوفاليشسكي المنشورة في سنة ١٨٦٢ في جريدة «بشير أوديسا» ، وفي «المجموعة البحرية»^(٣) . وفيها يتكلم كوفاليشسكي عن أهمية بناء القناة للملاحة

(*) بود : وحدة للوزن ، زنتها ٣٨/١٦ كيلوغراماً ، أو ٣٦ رطلاً مصرياً (المترجم) .

(١) المصدر السابق ، ص ٩١-٩٢ .

(٢) «الأمبراطورية التركية» ، مجموعة حربية - إحصائية ، النشرة ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٨ ، بإشراف ن . ن . أوبروجيف ، وهناك طبعة مستقلة أيضاً .

(٣) عن مقالة أ . م . ليوبارسكايا «السائح والبحار الروسي في بناء قناة السويس» ، يراجع : «بلدان وشعوب الشرق» ، النشرة ١ ، موسكو ، ١٩٥٩ ، ص ١٤٨ - ١٦١ .

البحرية العالمية ، وبالأخص للملاحة الروسية . وقد أوضح بأن المستعمرين الأوروبيين لم يبنوا القناة ، بل إن البناة الحقيقيين للقناة هم الفلاحون المصريون ، ولا شك أن هذه الفكرة كان رأياً شجاعاً جداً لذلك الوقت : « إن الذين قدموا من فرنسا وبلجيكا وهم يحاولون أن يصبحوا أغنياء من حفر القناة ، أناس لا يحملون أي نوع من الاختصاص في أي قسم من الأقسام ، ولهذا السبب بالضبط غالباً ما يربطون أنفسهم بوظيفة رئيس الحسابات ، أو أمانة الصندوق ، أو وظائف بوليسية متنوعة أخرى تتعلق بالعمل في القناة^(١) . . . »

إنني شاهدت العمل من ماكفرو سبع أبيار وحتى نيوفيل . . . هناك عشرة آلاف عامل يشقون القناة حتى البحيرة تحت إشراف الشرطة الصارم ، المسلحة بالهراوات وبالقضبان . ويسير العمل بكل بساطة وبدون أية تطبيقات خاصة ، العرب ينقلون الأتربة في سلال محلية^(٢) .

وكان كوفاليفسكي مستاءً بشكل عميق من المعاملة القاسية التي يعامل بها المستعمرون السكان المحليين : « ليس بإمكان المرء أن لا يعطف على العربي الجاهل ولكنه الموهوب القدير ، عندما يشاهد كيف أن المثقفين المتنورين يجلدون بالقضبان والهراوات هؤلاء العشرة آلاف وهو جيش من العمال . . . وهم لا يقبضون أية مكافئة ولا يرون نهاية كدهم وعملهم ولا يتمتعون بها » . وهو يدين بغضب تصرفات وسلوك الإدارة الفرنسية : « وضع الفرنسيون في عصر الإنسانيّة والتقدم في كل قطاع شيخاً أو حتى مستخدماً ويدهم القضبان وهي شبيهة بالعيدان المألوفة عندنا^(٣) .

وبناء القناة انعكس بصورة واسعة على صفحات مطبوعات الجمعية الجغرافية وفي الصحف الدورية أيضاً .

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥١ .

(٣) المصدر السابق .

الاحتفال بافتتاح قناة السويس ورحلة سولوگوب

تلقى كثير من الناس في روسيا الدعوات للحضور في الاحتفال الذي يُقام بمناسبة افتتاح قناة السويس . ففي ٢٧ تشرين الأول سنة ١٨٦٩ ومن مرفأ أوديسا أبحرت إلى مصر باخرتان وهما « الجنرال كوتسيو » و« فلاديمير » ، مع ستين ضيفاً على ظهر كل منهما والسفينة الشراعية الحربية « بيسيزوايسي » والباخرة « أوليگك » ، واليخت « الياقوت » تحت راية اللواء البحري بوتاكوف .

وكان هناك بين الضيوف كل من الموظف في وزارة الشؤون الداخلية الكاتب ف . أ . سولوگوب (١٨١٤ - ١٨٨٢) ، والفنان إ . ك . آيشازوفسكي ، والسفير الروسي ن . پ . ايگناتيف . وبالإضافة إلى ذلك كانت زوجة نابوليون الثالث وعبد القادر من بين الحاضرين في الاحتفال .

ويصف ف . أ . سولوگوب مراسيم الاحتفال بافتتاح القناة ، والسفرة في القناة التي افتتحت لتوها من بورت سعيد حتى السويس ، والاحتفالات المتعلقة بهذا الحدث العظيم الهائل^(١) .

ويرسم الكاتب بإيجاز تاريخ حكم محمد علي ، ويطرح انطباعات وملاحظات سفره . وهو يشير إلى أنه قبل سنة ١٨٢٠ لم تعرف مصر القطن ، فالتجربة والمحاولة الأولى لزراعته بدأت في سنة ١٨٢٠ فقط ، وأما في أميركا وفي سنوات الحرب بين الشمال والجنوب كانت زراعة القطن قد وصلت إلى درجة عالية من الرقي . ثم زار سولوگوب الإسكندرية ، وبورت سعيد ، والسويس ، والاسماعيلية ، والقاهرة .

وملاحظة سولوگوب الدقيقة التالية جديرة بالاهتمام : « إنني لم أشاهد حتى فرنسياً واحداً لم يكن متأكداً مسبقاً بأنه عاجلاً أم آجلاً سوف يزيح الانكليز الفرنسيين

(١) ف . أ . سولوگوب ، مصر الجديدة - تقرير عام وانطباعات سفر ، سانت بيترسبورغ ،

من البرزخ كما أزاوهم في الهند»^(١).

ولقد حصل هذا بالتأكيد فيما بعد كما هو معلوم .

رحلة سكالكوفسكي

(١)

كان الصحفي العامل في « كشاف سانت بيترسبورغ » ، وفيما بعد في « الأزمنة الحديثة » ك . ف . سكالكوفسكي قد قام برحلة إلى الشرق في سنة ١٨٦٩ . وعن طريق البحر توجه من أوديسا إلى مصر ، فأقام بعض الوقت في القسطنطينية . وكانت رحلته في نفس فترة الاحتفالات في بورت سعيد بمناسبة افتتاح قناة السويس . فهو بجانب وصفه المفصل لمراسيم الافتتاح يشير إلى حدث طريف : « إنني لاحظت حالاً بأن جميع الحراس والبحارة كانوا في أزياء رسمية حمراء جميلة فاخرة غير أنهم حفاة . وإن هذه الحلل تعبر بصورة أفضل عن الوضع الحالي في مصر . ففي الوقت الذي يعيش فيه نائب السلطان حياة بدخ وحينما يقبض وزراؤه رواتب تصل إلى ٣٠٠ أو ٤٠٠ ألف فرنك في السنة ، أي أكثر بست مرات من مكافئات الوزراء البروسيين ، ففي نفس هذا الوقت يعيش الناس البسطاء ، والفلاحون في فقر مدقع . بينما تستطيع مصر أن تحتل مكاناً في الصف الأول من حيث الغنى والثراء لما تملكه من تربة جيدة وخصبة والوضع الجغرافي الخاص »^(٢).

ثم أنجز ك . ف . سكالكوفسكي سفرته إلى الهند عن طريق قناة السويس على ظهر الباخرة الروسية « ناخيموف » . وهو واحد من الرحالة الروس الأوائل الذين وصفوا عدن بعد استيلاء الانكليز عليها في سنة ١٨٣٩ : « تظهر في المرتفعات التي تحيط بخليج عدن التحصينات والاستحكامات المعززة بالمدافع في كل مكان .

أما اختيار طريق عدن فكان بشكل عام نتيجة لفكرة سديدة ومعقولة . وذلك لوضعها الجغرافي الفريد حيث تقع في منتصف الطريق تماماً بين مصر والهند ، وإن

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) ك . سكالكوفسكي ، انطباعات مسافر إلى اسبانيا ، ومصر ، شبه الجزيرة العربية ، والهند ،

سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٣ ، ص ٣٣ .

هذه المناطق تشرف على البحر الأحمر ، وخليج عدن ، وخليج فارس (يقصد الخليج العربي - م . خ .) ، والبحر العربي بشكل متجانس . . . أما ميناء عدن فهو مفتوح لرياح قليلة فقط ، وهو واسع جداً يستطيع استقبال الأساطيل من أي حجم كان . وهذا السبب هو الذي حدى بالانگليز ومنذ سنة ١٨٣٩ أن لا يجمعوا عن النفقات والتكاليف الباهضة لبناء هذه المدينة «^(١) .

رحلة فينيوكوف

كان الجغرافي والانتوغرافي والرحالة الروسي الشهير ، وعضو الجمعية الجغرافية الروسية ، والمختص في دراسات الشرق الأقصى وتيان شان ، وبامير ، والقفقاس الشمالية وكذلك الجزر اليابانية ميخائيل ايثانوفيتش فينيوكوف (١٨٣٢ - ١٩٠١) قد سافر الى تركيا مرتين، في سنة ١٨٦٧ وسنة ١٨٧٤ . وعن هذه الرحلة الأخيرة ذكر طائفة من الأخبار والمعلومات المهمة والطريفة .^(٢)

وبعد مشاهدته للبوسفور وتوصله إلى انطباعات واستنتاجات خاصة قدم م . إ . فينيوكوف إقتراحاً إلى الجمعية الجغرافية حول ضرورة القيام بدراسة الجغرافيا الطبيعية للمضيق ، وقدم تقريراً عميقاً وشاملاً في هذا الموضوع . وقد أشار إلى أن في المضيقين البوسفور والدردينيل توجد تيارات معاكسة ومضادة ، وأنه يعتقد بأن البحر الأسود هو أعلى من حيث المستوى من البحر الأبيض المتوسط ، وفي البحر الأسود مياه زائدة ، ولهذا من المرغوب تحديد حجم تجويفاته ومنخفضاته ، وتحديد مناسب البوسفور والدردينيل .

وقد تحقق مقترح م . إ . فينيوكوف بعد مرور عشرين سنة فقط .

وفي رسالة بعنوان « في الاسكندرونة » يتكلم فينيوكوف فيها عن التطور

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٩ - ١١٢ .

(٢) « من الطريق الى تركيا » (من رسائل الرحال بتوقيع «ف») ، « المجموعة الحربية » ، العدد ٨ ، ١٨٧٤ ، ص ٣٦٥ - ٣٩٢ ؛ « بعض القضايا عن الجغرافيا الطبيعية لتركيا » ، « أخبار الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية » ، المجلد ١٠ ، العدد ٦ ، ١٨٧٤ ، ص ٢٠٣ - ٢١٣ . ويذكر م . إ . فينيوكوف معلومات عن رحلته الى تركيا في كتاب « من المذكرات » ، الكتاب ٢ ، أمستردام ، ١٨٩٦ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

البطيء لوسائل المواصلات بين الأقسام المختلفة في تركيا . وهو يشير خاصة الى أن :
« قناة السويس مهمة جداً لمصر ، ولانكلتره ، ولفرنسا ، ومفيدة لروسيا ، أما لتركيا
التي يسيطر على تجارتها الخارجية الأجانب واليونانيون الذين يعتبرون نصف
مواطنين ، والتي تمتلك في البحر الأبيض المتوسط والبحر الاسود أسطولاً صغيراً
واحداً للملاحة السواحل ، فهي تسبب العناء والمشاكل أكثر من الفائدة »^(١) .

ويقدم م . إ . فينيوكوف تقيماً صحيحاً للمشاريع التي خططت في ذلك الوقت
لبناء السكك الحديدية . وهو يعتقد أن المشاريع وكذلك السكك الحديدية التي
أنجزت فعلاً (قارنا - روشوك ، أسكودار - إسميد ، إزمير - أدنه ، إزمير - كاسابا)
« قد روعيت فيها قبل كل شيء خدمة مصالح التجارة الأوروبية ، وحتى السياسية
بصورة تامة وكاملة . وأنها لم تلتفت ولم تحسب إلا بشكل ضئيل المصالح الخاصة
للوطن التركي »^(٢) . ويتأمل بتفصيل في المشاريع الانكليزية ، منها الصيغة الأولى
لخط سكك حديد بغداد الذي سوف يربط القسطنطينية بخليج فارس (يقصد الخليج
العربي - م . خ .) .

إلا أن فينيوكوف يعترف بوضوح : « بأن كل خط حديدي جديد يؤسسه
الأجانب ، يصبح قيماً حديدياً جديداً لتركيا ، يفرضه عليها الأصدقاء
الغربيون »^(٣) .

ويذكر فينيوكوف بأن موانئ تركيا أمثال : إزمير ، ومرسينا ، والاسكندرونة
هي في حالة يرثى لها ، وإن العقبة التي تعيق إعادة بنائها هي الوضع الإقتصادي
المتدهور في البلاد .

ثم يقدم وصفاً رائعاً للوضع الطبيعي لولاية آيدن التي كانت في ذلك الوقت
أغنى منطقة في البلاد ، ويستنتج من كل ذلك : « بأن بالإمكان ، بدون أي شك ،
أن يكون الإنتاج الزراعي والحيواني أغزر وأوفر بكثير إن لم يكن القسم الأكبر من

(١) المجموعة الحربية ، العدد ٨ ، ١٨٧٤ ، ص ٣٧٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٨٤ .

الأراضي متروكاً ، وبالإضافة الى ذلك فإن الخزينة التركية تضايق الصناعة بضرائها الكثيرة التي تفرضها على الأراضي المزروعة أيضاً ، وأخيراً مراكز الجمارك الداخلية التي لم تغلق إلا منذ عهد قريب فقط»^(١) .

غير ان فينيوكوف لم يشر في مقالاته الى أن السبب الأساسي الذي يعرقل تطور الوضع الإقتصادي في البلاد هو بقاء العلاقات الإقطاعية وأنه ينسب كل شيء الى « الرتبة (الروتين) ونظام (البقشيش) ، وحتى إلى الخمول والإيمان بالقضاء والقدر التي ولدت على ما أعتقد من الفكرة القائلة بأن عصر العثمانيين قد انتهى » .

وكتب م.إ. فينيوكوف مقاله أخرى بعنوان « بعض القضايا عن الجغرافيا الطبيعية لتركيا والبحار المجاورة لها » وفيها يتطرق الى مسألة التيارات في البوسفور والدردينيل ، وعن قياس أعماق البحر الأسود ، وتمدد حدود آسيا الصغرى على حساب توسع القطاعات الساحلية برواسب الغرين والطيني^(٢) .

رحلة سكالكوفسكي

(٢)

قام الصحفي ك. سكالكوفسكي^(٣) برحلته الثانية في سنة ١٨٧٢ الى الشرق الأوسط . توجه من باطوم (كانت مدينة تركية في ذلك الوقت) بمحاذاة الساحل الأناضولي الى القسطنطينية ، وتوقف في طرابزون ، وكيراسوند ، وأوردو ، وسامسون حيث يقول عنها : « إن للمدينة أهميتها التجارية الخاصة في آسيا الصغرى ، يمتد إليها طريق القوافل من دياربكر ، وتوكات . وتصدر مدينة سامسون سنوياً كميات كبيرة من المرعز (شعر الماعز) ، والجلود ، والشموع ، والقنب ، والبذور ، وبصورة خاصة التبغ»^(٤) .

(١) المصدر السابق ، ٣٩٠ .

(٢) « أخبار الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية » ، المجلد ١٠ ، العدد ٦ ، ١٨٧٤ .

(٣) ك. سكالكوفسكي ، في بلاد الإمبراطورية والحرية ، انطباعات مسافر ، سانت بيترسبورغ ،

١٨٧٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

وفي طريقه كان السائح يتأمل في مصير هذه المنطقة :

« هناك جزء واسع من الساحل الأناضولي [من سينوب حتى البوسفور] يتميز عموماً بالفقر والفاقة ، وفي الفترة التي قمت فيها برحلي كان يعاني القحط الذي تحول حتى إلى المجاعة في ناحية أنغورا . وأما إنيبولي فهي الوحيدة التي لا تزال تزدهر فيها التجارة في هذا الساحل الذي كانت تكثر فيه في وقت ما المستعمرات التجارية . غير أن السلطة التركية حولت هذه المنطقة إلى صحراء . وهي ليست غنية بشكل مدهش في جميع النواحي فقط ، وإنما تتمتع بوضع جيد ومقبول للتجارة لما تتميز به من وضع جغرافي مقبول . كان مواطننا پ . جيخاجييف الذي كرس سنوات طويلة لدراسة آسيا الصغرى من جميع النواحي مقتنعاً بأنها في ظل نظام جديد تستطيع الآن أيضاً أن تطعم عدداً كبيراً جداً من السكان وذلك على الضد من رأي ليباخ وغيره الذين نسبوا تدهورها إلى إنهاك تربتها »^(١) .

رحلة تيبيلوف

تطرق الديپلوماسي الروسي الشاب ف. تيبيلوف^(٢) إلى أدرنة وفراكيا ، وكان قد زارهما في سنة ١٨٧٤ . ففي مقالاته وردت معلومات عن اقتصاد الأماكن التي تجول فيها ، وكذلك عن أوضاع السكان ، وبصورة خاصة طبقة الفلاحين .

« لا يختلف وضع طبقة الفقراء والفلاحين في وضعها المعيشي بشكل محسوس عن الرعايا المسيحيين ، فالضرائب والأتاوات تخنق هؤلاء أيضاً »^(٣) .

ولا شك بأن كلمات تيبيلوف الحارة مليئة بالسخط ، والاحتقار ، عن أنظمة الإدارة التركية : « . . . إنه وضع جيد للإداريين ، حتى وإن كانت الفترة قصيرة جداً للشخص الذي يشغل منصب [القائم مقام] ، فإنه يفلح في أن يبتز من الشعب جميع ما

(١) المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(٢) ف. تيبيلوف ، أدريانوسول [أدرنة] وفراكيا في سنة ١٨٧٤ (من مذكرات مسافر) ، بشير

روسيا ، العدد ٥ - ٦ ، ١٨٨٠ ، مايس ، ص ٤١٠ - ٤٣٥ .

(٣) المصدر السابق ، ٤٢٦ .

عنده ليؤ من على حياته وحده . وأن نهب السكان يبدو كما لو أن الحكومة قد اعتبرته
شرعياً وذلك بسبب قلة الرواتب التي يتقاضاها الموظفون إلى درجة مضحكة . . . أما
الرشوة فهي عبارة عن الحجر الأساس لجميع مرافق الإدارة التركية . . . »^(١)

ويشير تيبيلوف بأنه منذ سنة ١٨٦٨ كان مستوى الأتاوة العسكرية ، أو بعبارة
أخرى فدية المسيحيين عن التجنيد الإلزامي قد ارتفع بشكل هائل . وكانت الفدية
تدفع قبل هذه الفترة عن الذين يبلغون العشرين من عمرهم فقط ، وفي سنة ١٨٦٨
فرضت على كل من يبلغ الثانية عشرة من عمره ، وأما في سنة ١٨٧٤ فإن الحكومة
فرضت الفدية على جميع المسيحيين من الذكور ابتداءً من الولادة . وقد عانى السكان
المحلون من المسيحيين وبصورة خاصة البلغار الأمرين من هذه الضريبة .

« من الغرابة أن يكون الفلاح البولغاري غنياً وفقيراً في آن واحد . فالأرض
تعطيه الثروة والحكومة تأخذها منه عن طريق سلطاتها المحلية . . . ان انعدام حقوق
الرعايا المسيحيين في الأقاليم التركية شيء فظيع جداً . . . حاول الترك بعد الحرب
الشرقية أن يقنعوا أوروبا بأن وضع هؤلاء الرعايا تتغير بشكل جذري بعد نشر خط
همايون والفرمانات الليبرالية السلطانية . ولا شك بأن الفرمانات السلطانية تنشر
لتهدئة أوروبا فقط »^(٢)

وتجسد المقالة الصغيرة التي كتبها تيبيلوف قبل انتفاضة البولغار في سنة ١٨٧٦
وضع البولغار قبل الحرب الروسية التركية في ١٨٧٧ - ١٨٧٨^(٣) .

رحلة ستينيتسكي

هناك مذكرات كثيرة وشهيرة للمشاركين في حرب سنتي ١٨٧٧ - ١٨٧٨ . فأننا
لا نجد في هذه المذكرات صور ومشاهد العمليات الحربية فقط ، وإنما نقرأ عن الحياة
الإجتماعية ، ونرى صوراً متنوعة ذات طابع اتنوغرافي وجغرافي .

(١) المصدر السابق ، ص ٤٢٧

(٢) المصدر السابق ، ٤٣٠ - ٤٣١ .

(٣) كتب تيبيلوف كتاب « أدريانوبول [أدرنه] في سنة ١٨٧٤ » ، (سانت بيترسبورغ ،

١٨٧٧) أيضاً ، وهو في الواقع عبارة عن إعادة طبع للمقالة المشار إليها .

ومن نتائج العمليات الحربية في القسمين الأوروبي والآسيوي لتركيا في سنتي ١٨٧٧ - ١٨٧٨ كانت قد التقطت صور ورسمت تخطيطات للمواقع ، ودونت الإنطباعات الفلكية ، وهي بلا شك أغنت العلم الجغرافي بمعلومات جديدة .

وبعد بدء العمليات الحربية مباشرة في نيسان سنة ١٨٧٧ تأسست في الفيلق العامل في القفقاس فرقة توپوغرافية بقيادة رئيس القسم الحربي التوبوغرافي في القفقاس اللواء إ.إ. ستينيتسكي .

ويمكننا أن نقرأ عن نشاط الفرقة الحربية التوبوغرافية فيما وراء القفقاس ما يلي : « لقد بدأت عمليات المسح سوية مع هجوم قواتنا في حدود تركيا الآسيوية في مناطق أردهان ، وقارص ، وبايزيد ، وسنجق لازستان . وأما في سنة ١٨٧٨ فاستمرت العملية في مناطق أرضروم ، ونواحي قارص ، وأصقاع باطوم . وكان العمل يجري في ظروف صعبة وشاقة جداً ، إلا أن أي شيء لم يقف عائقاً أمام إنجاز المهمة ، لا قسوة الشتاء ، ولا ضراوة التيفوس الذي انتشر بقوة وبشكل غير اعتيادي ، ولا الصعوبة في البحث عن المؤن في الأماكن التي تركها سكانها ، ولا غارات الكردي ، ولا الأخطار الأخرى التي كانت تحيط بالمصورين الذين كانوا غالباً ما يعملون بدون أية حماية ، وهي لم تستطع أن توقف توبوغرافينا في إنجاز واجباتهم . . . ففي الوقت الذي فيه كانوا يقومون بالتصوير والتخطيط التوبوغرافي كانوا يقومون بأعمال تتعلق بالفلك والجيوديسيا أيضاً . وأن جميع ما جمع من المعلومات بهذا الصدد يشكل مراجع ومصادر غنية جداً لا تقدر بثمن لتحديد ورسم الخريطة الموجودة عندنا الآن لتركيا الآسيوية » (١) .

وانجزت في تركيا الأوروبية أيضاً أعمال باهرة في هذا الموضوع : « قبل دخول القوات إلى بولغاريا ، بدأ الإستطلاع في الجانب الأيسر من نهر الدانوب ، بين مصب نهر أرجيس ونهر أولتا ، وتم تحديد الإختلافات الموجودة في خطوط الطول بمساعدة البرق للمواقع كيشينييف ، وياسي ، وگالاتس ، وبوخارست . وعند الرحلة خلال نهر الدانوب رسمت خطط مفصلة لنيكوبول ، وسيستون ، وزيمينيتسا وضواحيها ،

(١) « مقالة تاريخية عن نشاط الفرقة الحربية التوبوغرافية في فترة السنوات العشرين الأولى ١٨٥٥ -

١٨٨٠ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٠ ، ص ٧٤ - ٧٥ .

كما وجرى مسح لقسم من المواقع بين قره لوم ، وبيانترويا . . . وقد قام جميع مراتب
الفرقة بتحديد ستة وعشرين مركزاً فلكياً ، وتم مسح لرقعة من الأرض في مساحة
٩٨٥٩ فرسخاً مربعاً .

كما وأنجزت شبكة المسح المثلثي لجميع أصقاع الامارة البولغاربية ، والأقسام
الشرقية من روميلي منذ نهاية سنة ١٨٧٧ وحتى تشرين الأول سنة ١٨٧٩ .
وبالإضافة الى ذلك كانت قد أنجزت مجموعة أخرى من المسح المثلثي من يامبول
ومصطفى باشا وحتى أدرنه ، ومن هناك في طريق جورلوحى القسطنطينية وخلال
كيركيليس حتى بورغاس ، وأنهى المسح المثلثي لجميع الأراضي الواقعة في المثلث بين
ادريانوبول - ديدياكاج - رودوستو . . .

ولقد قسمت البلقان اعتباراً من البحر الأسود وحتى صربيا الى ثمانية صفوف
من حيث الموقع المثلثي (المسح المثلثي) تسير من الشمال الى الجنوب ، وهناك بين هذه
الصفوف ارتباطات كثيرة ، زد على ذلك بأنه لا توجد مراكز ومواقع في جميع سلاسل
جبال البلقان تبعد بأكثر من خمسة وعشرين فرسخاً عن أقرب نقطة مثلثية . وبهذا
الشكل أيضاً تمت دراسة جبال رودون وريلوداغ (١) .

ونتيجة لهذه الدراسات كانت قد زودت خريطة تركيا الآسيوية بمعلومات
جديدة مكملة . وقد ثمن ب . ب . سيميونوف هذه الأعمال تقيماً عالياً :

« إن الأعمال لتهيئة الخرائط في القفقاس خلال خمس سنوات ١٨٧١ - ١٨٧٥
انتهت بنجاح باهر ، والفضل يعود الى إشراف الرئيس الماهر والعضو الجدير
بالإحترام إ.إ. ستينيتسكي ، وانهم لم ينجزوا فقط أعمالاً كبيرة في إعداد الخرائط ،
وهي تقابل من حيث قيمتها أعمال أفضل المؤسسات التي تهيء الخرائط في أوروبا ،
وإنما أنجزوا كذلك بعض الأعمال التي لها أهمية علمية عالية ، كإعداد الخرائط التي
تخص تركيا الآسيوية وايران . . . » (٢) .

(١) المصدر السابق ، ص ٤٩ - ٥٤ .

(٢) « تاريخ نشاط الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية في نصف قرن » ، سانت بيترسبورغ ،

١٨٩٦ ، القسم ٢ ، ص ٨٥٥ .

وانتهز إ.إ. ستينيتسكي الذي يشتهر بأعماله الغزيرة في ميدان رسم الخرائط والتوبوغرافيا فرصة وجوده في القسطنطينية في سنة ١٨٧٩ ضمن الوفد الذي كان مكلفاً بتعيين الحدود بين روسيا وتركيا ، فقد شخص وحدد من جديد وبصورة أدق الوضع الجغرافي لمدينة القسطنطينية^(١) .

وفي أثناء الحرب كان الأطباء الروس الذين يديرون فرق الوقاية الصحية العاملة في المناطق التركية التي استولت عليها القوات الروسية قد شرعوا في القيام بوصف الوضع الطبي التوبوغرافي ، وقد تضمن وصفهم معلومات غير قليلة عن الجغرافيا والأتوغرافيا . وهو يتناول بصورة عامة « الوصف الطبي التوبوغرافي لمنطقة أرضروم » وقد كتبه ل. ر. ريتلينغر^(٢) .

ويقدم إ.إ. ستينيتسكي وصفاً مهماً وطريفاً للبوسفور والقسطنطينية . فتوصل في هذا الصدد إلى أنه هناك في البوسفور تياران ، إلا أن استنتاجاته لم تؤيد في حينه ، وقد قام بانجاز هذا العمل بعده س. او. مكاروف . وأخيراً يقدم ستينيتسكي معلومات عن حالات تجمد البوسفور عندما تكون درجة الحرارة واطئة لفترة طويلة^(٣) .

رحلة مكاروف

كان قائد الأسطول الروسي الشهير نائب الأدميرال س. او. مكاروف ، يقود في سنة ١٨٨١ الباخرة « تامان » التي توقفت في القسطنطينية ، فقام بدراسة التيارات

(١) « اخبار الجمعية الجغرافية للامبراطورية الروسية - قسم القفقاس » ، العدد ١ ، المجلد ٦ ، ١٨٧٩ ، ص ١٢٩ .

(٢) المجموعة الطبية ، تصدرها الجمعية الطبية الامبراطورية في القفقاس ، العدد ٢٨ ، تفليس ، ١٨٧٨ ، الفصل ٤ ، ص ٤٦ - ٨٤ .

(٣) ملحق المجلد الخامس من « اخبار الجمعية الجغرافية للامبراطورية الروسية - قسم القفقاس » ، تفليس ، ١٨٧٩ .

عرف الباحث من صيادي السمك بأنه هناك في البوسفور عدا التيار الذي يجري من البحر الأسود والمعروف لدى الجميع هناك تيار آخر يقع إلى الأسفل منه . ولم ترد كما هو معلوم في أي مصدر من أدبيات الملاحة في هذه الفترة ولو كلمة واحدة عن التيار الأسفل تحت الماء يجري من بحر مرمرية إلى البحر الأسود . قام ماكاروف بتجربته الأولى على الوجه التالي : استعمل برميلاً صغيراً من الذي يستعمل لحفظ المياه الاحتياطية في الزوارق ، وسق البرميل بشكل بحيث يغوص في الماء ، وأنزله بحبل إلى الأسفل ، وراقبه لمعرفة الاتجاه الذي يحمله التيار إليه . وظهر بأنه يتوجه به إلى بحر مرمرية (من البحر الأسود) . وعندئذ بدأ بانزاله بشكل أعمق وأعمق ، وكلما كان البرميل ينفذ في الماء بصورة أعمق كلما كان يقل توجهه إلى بحر مرمرية نسبياً . وأخيراً أصبح الحبل عمودياً ، ثم توجه إلى الجهة المعاكسة ، وعندما وصل إلى عمق العشرين والثلاثين متراً أخذ البرميل ينحرف إلى الجهة المعاكسة (أي جهة البحر الأسود) بقوة كبيرة إلى درجة سحب معه الزورق ضد التيار السطحي . وقد استمر ماكاروف في تجاربه فيما بعد حتى خريف سنة ١٨٨٢ فاجتمعت لديه مواد ومصادر واسعة وكبيرة ، وقد درست ونسقت تلك المواد بدقة فيما بعد ، وفي سنة ١٨٨٥ نشرت في كتاب يحمل عنوان « حول تبادل المياه بين البحرين الأسود والأبيض المتوسط »^(١) . فنال الكتاب فيما بعد جائزة أكاديمية العلوم .

واكتشف ماكاروف تياراً سطحيّاً في المضيق يجري من البحر الأسود إلى بحر مرمرية ، وتياراً معاكساً سفلياً إلى البحر الأسود ، ووضح بأن هذين التيارين يتباين أحدهما عن الآخر بصورة أساسية في سماتهما من حيث الملوحة والكثافة وطبيعة الجريان ، وتفصلهما عن بعضهما طبقة وسطية محايدة أصبحت منذ ذلك الحين تسمى في الأوساط العلمية بطبقة ماكاروف .

« فقد أوضح هو بأن هذا التيار السفلي من حيث وجوده هو حصيلة الاختلاف في كثافة الماء بين البحر الأسود وبحر مرمرية . فالمسألة تنحصر في أن الماء في بحر مرمرية

(١) س . أو . ماكاروف ، الأعمال الأوكيانوغرافية ، موسكو ، ١٩٥٠ ، ص ٣١ - ٩٢ .

يكون أكثر ملوحة بكثير من الماء في البحر الأسود حيث يتحول الماء إلى العذوبة بسبب ورود الماء العذب الوافر من الأنهار . لهذا السبب تماماً يكون الضغط في نفس الأعماق في بحر مرمره هو أقوى مما في البحر الأسود ، وهكذا تتكون درجة معينة من الضغط الموجه نحو البحر الأسود ، وهي بدون شك تكون من أسباب حركة المياه في الطبقات السفلى من البوسفور .

أما التيار السطحي فقد وجد بسبب مياه الأنهار (وكذلك سقوط الأمطار) ، فإن هذه الأنهار تزود البحر الأسود بالمياه بنسبة أكثر مما تتبخر إلى الجو . لهذا السبب أن الملوحة والتملح النوعي (الذي يتعلق به الارتباط الوظيفي) ، يؤثران بصورة أقل بكثير في العملية ، أما مستوى المياه فهو أعلى مما عليه في بحر مرمره «^(١)» .

رحلة كونداكوف

قام الأثري الروسي الشهير والمختص في الدراسات البيزنطية ن . ب . كونداكوف (١٨٤٤ - ١٩٢٩) برحلات كثيرة في الشرق . ففي سنة ١٨٨١ توجه إلى سيناء ، وزار القسطنطينية في سنة ١٨٨٤ ، وفي سنة ١٨٩٨ قام برحلة زار فيها أيون والأرض السلافية ، وتوجه إلى كل من سوريا وفلسطين في سنة ١٨٩١ «^(٢)» .

وكانت رحلة ن . ب . كونداكوف في سيناء لأسباب تتعلق بالآثار . فقد رغب في مشاهدة دير كاترين المقدسة ، والآثار القديمة ، والمخطوطات ، والمكتبات ، والقيام بالتصوير ورسم التخطيطات . وقد وصف ن . ب . كونداكوف رحلته إلى سيناء بصورة مفصلة جداً «^(٣)» .

سافر كونداكوف من الاسكندرية إلى السويس بالقطار ، ومن هناك أبحر بالزورق خلال البحر الأحمر حتى الطور (رايضا القديمة) ، ثم سلك أقصر طريق على ظهور الجمال وخلال شعاب إشلي وصل إلى دير سيناء .

(١) س . أو . مكاروف ، الأعمال الأوكيانوغرافية ، موسكو ، ١٩٥٠ ، المقدمة بقلم ن . ن . زوبوف ، وأ . د . دوبروفولسكي ، ص ٧ - ٨ .

(٢) ف . لازاريث ، ن . ب . كونداكوف ، موسكو ، ١٩٢٥ ، ص ١٠ .

(٣) «رحلة إلى سيناء في سنة ١٨٨١ ، من انطباعات الرحال ن . كونداكوف» ، أوديسا ، ١٨٨٢ .

وتشير ملاحظته عن العرب أهمية خاصة ، وهي مليئة بروح الصداقة والودّ :
« في هذا المكان القاحل ، حيث لا حرية ، وفي ظروف عمل شاقة ، وحرمان
شديد ، كان يوجد في هذا المكان نموذج الحياة المتطورة أكثر مما عند الإيطالي ، هناك
أصوات وضجيج وثرثرة لا تهدأ . . . وهناك روح الأمزجة المرحة السارة بصورة
دائمة ، وأما خلق الوثام والصداقة والمحبة مع هؤلاء المعذبين كل ذلك يجعل المرء يميل
إليهم »^(١) .

وكان هناك تقليد في سيناء ألغى قبل خمس سنوات من وصول كونداكوف وهو
رفع الرحالة إلى الدير خلال الحائط بوساطة السلال ، لأنه كانوا لا يفتحون البوابة
خوفاً من غارات البدو . وإن هذه الغارات قد انتهت منذ زمان بعيد : « إن الجوع ،
وأنواع الحرمان ، والاهتمام اليومي بالحصول على الخبز الضروري ، واستنفاذ جميع
الحرف والصناعات السابقة للحصول عليه قد غضت منذ وقت طويل من قوة أبناء
الصحراء التي لا تقهر . لقد غضت منها ولكنها لم تقض عليها نهائياً ، لأن البدو
أصبحوا في الوقت الحاضر من المواليين والتابعين للدير تقريباً ، فإنهم يقومون بمختلف
أنواع الخدمات له ، ويتزاحمون بالمئات حول الحائط عند توزيع الخبز بالرغم من أنه لا
يوجد بينهم أي نصراني . . . »^(٢) .

« يبلغ عمر الدير أكثر من ١٥٠٠ سنة . . . وإذا تجاوزنا برج الأجراس
الحديث الذي أنشئ فيه منذ وقت ليس بالبعيد فمن الصعوبة أن نجد فيه أي شيء
جديد غير ما رآه . . . تروفيم كوروبيينيكوف . . . »^(٣) .

« هناك في بعض الأماكن نباتات غزيرة وعلى رأسها شجرة من السماء ، يجمع
الدير من هذه الأشجار المنّ ويوزعه للبركة ، وهي مادة نصف سائلة كثيفة ، غير أنها
تتصلب عندما تجف ، وهي كقطع القار ، أما طعمها فيكون حلواً »^(٤) .

ونجد هناك معلومات عن الرحلة الأخيرة التي قام بها ن . ب . كونداكوف إلى

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

سوريا وفلسطين في سنة ١٨٩١ في كتاب « رحلة آثارية إلى سوريا وفلسطين » . وكان المؤلف قد أنجز كتابه في ضوء مواد رحلته من بيروت إلى دمشق وحوران عن طريق شرق الأردن حتى مدينة القدس ضمن بعثة علمية نظمتها جمعية فلسطين الأرثوذكسية .

ويشير ن . ب . كونداكوف إلى أن « الرحلة اقتصرت بسبب الوضع القلق في أنحاء كثيرة من سوريا ، وظهور الكوليرا في نهاية سنة ١٨٩١ على حوران ، وشرق الأردن حتى البحر الميت ، ومدينة القدس وضواحيها ، ثم نحو الشرق حتى أريحا^(١) . . . »

وفي بيروت لا يشاهد المرء على سطح الأرض أي أثر قديم ، وحتى إن الأشياء القديمة قليلة جداً . . . في الوقت الذي فيه نجد أن طرابلس المجاورة تشتهر بسوقها الرائعة ، وبنائاتها الكثيرة الباقية من عهود الصليبيين ، وهناك محلات وقطاعات في المدينة ذات طابع شرقي .

ولقد خرجنا من بيروت مع قافلة في بداية أيلول سنة ١٨٩١ . فتوجهنا عن طريق شتوره إلى بعلبك ، وكان اهتمامنا منصباً على الأطلال والخرائب القديمة فيها باعتبارها نموذجاً أصيلاً للبنىات المزخرفة في حوران وشرق الأردن وجميع العصور اليونانية والرومانية لفلسطين بشكل عام^(٢) .

وعن طريق بلدة عاليه ، وشتوره وصل الرحال إلى موالله : « إنها قرية كبيرة فيها دير لليسوعيين ، وتكثر بساتين الكروم على سفوح جبالها ، وهي تنتج أفضل أنواع الخمر في سوريا . ولهذا المكان بالإضافة إلى ذلك تاريخ ثقافي عريق ، وفي الوادي الخصب المحاذي للأودية الصغيرة ، والتلال الحمراء ، والمروج البديعة تنحدر إلى الأسفل وتشاهد الأطلال والخرائب والآثار للعصور القديمة والمتأخرة . . . في كل مكان هنا تجد مجاميع كبيرة من الحفول زرعت بالقمح ، والشعير ، والذرة ، وهناك

(١) ن . ب . كونداكوف ، رحلة آثارية في سوريا وفلسطين ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٤ ، ص ٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٣ .

مزارع متنوعة وكثيرة للخضار والفواكه . وإن هذا الثراء بدون شك حمل إلى هنا معه بذوراً وبشكل دائم تجسدت في الغزوات والاحتلال «^(١) .

ثم زارت البعثة مجموعة من القرى الصغيرة ، وأطلال بعلبك ، وفي المنعرجات والمنعطفات الجبلية انحدروا في الوادي الضيق سورغاي الواقع على علو يقدر بـ ٤٥٠٠ قدم : « كان النهار حاراً وخانقاً في هذا المضيق ، وكانت درجة الحرارة ٣٨° عندما كنا هناك ، أما في الليل فقد انخفضت الحرارة إلى درجة ٧° »^(٢) .

ثم توجهت البعثة إلى دمشق . كانت دهشة المسافرين شديدة عند رؤيتهم المسجد الأموي الذائع الصيت ، وهو أكبر مسجد في دمشق ، وكذلك مسجد الداغر : « كان العمل الأول الذي قاموا به هو التقاط الصور الفوتوغرافية الكبيرة والصغيرة ، الدقيقة المفصلة التي أصبحت لها أهميتها الخاصة كمصدر وثائقي في الوقت الحاضر بعد الحريق الرهيب الذي تهدم القسم الأعظم من المسجد من جرائه ، وكان قد حدث بعد عدة سنوات من زيارتنا »^(٣) .

ويخلص كونداكوف إلى نتيجة بأن : « جميع أحلامه في اكتشاف خطة البناء المسيحي القديم في الجامع قد باءت بالفشل . وإن المسجد الأموي . . . بناء إسلامي خالص ومتكامل بدون أي شك ، وقد استعمل المعمار يون مواد البناء القديمة فقط ، إلا أنهم أعادوا بناءه من جديد وفق خطة جديدة »^(٤) .

ومن دمشق توجهت البعثة إلى حوران .

« ومن القسطل بدأت ليجا وهي عبارة عن تراخونيتيدا^(٥) القديمة ، فيها طبقة

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(٥) تراخونيتيدا (أو منطفة تراخونيتسكي باللغة الروسية) وردت في أسطورة يسوع المسيح . وكانت المنطقة المسماة بهذا الاسم تقع بين جبال أنتي لبنان وجبال شبه الجزيرة العربية إلى الجنوب من دمشق . وفي فترة رحلة ن . ب . كونداكوف كانت المنطفة تسمى ليجا . وتشاهد في هذه المنطفة بقايا آثار مدونات كثيرة لعصور الأباطرة الرومانيين .

من اللافا السوداء وهو بمثابة التربة ، وطبقة طينية يحرثون فيها ، ويستغلونها أينما وجدت برغم صغر هذه القطع من الأرض . وأما القرى في المروج التي تظللها الأشجار فتظهر كأنها مداد مسكوب»^(١) .

ثم زار المسافرون شرق الأردن ، وقاموا بتنقيبات أثرية في أريحا في رقعة الأرض التي تعود إلى الجمعية الفلسطينية : « إن البستان الذي تمتلكه الجمعية الفلسطينية ، وكذلك البساتين التي تحيط به والصحراء تقع في موقع المدينة القديمة . . . وفي مساحة كبيرة من الأرض تظهر آثار خرائب المنازل والبيوت . . . »^(٢) .

وبعد مشاهدة ضواحي أريحا سافرت البعثة إلى مدينة القدس .

ولم ترد في الكتاب أية معلومات عن اقتصاد واثوغرافيا المنطقة ، وكذلك لا يوجد فيه أي نوع من الانطباعات والملاحظات ذات الطابع الاجتماعي أو السياسي .

وكان الاهتمام الأساسي لكونداكوف موجهاً إلى جانب الفن البيزنطي الذي استطاع به أن ينجح في دراسة المجموعات المعقدة جداً للآثار القديمة في القسطنطينية، وآسيا الصغرى ، وسوريا ، وفلسطين ، ومصر ، وشبه جزيرة البلقان ، والقفقاس ، وإيطاليا ، وروسيا^(٣) .

رحلة يونكر

يشتهر اسم العالم الروسي الكبير المختص في الدراسات الإفريقية ف . ف . يونكر في نطاق واسع . وفي هذا المجال اننا نشير فقط إلى رحلته في شمال ، وشمال شرق أفريقيا فقط .

عاش يونكر في الفترة بين سنتي ١٨٧٣ - ١٨٧٤ في تونس ، وفي نهاية سنة

(١) ن . ب . كونداكوف ، رحلة أثرية إلى سوريا وفلسطين ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٤ ، ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٣) ف . ف . لازاريف ، ن . ب . كونداكوف ، موسكو ، ١٩٢٥ .

١٨٧٥ قام برحلة في صحراء ليبيا ، وفي بداية سنة ١٨٧٦ توجه إلى السودان ، ومن الخرطوم قام برحلة في النيل الأبيض .

وكانت حصيلة رحلته أن دحض يونكر نهائياً الاعتقاد السائد بوجود المجرى القديم لنهر النيل في صحراء ليبيا . واقتنع بأن الواحات الموجودة هنا هي أكثر ارتفاعاً وليس أقل إنخفاضاً من مستوى البحر ، كما كانوا يعتقدون سابقاً . وقد أثبت أيضاً بأن البدو الذين كانوا يقومون برحلاتهم هنا تحولوا إلى حياة الاستقرار والحضارة بالتدريج^(١) .

وفي عمل ف . ف . يونكر الذي دونه في ضوء الانطباعات والملاحظات الشخصية الخاصة هناك معلومات قيمة عن جغرافيا ، واثنوغرافيا ، وتاريخ القسم الجنوبي من السودان الشرقية وأوغندا .

وفي الاجتماع الاستثنائي للجمعية الجغرافية الروسية المكرس ليونكر والمنعقد في ٩ نيسان سنة ١٨٨٧ . خطب ب . ب . سيميونوف : «إنه [يونكر] منذ رحلته الأولى في افريقيا الوسطى التي استمرت في سنة ١٨٧٦ حتى سنة ١٨٧٨ ، . . . ترك لنفسه شهرة واسعة بدراسته توزيع المياه بين الشبكة اليسرى لمنابع النيل الممتدة كالمروحة ، وبين أعالي نهر أوئيل الغامض . . . »^(٢) .

وتعرف السائح على الشعوب الكثيرة التي تسكن السودان . واهتم بصورة خاصة بالتكنيك العالي لصناعة الأسلحة ، ودرس معرفة السكان بمزايا المعادن وخواصها . ثم يصف الحالة المزرية السيئة التي تعيشها القبائل الزنجية في ظل سلطة المحتلين الذين « لم يجدوا مخرجاً آخر ، عدا الاغتصاب بطريقة النهب والسلب والحملات التأديبية بأزاء الذين يعادونهم ، أو بعبارة أصح ضد الزوج الذين يدافعون عن استقلالهم ، فينهب المحتلون منهم قطعان الماشية والغلال »^(٣) .

(١) . . . [١] . بابكوف ، رحلة في أفريقيا ، موسكو ، ١٩٤٩ : م . ب . زابروود سكايا ، الرحالة الروس في أفريقيا ، موسكو ، ١٩٥٥ .

(٢) « أخبار الجمعية الجغرافية للأمبراطورية الروسية » ، المجلد ٢٣ ، ١٨٨٧ ، ص ٢٤٥ .

(٣) ف . ف . يونكر ، رحلة في أفريقيا ، موسكو ، ١٩٤٩ ، ص ٦٣ .

وكانت دراسات ف. ف. يونكر إضافة كبيرة في حقول الأبحاث الجغرافية لمجموعة من المناطق في شمالي وأواسط أفريقيا .

رحلة كارتسوف

كان م. س. كارتسوف في سنوات ١٨٧٩ - ١٨٨٦ يعيش في الشرق وهو يشغل منصب سكرتير القنصل العام في القسطنطينية . ثم أشغل منصب القنصل في أدرنة ، والقنصل العام في الموصل . وكانت حصيلة حياته الطويلة في الشرق أن كتب كتاباً^(١) وردت فيه فصول لها أهميتها الخاصة وهي مكرسة لوصف الطائفة الكلدانية ، والطائفة اليعقوبية في المناطق الجبلية من الموصل . وبالإضافة إلى ذلك ترك وصفاً مفصلاً لسفرة قام بها من تفليس إلى الموصل عن طريق أرضروم ، وبتليس ، وسعرت ، والجزيرة^(٢) .

رحلة بيتكوفسج

أشغل ك. بيتكوفسج منصب القنصل العام في بيروت مدة طويلة ، درس المنطقة بصورة جيدة ، وجمع معلومات إحصائية قيمة ثم كتب كتاباً عن لبنان^(٣) . وفي الواقع كان هذا الكتاب أول عمل جامع لمؤلف روسي عن لبنان . وردت فيه معلومات وأخبار عن الطبيعة ، والزراعة ، والصناعة ، والسكان . وفي مؤلفه يتطرق المؤلف إلى قضايا التجارة ، والنظام السياسي ، والمالي ، والمعارف الوطنية .

(١) م. س. كارتسوف ، سبع سنوات في الشرق الأوسط ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٦ .

(٢) « مجموعة المواد الجغرافية والتوبوغرافية والإحصائية عن آسيا » ، النشرة ١٩ ، سانت

بيترسبورغ ، ١٨٨٥ ، ص ٢٧١ - ٢٨٤ .

(٣) ك. بيتكوفسج ، لبنان واللبنانيون - بحوث عن الوضع الحالي لمحافظة لبنان العامة ذات الحكم

الذاتي من حيث الوضع الجغرافي والالتووغرافي والاقتصادي والسياسي والديني ، « مجموعة المواد الجغرافية والتوبوغرافية والإحصائية عن آسيا » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٥ ، ص ٩٧ - ٢٧٠ .

رحلة ييليسييف

زار في نهاية القرن التاسع عشر أحد الرحالة الروس العظام الشرق الأوسط وهو الطبيب اليكساندر فاسيليتش ييليسييف (١٨٥٨ - ١٨٩٥) . ففي سنة ١٨٨١ زار مصر وفلسطين ، وفي سنة ١٨٨٤ عاد من جديد إلى فلسطين ، ثم توجه إلى تونس وإلى الصحراء الكبرى ، وفي سنة ١٨٨٦ قام برحلة في آسيا الصغرى^(١) . وفي سنة ١٨٩٣ حاول الوصول إلى السودان التي كانت بيد المهديين حينذاك ، غير أن قافلته قد نهبت ودمرت ، وفي ظروف شاقة وصعبة استطاع أن يهرب عن طريق الصحراء إلى ضفاف النيل وأن ينجو من الموت .

ترك أ . ف . ييليسييف أعمالاً علمية كثيرة . وقد نشر جزء منها في كتب مستقلة ، والجزء الآخر نشر في مجلة « أخبار الجمعية الجغرافية الروسية » ومجلة « المعارف الروسية » . ثم دخل القسم الأعظم من أعماله في كتاب « جولة في الدنيا »^(٢) . وبالإضافة إلى ذلك هناك أكثر من مائة مقالة مختلفة ومتنوعة لييليسييف وهي معروفة في الأوساط العلمية تعالج المسائل الخاصة والعامّة في هذا الموضوع . وكان يهتم بشكل خاص بالانترولوجيا ، والانتوغرافيا ، والجغرافيا .

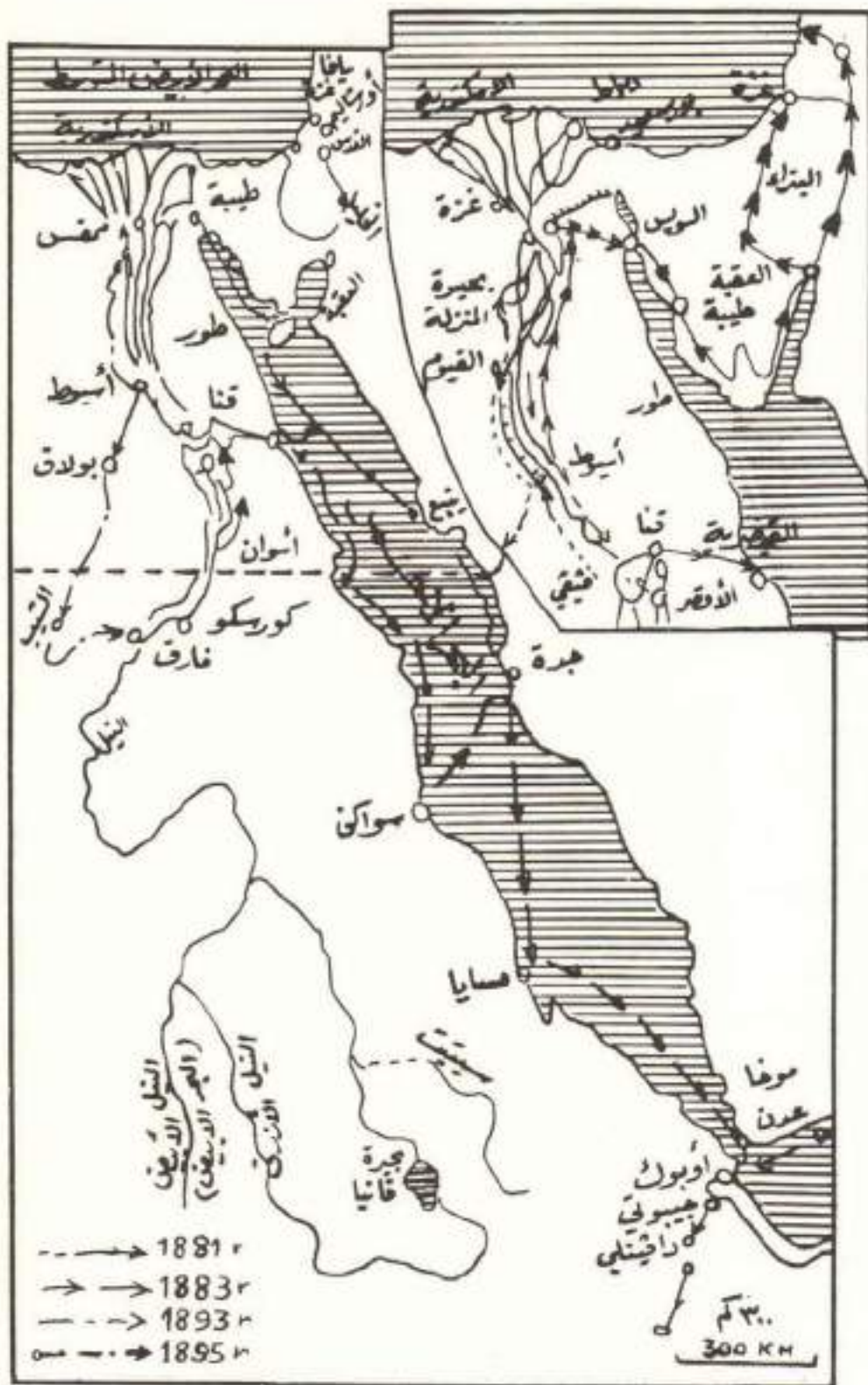
ولكننا هنا نقف بشكل أكثر تفصيلاً عند رحلاته . زار أ . ف . ييليسييف الاسكندرية ، والقاهرة ، وأطلال ممفس ، وبحيرة المنزلة ، وتوجه إلى الشمال بمحاذاة النيل حتى أسيوط . ثم عاد إلى القاهرة ، وعبر بعد ذلك الجزيرة العربية الصحريّة وفلسطين ، ثم عاد من يافا بالباخرة إلى روسيا .

أما رحلته الثانية إلى الشرق فقد قام بها أ . ف . ييليسييف في كانون الثاني سنة ١٨٨٣ . وكان تأثير منظر تدمير مدينة الاسكندرية من قبل الانكليز منذ فترة وجيزة بالغاً في نفسه . فقد كتب بسخط واستياء : « إن الانطباع الأول عن المدينة الرائعة التي تهدمت أفضل وأجمل قطعانها بفعل القصف ، لم يكن لصالح الانكليز

(١) « تاريخ الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية في خمسين سنة » ، القسم ٢ ، ص ٩٥٢ .

(٢) جولة في الدنيا ، أبحاث وحرارات من الرحلات إلى الأقسام الثلاثة للعالم القديم للدكتور أ . ف .

ييليسييف ، المجلد ١ - ٤ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٣ - ١٨٩٦ .



خط ورسم خالد الخالدي

خارطة رحلة أ. ف. بيلسييف في مصر

المتطرسين الذين يسرون الآن بفخر في شوارع الاسكندرية . ثم كان التعرف فيما بعد على الأنظمة الجديدة التي يتبعها الذين انتصروا على عرابي باشا في مصر ، ولا شك أن هذه الأنظمة قد أدت إلى تعميق هذا النفور ، وهكذا أصبحت بسرعة أشرك باخلاص أكثر اعتقاد جميع المصريين الشرفاء الذين يكرهون الانكليز الأذعياء الدخلاء . . .

وكان قصف الاسكندرية قد حول محلات وقطاعات كثيرة فيها إلى كومة من الأحجار والأنقاض ، تناثر فيها الحطام ، وهي مليئة بالغبار والأتربة الكلسية اللاذعة ، وهذا القصف بدون شك هو صفحة عار في تاريخ الأسطول الانكليز الذي قصف بقنابل ثقيلة المدينة غير المحمية ^(١) .

وفي هذه الرحلة الثانية التي استغرقت حوالي السنة كان سائحنا قد زار مصر ، وأسوان ، ثم توجه على ظهر باخرة إيطالية إلى سواكن على البحر الأحمر ، وزار مصوع ، وعدن ، وجدة . ثم توجه إلى فلسطين ، وأخيراً عاد إلى روسيا عن طريق يافا .

وسافر في سنة ١٨٨٤ إلى الشرق مرة أخرى تلبية لطلب من الجمعية الفلسطينية . ففي هذه السفرة كان يتجول بهيئة حاج بسيط ، فقام بدراسة أوضاع وواقع حياة الحجيج الروس في فلسطين ، وبالإضافة إلى ذلك كان يدون ملاحظاته عن الطبيعية ، والسكان ، والمدن ^(٢) .

وسمع أ. ف. بيليسييف لأول مرة في القاهرة عن أحداث السودان ، وانتفاضة المهدي . وهو يشير بهذا الصدد إلى أن لمصر علاقة طيبة بالتمرد الحاصل في السودان ، أما سوق القاهرة فكانت أفضل مكان يستطيع فيه المرء أن يعرف عن الأحداث اليومية الجارية في السودان ، وذلك ليس من أفواه الأوربيين الذين هم قليلو الإطلاع في الواقع بل من شهود عيان أنفسهم ، وحتى من الممكن معرفة الأخبار من شخصيات المقامات العليا التي عملت جهودهم في السودان أعمالها . ولقد تنبأ

(١) أ. ف. بيليسييف ، جولة في الدنيا ، المجلد ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٥ ، ص ٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٥ - ٣٥٩ .



خريطة ورسم خالد الخالدي

خارطة رحلة أ. ف. بيليسيف في الشرق الأوسط

أ. ف. ث . ييلسييف بضخامة الأحداث في ذلك الحين .

أما في سنة ١٨٨٦ فسلك أ. ف. ث . ييلسييف الطريق القديم من روسيا إلى فلسطين . وبذلك تمكن أن يقطع عرضاً جميع أنحاء آسيا الصغرى من الاسكندرونة حتى سامسون^(١) . وقد قام بهذه الرحلة باقتراح وتكليف من الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية لدراسة الطريق القديم الذي سلكه الحجيج الروس في الأزمنة الغابرة . غير أن السلطات القفقاسية نصحته بالتوجه إلى طريق آخر فبدأ ييلسييف رحلته ليس من حدود روسيا وإنما من الاسكندرونة حيث قصدتها من باطوم بمحاذاة سواحل البحر الأسود .

وأما السفرة التي كان يحلم بها أ. ف. ث . ييلسييف منذ زمان إلى السودان للالتقاء بالمهدين ، فقد استطاع أن يحققها فقط في سنة ١٨٩٣ . ففي أيلول من هذه السنة ارتدى الملابس العربية ، وصحبه أدلاء ومرشدون أربعة وبطريقة سرية خشية من السلطة الانكليزية خرج من أسبوط عن طريق الصحراء الليبية إلى أم درمان .

وكان أ. ف. ث . ييلسييف مهتماً بحركة المهدي الجبارة ، وهو يقول بأن : « مهدي السودان هو ابن نجار بسيط اسمه محمد أحمد ، دخل في حلبة النشاط السياسي الضخم في آب من سنة ١٨٨١ ، في الفترة التي كانت فيها السودان تعاني الظلم والاضطهاد المصري »^(٢) . وبعد وفاة محمد أحمد كتب أ. ف. ث . ييلسييف : « إن مسألة ظهور ومن ثم تطور سلطة المهدين مهم لنا ليس فقط من وجهة النظر السياسية ، بل أهم بكثير وأفضل لدراستها من وجهة نظر الثقافة والحضارة الانسانية ، وعملية تطور الدولة الإسلامية الجديدة المرتكزة على أسس جديدة »^(٣) .

وفي طريقه كان أ. ف. ث . ييلسييف قد تعرض إلى غارات ونهب من قافلة صغيرة . ويقول المسافر بهذا الصدد : « بالرغم من هذه النهاية المحزنة للمشروع الذي عزمنا على القيام به ، إلا أنني لا أرى خلوه من الفائدة نهائياً ، خصوصاً لأهدافي

(١) المصدر السابق : المجلد ٣ ، ١٨٩٦ ، ص ٢٦٢ - ٢٩٢ .

(٢) « جولة في الدنيا » ، المجلد ٤ ، ١٨٩٨ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

التي كنت قد خططت لها . . . ولقد استطعت أن أتجول في صحراء ليبيا . . . وأن أصل إلى المناطق التي يحتلها المهديون ، وأن أعود ليس بسبب نقص في العزم أو المبادرة ، وإنما بسبب عدم إمكانية الاستمرار في التحرك أكثر من ذلك . ورغم ذلك كله استطعت أن أشاهد الجنود المخيفين لخليفة أم درمان ، وأن أرى في الطريق البدو وسكان الواحات وبعض السكان الأصليين الذي يعيشون في السودان ، كما وتهيات الظروف لي أن أجمع معلومات غزيرة لم ينشرها لحد الآن حتى الانكليز»^(١) .

وعندما يلخص نتائج رحلته إلى الشرق الأوسط ، يأتي أ . ف . ييليسييف بملاحظة سارة وممتعة :

« لاحظت في جميع مدن الشرق عن طريق الصدف ابتداءً من القسطنطينية وانتهاء بالرمال الصحراوية المقفرة في شبه الجزيرة العربية ، التغيير والتطور نحو الأحسن والأفضل في علاقة المسلمين باسم « الروس » . فالاسم الروسي أو موسكو (موسقوف) الذي يسموننا به في الشرق أصبح يعني الإخلاص والرعب للمسلم . فهو في الوقت الحاضر لم يعد يقارن الروسي مع الألماني ، ولا مع الفرنسي ، وكذلك بشكل خاص لا يقارنه مع الانكليزي . عندما كانوا يلتقون بي في أي مكان كان وأنا بملابسي القومية ، كنت أشعر بدهم وصدقتهم ، وكنت أسمع كلمات الترحيب ، وجمالاً كاملة بلغة روسية ركيكة ، وكنت لا أحس بوجود أي أثر للعداء . . . والملاحظ أنه حتى في الأيام الأخيرة عند قصف الاسكندرية حينما كان البدو والمصريون يخنفون الأوروبيين ، كانت كلمة واحدة « إنني موسقوف » تنقذ الروسي من الخطر . . .

كانت الحرب ومئات الألوف من الأسرى الذي احتضنتهم موسكو المضيفة ، قد أثرت بدون شك على جميع شرائح السكان في الأمبراطورية العثمانية »^(٢) .

وأخيراً كان أ . ف . ييليسييف في عمله هذا بخلاف القسم الأكبر من المؤلفين المعاصرين له ، قدّم تميماً صحيحاً وموضوعياً للأحداث التاريخية . وبالإضافة إلى ذلك وصف عدداً كبيراً من المدن ، وجمع مجموعة عظيمة من المواد والمصادر الأساسية

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢) أ . ف . ييليسييف ، الطريق إلى سيناء في ١٨٨١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٣ ، ص ٢ -

عن طبيعة المناطق ، ودرس الحيوانات والنباتات الخاصة بالمنطقة ، وجمع معلومات غزيرة ذات طابع أنثروبولوجي .

وكتب العالم الروسي الكبير د . ن . أنوجين عن ييليسيف في كلمة تأبين له : « خلال سبع عشرة سنة من نشاطه كرحال وكاتب استطاع أ . ف . ييليسيف أن يثري الأدبيات الروسية بعدد كبير من الدراسات الجغرافية والانتوغرافية ، ويجمع ملاحظات وانطباعات غزيرة في مناطق مختلفة من روسيا والشرق ، وينشر مقالات وملاحظات كثيرة متعلقة بخصائص وواقع الشعوب التي قام بزيارتها ، وقضايا مختلفة ومتنوعة في الجغرافيا ، والطب ، والانثروبولوجيا ، والآثار وما إلى ذلك . . . »^(١) .

رحلة تساغارييلي

سافر الى الشرق في سنة ١٨٨٣ بروفيسور جامعة بيترسبورغ اليكساندر تساغارييلي وذلك لدراسة الآثار الجورجية القديمة . وكان قد زار قبله في سنة ١٨٤٨ لنفس الغرض الآثار الجورجي ب . إ . يوسيليانى منطقة أيون . ومما لا ريب فيه أن لدراسة الآثار الجورجية القديمة في فلسطين وسيناء أهمية خاصة ، خصوصاً وان علاقة جورجيا بالشرق لها تاريخ طويل يرجع إلى القرون الخالية .

وكانت حصيلة الرحلة التي استمرت من كانون الثاني حتى أيلول سنة ١٨٨٣ أن نشرت الجمعية الارثوذكسية الفلسطينية كتاباً^(٢) عرض فيه المؤلف بجانب سرد أحداث السفر المعلومات التاريخية عن علاقة جورجيا بالأرض المقدسة وسيناء ، وورد وصف للآثار الجورجية . ودونت في الملاحق فهارس المخطوطات الجورجية المحفوظة في أديرة فلسطين ، وسيناء ، والمدونات باللغة الجورجية المنقوشة والمثبتة على جدران بعض الأديرة والكنائس .

ووجه تساغارييلي اهتمامه أيضاً الى حياة وواقع السكان المحليين : « إن مساكن

(١) د . ن . أنوجين ، عن رجال العلوم والثقافة الروس ، موسكو ، ١٩٥٠ ، ص ١٢٧ .

(٢) أ . ج . تساغارييلي ، الآثار الجورجية القديمة في الأرض المقدسة وسيناء ، مجموعة فلسطين

الارثوذكسية ، المجلد ٤ ، النشرة ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٨ .

الفلاحين الفقراء مبنية من اللبن ، وهي تعاني الأمرين والمصير المؤلم ، أبوابها مفتوحة وعلى مصاريعها وهي في حالة انحلال ، وبدون أية عناية ، ولا يمكن الحصول فيها على أي شيء يمكن أن يُسرق . هذا وينبغي أن نغض النظر في أن المحاصيل المزعومة في مصر تظهر ثلاث مرات ، فإن الفقر بين الفلاحين لا يمكن تصوره «^(١) .

رحلة ماركوف

كان الكاتب ي. ل. ماركوف^(٢) المختص بالتربية وفيما بعد رئيس الوحدة الزراعية ، والشخصية المصرفية قد قام بعدة رحلات الى ايطاليا ، واليونان ، وتركيا ، والارخبيل ، ومصر ، وفلسطين .

وفي مقالته « أبحاث فلسطينية »^(٣) قدم ماركوف لأول مرة بعد قاسيلي غريگوروفيتش- بارسكي وصفاً لمسجد عمر في دمشق الذي لم يزره قبل ذلك أي أحد من غير المسلمين .

ويشير في كتابه « رحلة إلى الشرق » الى : « ان كره المصريين للاتكليس حولهم الى أصدقاء حميمين لروسيا ، حيث انني لاحظت أكثر من مرة هذه الظاهرة في أثناء رحلتي الى مصر »^(٤) .

ويتطرق بأسف شديد الى المصير التعس للفلاحين المصريين الفقراء : « إن القرى المشؤومة للفلاحين تظهر بشكل واطيء إلى حد لا تستطيع أن تشاهدها إلا حينما تسير بجوارها . . . وفي الواقع إن مأوى الوحوش أتعس منها بقليل من حيث الملائمة وأسباب الراحة . نعم وهمل هي أقل من هذه الصرائف المبنية من الطين والمساكن المحفورة في الأرض ؟ ومع هذا تعيش فيها تلك الأيدي التي لا تكل ولا

(١) المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٢) عمل ي. ل. ماركوف في المجلات « البشير الروسي » ، « النشرات الوطنية » ، « بشير أوروبا » ومجلات أخرى . وهو معروف أيضاً بكونه ناقداً (وهو واحد من الأوائل الذي قيموا بحق الانتاج الكبير لتولستوي « القازاق ») .

(٣) « البشير الروسي » ، ١٨٨٨ ، آب - أيلول .

(٤) ي. ماركوف ، رحلة الى الشرق ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٠ ، ص ١٧٥ .

تتعب ، والتي شقت جميع هذه القنوات التي لا تعد ولا تحصى ، وحفرت جميع هذه الآبار ، وحرثت وبذرت جميع هذه الحقول ؛ هكذا يعيش الذين يروون مصر بالماء ويحصدون الخير منها ، وهم الذين يقدمون الطعام والشراب الى جميع هؤلاء الباشوات والبكوات الذين تمتلئ الاسكندرية والقاهرة بقصورهم المزخرفة الفاخرة . . .

ولا يمكن للمرء أن يعثر في أي مكان آخر على مثل هذا الترف الجنوني ، والمظاهر التي لا معنى لها كما هي في الوسط الثري المصري الذي وضع تحت يده السلطة والأرض ، ولا يوجد كذلك في أي مكان آخر هذا الذل الحيواني للعمال التعساء ، ومثل هذا التحويل التام الى حيوانات عجماء لنقل الأثقال^(١) .

وبالإضافة الى ذلك ان المؤلف يتكلم عن القسطنطينية بأسلوب سلس بهيج ، عن شوارعها ، ومساجدها ، وقلعتها ذات الأبراج السبعة ، ومقابرها المخصصة للترك . ويصف شوارع ، ومساجد القاهرة ، وملابس الرجال والنساء ، ووادي النيل ، والقصور ، والمرابد ، وسفرته في قناة السويس .

ويخبرنا ماركوف في كتابه الآخر^(٢) عن رحلته الى فلسطين والمناطق المتاخمة لشواطئ آسيا الصغرى .

رحلة كويتيف

يشير الكاتب أ. كويتيف أيضاً إلى خسونة سيطرة الانكليز المكشوفة في مصر بسخط واستياء :

« منذ اللحظة الأولى من وصولك الى الأراضي المصرية تحس هنا بوجود الانكليز حيث يتجول جنودهم المتغطرسون بملابسهم الرسمية الحمراء ، وقبعاتهم البيضاء الشبيهة بالخبوذ الحربية البروسية ، وفي أيديهم خيزرانة رفيعة وهي من ضرورات ومتطلبات الميزة العسكرية^(٣) .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) ي. ماركوف ، رحلة الى الأرض المقدسة ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩١ .

(٣) أ. كويتيف ، مذكرات عن الرحلة الى القسطنطينية والقاهرة والقدس في سنة ١٨٨٧ ، سانت

بيترسبورغ ، ١٨٨٨ ، ص ٤٧ .

رحلة كيبوس وگيدونوف

قام كل من أ.إ. كيبوس ، ود.د. گيدونوف في سنة ١٨٨٩ بسفرة الى أرمينيا التركية ، وكردستان ، وسوريا . وكان الغرض من الرحلة هو تحديد وتعيين المواقع الجغرافية لبعض المراكز في أرمينيا التركية وكردستان . وخلال ثلاثة أشهر ونصف سلكا ثلاثة طرق وزارا فيها المناطق الواقعة بين آق دريا على طريق وان ، وبتليس ، ودياربكر ، وخربوط ، وموش ، وأرضروم ، وأرزنجان ، وتوكات ، وسيواس ، وإيگين ، وملاطية ، وحلب ، وبين الاسكندرونة ، والمسافة العامة التي قطعها كانت ٣٠٠٠ فرسخ . وقد تم فيها تحديد خمسين موقعا من حيث الوضع الجغرافي والفلكي في أرمينيا التركية ، وكردستان ، والمناطق الشمالية من سوريا^(١) .

وكانت حصيلة هذه الأعمال رسم خمس خرائط للمسافات ، وكانت المعلومات سابقا عن هذه المنطقة الواسعة ضئيلة جداً ، وبالأخص من حيث وجهة النظر الفلكية الدقيقة الصحيحة^(٢) . كما وأنجز وصف لاثني عشرة طريقاً في تقرير كتب عن الرحلة فيما بعد .

رحلة كولوباكين

كانت للسفرة التي قام بها أ. كولوباكين في شمال شرقي تركيا في سنة ١٨٨٥ أهمية كبيرة . فقد ظهر بعد الرحلة كتاب بعنوان « نشاط البعثات التبشيرية البروتستانتية في الأقسام الشمالية الشرقية من تركيا الآسيوية »^(٣) . وردت في هذا العمل معلومات توضح النشاط الكبير الذي كان يمارسه المبشرون الأميركيون في تركيا الآسيوية ، وهو يعرى جذور التوسع الأميركي في الشرق الاوسط الذي بدأ منذ

(١) أ.إ. كيبوس ، تقرير عن رحلة سنة ١٨٨٩ ، مجموع الطرق التي سلكها في الرحلة الفلكية المشتركة كل من د.د. گيدونوف ، وأ.إ. كيبوس في أرمينيا التركية ، وكردستان ، وسوريا ، تفليس ، ١٨٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١ .

(٣) « نشاط البعثات التبشيرية البروتستانتية في المنطقة الشمالية الشرقية من تركيا الآسيوية أ.م. كولوباكين » ، تفليس ، ١٨٨٨ .

بداية القرن التاسع عشر ، ومن المعلوم أن هذا التوسع قد تطور بشكل أقوى بعد الحرب العالمية الثانية .

ولقد تعرف كوليوباكين شخصياً على نشاط المبشرين الأميركيين ، وأشار الى أن جميع البعثات التبشيرية الأميركية المؤسسة في تركيا وفارس تعود إلى الجمعية الأميركية « المجلس الأميركي لمبشري البعثات الخارجية » التي تأسست في سنة ١٨١٠ في مدينة بوسطن ، وهي تركز وتستند على رعاية السفراء الأميركيين لها في الشرق . وكانت الإدارة العامة للجمعية في القسطنطينية .

وفي ضوء ما جاء في إحصائيات كوليوباكين كانت للبعثة التبشيرية ٣٧٦ مؤسسة للتعليم ، وكان مجموع تلاميذها ١٣٤٥٠ تلميذاً ، وتمتلك ٩٨ كنيسة بروتستانتية ، ولها ٤٦ من المبشرين الأميركيين من الرجال ، و٨٣ من المبشرات من النساء ، وأما عدد المبشرين من السكان المحليين فكان ١٩٨ شخصاً .

وبهذه الصورة « استطاع اتحاد البعثات التبشيرية الأميركية ان يجذب اليه الشخصيات في مجال التربية والدعاية ما يربو على ٩٠٠ شخصاً من الجنسين ، من الأميركيين والسكان الأصليين »^(١) . وكان التعليم في المدارس باللغات الأميركية (يقصد الانكليزية - م.خ .) ، والتركية ، والعربية . وكان نوع اللغة المستعملة متوقفاً على اللغة الأكثر انتشاراً في المنطقة . وكان يرأس جميع الحلقات والمدارس الأميركيون أنفسهم . وكان الهدف الرئيسي للبعثات التبشيرية الأميركية هو الدعاية للبروتستانتية ، وهذا الهدف هو « ليس الشيء الأساسي فقط وإنما هو الشيء الوحيد تقريباً للمبشرين ، وأما الأعمال التعليمية الأخرى وقيام المدارس فهي عبارة عن وسائل وسبل لتحقيق تلك الغاية » .

وكان أ.م. كوليوباكين أحد مؤلفي الكتاب ذي المجلدات الثمانية الذي يحمل عنوان « مواد للإستعراض الحربي الإحصائي لتركيا الآسيوية » ، وهو عبارة عن بحوث اقتصادية ، وجغرافية للمناطق الممتدة من الحدود الروسية - التركية في الشمال

(١) المصدر السابق ، ص ٥ .

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

(۱)

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

۱۱۱ - ۱۱۱

تقريباً . وقد وردت في هذا الكتاب أيضاً معلومات عن نشاط المبشرين الأميركيين ، وهناك فصل خاص مكرس لشرح أوضاع الأرمن في تركيا الآسيوية .

بدأ بوتياتا رحلته في سنة ١٨٩٥ . توجه من قارص بصحبة عسكري خيال (جندرمة خيال) و مترجم الى مدينة وان ، ثم إلى بتليس ، وأرضروم ، وأرزنجان ، فاستمر في سفره عن طريق مرعش وأدنه فوصل إلى مرسين . وبالنظر إلى أن الطريق الذي قطعه كان قد بحث سابقاً ، وسلكه الرحالة الروسي أكثر من مرة لذلك قدم بوتياتا وصفاً لبعض القطاعات والمجالات المعينة فقط ، وأشار بصورة خاصة إلى الطريق من أرزنجان حتى خربوط خلال هوزات . وعند وصفه لمنطقة أدنه يقدم المؤلف معلومات وأخباراً قيمة عن الوضع الزراعي والصناعي فيها :

« ان الأكثرية الساحقة من سكان الولاية تنتمي إلى طبقة المزارعين ؛ وهناك قسم من المزارعين لا يملكون أي شيء ، فهم يستأجرون الأرض من الملاكين الكبار ، وكذلك يتسلمون منهم البذور ، وأدوات الحراثة ، والحيوانات العاملة ، أما المحصول وبعد القيام بطرح جميع المصاريف يكون بالمناصفة بين المالك والمستأجر . ويمنح الصيف الحار بشكل عام وقتاً قليلاً جداً لحصد الحقول وقطف الثمار ، ونتيجة لذلك ، ووفق العادة المتبعة منذ القديم ، يجذب موسم الحصاد الى هنا جماهير غفيرة من العمال من الولايات الأخرى الذين يكسبون عن كدهم مبالغ كبيرة من النقود . يقولون بأنه يتقاطر من مثل هؤلاء العمال في كل سنة أكثر من عشرة آلاف رجل »^(١) . وأن هذه المعلومات تشهد على وجود العلاقات الرأسمالية في نهاية القرن المنصرم في قرى ولاية أدنه .

« ان الصناعة المحلية تنحصر على الأغلب في نسج الأقمشة الخشنة ، واللباد ، والجنفاص ، والسجاد ، والمصنوعات الجلدية ، والسراجة بكميات بحيث تفي بحاجة السكان المحليين فقط . وفي أدنه تم في الوقت الحاضر تأسيس معمل بخاري لحلج الأقطان . كانت تصنع هنا سابقاً منتوجات كتانية ، والجوخ من النوع الجيد جداً ، غير انها كانت غالية الثمن لذلك لم تستطع أن تنافس الإنتاج الأوروبي المستورد »^(٢) .

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣١ .

ثم سافر بوتياتا من مرسين الى سميرنا (إزمير) ، وقد وصف بصورة مفصلة جداً الوضع الإقتصادي لولاية أدنه . وهو يشير الى أن في الولاية يطبق نظام المحاصة بجانب الطاقة العمالية المستأجرة في زراعة الحقول .

رحلة سميرنوف

لا بد في هذا المجال ذكر الرحلة التي قام بها ك. ن. سميرنوف الى كردستان الشمالية في سنة ١٩٠٤ .

فالسائح يصف بصورة مفصلة الطريق التي قطعها ، وبحيرتي وان ، وأرين (خيرين) ، والمدن بايزيد ، وبتليس ، وموش . ويصف المناطق التي تكون الأوضاع الطبيعية فيها ملائمة لتطور الزراعة فيشير الى وادي موش : « التربة طيبة ، والمياه وفيرة ، وهي تخلق الإمكانية لتكون المزروعات في سهل موش أفضل بكثير من المزروعات في المناطق المحيطة بها . فالحقول أحسن بشكل ظاهر ، وقطعان الماشية في وضع أكثر نعمة . . . والفلاحون يزرعون الأرز في سهل موش ، ويبدرون القمح والشعير^(١) . وفي مشارف نفس المدينة تغطي الكروم وبساتين الفواكه سفوح الجبال .

وفي مقالة ك. ن. سميرنوف وردت نبذة عن الكرد من العشيرة المسماة (زيل) الرحل منهم والحضر .

رحلة ايشاييف

نتطرق هنا بأبجاز الى الرحلات المشهورة عندنا إلى مكة والمدينة ، وأهميتها تنحصر في أنه ليست لدينا شواهد مكتوبة عن الزيارات الكثيرة التي قام بها مسلمو روسيا لهاتين المدينتين .

(١) ك. ن. سميرنوف ، رحلة في كردستان الشمالية في سنة ١٩٠٤ ، « أخبار الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية - قسم القفقاس » ، المجلد ١٧ ، العدد ٤ ، ١٩٠٤ ، ص ٢٩٧ .

كان الموظف المسلم في القنصلية الروسية في جدة ش . ايشايف قد قام برحلة من جدة الى مكة في نيسان سنة ١٨٩٥^(١) .

يصف ايشايف الكعبة (بيت الله) بشكل مطول وهو أقدم مكان في مكة .

« لقد ثبت الحجر الأسود المشهور في الزاوية الشرقية من الجدار ، وهو أقدم شيء في بيت الله . وموقعه في الجدار في علو بحيث يكون باستطاعة المرء تقبيله . . . ويستقر الحجر من الأعلى والجوانب في طوق من الفضة ، ويظهر جزء منه فقط وذلك لتقبيله من قبل الحجاج ، وأما تحديد حجمه فليس بالإمكان . . . وتُغطى جدران بناء بيت الله من جميع أطرافها عادة بقماش حريري سميك في اللون الأسود . وكتبت في الغطاء كلمات باللغة العربية تتعلق بالعقائد الأساسية الإسلامية بطريقة التطريز . . . لا اله الا الله ، محمد رسول الله . . . ويهياً في كل سنة غطاء جديد بأمر من السلطان العثماني »^(٢) .

أما المنظر الداخلي لبيت الله فهو شيء فريد من نوعه :

« تقف في الجانب الأيسر من المدخل وعند الباب تماماً منضدة خشبية متوسطة الحجم وبسيطة جداً ، وهي عارية وغير مغطاة بأي غطاء ، يستقر عليها مفتاح فضي كبير . والحاج حر في اسلوب استعماله والتبرك به ، يستطيع أن يضعه على صدره أو يقبله . أما أجرة هذه المراسيم فتحدها رغبة وكرم الحاج نفسه . . . أما الدخول الى حرم بيت الله فليس من الأمور السهلة ، وهو ليس في متناول جميع الحجاج في كل الأحوال . ويفتح باب البيت في موسم الحج فقط ، وكذلك في أوقات معينة في النهار ، والدخول الى هناك يكلف مالاً ونقوداً غير قليلة . ومع ذلك إذا وجدت الرغبة للدخول فمن الممكن في أي وقت يشاء الحاج وبتوصية خاصة مسبقة أن يشبع رغبته غير أن الدخول في متناول الشخصيات الغنية جداً فقط ، وهو يحتاج الى كثير من الجهد والعناء ومصاريف غير اعتيادية »^(٣) .

(١) ش . ايشايف ، مكة - المدينة المقدسة عند المسلمين . حكاية حاج ، « بشر آسيا الوسطى » ،

١٨٩٦ ، طاشفند ، تشرين الثاني - كانون الأول .

(٢) المصدر السابق ، كانون الأول ، ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ .

ويعتبر ماء بئر زمزم من الأشياء المقدسة و« يجلب الى منازل الحجاج الأغنياء . . . ، فالشيوخ الذين يديرون البئر ويقبضون النقود يرضون بكل ما يدفع لهم ، ولا توجد هناك أية تسعيرة »^(١) .

وزار إيشايث السوق أيضاً : « هناك سوق خاص بتجارة الرقيق في وسط السوق المركزي بالقرب من بيت الله ، وهو يتألف من قسمين غير كبيرين . تجلس الجاريات وأولادهن بشكل اعتيادي على الكراسي ، أما العبيد فهم يجلسون على الأرض مباشرة . وينتمي هؤلاء الناس التعساء الى العرق الأسود والأصفر ؛ أما من أين يؤتى بهم الى هنا ، فأني لا أعرف عنه بالضبط أي شيء ، وأما ثمن العبيد بصورة عامة فليس غالباً »^(٢) .

رحلة إدوارد نولدي

زار نجد الموظف لدى روسيا في سنة ١٨٩٢ إدوارد نولدي وهو الماني من ساحل البلطيق . وقد توجه عن طريق بيروت ودمشق الى حائل ، وزار مخيم مشيخة ابن رشيد في شمالي الرياض ، ثم توجه الى طرابزون عن طريق العراق (كربلاء - بغداد - الموصل) ، والأناضول الشرقية (بتليس ، وأرضروم ، وباييسورت) . ولذكراته أهمية كبيرة جداً ، يشير فيها إلى الوضع السياسي في شبه الجزيرة العربية ، وزيارته لمخيم مشيخه ابن رشيد (صاحب إحدى المناطق في جبل شمر وكان يعادي السعوديين)^(٣) .

رحلة دافليتشين

زار الحجاز النقيب الركن دافليتشين في سنة ١٨٩٨ . ونشر فيما بعد تقريراً عن سفرته ، وفيه أورد معلومات وأخباراً مهمة غير قليلة .

(١) المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(٣) Reise nach Innerarabien, Kurdistan und Armenien
von baron Eduard Nolde, 1892, Braunschweig, 1895.

فهو يشير على سبيل المثال الى أن : « سلطة الحكومة التركية كانت ولا تزال حتى في الوقت الحاضر تعتمد على القوى المسلحة فقط ، فالسلطة هذه موجودة فقط في المواقع التي تتعسكر فيها القوات . وبتعبير آخر أن الترك يملكون المدن فقط ، وسيطرون على الطريق بين مكة وجدة بشكل أو بآخر ، وهي تدار بوظائف خاصة . . . ولم ينظم الترك خلال الأربعة قرون التي تملكوا فيها الحجاز أية علاقة بينهم وبين السكان الأصليين ، ولم يستطيعوا تهدئتهم أو التأثير فيهم من الناحية الثقافية . والعلاقة بقيت بين الجانبين بدون ثقة وفي عداء مستمر . . . وتتميز السلطة الإدارية في أكثر الأحوال بالرياء ، والتعسف ، والجور ، أما عمليات القوات المسلحة فكانت على الدوام غير حاسمة وغير متواصلة ، ولهذا السبب كان البدو لا يخشون السلطة ولا يكون لها الاحترام الواجب » (١) .

أما عن أعمال ومشاغل سكان مكة فيمكن إيجازها بكلمتين « يعيشون على الحجاج » (٢) .

وعن تجارة الرقيق يقول : « ان العبيد الذين يباعون في الحجاز يتمون إلى قوميتين لا غيرهما وهما : الزوج السود للغاية وهم من السودان ، ويعتبرون أفضل العمال ويسعى الناس لاملاكهم رجالاً ونساءً على السواء لاغراض العمل فقط ، وأما العبيد الأكثر بياضاً من الأحباش فيتم شراء النساء لاستخدامهن كعشيقات . . . سمعتُ بأن عدد العبيد الذين قاموا ببيعهم وصل الى ٢٠٠٠ شخص . . . وفي مكة والمدينة لا يوجد بيت لا يضم عبداً أو جارية من الذين يقومون بجميع الأعمال المنزلية . . . وتعتمد القبائل الرحالة في الواقع على جهود العبيد في أعمالها الشاقة . . . وعند زيارتي لهذا المكان رأيت فيه ثمانين شخصاً كان أكثرهم من النساء الحبشيات الشابات » (٣) .

ودرس دافليتشين الحج وأثره في مسلمي روسيا بصورة دقيقة وعميقة ، وقد

(١) « تقرير النقيب الركن دافليتشين عن بعثته الى الحجاز » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٩ ، ص

١١-١٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٥-٤٧ .

توصل الى استنتاج يتلخص في أنه ليس للحج أية أهمية سياسية للتقريب بين المسلمين الذين ينتمون الى شعوب مختلفة .

رحلة نيكولسكي

هناك معلومات غزيرة في تقرير القائم بالأعمال في القنصلية في جدة م. نيكولسكي تشير الى أنه يزور مكة في السنة الواحدة عدد يتراوح بين ثمانين ألف ومائتي ألف حاج ؛ و« الاندونيسيون هم أغنى هؤلاء الحجاج ، ويليهم الحجاج القادمون من روسيا ومصر . وأما أفقر الحجاج فهم الهنود . . . » وفي مذكراته نجد معلومات أخرى :

« وصل ما مجموعه سبعة وستين ألف شخص في موسم الحج لسنة ١٩٠٤ - ١٩٠٥ عن طريق ميناء جدة وينبع ؛ أما المجموع العام للحجاج الذين زاروا مكة في هذه السنة فيقدر بين مائة وخمسين ألفاً ومائتي ألف شخص . وتعتبر هذه العناصر الوافدة جميعها مستهلكاً كبيراً للبضائع والسلع وذلك على الرغم من أن الكثير من الحجاج يجلبون معهم الى مكة أيضاً بضائعهم الخاصة لبيعها هناك . ويبيعون أيضاً عند انتهاء موسم الحج أو في حالة الشحة والنقص في نقودهم قسماً لا يستهان به من الممتلكات الشخصية التي يحملونها »^(١) .

محاضرة بيركينهايم

وردت معلومات قيمة عن الشرق الأوسط في المحاضرة التي ألقاها أ.م. بيركينهايم في كانون الأول سنة ١٨٩٤ في قسم الجغرافيا من جمعية محبي العلوم الطبيعية .

كان اهتمام المحاضر كبيراً بشكل خاص بنظام زراعة الأرض ، والعلاقات العقارية السائدة عند البدو ، والوضع الزراعي عندهم .

ويشير بيركينهايم الى أن البدو الرعاة لا يعرفون الملكية الخاصة للأرض .

(١) « مجموعة التقارير القنصلية ، النشرة ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٦ ، ص ٤ - ٥ .

ويؤكد أن : « مجال تنقل البدو في كل قبيلة يكون منطقة معينة فقط ، وعملهم هذا معترف به وهو شيء طبيعي ، وهم لا ينتقلون الى البقاع المخصصة لرحلات القبائل الأخرى »^(١) ، وهذا يؤدي بدون شك وبصورة تدريجية الى التحول الى شكل من أشكال الحياة الحضرية . ففي سوريا على سبيل المثال غالباً ما يشاهد المرء المزارعين الذين يعيشون حياة شبه رحالة : « ويمكن الالتقاء في كافة انحاء الجولان وبالقرب منها بقري كاملة من خيام البدو ، وهم يبذرون الغلال حول هذه المحطات والمراكز الموقفة ، ثم يتركونها بعد الحصاد مباشرة ، ويتحركون مع قطعانهم الى مكان آخر »^(٢) .

ولا شك أن العمل غير الكبير الذي كتبه أ.م. بيركينهايم لم يفقد أهميته لحد الآن . ومن شأنه أن يكون مصدراً مفيداً لدراسة نشوء وتطور ملكية الأرض في سوريا .

رحلة كلينجين

خرجت بعثة روسية الى الشرق برئاسة المفتش في العقارات الإقطاعية في الففقاس إ.ن. كلينجين في ٢٠ شباط سنة ١٨٩٥ لغرض دراسة الشؤون المتعلقة بزراعة الشاي . وكان ضمن البعثة موظفو ديوان العقارات الإقطاعية وبروفيسور جامعة خاركويف أ.ن. كراسنوف .

كان إيشان نيكولا ييقيج كلينجين (١٨٥١ - ١٩٢٢) أحد المهندسين الزراعيين الروس البارزين في نهاية القرن الماضي وأوائل القرن الحالي ، وهو مختص في نباتات المنطقة الاستوائية . يرتبط باسمه تطور دراسة وزراعة الشاي في ما وراء الففقاس .

وكانت حصيلة رحلته الى الشرق أن ظهر للمؤلف إ.ن. كلينجين كتاب يقع في ثلاثة مجلدات^(٣) ، وقد كتبه في ضوء الانطباعات والملاحظات الشخصية ، واستند

(١) أ.م. بيركينهايم ، الوضع الزراعي في سوريا وفلسطين في الوقت الحاضر ، موسكو ، ١٨٩٧ ،

ص ٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦ .

(٣) إ.ن. كلينجين ، عند النظام الزراعي القديم ، شعوب الشرقين الأدنى والأقصى ، القسم ١ ،

سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٨ .

كذلك على مجموعة كبيرة من المصادر والمراجع والأدبيات المدونة .

ففي المجلد الأول المخصص لمصر ، يقدم المؤلف عرضاً موجزاً عن تكوين الأرض ، والمناخ ، والتربة ، والنباتات ، والزراعة . وفي الكتاب فصل خاص مكرس لنشاط الانسان في إصلاح وتحويل الطبيعة في حوض نهر النيل . أما الفصل الذي يتطرق الى مصر في أيامه في الكتاب فله أهمية كبيرة جداً ، حيث يتم فيه توضيح عن ممتلكات الفلاحين ، ودور الملكية الكبيرة للأرض^(١) .

ويقول كلينجكين عن القسم البائس التعس من الفلاح المصري : « من الممكن أن نقول بشجاعة متناهية بأنه في الوقت الحاضر ، وبعد مرور ثلاثة آلاف سنة على عهود الفراعنة الكسالى لم يتحول الشعب إلى حياة أفضل . فالوضع لم يتغير ولا زال كما كان سابقاً ، فهو يكدح كالسمكة في الماء المتجمد ، تنتهك قواه في سبيل الحصول على قطعة من الخبز له ولأولاده من الوحوش المفترسة التي لا رحمة في قلبها »^(٢) .

ويقول كلينجكين : « ان المستعمرين الإنكليز المسيطرين على الموقف يشددون في الحكم ، ويعمقون الوضع السيء الشاق الذي يعيش فيه الشعب . فالأساطيل الإنكليزية والبواخر لا تعد ولا تحصى ، والجنדרمة الإنكليزية في المرافئ ، والقوات الإنكليزية في القلاع والحصون ، والمدراء الإنكليز للمدارس ، والوزراء الذين نصبهم الإنكليز . . . والأهم في هذه كلها الرأسماليون الإنكليز الكبار والمرابون الذين أغرقوا مصر بعددهم الهائل الكبير بمساعدة الجيش المسلح الذي يعيش حياة غريبة على حساب العملاء المواليين لهم ، إن هؤلاء وأولئك يساندون بثبات كل شيء يتعلق بـ « المصالح الإنكليزية » ، وهم يوسعون « اجراءات الضمان » و« مناطق النفوذ » ، ونتيجة لهذه الظاهرة نجد الفقراء من الفلاحين الذين يلبسون الصنادل وهم نصف عراة ونصف جياع ينتظرون من السماء أن تريحهم الفواجع والكوارث قريباً . . . »^(٣)

(١) المصدر السابق ، ص ٣٦٤ - ٤٣٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤١٠ .

إن ضيق الأفق الطبقي الذي يمتاز به كلينكين جعله أن لا يرى إمكانية استثمار الثروات الطبيعية الضخمة في أعالي النيل إلا تحت إشراف الأوروبيين . وهو يعتقد أيضاً بأن الشعوب ذات البشرة السوداء في بلاد أعالي النيل يمكنها أن تنهض وتنتعش بمساعدة العبقريّة الأوروبية .

وهو يكتب بسذاجة متناهية عن مستقبل السودان : « ان العلماء الأوروبيين ، والمهندسين الأوروبيين ، والمهندسين الزراعيين يفتحون لها الآن باباً كبيراً ، ويجلبون مكائنتهم بطريق السكك الحديدية الهادئة ، وتحرر السودان من السبات الطويل الذي لا نهاية له »^(١) .

ومع ذلك يعتقد كلينكين بأنه : « سيأتي اليوم الذي تكون فيه جميع هذه الأشياء للشعب ، يقف الشعب هنا ولا يطأ رأسه أمام وحشية الأجانب ؛ وهم يتعلمون شيئاً فشيئاً أساليب الدفاع عن حقوقهم ، وهم سيكونون أحراراً ، وانهم يبنون بجهودهم المشتركة وطناً عظيماً ورائعاً »^(٢) .

رحلة كراسنوف

كان يصاحب إ. كلينكين في البعثة بروفيسور جامعة خاركوف أ. ن. كراسنوف (١٨٦٢ - ١٩١٤) ، وكان مستخدماً في مجلة « علم زراعة الأرض » التي كان يصدرها د. ن. أنوجين . عين كراسنوف فيما بعد مديراً لحقول النباتات التجريبية في مدينة باطوم .

كان أ. ن. كراسنوف عالم النبات والجغرافي الشهير ، تلميذ العالم المختص الروسي الأشهر في النبات د. ن. بيكيتوف . دافع عن رسالته في سنة ١٨٩٤ فأصبح أول من يحمل لقب الدكتور في العلوم الجغرافية في روسيا . كما أن أ. ن. كراسنوف هو مؤلف أول كتاب جامعي روسي في موضوع علم النبات والزراعة . ففي مخططاته العلمية الضخمة أكثر من ثلاثمائة عمل مطبوع . وكان كراسنوف رحالاً وسائحاً لا

(١) المصدر السابق، ص ٤٢٠ .

(٢) المصدر السابق، ص ٤١١ .

يعتريه التعب . فقد زار وأقام في مناطق كثيرة جداً في روسيا ، ومجموعة من البلدان الأوروبية ، والقسم الشرقي والجنوبي من آسيا ، وأفريقيا ، وأميركا الوسطى والشالية .

وبعد انتهاء أعمال البعثة مباشرة نشر أ. ن. كراسنوف كتاباً يعرض فيه الرسائل التي هيأها المؤلف عن رحلته حول العالم^(١) والتي نشرها سابقاً في مجلة «الاسبوع» .

هناك أربع رسائل مخصصة للشرق الأوسط .

ففي رسالة له من القسطنطينية فيها كثير من الانطباعات الجديدة ، والأفكار الحديثة ، يصف بشكل رائع القسم الآسيوي من المدينة ، حيث الشارع ليس فقط وسيلة للحركة ، وإنما هو الحياة نفسها : « هنا يأكلون ، وهنا يناقشون الأمور ويتعرف بعضهم على بعض ... »

هنا في القسطنطينية بجانب الطربوش الأحمر التركي يظهر غطاء الرأس القفقاسي المصنوع من الفرو ، والزري المدني التركي الى جانب الوردية السوداء للارمن ، والرؤوس المحلوقة التي ترتدي الطاقية ، والقبعة الأوروبية^(٢) .

وفي رسالة أخرى له يصف صحراء مصر : « مصر بلد التناقضات ، هناك صور للخفة والنشاط المتناهيين ومقاليد الحياة النشطة بجانب مناظر الأموات في مملكة الفناء ؛ هنا توجد مناطق تسود فيها الرياح السمومية وأشعة الشمس المحرقة ، وغالباً ما تتحول هذه المظاهر بصورة فجائية إلى نشاط مياه نهر النيل الذي يمنح الحياة .

والمنطقة التي تطورت فيها ولا تزال توجد فيها حتى الآن تلك الحياة التي يمكن القول بأنها خلقت الأسس الرئيسية لحضارتنا هي في الواقع عبارة عن شريط ضيق تحصره الصحراء الميتة ، وإن مصر بثقافتها الحية بكل ما في هذه الكلمة من المعاني هي عطاء نهر النيل ... »^(٣) .

(١) أ. ن. كراسنوف، من مهد الحضارة، رسائل من رحلة حول العالم، سانت بيترسبورغ ،

١٨٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١ - ٢٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢ .

وفي الرسالة التي تحمل عنوان « في ضيافة الفلاحين » يقول أ. ن. كراسنوف :

« . . . غير أنه مهما كانت هناك الراحة والسعادة في الطبيعة التي تحيط بالفلاح ، انني لا أسمى وجوده الواقعي سعيداً . فغياب الحاجيات والامتعة ، والأدوات المنزلية ، والزينة والكماليات الأولية والراحة ، ليست من أسباب الإنتفاع بالنسبة له . تكلموا ولو بشكل مختصر جداً مع الفلاحين الذين يعيشون هنا ، فأنكم تعرفون حينئذ بأنه ضحية للضرائب القاسية ، في حين أن ثقل هذه الضرائب لا ينحصر فقط في المبلغ الواجب دفعه ، وإنما في عدم صحة الطريقة التي يتم بها الجمع ، والجشاعة التي تستخدم في الجباية . وليس من قبيل الصدف إذا كان هنا حكام يريدون تشبيه الشعب بالخلية التي كلما يقوم المرء بعصرها بصورة أقوى كلما يسيل منها رحيق أكثر . وأن نظام الضغط على الشعب وسرقة كل ما يملكه ، هو النظام السائد في الإدارة هنا تماماً »^(١) .

وكان أ. ن. كراسنوف كديموقراطي في آرائه وأفكاره ينظر الى الرجل المظلوم بشعور ملؤه العطف والحنان : « انك تحزن عندما تشاهد بأن هذه الأمة التي أعطت هذا القدر الكبير الى الحضارة الإنسانية ، وخلقت هذا القدر من الإنتاج الفني ، واكتشفت هذا القدر من الحقائق العلمية ، وقعت الى هذا الدرك بحيث يكون بعثها في الوقت الحاضر ليس بالإمكان بأي شكل من الأشكال ومستحيلاً . إن هذه الأمة ستتهضر ، لأن الأمة التي بنت الأهرام للفراعنة ، والمساجد والمنائر للحكام المسلمين ، تستطيع بنفس الطريقة أن تصنع المكائن ، وأن تعمل في المعامل ، وأن تسفك دماؤها في سبيل ردع مطامع ابناء أوروبا التي يجيم الضباب على سمائها »^(٢)

رحلة الأميرة شيرباتوفا

ذكرنا سابقاً عن رحلة قام بها إلى الشرق الأوسط دوختوروف بصدد الخيول العربية الأصيلة . ولنفس الغرض قامت الأميرة أ. أ. شيرباتوفا بصحبة عدد من

(١) المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٧ .

الأصحاب والمرافقين برحلتين الى الشرق في سنة ١٨٨٨ وسنة ١٩٠٠ . ففي سنة ١٨٨٨ زارت القاهرة ، وبيروت ، ودمشق . ثم توجهت من هنا بصحبة القوافل الى دير الزور على الفرات خلال جبال لبنان ، ووادي البقاع . ولم تستمر الرحلة فيما بعد لأن السلطات التركية منعت البعثة من السفر ، فاضطرت ان تعود الى دمشق . وفي الرحلة الثانية في سنة ١٩٠٠ زارت شيرياتوفا دمشق ، وبلاد ما بين النهرين الشمالية بصحبة زوجها مالك الخيول الأمير شيرياتوف .

وزارت أو. أ. شيرياتوفا وأصحابها أثناء الرحلة جماعات من القبائل الرحالة البدو . وهي تشير الى أن كرمهم في الضيافة كان بلا حدود . وقد قطع الرحالة مسافة ٢٦٠٠ فرسخاً ركوباً بصحبة القافلة . ولا شك بأن لمذكرات شيرياتوفا أهمية كبيرة لما تضمنته من جوانب الحياة البيئية والاجتماعية الدقيقة في حياة البدو^(١) .

رحلة شيلكوثنيكوف

كان ضابط الأركان العامة ب. إ. شيلكوثنيكوف قد أرسل في سنة ١٩٠٢ ببعثة الى ولايات ما بين النهرين التركية . وبعد انتهاء الرحلة وضع كتاباً مهماً جداً يتضمن أخباراً ومعلومات مفيدة غير قليلة عن الوضع السياسي في ذلك الوقت في بلاد ما بين النهرين وفي منطقة الخليج الفارسي^(٢) (يقصد الخليج العربي - م. خ .)

يؤكد ب. إ. شيلكوثنيكوف بصدق بأن انكلترا استطاعت عن طريق « الإدارة الطويلة والعلاقات القوية في البلاد ، وهي قضية لها أهميتها الكبيرة للغاية بالنسبة لها أن تكون قماً عليها ، وتسيطر من الناحية الاقتصادية على الأسواق ، وتقوى هيبة سياستها بين القبائل التي تسكنها . . . وأن الوضع الذي تحتله انكلترا في بلاد ما بين النهرين له علاقة قوية ومباشرة بالسيطرة الحقيقية على خليج فارس (يقصد

(١) أو. أ. شيرياتوفا ، رحلة الى مناطق البدو ركوباً (على ظهور الدواب) بحثاً عن الخيول العربية الاصيلة (٢٦٠٠ فرسخ في الصحارى العربية في سنة ١٨٨٨ وسنة ١٩٠٠) ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٣ .
(٢) ب. شيلكوثنيكوف ، القوات ومنطقة الفيلق العسكري السادس (ولايات بغداد ، والموصل ، والبصرة) ، تقرير عن البعثة الى بلاد ما بين النهرين في سنتي ١٩٠٢ - ١٩٠٣ ، المجلد ١ ، القسم ١ و٣ ، تفليس ، ١٩٠٤ .

الخليج العربي - م.خ .) وبلاد فارس الجنوبية . . . (١) .

وفي ضوء المصادر والأدبيات المدونة ، والملاحظات ، والإنطباعات الشخصية وضع شيلكو فنيكوف وصفاً للقبائل ، وأوضاع استغلال الأرض ، وملكية العقارات ، ونظام الري في أيامه .

ويتطرق شيلكو فنيكوف الى التركيب القومي في الولايات الثلاث في بلاد ما بين النهرين ، ويقول بأن الترك يشكلون « الأقلية ، ويكاد المرء أن لا يشعر بوجودهم بين شرائح السكان » . وهو يشير في كتابه الى أن عدد سكان الولايات الثلاث يبلغ ٣٤٠٠ شخص ، منها حوالي ١١٠٠ من القبائل الرحالة . أما عن القبائل العربية والكردية الرحالة المستقلة فهناك فصل خاص في الكتاب مكرس لهذا الموضوع .

والفصل الختامي من الكتاب مخصص لتاريخ قضية سكة حديد بغداد .

رحلة سميونوف

و

سكة حديد بغداد

كان ث.ب . سميونوف قد قام برحلة خاصة الى تركيا في نهاية سنة ١٩٠١ لدراسة خط سكة حديد بغداد . وكانت حصيلة رحلته الكتاب الذي قدم فيه تشخيصاً مبسوطاً ودقيقاً لتاريخ بناء الطرق الحديدية في آسيا الصغرى ، ويصف فيه الوضع الذي كانت عليه شبكة خطوط السكك الحديدية التركية في ذلك الحين .

رحلة مار وجااخوف

وثاسيليف

من الضروري أن نقف بايجاز عند رحلات مجموعة من العلماء المستشرقين الروس الى الشرق الأوسط في بداية القرن العشرين ، ولا شك بأن اسماؤهم هؤلاء قد

(١) المصدر السابق، القسم ٣، ص ٤ .

دخلت فيما بعد في تاريخ العلم الروسي والسوفياتي .

ففي سنة ١٩٠٢ توجهت بعثة الى سيناء كان في ضمنها كل من ن. ي. مار ، وإ. أ. جاقاخوف ، والمختص في الدراسات البيزنطية أ. أ. فاسيلييف . وكانت البعثة من تنظيم وإشراف كل من جامعة بيترسبورغ ، والقسم الشرقي في الجمعية الأثرية ، والجمعية الفلسطينية^(١) .

وكان ن. ي. مار قد ألقى تقريراً عن نتائج البعثة في ٢٧ شباط سنة ١٩٠٣ في القسم الشرقي من الجمعية الأثرية ، ونشر التقرير فيما بعد بعنوان « تقرير تمهيدي عن الأعمال التي أنجزت في سيناء بمعونة إ. أ. جاقاخوف ، وفي مدينة القدس في رحلة سنة ١٩٠٢ (نيسان - تشرين الثاني) »^(٢) .

رحلة بارتولد

توجه ف. ف. بارتولد الى القاهرة والقسطنطينية في سنة ١٩٠٦ ، وكان في ذلك الوقت استاذاً في جامعة بيترسبورغ ، وفي سنة ١٩١٢ تقرر تعيينه عضواً في الأكاديمية . وكان سفره في الأساس لغرض دراسة بعض المخطوطات المحلية التي تم العثور عليها . وحصيلة الرحلة تركزت في نشر مقالة « عن بعض المخطوطات الشرقية في مكتبات القسطنطينية والقاهرة »^(٣) .

رحلة غوردليفسكي

كان الإختصاصي البارز في الدراسات التركية ، والعضو الأصيل منذ سنة ١٩٤٦ في أكاديمية العلوم السوفياتية فلاديمير اليكساندروفيتش غوردليفسكي (١٨٧٦ - ١٩٥٦) قد عاش في تركيا في سنوات ١٩٠٤ - ١٩٠٨ . وكتب أثناء إقامته في البلاد

(١) ف. ف. بارتولد، تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٢٥ ، ص

٢٩٠ .

(٢) نشرة الجمعية الفلسطينية ، المجلد ١٤ ، القسم ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٣ ، ص ١ - ٥١ .

(٣) مجلة الجمعية الأثرية للإمبراطورية الروسية - القسم الشرقي ، المجلد ١٨ ، النشرة ٤ ، سانت

بيترسبورغ ، ١٩٠٧ - ١٩٠٨ ، ص ١١٥ - ١٥٤ .

مجموعة من الكتب ، والمقالات ، والملاحظات . غير أننا في هذا المجال نشير إلى بعض من أعماله المدونة في ضوء انطباعاته الجديدة فقط . ومن أعماله هذه يظهر « ف. أ. گوردليشسكي كرجال ، وباحث مستطلع ، استطاع أن يوضح ببساطة وبأسلوب بديع ومفهوم طائفة من الآراء والمفاهيم المختلفة عن تركيا في مقالات صغيرة ، جمع فيها جانباً من المواد والمعلومات المهمة الطريفة جداً المتعلقة بالسياسة الداخلية والخارجية في البلاد ، والنظام الحكومي وبالقضايا المتعلقة بالانتوغرافيا ، والدراسات الأدبية ، والدينية ، والفلسفية ، والتاريخية ، والثقافية ، والقضايا المختلفة الأخرى في تركيا القديمة والحديثة »^(١) .

تلقى ف. أ. گوردليشسكي تعليمه العالي في الصفوف الخاصة في معهد لازاريث للغات الشرقية . وبعد إنهاء دراسته في المعهد عاد إلى الدراسة في كلية التاريخ والدراسات اللغوية في جامعة موسكو . وفي أثناء بعثته إلى الشرق في سنة ١٩٠٤ زار القسطنطينية ، وقونية ، ودمشق . وكان ينشر في هذه الفترة أخباره ومراسلاته في جريدة « المصالح الروسية » باسم مستعار هو « توركوڤيل » .

عاد گوردليشسكي في سنوات الحروب البلقانية في سنوات ١٩١٢ - ١٩١٤ إلى تركيا مرة أخرى . وفي أيام الحرب العالمية الأولى قضى بعض الوقت في الجبهة القفقاسية في مناطق كانت قد احتلتها القوات الروسية بشكل مؤقت في طرابزون ، وسيبان داغ . وكان ف. أ. گوردليشسكي قد نشر في هذه الفترة مجموعة من المقالات في الدوريات والمجلات .

ومن الضروري الإشارة إلى أن بعض الأعمال التي تعود إلى فترة إقامة ف. أ. گوردليشسكي في تركيا كانت قد نشرت لأول مرة بعد وفاته .

وفي مختارات من مؤلفات ف. أ. گوردليشسكي هناك بين الموضوعات المخصصة لتركيا (فصل « خيال تركيا ») ، إننا نجد في هذا الفصل وصفاً رائعاً لجوانب مختلفة ومتعددة لواقع تركيا في المرحلة التي سبقت ثورة الاتحاديين ؛ وهناك

(١) مقدمة بي. لودشوييت للمجلد ٣ من منتخب مؤلفات ف. أ. گوردليشسكي ، موسكو ، ١٩٦٢ ،

أيضاً معلومات عن وضع المرأة التركية ، وواقع المدرسة الابتدائية القديمة ، والألعاب الشعبية ، والمذاهب والفرق الإسلامية . وفي مواقع كثيرة من ملاحظاته يشير إلى الأحداث الثورية في تركيا ، بالإضافة إلى اهتمامه العظيم بالأرمن والكرد .

أما موقف غوردليشسكي بازاء الكرد في تركيا فهو موقف ود إخلاص . وإنه يحاول الرد بحزم على الآراء السائدة في أوساط طائفة من المؤرخين البورجوازيين في ذلك الوقت ، التي مفادها أن الكرد قطاع طرق ، ويرتكبون أعمالاً وحشية ، وفضائح مرعبة .

رحلة كريمسكي

أكمل المستشرق السوفياتي الشهير والمختص في الدراسات السلافية أكافانجيل ييفيموڤيچ كريمسكي (١٨٧١ - ١٩٤١) معهد لازاريڤ في سنة ١٨٩٢ ، ثم أنهى دراسته في كلية التاريخ والدراسات اللغوية في جامعة موسكو سنة ١٨٩٦ . وأشغل منصب أليروفيسور في معهد لازاريڤ في قسم الآداب العربية وتاريخ الشرق الإسلامي خلال عشرين سنة (١٨٩٨ - ١٩١٨) وبعد إنهاء تحصيله العلمي في الجامعة أقام في سوريا في سنوات ١٨٩٦ - ١٨٩٨ ! حيث درس اللغة العربية والآداب العربي فيها .

ولقد ألف عدداً ضخماً من الأعمال العلمية عن الإسلام ، وتاريخ العرب والترك ، والآداب العربية ، والتركية ، والفارسية . وكان أ . ي . كريمسكي : « رجلاً له اهتمامات علمية واسعة وكبيرة ، فهو مختص في الدراسات السلافية ، ومستشرق (مختص في الدراسات العربية ، والأيرانية ، والتركية) ، وكان يتمتع بموهبة أدبية عالية جداً . . . وكان القسم الأعظم من أعماله الاستشراقية حصيلة محاولاته العلمية التي كان يحقق بها مطالب تلامذته . . . أما دوره في تبسيط العلم عندنا فهو يفوق بدون شك دور جميع المستعربين المعاصرين له »^(١) .

(١) أ . ي . كراچكوفسكي ، منتخب المؤلفات ، المجلد ٥ ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٥٨ ،

ولقد اشترك أ. ي. كريمسكي خلال سنوات طويلة في تهيئة المعجم الانسيكلوبيدي لـ « بروكهاوز ويفرون » ، والمعجم الانسيكلوبيدي لـ « گرانات » . ويجد المرء في هذين المعجمين مجموعة من المواد والمقالات عن الشرق الأوسط كتبها كريمسكي .

وخلال إقامته في سوريا نشر مقالتي « الجامع الأزهر في القاهرة » و « رسائل من سوريا »^(١) .

وهناك طائفة كبيرة من رسائل أ. ي. كريمسكي لم تنشر لحد الآن ، وهي محفوظة في مؤسسات الأرشيف المختلفة في مدينة كييف .

ويحتل كريمسكي في دراسة الشرق الأوسط مكاناً لائقاً وبارزاً .

رحلة كراچكوفسكي

أنهى العالم السوفياتي الشهير ، والمستعرب المعروف على النطاق العالمي ، عضو أكاديمية العلوم السوفياتية إ. ي. كراچكوفسكي (١٨٨٣ - ١٩٥١) الكلية الشرقية في جامعة بيترسبورغ ، وكان قد تقرر إبقاؤه للعمل في الجامعة بعد انتهاء دراسته .

أقام في سنوات ١٩٠٨ - ١٩١٠ في سوريا ومصر مبعوثاً من جامعة بيترسبورغ . وكان عالماً هذا قد كلف أن يقوم بإنجاز واجبات كثيرة ومتشعبة : كان عليه أن يتعلم اللغة العربية ، وأن يتعرف على الأدب العربي المعاصر له ، والثقافة العربية ، وأن يفهم نظام تدريس الآداب العربية في الكلية الشرقية في جامعة القديس يوسف في بيروت ، وأن يستوعب النشاط العلمي في الكلية^(٢) .

(١) يراجع : قائمة بأعماله : الصفوف الخاصة في معهد لازاريف للغات الشرقية في عامها الثلاثين ، موسكو ، ١٩٠٣ ، ص ١٣٣ - ١٣٦ ، إ. ي. كراچكوفسكي ، عضو أكاديمية العلوم في جمهورية أوكرانيا الاشتراكية السوفياتية أ. ي. كريمسكي (الذكرى السبعون لميلاده) ، « أخبار أكاديمية العلوم السوفياتية » ، قسم الأدب واللغة ، العدد ٣ ، ١٩٤١ ، ص ١٢٧ - ١٢٩ .

(٢) إ. ي. كراچكوفسكي ، مواد ومصادر لسير حياة العلماء في الاتحاد السوفياتي ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٩ .

فتوصل إ. ي. كراچكوفسكي في ضوء انطباعاته ، وملاحظاته ، وتأملاته الخاصة ، وتعرفه على الأدب العربي إلى نتيجة تلخص في أن الكتاب العرب كانوا يتعاطفون مع روسيا بشكل واضح : « كان الوضع الملائم بصورة خاصة لاختبار موقف ممثلي الأمة العربية من روسيا هو الحرب الروسية - اليابانية ، في هذا الوقت بالذات كانت أميركا بأجمعها (وذلك بالكلام فقط على ما نظن) إلى جانب أهل الجزر . ومع ذلك يكفي أن نتصفح بعض أعداد الصحف العربية التي كانت تصدر في تلك الأيام ، إذا ما أردنا أن نتأكد من وجود تلك المشاعر ، التي كانت بدون شك مبعث عز وشرف لروسيا نفسها في تلك الفترة »^(١) . وهو يشير إلى أساء الشعراء أسعد رستم ، وسليمان ، وداود سلام الذين يفيض شعرهم بالإخلاص والود الحقيقيين لروسيا .

وبعد عودة إ. ي. كراچكوفسكي إلى روسيا قدم تقريراً كان قد نشر جزء منه في « مجلة وزارة المعارف الوطنية » بعنوان « الكلية الشرقية في جامعة القديس يوسف في بيروت »^(٢) . بعد مرور سنين كثيرة ، وفي كتابه المشهور جداً « مع المخطوطات العربية »^(*) الذي صدرت منه بضع طبعات تحدث عن زيارته وإقامته في الشرق .

ويشير في التقرير إلى تاريخ تطور الكلية الشرقية في جامعة القديس يوسف المركز الوحيد في ذلك الوقت للدراسات الشرقية العلمية في آسيا القريبة ، وعن نظام التدريس في الكلية ، ودور اليسوعيين في تأسيسها . وفي ذلك الوقت كانت في مناهج الكلية دورات لمدة ثلاث سنوات في تاريخ وجغرافيا الشرق ، ودورة أخرى لمدة سنتين في الآثار الشرقية .

ويذكر إ. ي. كراچكوفسكي بهذا الشأن إلى أن منهج الجغرافيا في سنة ١٩٠٨ كان يتضمن الجغرافيا الطبيعية والسياسية للبنان . وكانت تدرس في الجغرافيا

(١) « كشوف سانت بيترسبورغ » ، العدد ١٤٦ ، ١٩٠٩ ، ٣ تموز .

(٢) الكلية الشرقية في جامعة القديس يوسف في بيروت ، « مجلة وزارة المعارف الوطنية » ، ١٩١٠ ، شباط ، ص ٤٩ - ٥٨ . فصل : المدونات الحديثة .

(*) صدر الكتاب باللغة العربية عن « دار التقدم » في موسكو ، وقد كتبت المقدمة أرملة قبرا كراچكوفسكايا وهي مؤرخة في ١٩٦٣ (المترجم) .

موضوعات معينة بصورة مفصلة كالحُدود ، والتضاريس الأرضية (القديمة والحديثة) ، المناخ ، والتربة ، والهيدروغرافيا ، والسكان ، والنقل ، والتجارة ، والتقسيمات السياسية - الإدارية في البلاد .

وإننا نستطيع أن نعرف في عمل آخر له ، في فصل « جولات في الشرق » بأن إ. ي . كراجكوفسكي لم يزر بيروت فقط ، وإنما زار مكتبة الخديوي ، ومكتبة الأزهر في القاهرة ؛ وأما في مدينة القدس فقد عمل في المكتبة المهمة التي تحمل اسم الخالدة . وزار دمشق ، وطرابلس ، وحلب ، وحمص ، وحماة ، وبعبك ، ومدينة القدس ، والناصره ، وأريحا . وزار مصر مرتين . وكان في الاسكندرية ، وفي القاهرة ، وفي أي مكان آخر يصل إليه يقوم بالبحث والدراسة لمجموعة المخطوطات ، ويتعرف على ممثلي العلم ، والأدب ، وعلى ممثلي المجتمع في جميع القطاعات والشرائح ، وعن لقاءاته هذه يقول :

« التقيت بأناس لهم أهميتهم الخاصة في الصيف حين تركت بيروت وتجولت في لبنان حيناً ، وفي الجبال اليهودية (جبال فلسطين - م . خ .) العابسة المقبضة ، وسهول الجليل المستوية السهلة حيناً آخر .

كان معلمو القرى ، والصحفيون المحليون ، ومراسلو الجرائد ، والأطباء الريفيون يستقبلونني جميعاً بود ، وصدافة ، أما عن صعوبة اللغة فإنني قد نسيتها منذ أمد بعيد ، ويبدأ التحدث معهم لساعات طويلة بعد اللقاء الأول . إنهم جميعاً يفورون ، ويثورون ، ويضطربون ، ويحلمون بالانبعاث القومي ، وكان الأدب القومي في الوقت نفسه يستقطب جميع ميولهم ، وكانوا ينظرون بحب وإجلال إلى آثاره القديمة التي كانت ولا زالت مستمرة في منح الحياة لهم . . . »^(١) . وكان العالم يهتم بالأدب بحيوية ونشاط ، وكان يبحث في الصحف والمطبوعات العربية ، دارساً علاقات روسيا بالشرق ، وفي نفس الوقت كان يتعرف على أوضاع التعليم في المدارس :

(١) إ. ي . كراجكوفسكي ، مع المخطوطات العربية ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٥ ، ص ١٤ - ١٥ (إننا قمنا بترجمة أقوال المستشرق كراجكوفسكي من اللغة الروسية كما وردت في هذا الكتاب ، ولم نلتزم بنصوص كتاب « مع المخطوطات العربية » المترجم إلى اللغة العربية - المترجم) .

« كانت نتائج زيارة وإقامة إ. ي. كراچكوفسكي [كراچكوفسكي] في الشرق العربي عظيمة للغاية . فإنه استطاع أن يتقن اللغة العربية الفصحى ، واللغة العامية إتقاناً تاماً ، وأن يتعرف على حياة وثقافة البلدان العربية وسكانها ، ويدرس بشكل جذري الأدب العربي الحديث الذي كان يمر في تلك السنوات بمرحلة الانبعاث والنمو السريع »^(١) .

وتكلمت عن إقامة إ. ي. كراچكوفسكي في لبنان وفلسطين بصورة مفصلة بعد وفاته ف. أ. كراچكوفسكايا . وقد استندت على يوميات ورسائل هذا العالم كمصدر : « الطبيعة والناس في سوريا ، ولبنان ، وفلسطين ؛ والعادات والتقاليد ، وآلام وآمال الشعب العربي أصبحت من القضايا المفهومة والقريبة من إ. ي. كراچكوفسكي . وكان يتطلع بصورة خاصة وهو بعيد عن الوطن إلى الذين يعرفون روسيا والروس ، والذين لهم علاقة بها إلى حد ما . وقد اقتنع بأن هيبة روسيا أصبحت عالية جداً .

وكان بإمكان المرء وهو يعرف اللغة الروسية فقط أن يقوم بالرحلة والسفر في جميع أنحاء فلسطين في بداية القرن العشرين . . . »^(٢) .

ولقد أغنت بدون شك رحلة إ. ي. كراچكوفسكي إلى الشرق العربي العلم الجغرافي بمعلومات جديدة عن الأدبيات الجغرافية العربية . فاهتم هذا العالم بتلك الأدبيات اهتماماً كبيراً ابتداءً من الخطوات الأولى من نشاطه العلمي . وفي أيام رحلاته كان قد استمع في جامعة القاهرة إلى محاضرات عن تاريخ الفلك العربي للإختصاصي الكبير في حقل تاريخ الفلك ، والجغرافيا الرياضية عند العرب العالم الإيطالي الشهير ك. أ. نالينو .

وألقي فيما بعد عند عودته إلى بيترسبورغ محاضرات في الموضوع المسمى

(١) ف. إ. بيلبايف وإ. ن. فينيكوف ، ذكرى الأكاديمي إ. ي. كراچكوفسكي ، المجموعة الفلسطينية ، النشرة ١ (٦٣) ، ١٩٥٤ ، ص ٩٣ .

(٢) ف. أ. كراچكوفسكايا ، إ. ي. كراچكوفسكي في لبنان وفلسطين ، المجموعة الفلسطينية ، النشرة ١ (٦٣) ، ١٩٥٤ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

« عرض الأدبيات عن الجغرافيا العربية » في سنوات ١٩١٠ - ١٩١٧ ، بالإضافة الى الموضوعات الاعتيادية الأخرى . وأما في سنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦ الدراسية فقد حاضر في موضوع « الأدبيات الايستوريوغرافية العربية » .

وهكذا تجمع من مجموعة المحاضرات عن الأدبيات الجغرافية عند العرب البحث المتكامل « للمصادر الجغرافية العربية »^(١) . ويشمل هذا البحث الفترة من أقدم العصور حتى القرن الثامن عشر (وقد نشر البحث بكامله بعد وفاة مؤلفه) ويقدم فيه صورة واضحة وكاملة لتطور هذا الحقل من العلم عند العرب . . .

وبالرغم من أن إيگناتى يوليانوفيتش كراچكوفسكى لا يتطرق في مقدمته لهذا البحث الى رحلته في الشرق العربي ، إلا أنه لا يوجد هناك أي شك بأن الإهتمام بتاريخ الجغرافيا العربية قد ولد عند العالم في تلك السنوات .

رحلة سامويلو فيش

زار الإختصاصي السوفياتي الشهير في الدراسات التركية الأكاديمي أ. ن. سامويلو فيش (١٨٨٠ - ١٩٣٨) لأول مرة تركيا في سنة ١٩٠٠ . وفي صيف سنة ١٩١١ توجه أ. ن. سامويلو فيش للمرة الثانية الى تركيا ، فدرس اللغة الفصحى والعامية ، واقتنى مجموعة كبيرة من الجرائد ، والمجلات ، والكتب . ونشر سامويلو فيش في سنة ١٩١٢ في مجلة « العالم الإسلامي » التي أسسها ف. ف. بارتولد عرضاً رائعاً للمطبوعات الدورية الإسلامية في روسيا وتركيا^(٢) .

رحلة أوربيلي

كانت لرحلات العالم الروسي والسوفياتي الكبير الأكاديمي يوسف

(١) [١] . ي . كراچكوفسكى ، منتخب المؤلفات ، المجلد ٤ ، المقدمة بفلم ك . تسيريتيلي ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٥٧ ، ص ٤ .
(٢) ف . د . آشنين ، أليكساندر نيكولايفيتش سامويلو فيش ، « شعوب آسيا وأفريقيا » ، العدد ٢ ، ١٩٦٣ ، ص ٢٤٣ - ٢٦٤ .

ابكار و فيسج اوريبيي (١٨٨٧ - ١٩٦١) الى الشرق الأوسط أهمية كبيرة جداً .

أنهى ي.أ. اوريبيي في سنة ١٩١١ كليتين في آن واحد ، وهما كلية التاريخ والدراسات اللغوية ، وكلية اللغات الشرقية في جامعة بيترسبورغ .

وفي نفس السنة ، وباقتراح ومبادرة من ن.ي. مار كان قسم التاريخ والدراسات اللغوية التابع لأكاديمية العلوم قد كلّف ي.أ. اوريبيي للقيام ببعثة علمية الى تركيا . وكان عليه أن يقوم بدراسة آثار الثقافة القديمة ، والتعرف على لهجات اللغة الكردية واللغة الارمنية في منطقة وان .

سافر ي.أ. اوريبيي في ١ تموز سنة ١٩١١ من باطوم الى القسطنطينية ومن هناك عن طريق طرابزون ، وبابورت ، وأرضروم وصل الى مدينة وان . فأقام في مدينة موكس وهي غير بعيدة عن مدينة وان . وقد شرع هنا بدراسة التباين والاختلافات الموجودة في لهجات السكان من الارمن . ويبلغ عدد السكان المقيمين في موكس من الارمن ٦٧٢ بيتاً ، أما عدد الكرد ، وهم من المسلمين السنة ، فيبلغ ٦٤٠ بيتاً ، والغجر (الجينگنه) كانوا في أربعة أو خمسة بيوت . وبالإضافة الى ذلك كانت هناك ثلاث أو أربع من عائلات الترك وهم من الموظفين . وكان يحكم المنطقة مدير ، وهو من أكابر البگوات الكرد واسمه مُرتُ الله بك^(*) .

وبعد أن أقام ي.أ. اوريبيي خمسة أسابيع في موكس ، عاد إلى وان عند حلول الشتاء ، وأما في ربيع سنة ١٩١٢ فإنه رجع الى موكس مرة أخرى . وفي مدينتي موكس و وان درس لغة كرد المنطقة أيضاً . ثم وضع معجماً خاصاً يُعنى بالللهجات السائدة بين أرمن منطقة موكس^(١) .

(*) مُرتُ الله : من المحتمل أن يكون أصل الكلمة (مرد الله) ، وهي إضافة كلمة «مرد» وتعني (الرجل ، الانسان ، العبد) على «الله» وقد حورها الكرد الى «مرت الله» على طريقتهم الخاصة . وهناك احتمال آخر وهو أن تكون الكلمة من «مرتضي» إلا أنه احتمال ضعيف . (المترجم) .

(١) ي.أ. اوريبيي ، تقرير تمهيدي عن البعثة في تركيا الآسيوية في ١٩١١ - ١٩١٢ ، «أخبار أكاديمية العلوم الامبراطورية» ، السلسلة ٦ ، العدد ١٥ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩١٢ ، ١ تشرين الثاني ، ص ٩١٧ - ٩٢٦ ، ك.ن. يوزباشيان ، الأكاديمي يوسف ابكار و فيسج اوريبيي ، موسكو ، ١٩٦٤ ، ص ٣١ .

كان تأثير الرحلة الى موكس بالغاً في اتجاه ي. أ. أوربيلي وعقيدته : « ان مأساة الارمن ، والمذابح التي حدثت في ١٨٩٥ - ١٨٩٦ رن صداها في جميع أنحاء العالم ؛ ففي روسيا بشكل خاص كانت الأخبار تتناقل الحدث بتفصيل عن المصير المحزن للشعب الارمني ، وكذلك انعكست أخبار الحدث في الأعمال الخاصة وفي المطبوعات الدورية »^(١) . من الواضح ان الحكومة السلطانية قامت برشوة الجهات الإقطاعية الكردية العليا في سبيل تحقيق نجاحات معينة في سياستها الشوفينية ، فأثارت الكرد على الفلاحين الارمن الكادحين . وكان ي. أ. أوربيلي يعلم بطبيعة الحال كل هذه الأشياء ليس عن طريق المصادر والأدبيات المدونة فحسب . وإنما كان يسمعها من أفواه الناس ، لأنه كان يقيم في المنطقة الجبلية حيث الجيرة بين الارمن والكرد ، يعيشون في سلام ووثام ، ويشتركون في واقع متشابه ، ويلتئم بصورة وثيقة اسلوب حياتهم الإجتماعية وواقع معيشتهم ، ويتحد عندهم الأدب الشعبي والفولكلور . أثار مرت الله بك انطباعات جيدة في نفس العالم الشاب ، فيقول في رسالة كتبها من موكس إلى والديه في بداية أيلول سنة ١٩١١ : « إنني أعيش في بيت المدير (رئيس الدرك في المنطقة) وهو بك كردي كان أحد المدافعين بحماس عن الارمن في أيام المذبحة ومن الذين يكونون الحب والإحترام للروس إلى درجة كبيرة . إنني قلما شاهدت في حياتي مثل هذا الشيخ اللطيف الجميل . والأهم من كل هذا هو أنه مثقف بارع ومدهش بالرغم من أنه لم يخرج من وان ، ولم يسافر إلى أي مكان آخر »^(٢) .

ويقول ي. أ. أوربيلي في المقدمة التي كتبها لكتابه « النصوص الارمنية الموكسية » كانت قرية وعزيم في أيام المذبحة في سنة ١٨٩٥ محاطة بحشود هائلة من المتعصبين الحانقين غير أن تدخل مرت الله بك بتفان أنقذ سكان القرية من الهلاك »^(٣) .

وحفظ يوسف أبغار وقيح أوربيلي أروع وأجمل ذكريات عن أكراد موكس ،

(١) ك. ن. يوزباشيان ، الأكاديمي يوسف أبغار وقيح أوربيلي ، ص ٣٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٣ ، الهامش ٥٦ .

ومزاياهم الروحية وخصائصهم النفسية . وهنا في موكس تأكد العالم وتيقن مرة أخرى بأن الشعب الكردي ليس هو العدو الظالم للارمن ، وانما الادارة التركية التي تثيره ، وفي مثل هذه المناطق المنعزلة كموكس ، يعيش الارمن والكردي في وفاق ووثام . وبعد مرور سنين كثيرة وفي مقدمة كتاب « النصوص الارمنية الموكسية » كتب ي.أ. أوربيلي ، والحزن يملأ قلبه ، بأنه تم انقاذ بضع أسر من الارمن فقط في مذبحه سنة ١٩١٥ ، ولم ينج السكان الكردي أيضاً المصير الذي آل اليه الارمن ، ولم يكونوا معزولين عنه ، وقد تم تدمير قسم منهم ، وهرب القسم الآخر . وهكذا أصبحت موكس خالية من السكان : « أما في سنة ١٩١١ - ١٩١٢ عندما زرت موكس ، فقد كان يعيش فيها خلق كثير ، وكان الاضطهاد ، ومخالفة القوانين ، والشقاء تسود في كل مكان ، غير أنها لم تكن بمعزل نهائياً عن سعادة ضئيلة في الحياة . ولهذا السبب من المحزن بصورة خاصة أن اعترف بأن القليل الذي استطعت ان اكتبه في موكس ؛ وهو عبارة عن مجموعة غير كبيرة من النصوص ، ومعجمين أحدهما معجم اللغة الارمنية ، والآخر معجم اللغة الكردية ، تكاد أن تكون آخر شاهد ومصدر عن اللغة ، وواقع الحياة ، والعادات والتقاليد ، والكردح اليومي ، ومباهج الحياة لبضعة آلاف من أبناء الشعبين الارمني والكردي »^(١)

وقد تهيأت الظروف للأكاديمي ي.أ. أوربيلي أن يزور مدينة وان بصحبة الأكاديمي ن.ي. مار للمرة الثانية في فترة الحرب العالمية الأولى ، وكانت القوات الروسية قد احتلت مدينة وان في ذلك الوقت . وقد قام ن.ي. مار بتنقيبات أثرية في تل تويراق قلعة (تل القلعة الترابية - م.خ.) ، وقام ي.أ. أوربيلي بتنقيبات أثرية في سفوح جبال وان . وكان هجوم الترك ، وخروج القوات الروسية قد أدت الى ايقاف التنقيبات الأثرية فترك العلماء الروس المكان^(٢) .

رحلة مينورسكي

كان فلاديمير فيودوروفيتش مينورسكي (المولود في سنة ١٨٧٧) تلميذاً للعالم

(١) المصدر السابق ، ص ٣٣ - ٣٤ .

(٢) ن.مار ، و.ي. أوربيلي ، البعثة الأثرية لسنة ١٩١٦ في وان ، بيتروغراد ، ١٩٢٢ .

أ.ي. كرميسكي . أنهى دراسته في معهد لازاريث في موسكو في سنة ١٩٠٣ . وعمل خلال بضع من السنين في مؤسسات مختلفة في السلك الدبلوماسي في تركيا وإيران . درس ف.ف. مينورسكي هناك وضع الكرد ، ونشر عملاً خاصاً بهذا الصدد^(١) .

كانت تركيا قد خرقت الحدود الإيرانية في سنة ١٩٠٥ واحتلت لمدة مؤقتة جانباً من الأراضي الإيرانية ، وتنفيذاً لأصرار الدول في ٤ تموز سنة ١٩١٣ تم التوقيع على البروتوكول التركي - الإيراني في القسطنطينية عن الحدود ، وفيه تغلبت وجهة نظر الدولتين الروسية والانكليزية ، أي أن الحدود أصبحت قائمة في الواقع كما كانت قبل سنة ١٩٠٥ . ولغرض تحديد الحدود تألفت لجنة خاصة دخل فيها القومييسار الروسي ف.ف. مينورسكي عضواً .

وفي صيف سنة ١٩١٣ جاب القنصل الروسي العام في بغداد أ.أ. أورلوف الحدود التركية الإيرانية . ففي مذكرات سفره^(٢) يصف المناطق بين مندلي ، والوند ، وهورامان . فالمعلومات التي يوردها أورلوف مهمة وطريفة ، خصوصاً الملاحظات الاتنوغرافية المتعلقة بقبائل زنگنه ، وسنجابي ، وكلاولوس ، والجاف ، والكلهر ، وقبائل أخرى .

أما تقارير مينورسكي عن تعيين الحدود التركية والفارسية فقد نشرت في سنة ١٩١٥^(٣) .

وهي تتضمن خمساً وعشرين وثيقة مستقلة ، ورد فيها وصف لعدد من المواقع في الحدود التركية وكذلك في الجهة الإيرانية . وفي التقارير معلومات غزيرة ذات طابع جغرافي وأتنوغرافي ، وفيها أخبار ووقائع عن تاريخ المنطقة واقتصادها، والوضع السياسي فيها .

(١) ف.ف. مينورسكي ، الاكراد . ملاحظات وانطباعات ، بيتروغراد ، ١٩١٥ (قام مترجم هذا الكتاب بترجمة كتاب مينورسكي هذا الى اللغة العربية ، ونشره في سنة ١٩٦٨ في بغداد) .
(٢) أ.أ. أورلوف ، يوميات مسافر في الحدود التركية - الإيرانية في سنة ١٩١٣ ، « مواد ومصادر دراسة الشرق » ، بيتروغراد ، ١٩١٥ ، ص ١٣٣ - ٢١٨ .
(٣) ف.ف. مينورسكي ، الحدود التركية - الإيرانية ، « مواد ومصادر لدراسة الشرق » ، بيتروغراد ، ١٩١٥ ، ص ٢١٩ - ٤٣٢ .

وهناك عمل غير كبير آخر كتبه ف. ف. مينورسكي خصصه للقضية نفسها المتعلقة بالحدود التركية - الإيرانية ، ويتضمن النتائج العامة لأعمال لجنة الحدود المشتركة في سنة ١٩١٤^(١) .

وقد تم نتيجة لنشاط اللجنة تصحيح ما تسمى بالخريطة المطابقة التي كانت قد خططتها في حينه لجنة الحدود في سنوات ١٨٤٩ - ١٨٥٢ بأشرف إي. إ. جيريكوف .

وفي سنوات ثورة أكتوبر العظمى في روسيا بقى ف. ف. مينورسكي في فارس ، وبعد مرور مدة من الزمن سافر الى انكلترا ، فنشر فيها فيما بعد قسماً كبيراً من أعماله . وفي سنة ١٩٦٠ استضافه الاتحاد السوفياتي كعضو في المؤتمر العالمي الخامس والعشرين للمستشرقين . ويقول إي. إي. كراچكوفسكي عنه : « ان ف. ف. مينورسكي الذي أصبح فيما بعد أعظم مختص في الدراسات الإيرانية ومؤرخ باعتراف الجميع لم يدرس ويبحث بشكل كامل المصادر العربية المتعلقة بأحد آثار القرن العاشر الجغرافية « حدود العالم » (١٩٣٧) الذي ترجمه بعمق وأصالة ف. ف. بارتولد فقط ، وإنما عرّف العالم لأول مرة بالكاتب العربي في القرن الثاني عشر وهو المروزي (١٩٤٢) الذي لم يكن يتمتع بشهرة كبيرة قبل ذلك »^(٢) .

ونشر كتاب ف. ف. مينورسكي « تاريخ شيروان ودربند » في موسكو في سنة ١٩٦٣ (وهو مترجم من اللغة الانكليزية الى اللغة الروسية) . يقول البروفيسور أ. أ. علي زاده المحرر المسؤول عن الترجمة الروسية في هذا الصدد : « كانت حصيلة النشاط المثمر للبروفيسور ف. ف. مينورسكي لسنين كثيرة اضافة قيمة في تحقيق المسائل التي لم تبحث بما فيه الكفاية ، وقضايا التطور الاجتماعي - الإقتصادي لبلدان الشرقيين الأدنى والوسطى . . . »^(٣) .

(١) « أخبار الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية » ، المجلد ٢ ، النشرة ٥ ، سانت بطرسبورغ ، ١٩١٦ ، ص ٣٥١ - ٣٩٢ .

(٢) مقالات في تاريخ الاستعراب الروسي ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٥٠ ، ص ١٧١ .

(٣) ف. ف. مينورسكي ، تاريخ شيروان ودربند في القرنين العاشر - الحادي عشر الميلاديين ، موسكو ، ١٩٦٣ ، ص ٥ .

الجمعية الجغرافية

الروسية

(٢)

وأخيراً من المفيد الوقوف عند دور الجمعية الجغرافية الروسية في دراسة الشرق الأوسط . ولقد نوهنا سابقاً الى أن الجمعية ومنذ اللحظة التي تم فيها تأسيسها في سنة ١٨٤٥ ، وضعت دراسة البلدان المجاورة لروسيا من واجباتها الرئيسية . وأشرنا أيضاً الى أنه كان لنشاط كل من ف. ف. بيرك ، وم. ب. فرونجينكو ، وپ. أ. جيخاچيف ، وهم يشتهرون بدراساتهم عن تركيا الدور الأساسي في تأسيس الجمعية . وكانت الجمعية الجغرافية من المؤسسات التي تُعنى بتنظيم البعثات والفرق العلمية ، فهي التي أشرفت على البعثات التي قام بها كل من ي. ب. كوفاليشكي (فيما بعد مساعد رئيس الجمعية) ول . س . تسينكوفسكي الى مصر وبلاد النوبة . أما بعض الرحالة الآخرين من أمثال أ. أ. رافالوفيتش ، وإ. إ. ايخالد ، وأ. س. نوروف ، وأ. ف. ييليسيف ، وك. إ. رادده ، وك. اببخ ، وإ. خودزكو ، وإ. إ. ستينيتسكي ، وف. ف. مينورسكي فكانوا أعضاء في الجمعية . وبالإضافة الى ذلك كانت تطبع المواد المتعلقة بالشرق الأوسط وشمال أفريقيا بشكل منتظم ضمن النشاط العلمي للجمعية الجغرافية .

وفي سنة ١٨٥١ تأسس فرع القفقاس في الجمعية الجغرافية الروسية ، وقد أسهم هو الآخر بنشاط كبير ليس فقط في دراسة القفقاس ، وإنما البلدان المتاخمة لها أيضاً . وقد نشرت من « أخبار قسم القفقاس » منذ سنة ١٨٧٢ طائفة من الأعمال العلمية ومذكرات الرحالة الروس .

كما ونشرت في الأقسام المختلفة المتنوعة في الجمعية أعمال علمية كبيرة ،

(١) أ - ب . ب . سيميونوف ، تاريخ نشاط الجمعية الجغرافية للامبراطورية الروسية خلال نصف قرن ١٨٤٥ - ١٨٩٥ ، المجلد ١ ، ٢ ، ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٦ .
ب - ل . س . بيرك ، الجمعية الجغرافية لعموم الاتحاد السوفياتي في قرن ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٦ .

ج - ب . أ . بالسكايا ، إسهام الجمعية الجغرافية الروسية في دراسة بلدان الشرق ، موسكو ، ١٩٦٠ .

د - الفهارس الملحقة بمنشورات الجمعية الجغرافية للامبراطورية الروسية وأقسامها :

- من ١٨٤٦ حتى ١٨٧٥ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٦ .
- من ١٨٧٦ حتى ١٨٨٥ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٧ .
- من ١٨٨٦ حتى ١٨٩٥ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٦ .
- من ١٨٩٦ حتى ١٩٠٥ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩١٠ .

كلمة الختام

زار الشرق الأوسط ، كما نوهنا سابقاً عدد كبير من الناس والمواطنين الروس من الحجيج ، ورجال الدين ، والرحالة ، والعلماء ، والفنانين ، والادباء ، والديپلوماسيين ، والضباط . وكانت زياراتهم وإقامتهم في بلدان الشرق الأوسط في الواقع لغرض التعرف على طبيعة وحياة الشعب ، وقد تركوا أثراً كبيراً في تاريخ الثقافة ، والجغرافيا ، والتاريخ الروسي .

وتقرأ اعمال الرحالة الروس باهتمام ، ولذة ، ومتعة كبيرة ، وانها لم تفقد أهميتها حتى يومنا هذا . وهي تعتبر إضافة كبيرة في العلم الروسي وتشغل مكاناً لاثقاً في خزائن العلم والثقافة العالميين .

وإذا ما حاولنا أن نحدد بكلمة واحدة الشيء الذي يفصل اعمال القسم الأعظم من الرحالة الروس في الشرق الأوسط عن أعمال الرحالة البورجوازيين ، لا شك أن هذا الشيء هو الروح الإنسانية بأجل وأفضل ما في الكلمة من المعاني ، والروح الإنسانية هي الصفة التي يتحلى بها الجانب الكبير من مؤلفاتهم .

وأضاف الرحالة الروس في تاريخ الإستشراق الروسي أشياء كثيرة ، وجديدة ، وقيمة .

ثم ورثت الدراسات الشرقية السوفياتية من استشراق ما قبل الثورة ميراثاً كبيراً . وكان الجيل السابق من العلماء الروس والرحالة يتميزون دائماً بمعرفة اللغات واتقانها الى حد كبير ، والإهتمام التام بالمصادر والمراجع ، والإحترام والود الدائمين لشعوب وبلدان الشرق وثقافتها الغنية .

لا شك ان المستشرقين السوفيات قد أخذوا هذه التقاليد بكاملها ، كما وأضافوا مجموعة من المزايا والخصائص الجديدة في دراسة الشرق الأوسط .

وأما القيام بالدراسات الخاصة فينبغي أن تنحصر في بلدان وشعوب الشرق الأوسط للفترة المعاصرة لنا . فالعلماء ، والرحالة ، والصحفيون ، والكتاب السوفيات هم الذين ينجزون بدون شك مثل هذه الدراسات .

المراجع والمصادر (البيبلوغرافيا)

المراجع والمصادر الروسية

كتب الرحلات

- أيبخ ك. .

جيولوجية السلاسل الأرمنية ، القسم الغربي ، وصف أوروغرافي و جيولوجي ، ترجمة من الألمانية ب . ز . كولنيكو ، بيانيگورسك ، ١٨٨٦ .

- أوليربيركن . ق .

من روما إلى مدينة القدس ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٣ .

- أكريفيني

رحلة الارشمندريت (رئيس الأساقفة) أكريفيني حوالي سنة ١٣٧٠ الميلادية ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد رئيس الأساقفة ليونيد ، المجلد ١٦ ، النشرة ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٦ .

- أنتوني

كتاب الحجيج - ذكر الأماكن المقدسة في تساريگراد من قبل أنتوني ، رئيس أساقفة نوفغورود في سنة ١٢٠٠ الميلادية ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد خ . م . لوباريث ، المجلد ١٧ ، النشرة ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٨ .

- أوسينسكي ب .

الرحلة الأولى إلى دير سيناء في سنة ١٨٤٥ للأسقف بروثيري أوسينسكي ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٦ .

- أوسبينسكي ب .

رحلة الأسقف يورفييري أوسبينسكي إلى مصر ودير أنتوني الكبير المقدس ودير بافل فيقييسكي
في سنة ١٨٥٠ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٦ .

- أوسبينسكي ب .

كتاب عن حياتي ، اليوميات والسيرة الذاتية والمذكرات التي كتبها الأسقف يورفييري
أوسبينسكي ، المجلد ١ - ٤ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٥ ، ١٨٩٦ .

- أوشاكوف ن . ن .

تاريخ العمليات الحربية في تركيا الآسيوية في سنتي ١٨٢٨ و ١٨٢٩ ، في قسمين ، سانت
بيترسبورغ ، ١٨٣٦ ، القسم الأول .

- أومانيتس

سفرة إلى سيناء ، مع ملحقات تتضمن نبذاً عن مصر ، والأرض المقدسة لأومانيتس ، القسم ١
و ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٠ .

- إيشايقت .

مكة - المدينة المقدسة عند المسلمين . حكاية حاج ، « بشير آسيا الوسطى » ، ١٨٩٦ ،
طاشقند ، تشرين الثاني - كانون الأول .

- بارانشيكوف . ث .

المغامرات التعسة لفاسيلي بارانشيكوف التاجر الصغير من مدينة نيژنى - نوفكورود في الأقاليم
الثلاثة في العالم : في أميركا ، وآسيا ، وأوروبا ، في سنة ١٧٨٠ وحتى سنة ١٧٨٧ ، سانت
بيترسبورغ ، ١٧٨٧ .

- بارسكي ف . كد .

مسيرة فاسيلي غريغوروفيتش - بارسكي بلاكا البوف المولود في كييف راهب انطاكيا السائر على
قدميه في الأماكن المقدسة في أوروبا ، وآسيا ، وأفريقيا ، بدأها في سنة ١٧٢٣ وانتهى منها في
سنة ١٧٤٧ وقد كتب عن الرحلة بنفسه ، سانت بيترسبورغ ، ١٧٧٨ .

- بارسكي ف . كد .

جولات فاسيلي غريغوروفيتش - بارسكي في الأماكن المقدسة في الشرق في سنة ١٧٢٣ حتى

سنة ١٧٤٧ ، نشرة جمعية فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد ، نيكولاي بارسوكوف ، القسم ٢ ،
سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٦ .

- بازيل ك .

الأرخبيل واليونان في سنتي ١٨٣٠ و ١٨٣١ ، القسم ١ و ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٣٤ .

- بازيل ك .

مقالات عن القسطنطينية ، القسم ١ و ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٣٥ .

- بازيل ك .

البوسفور ومقالات جديدة عن القسطنطينية ، القسم ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٣٦ .

- بازيل ك .

سوريا وفلسطين تحت الحكم التركي ، القسم ١ و ٢ ، أوديسا ، ١٨٦٢ .

- بروننيكوف ك .

رحلة إلى الأماكن المقدسة الواقعة في أوروبا ، وآسيا ، وأفريقيا ، قام بها في سنتي ١٨٢٠

و ١٨٢١ بروننيكوف وهو من ساكني قرية باقلوف ، موسكو ، ١٨٢٤ .

- برونيشكوي

مذكرات الضابط البحري المشارك في حملات البحر الأبيض المتوسط بقيادة نائب الاميرال ديميتري

نيكولاي شيف سينياقين ، القسم ١ - ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨١٨ - ١٨١٩ .

- بلتيمور

رحلة اللورد الانكليزي بلتيمور من القسطنطينية خلال روميلي ، وبولغاريا ، ومولدافيا ،

وبولونيا ، والمانيا ، وفرنسا الى لندن ، ترجمها من الانكليزية س.إ. بليشيف ، الطبعة

الثانية ، سانت بيترسبورغ ، ١٧٧٨ .

- بيركينغيم أ.م .

الوضع الزراعي في سوريا وفلسطين في الوقت الحاضر ، موسكو ، ١٨٩٧ .

- بوزيناكوف ف .

مسيرة التاجر قاسيلي بوزيناكوف الى الأماكن المقدسة في الشرق ، مجموعة فلسطين

الأرثوذكسية ، إعداد : خ.م. لوباريث ، المجلد ٦ ، النشرة ٣ ، سانت بيترسبورغ ،

١٨٨٧ .

- تسيكولين د.إ.

مسيرة ورحلة غير اعتيادية للفلاح الروسي ديميتسي إيقانوف تسيكولين الى آسيا ، ومصر ،
والاقسام الشرقية من الهند من سنة ١٨٠٨ حتى سنة ١٨٢١ وقد كتبت من قبله ، « الارشيف
الشمالي » ، العدد ٨ ، نيسان ، العدد ٩ ، مايس ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٢٥ .

- تيبيلوف ف.

أدريانوبول وفراكييا في سنة ١٨٧٤ (من مذكرات مسافر) ، « بشير روسيا » ، العدد ٥ - ٦ ،
١٨٨٠ ، مايس . ونشر في كتاب في سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٧ .

- خورشيد أفندي

سباحة نامهء حدود ، وصف الرحلة في الحدود التركية - الإيرانية ، تأليف خورشيد أفندي ،
سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٧ .

- دافليتشين

تقرير النقيب الركن دافليتشين عن بعثته الى الحجاز ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٩ .

- دافيدوف ف.

مذكرات الرحلة المدونة في فترة زيارة الجزر الأيونية واليونان وآسيا الصغرى وتركيا في سنة ١٨٣٥
من قبل فلاديمير دافيدوف ، القسم ١ و ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٣٩ ، ١٨٤٠ .

- دانييل

حياة وسيرة دانييل رئيس دير الارض الروسية ، مجموعة فلسطين الارثوذكسية ، اعداد:
م. ف. فينيقتينوف ، النشرة ٣ و ٩ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٣ ، ١٨٨٥ .

- دوختوروف م. ن.

رحلة الى الشرق ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٣ .

- ديوگاميل أ. أو

سيرة اليكساندر اوسيبوفيتش ديوگاميل بقلمه ، موسكو ، ١٨٨٥ .

- رادده ك.إ.

عرض موجز لرحلة ك.إ. رادده الى أرمينيا التركية في ١٨٦٧ « أخبار الجمعية الجغرافية
للامبراطورية الروسية » ، المجلد ٤ ، العدد ٣ ، ١٨٦٨ .

- رادده ك.إ.

- رادده ك. إ. .
- تقرير تمهيدي عن رحلة الدكتور ك. رادده الى القفقاس في سنة ١٨٦٧ ، و نشرات الجمعية الجغرافية للامبراطورية الروسية - قسم القفقاس ، الكتاب ٨ ، تفليس ، ١٨٧٣ .
- رافالوفيتش أ. .
- رحلة أ. رافالوفيتش في مصر السفلى والمناطق الداخلية من الدلتا ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٠ .
- زاخاروف إ. .
- مذكرات سفر الفنان الروسي إ. زاخاروف التي تجمعت أثناء رحلته في روسيا ، وتركيا ، واليونان ، وإيطاليا ، والمانيا ، القسم ١ - ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٤ .
- زوسيا .
- مسيرة الراهب زوسيا ، مجموعة فلسطين الارثوذكسية ، اعداد: خ. م. لوباريث ، المجلد ٨ ، النشرة ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٩ .
- سفنين ب .
- مذكرات في الاسطول ، القسم ١ - ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨١٨ - ١٨١٩ .
- سكالكوفسكي ك. .
- انطباعات مسافر الى اسبانيا ، ومصر ، وشبه الجزيرة العربية . والهند ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٣ .
- سكالكوفسكي ك. .
- في بلاد الاضطهاد والحرية ، انطباعات مسافر ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٨ .
- سمبليايث د. .
- في الطريق الى سيناء ، بيرم ، ١٨٧٦ .
- سمبليايث د. .
- سيناء وفلسطين ، بيرم ، ١٨٧٧ .
- سوخانوف. آ .
- رحلة آرسين سوخانوف ، مجموعة فلسطين الارثوذكسية ، اعداد : ن. إ. إيثانوفسكي ، النشرة ٢١ (المجلد ٧ ، النشرة ٣) ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٩ .
- سولوگوب ف. أ. .
- مصر الجديدة - تقرير عام وانطباعات سفر ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧١ .

- سيراميون

سفرة أو رحلة راهب دير ماترونين سيراميون إلى الأرض المقدسة سنة ١٧٤٩ . قراءات في الجمعية
الامبراطورية للتاريخ والتاريخ القديم الرومي ، الكتاب ٣ ، القسم ٥ ، ١٨٧٣ .

- سيلقيستر ونيكوديم

وصف رحلة راهبي دير ريجلوقسكي - نيكولا ييغسكي سيلقيستر ونيكوديم إلى تساريكراد وأورشليم في سنة
١٧٢٢ ، أعمال أكاديمية كيبف الدينية ، كيبف ، ١٨٨٣ ، مايس .

- شيرباتوفا أو . أ .

رحلة إلى مناطق البدو ركوباً (على ظهور الدواب) بحثاً عن الخيول العربية الأصيلة (٢٦٠٠ فرسخ في
الصحاري العربية من سنة ١٨٨٨ وسنة ١٩٠٠) ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٣ .

- شيلكوفينكوفا ب .

القوات ومنطقة الفيلق العسكري السادس (ولايات بغداد والموصل والبصرة) ، تقرير عن البعثة إلى بلاد ما
بين النهرين في سنتي ١٩٠٢ - ١٩٠٣ ، المجلد ١ ، القسم ١ و ٣ ، تغليس ، ١٩٠٤ .

- فسيشولوزسكي ن . س .

رحلة عن طريق روسيا الجنوبية والقرم وأوديسا إلى القسطنطينية ، وآسيا الصغرى ، وأفريقيا الشمالية ،
ومالطا ، وتاليا ، وإيطاليا ، وفرنسا الجنوبية ، وباريس ، المجلد ١ و ٢ ، موسكو ، ١٨٣٩ .

- قارسونوفي

مسيرة الراهب قارسونوفي إلى المدينة المقدسة أورشليم في ١٤٥٦ و ١٤٦١ و ١٤٦٢ ، مجموعة فلسطين
الأرثوذكسية ، إعداد : س . و . دولكوف ، المجلد ١٥ ، النشرة ٣ ، موسكو ، ١٨٩٦ .

- قاسيلي

مسيرة الزائر قاسيلي ١٤٦٥ - ١٤٦٦ ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد : رئيس الأساقفة ليونيد ،
المجلد ٢ ، النشرة ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٤ .

- قيازيمسكي ب . أ .

رحلة الأمير ب . أ . قيازيمسكي ١٨٤٩ - ١٨٥٠ إلى الشرق ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٣ .

- قيشيناكوف

مذكرات الرحلة إلى المدينة المقدسة القدس وضواحيها للنبيين [الأخوين] - قيشيناكوف من محافظة كالوينا
والتاجر نوفاكوف وهو من ميدين في سنتي ١٨٠٤ و ١٨٠٥ ، موسكو ، ١٨١٣ .

- قينيوكوف م . إ .

من المذكرات ، الكتاب ٢ ، أمستردام ، ١٨٩٦ .

- كارتسوف ي .
سبع سنوات في الشرق الأوسط ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٦ .
- كازبيك ك . ن .
ثلاثة أشهر في جورجيا التركية ، منشورات الجمعية الجغرافية الروسية - قسم القفقاس ، الكتاب ١ ،
النشرة ١ ، تفليس ١٨٧٦ .
- كراسنوف أ . ن .
في مهد الحضارة . وسائل من الرحلة حول العالم ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٨ .
- كلينجين إ . ن .
عند النظام الزراعي القديم ، شعوب الشرفين الأدنى والأوسط ، القسم ١ ، سانت بيترسبورغ ،
١٨٩٨ .
- كويتيف أ .
مذكرات عن الرحلة إلى القسطنطينية والقاهرة والقدس في سنة ١٨٨٧ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٨ .
- كورويينيكوف ت .
مسيرة تريفون كورويينيكوف ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، النشرة ٢٧ (المجلد ٩ ، النشرة ٣) ،
سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٣ .
- كوفاليشسكي إ . ب .
رحلة في أعماق أفريقيا ، القسم ١ و ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٩ .
- كونداكوف ن . ب .
رحلة إلى سيناء في سنة ١٨٨١ ، من انطباعات الرحال ن . كونداكوف ، أوديسا ، ١٨٨٢ .
- كونداكوف ن . ب .
رحلة أثرية في سوريا وفلسطين ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٨ .
- كيسيوس أ . إ .
تقرير عن رحلة سنة ١٨٨٩ ، مجموع الطرق التي سلكها في الرحلة الفلكية المشتركة كل من د . د .
كيدونوف ، وإ . إ . كيسيوس في أرمينيا التركية وكردستان وسوريا ، تفليس ، ١٨٩٢ .
- كاكارا
حياة وسيرة فاسيل ساكوفليقيش كاكارا القازاني (١٦٣٤ - ١٦٣٧) في أورشليم (القدس) ومصر ،
مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد : س . أو . دولكوف ، النشرة ٣٣ (المجلد ١١ ، النشرة ٣) ،
سانت بيترسبورغ ، ١٨٩١ .

- ليونيد (الأسقف)

الحجيج الكتاب في عهد بطرس وما قبله ، أو الرحالة في المدينة المقدسة أورشليم ، « قراءات في الجمعية الامبراطورية للتاريخ والتاريخ القديم الروسي في جامعة موسكو » ، الكتاب ٣ ، القسم ٥ ، ١٨٧٣ .

- ليونيد (الأسقف)

آثار الكتابات القديمة والفن « قصة عن تساريغراد (قصة تأسيسها واستيلاء الترك عليها في سنة ١٤٥٣)
نيستور اسكندر في القرن الخامس عشر » ، من أخبار رئيس الأساقفة ليونيد ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٦ .

- ليخوتين م .

الروس في تركيا الآسيوية في سني ١٨٥٤ و ١٨٥٥ . من مذكرات اللواء م . ليخوتين عن العمليات الحربية لفرقة أريقان ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٣ .

- لوكيانوف ي .

رحلة إلى الأرض المقدسة للراهب الموسكوبي يوآن لوكيانوف ١٧١٠ - ١٧١١ ، موسكو ، ١٨٦٢ .

- - ليوبارسكايا أ . م .

السائح والبحار الروسي في بناء قناة السويس ، « بلدان وشعوب الشرق » ، النشرة ١ ، موسكو ، ١٩٥٩ .

- ماركوف ي .

رحلة إلى الشرق ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٠ .

- ماركوف ي .

رحلة إلى الأرض المقدسة ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩١ .

- مالاماي د .

وصف ولاية أرضروم كتبه ي . د . مالاما ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٤ .

- ماليكي ي .

فصص وحكايات عن الرحلة إلى أورشليم (مدينة القدس) وتساريغراد (القسطنطينية) للشماس الانجيلي يونا الملقب والمعروف بماليكي (١٦٤٩ - ١٦٥٢) ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، إعداد :
س . أو . دولكوف ، المجلد ١٤ ، النشرة ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٥ .

- مورافيشيف أ . ن .

رسائل من الشرق في سنوات ١٨٤٩ - ١٨٥٠ ، القسم ١ و ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥١ .

- مورافيشيف ن . ن .

الروس في البوسفور ، موسكو ، ١٨٦٩ .

- مورافيتش ن . ن .

تركيا ومصر في مذكرات ن . ن . مورافيتش (كارسكي) ١٨٣٢ - ١٨٣٣ ، المجلد ١ - ٤ ، موسكو ، ١٨٦٩ .

- مورافيتش ن . ن .

الحرب في القفقاس في سنة ١٨٥٥ ، المجلد ١ - ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٧ .

- ميتاكسا | .

مذكرات الضابط البحري إيگور ميتاكسا وهي تتضمن قصص المآثر الحربية للأسطول الروسي الذي سيطر بمساعدة الموانسء العثمانية على الجزر الأيونية بقيادة الأميرال فيودور فيودوروفيتش أوشاكوف ، سانت بيترسبورغ ، ١٩١٥ .

- ميليتي

رحلة راهب الدير في ساروفسكي ميليتي في سنتي ١٧٩٣ و١٧٩٤ إلى أورشليم (القدس) ، الطبعة الثانية ، موسكو ، ١٨٠٠ .

- ميليوكوف أ .

أثينا والقسطنطينية ، مذكرات سفر أ . ميليوكوف في سنة ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٩ .

- نوروف أ . س .

رحلة في مصر وبلاد النوبة في سنتي ١٨٣٤ - ١٨٣٥ الأفرام نوروف ، القسم ١ و ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٠ .

- نوروف أ . س .

رحلة إلى الأرض المقدسة في سنة ١٨٣٥ ، القسم ١ - ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٤ .

- نوروف أ . س .

رحلة إلى الكنائس السبع المذكورة في سفر الرؤيا ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٧ .

- نوروف أ . س .

مدينة القدس وسيناء ، مذكرات الرحلة الثانية التي قام بها إلى الشرق أ . س . - نوروف ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٨ .

- نيلويش | . | .

ملاحظات إيفان إيفانوفيتش نيلويش ١٦٩٣ - ١٧٧٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٣ .

- نيجاييف م . ك .

رحلة رجل التجارة والصناعة مائقي كافريلوف نيجاييف إلى مدينة القدس (١٧١٩ - ١٧٢٠) ، إعداد :

ن . ب . بارسوف ، وارسو ، ١٨٧٥ .

- يونكر ف . ف .

رحلة إلى أفريقيا ، موسكو ، ١٩٤٩ .

- ييبانجين ن .

مقالات عن حملة سنة ١٨٢٩ في تركيا الأوروبية ، القسم ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٥ .

- ييليسيف أ . ف .

الطريق إلى سيناء في ١٨٨١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٣ .

- ييليسيف أ . ف .

جولة في الدنيا ، أبحاث وخرائط من الرحلات إلى الأقسام الثلاثة للعالم القديم للدكتور أ . ف . ييليسيف ، المجلد ١ - ٤ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٣ - ١٨٩٦ .

المراجع والمصادر الأخرى

- أشنين ف . د .

اليكساندر نيكولايفيتش سامويلوفيتش « شعوب آسيا وأفريقيا » ، موسكو ، ١٩٦٣ .

(.....)

أخبار موثوقة عن الجزائر ، وعن العادات والتقاليد لشعب ذلك المكان ، وعن حالة الحكومة ومدخولات المناطق ، وعن وضع الشواطئ البربرية ، وعن النباتات وما شابهها ، مع رسوم حقيقية دقيقة ، سانت بيترسبورغ ، ١٧٨٧ .

- أمفروسي (الراهب)

تاريخ المقامات (الدرجات) الكهنوتية في روسيا ، القسم ١ ، موسكو ، ١٨٠٧ .

- أنوجين د . ن .

عن رجال العلوم والثقافة الروس ، موسكو ، ١٩٥٠ .

- أوربيلي أ . أ .

تقرير تمهيدى عن البعثة في تركيا الآسيوية في ١٩١١ - ١٩١٢ « أخبار أكاديمية العلوم الإمبراطورية » ، السلسلة ٦ ، العدد ١٥ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩١٢ تشرين الثاني .

- أورلوف أ . أ .

يوميات مسافر في الحدود التركية - الإيرانية في سنة ١٩١٣ ، « مواد ومصادر لدراسة الشرق » ، بيشروغراد ، ١٩١٥ .

- أوستريالوف ن .
تاريخ سلطنة بطرس الأكبر ، المجلد ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٨ .
- (.)
قواد الأسطول الروسي ، الأميرال أوشاكوف ، المجلد ٢ ، موسكو ، ١٩٥٢ .
- أوليانوفسكي ف . أ .
الدردنيل والبوسفور والبحر الأسود في القرن الثامن عشر ، موسكو ، ١٨٨٣ .
- آيفازوفسكي إ . ك .
إيثان كونستنتينوفيتش آيفازوفسكي ونشاطه الفني خلال اثنتين وأربعين سنة ، « عهد الروس القديمة » ،
١٨٧٨ أيلول ، تشرين الأول .
- بابكوف إ . إ .
رحلة إلى أفريقيا ، موسكو ، ١٩٤٩ .
- بارتولد ف . ف .
عرض لنشاط كلية اللغات الشرقية ١٨٥٥ - ١٩٠٥ ، المجلد ٤ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٩ .
- بارتولد ف . ف .
تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا ، الطبعة ٢ ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٢٥ .
- بارتينيثف ب .
بوشكين في جنوب روسيا ، « الأرشيف الروسي » ، النشرة ٨ - ٩ ، ١٨٦٦ .
- قالسكايا ب . أ .
رحلة إيكور بيتروفيتش كوفاليفسكي ، موسكو ، ١٩٥٦ .
- قالسكايا ب . أ .
الأكاديمي ك . م . بير عن رحلات إ . ب . كوفاليفسكي إلى مصر والصين في الأربعينيات من القرن التاسع
عشر ، « بلدان وشعوب الشرق » ، النشرة ١ ، موسكو ، ١٩٥٩ .
- قالسكايا ب . أ .
إسهام الجمعية الجغرافية الروسية في دراسة بلدان الشرق ، موسكو ، ١٩٦٠ .
- بروكهاوزن - بيغرون
المعجم الأنسيكلوبيدي ، المجلد ٣٨ (٧٦) .

- بودنارسكي م . س .
دراسات في تاريخ الزراعة الروسية ، موسكو ، ١٩٤٧ .
- بيرك ن . ف .
رحلة إلى مصر « المذكرات الوطنية » ، ١٨٦٢ تشرين الثاني .
- بيرك ن . ف .
جولاني في الدنيا « المعاصر » ، العدد ١٠ ، ١٠ ، ٦٢ ، ١٨٦٣ ، العدد ٧ ، ١٨٦٤ .
- بيرك ل . س .
الجمعية الجغرافية لعموم الاتحاد السوفياتي في مائة سنة ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٦ .
- بيرك ل . س .
مقالات في تاريخ الاكتشافات الجغرافية الروسية ، الطبعة ٢ ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٦ .
- بيريزين إ . ن .
مقتطفات من التقرير السنوي للماجستير بيريزين الذي قام برحلة إلى الشرق ، مجلة وزارة المعارف العمومية ، القسم ٤٦ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٥ .
- بيريزين إ . ن .
عرض للرحلة التي استغرقت ثلاث سنوات التي قام بها إلى الشرق الماجستير في جامعة قازان إ . بيريزين « مجلة وزارة المعارف الوطنية » ، القسم ٥٥ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٧ .
- بيريزين إ . ن .
مقالات عن الشرق ، مشاهد على الفرات ، « المعاصر » ، المجلد ١١ ، ١٨٤٨ أيلول .
- بيريزين إ . ن .
إستعراض الرحلات والاكتشافات المهمة جداً في العشر سنوات من ١٨٣٨ حتى ١٨٤٨ ، بشير الجمعية الجغرافية الروسية لسنة ١٨٥١ ، القسم ١ ، الكتاب ١ ، الفصل ٣ .
- بيريزين إ . ن .
البيزديون ، مجلة دراسة الأرض والرحلات ، المجلد ٣ ، موسكو ، ١٨٥٤ .
- بيريزين إ . ن .
الدين الإسلامي وعلاقته بالثقافة ، « المذكرات الوطنية » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٥ كانون الثاني ، شباط .
- بيريزين إ . ن .
الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس المسيحية الأخرى في تركيا ، « مكتبة للمطالعة » ، المجلد ٨٣ ، سانت

بيترسبورغ ، ١٨٥٥ .

- بيريزين إ. ن .

الموصل ، « مكتبة للمطالعة » ، المجلد ١٣٣ ، ١٨٥٥ تشرين الأول .

- بيريزين إ. ن .

تركيا المعاصرة ، « المذكرات الوطنية » ، ١٨٥٦ كانون الثاني ، شباط .

- بيريزين إ. ن .

المصلحون الشرقيون ، « المعاصر » ، العدد ١٠ ، ١٨٥٧ .

- بيريزين إ. ن .

كربلاء ، « مجلة دراسة الأرض والرحلات » ، المجموعة الجغرافية التي أصدرها ن . ثرولوف ، المجلد ٥ ، موسكو ، ١٨٥٨ .

- بيريزين إ. ن .

مشاهد في الصحراء بين البصرة وبغداد « البشير الروسي » ، المجلد ١٣ ، الكتاب ٢ ، ١٨٥٨ كانون الثاني .

- بيريزين إ. ن .

المسيحيون في الموصل « مجلة الموسكوبيين » ، المجلد ٤ و ٥ ، ١٨٥٩ .

- بيريزين إ. ن .

مشاهد في الصحراء « البشير الروسي » ، المجلد ٢٥ ، الكتاب ٢ شباط ، آذار ، ١٨٦٠ .

- بيكر ج .

تاريخ الاكتشافات الجغرافية ودراساتها ، ترجمة من الانكليزية بإشراف وتعليق إ. ب . ماجدوفيتش ، موسكو ، ١٩٥٠ .

- بيلوزيرسكايا ن .

ب . أ . جيحاجيف « بشير أوروبا » ، ١٨٩٣ ، تشرين الأول ، تشرين الثاني .

- بيليايف إ. د .

حول المعلومات والأخبار الجغرافية في روسيا القديمة « نشرة الجمعية الجغرافية الروسية » ، الكتاب ٦ ، ١٨٥٢ .

- بيليايف ف . إ . - فينيكوف إ. ن .

ذكرى الأكاديمي إ. ي . كراچكوفسكي ، المجموعة الفلسطينية ، النشرة ١ (٦٣) ، ١٩٥٤ .

- بيلينسكي ف . ك .
المؤلفات ، المجلد ٣ ، دار نشر سولدا تي كوف ، موسكو ، ١٨٥٩ .
- بيلينسكي ف . ك .
مجموعة المؤلفات الكاملة ، نشرها س . أ . قينكيروف ، المجلد ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٠ .
- بيليايشسكي م . ب .
لومونوسوف وتأسيس جامعة موسكو ، موسكو ، ١٩٥٥ .
- بروسكور ياكوف
ملاحظات عن تركيا ، منشورات الجمعية الجغرافية الروسية - قسم الففاس ، الكتاب ٢٥ ، النشرة ١ ،
تفليس ، ١٩٠٥ .
- بوتوف .
الحرب الففاسية في بعض من الأحداث والأساطير والسير ، المجلد ٤ ، النشرة ٤ ، تفليس ، ١٨٨٨ .
- بوتياتا د . ف .
مذكرات عن آسيا الصغرى « مجموعة المواد والمصادر عن الوضع الجغرافي والتنوع الجغرافي والإحصائي
لآسيا » ، النشرة (٦٦) ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٦ .
- بوشكين أ . س .
مجموعة الأعمال الكاملة ، المجلد ٧ ، موسكو ، لينينغراد ، ١٩٤٩ .
- بوشكين أ . س .
رحلة إلى أرضروم في فترة حملة سنة ١٨٢٩ ، المؤلفات ، المجلد ٦ ، موسكو ، لينينغراد ، ١٩٤٩ .
- بوجودين ب .
عن حملة أبناء الروس على سوروژ « نشرة جمعية التاريخ والتاريخ القديم في أوديسا » ، المجلد
١ ، أوديسا ، ١٨٤٤ .
- بونوماريوف س .
مدينة القدس وفلسطين في الآداب والعلوم وفنون الرسم والترجمات الروسية ، سانت
بيترسبورغ ، ١٨٧٧ ، ملحق المجلد الثالث « مجلة أكاديمية العلوم الامبراطورية » ، العدد
(١) .

- بيتروفا ف. أ .
الدليل الجغرافي للقرن السابع عشر .
- بيتكوفسك .
لبنان واللبنانيون « مجموعة المواد الجغرافية والتوبوغرافية والإحصائية عن آسيا » ، سانت
بيترسبورغ ، ١٨٨٥ .
- بيرشيتس أ .
معلومات أتوغرافية عن العرب في « المسيرات » الروسية في القرن الثاني عشر - السابع عشر ،
مجلة « الاتوغرافيا السوفياتية » ، العدد ٤ ، ١٩٥١ .
- بيكارسكي ب .
تاريخ أكاديمية العلوم الأمبراطورية في بيترسبورغ ، المجلد ١ ، سانت بيترسبورغ ،
١٨٧٠ .
- (.....) .
تاريخ الأدب الروسي ، المجلد ١ ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤١ .
- (.....) .
تاريخ الأدب الروسي ، المجلد ٢ ، القسم ٢ ، موسكو - لينينغراد ، طبعة أكاديمية العلوم
السوفياتية ، ١٩٤٨ .
- تساغريل أ . أ .
الأثار الجورجية القديمة في الأرض المقدسة وسيناء ، مجموعة فلسطين الأرثوذكسية ، المجلد
٤ ، النشرة ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٨ .
- تسيولسكي ف . ف .
ب . أ . جيخاجيف - الباحث النابغ لالتاي ، كيميروفو ، ١٩٥٩ .
- تسيولسكي ف . ف .
ب . أ . جيخاجيف - الباحث والسائح ، موسكو ، ١٩٦١ .
كتاب التصميم الأعظم ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٥٠ من منشورات أكاديمية العلوم
السوفياتية .
- تشيريتينوف أ . س .

في تاريخ العلاقات الروسية - التركية في عهد اليزابت « الاستشراق السوفياتي » ، المجلد ٦ ،
موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٩

- تولستوي ب . أ .

أوضاع الشعب التركي في سنة ١٧٠٣ ، سيمفيريول ، ١٩١٣ .

- تيخوميروف م . ن .

بيزنطية وروسيا الموسكوبية « المجلة التاريخية » ، العدد ١ ، ٢ ، ١٩٤٥ .

- جيخاجيف ب . أ .

دفتر مذكرات ب . جيخاجيف في آسيا الصغرى ، أخبار قسم القفقاس من الجمعية الجغرافية
الروسية ، تفليس ، ١٨٧٦

- جيخاجيف ب . أ .

قائمة أعمال ب . أ . جيخاجيف ، وضعتها ن . أ . بيلوزيرسكايا ، « أخبار الجمعية
الجغرافية للإمبراطورية الروسية » ، المجلد ٢٧ ، النشرة ٦ ، ١٨٩١ .

- جيخاجيف ب . أ .

رسائل عن تركيا ، قدم له وعلق عليه ف . ف . تسيبولسكي ، موسكو ، ١٩٦٠ .

- جيرنيشيسكي ن . ك .

مجموعة المؤلفات الكاملة ، المجلد ١ ، ٢ ، ٣ ، موسكو ، ١٩٤٩ .

- جيريكوف ي . إ .

مطالعات ي . إ . جيريكوف عن أعمال اللجنة الروسية المكلفة لتخطيط الحدود الإيرانية -
التركية « بشير الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية » ، القسم ٢٦ ، العدد ٦ ، الجزء ٥ ،
١٨٥٩ .

- جيريكوف ي . إ .

دفتر مذكرات سفر ي . إ . جيريكوف « تقارير الجمعية الجغرافية الروسية - قسم القفقاس » ،
الكتاب ٩ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٥ .

- خميتشيسكي س . ب .

يوميات ستيفان بيتروف ابن خميتشيسكي عن العمليات الحربية للأسطورة الروسي في الأرخيل
وشواطئ آسيا الصغرى في سنوات ١٧٧٠ - ١٧٧٤ ، « المعاصر » ، المجلد ٤٩ ، ١٨٥٥ .

- خيتروف .
فلسطين وسيناء ، القسم ١ ، النشرة ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٧ .
- ديميتريشكي أ. أ .
الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية الإمبراطورية ونشاطها خلال الربع قرن المنصرم (١٨٨٢ -
١٩٠٧) ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٧ .
- (.....) .
رحلة إلى الأماكن المقدسة في سنة ١٨٣٠ ، القسم ١ و ٢ ، الطبعة ٣ ، سانت بيترسبورغ ،
١٨٣٥ .
- (.....) .
عن الرحلة إلى شامانشاهية إيران ، ومن إيران إلى أرض تركيا ، وإلى الهند ، وإلى هرمز حيث
تحل فيه السفن ، مجلة جمعية التاريخ والتاريخ القديم الروسي في موسكو ، الكتاب (١٥) ،
موسكو ، ١٨٥٢ ، إعداد النصوص والمقدمة : إ . د . بيلبايف .
- (.....) .
رسائل تساريغراد عن الترك القدامى والمعاصرين ، ووضع قواتهم ، وعن تساريغراد وجميع
ضواحيها ، سانت بيترسبورغ ، ١٧٨٩ .
- روزين ف . ر .
الأمبراطور فاسيلي بولغاروبونسا ، مقتطفات من مؤلفات يحيى الانطاكي ، سانت
بيترسبورغ ، ١٨٨٣ .
- زايلين
رحلة السفراء إلى تركيا في القرن السابع عشر ، نشرة « عهود الروس القديمة » ، ١٨٧٧ أيلول .
- زابود سكايا م . ب .
الرحالة الروس في أفريقيا ، موسكو ، ١٩٥٥ .
- ساخاروف إ .
قصص وأساطير الشعب الروسي « رحلة ستيفان النوفكوردوي » . الكتاب ٨ ، المجلد ٢ ،
سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٩ .
- ساخاروف إ .

قصص وأساطير الشعب الروسي « رحلة الشماس الإنجيلي ! يگناتى إلى تساريكراد ومدينة القدس » الكتاب ٨ ، المجلد ٦ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٩ .

- سائيليفن . س .

تقديرات عن تأسيس الأكاديمية الشرقية في سانت بيترسبورغ في سنتي ١٧٣٣ و ١٨١٠ ، مجلة وزارة المعارف الوطنية ، القسم ٣٩ ، سنة ١٨٥٦ شباط .

- ستروئي . ف . ي .

التحديد الفلكي في تركيا الأوروبية ، وآسيا الصغرى ، والقفقاس والملاحظات الفلكية التي توصل إليها ضابط الأركان العامة من سنة ١٨٢٨ حتى سنة ١٨٣٢ « ونشرة المقر الحربي - التوبوغرافي » ، القسم ٢١ ، الفصل ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٠ .

- ستينيسكي . إ .

بيتر اليكساندروفيش جيخاجيف ، أخبار الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية ، المجلد ٢٧ ، النشرة ١ ، ١٨٩١ .

- (.....)

السجن والآلام التي عاناها الروس لدى الترك ، أو وصف مفصل للمخاطر التي تعرض لها الروس في تساريكراد على أثر إعلان الحرب ، فكانت حياتهم تعسة ، مع سرد المذكرات اليومية عن القوات المسلحة وعملياتها في الحرب الماضية ، وكثير من الأحداث الأخرى الغريبة النادرة العجيبة ، سانت بيترسبورغ ، ١٧٩٠ .

- سريوزنيشكي . إ .

معالم معرفة أبناء الشعب الروسي القديمة بآسيا الوسطى ، ترجمة أ . ك . كاظم بك عن العربية « بشير الجمعية الجغرافية الروسية » ، القسم ١٠ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٤ (مقتطفات مترجمة من المسالك والممالك لابن خردادبه) .

- سريوزنيشكي . إ .

رواية عن تساريكراد « مطالعات الأكاديمي سريوزنيشكي » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٥ .

- سفينسكي . ك .

عرض للرحلات الكبرى والاكتشافات الجغرافية خلال السنوات العشر من ١٨٢٨ حتى

١٨٤٨ ، بشير الجمعية الجغرافية للأمبراطورية الروسية لسنة ١٨٥١ ، القسم ١ ، الكتاب ١ ،
الفرع ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥١ .

- سفينكسي ك .

عرض لأهم الرحلات والاكتشافات الجغرافية في الخمس سنوات من ١٨٤٨ حتى ١٨٥٣ ،
المجلد ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٥٥ .

- سميرنوف ك . ن .

رحلة في كردستان الشمالية في سنة ١٩٠٤ ، أخبار الجمعية الجغرافية للأمبراطورية الروسية -
قسم القفقاس ، المجلد ١٧ ، العدد ٤ ، ١٩٠٤ .

- سميرنوف ن . أ .

روسيا وتركيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، المجلد ١ ، موسكو ، ١٩٤٦ .

- سميشلياييف د .

من مذكرات سفر المختص بمنطقة بيرمكي ، « نشرات للمطالعة » ، الملحق الشهري
لـ (إدارات البورصة » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٧ ، شباط ، آذار .

- سيميونوف ب . ب .

تاريخ نشاط الجمعية الجغرافية للأمبراطورية الروسية خلال نصف قرن ١٨٤٥ - ١٨٩٥ ،
المجلد ١ ، ٢ ، ٣ ، سانت بيترسبورغ ١٨٩٦ .

- سينكوفسكي

مجموعة مؤلفات سينكوفسكي (البارون برامبيوس) ، المجلد ١ ، سانت بيترسبورغ ،
١٨٥٨ . شتيلمارك ر . أ .

رواية عن الروسي المتجول ، كلمة الختام بقلم الأكاديمي ن . إ . كونراد ، موسكو ، ١٩٦٢ .

- شوقالوف م . ب .

مقالة نقدية عن سيرة ونشاط المستشرق كير ، مجموعة الأرشيف العام في موسكو التابع لوزارة
الشؤون الخارجية ، النشرة ٥ ، موسكو ، ١٨٩٣ .

- (.....)

الصفوف الخاصة في معهد لازاريف للغة الشرقية في عمرها الثلاثين ، موسكو ، ١٩٠٣ .

- (.....)

عرض تاريخي لنشاط الشعبة الحربية - التوبوغرافية (١٨٢٢ - ١٨٧٢) ، سانت بيترسبورغ ،
١٨٧٢ ، القائمة رقم ١ .

- (.....)

عرض للرحلة التي استغرقت ثلاث سنوات إلى الشرق قام بها الماجستير ويليام ديتيل ، مجلة
وزارة المعارف الوطنية ، القسم ٥٦ ، الفصل ٤ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٧ .

- فاسيليشكي ف . ك .

دراسات روسية - بيزنطية ، المجلد ١ ، ٢ ، ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩١٥ .

- فورونتسوف .

أرشيف الأمير فورونتسوف ، الكتاب ٨ ، ١٨٧٦ ، الكتاب ٩ ، ١٨٧٩ ، الكتاب ١٨ ،
١٨٧٩ ، موسكو .

- فينيشكي ف . ف .

١ . ١ . نيسلوييف مؤسس أورينبورك وباني منطقة أورنبورك ، قازان ، ١٨٩١ .

- فيسيلوفسكي ن . ١ .

معلومات عن تدريس اللغات الشرقية في روسيا بصورة رسمية ، سانت بيترسبورغ ،
١٨٧٩ .

- فينكيروف س . أ .

مصادر معجم الكتاب الروسي ، المجلد ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٠ .

- فينكيروف س . أ .

المعجم الانتقادي لسيرة الأدباء والعلماء الروس ، المجلد ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩١ ،
المجلد ٣ ، ١٨٩٢ .

- فينيوكوف م . ١ .

بعض القضايا عن الجغرافيا الطبيعية لتركيا « أخبار الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية » ،
المجلد ١٠ ، العدد ٦ ، ١٨٧٤ .

- فينيوكوف م . ١ .

من الطريق إلى تركيا « المجموعة الحربية » ، العدد ٨ ، ١٨٧٤ .

- كارامزين ن. م .
تاريخ الدولة الروسية ، سانت بيترسبورغ ، المجلد ١ ، ١٨١٧ ، المجلد ٦ ، ١٨١٧ ،
المجلد ٩ ، ١٨٢١ .
- كراچكوفسكايا ف. أ (قرينة كراچكوفسكي)
- إ. ي. كراچكوفسكي في لبنان وفلسطين ، المجموعة الفلسطينية ، النشرة ١ (٦٣) ، ١٩٥٤ .
- كراچكوفسكي إ. ي .
ف. ف. جيركاس - بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته « مذكرات لجنة المستشرقين » ، المجلد
٣ ، النشرة ١ ، لينينغراد ، ١٩٢٨ .
- كراچكوفسكي إ. ي .
عضو أكاديمية العلوم في جمهورية أوكرانيا الاشتراكية السوفياتية أ. ي. كريمسكي (الذكرى
السبعون لميلاده) ، « أخبار أكاديمية العلوم السوفياتية » ، قسم اللغة والأدب ، العدد ٣ ،
١٩٤١ .
- كراچكوفسكي إ. ي .
مواد ومصادر لسير العلماء في الاتحاد السوفياتي ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٩ .
- كراچكوفسكي إ. ي .
مقالات في تاريخ الاستعراب الروسي ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٥٠ .
- كراچكوفسكي إ. ي .
منتخب المؤلفات ، المجلد ٤ ، المقدمة بقلم م. ل. تسيريتيلي ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٥٧ ،
المجلد ٥ ، ١٩٥٨ .
- كراچكوفسكي إ. ي .
مع المخطوطات العربية ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٥ (نشرت الترجمة العربية للكتاب بمقدمة
كتبها أرملته فيرا كراچكوفسكايا في موسكو وهي مؤرخة في ١٩٦٣) .
- كراسنوكوتسكي أ. ك .
المذكرات اليومية لاليكساندر كريسغوريثيخ كراسنوكوتسكي في رحلته إلى القسطنطينية في
سنة ١٨٠٨ كتبت من قبله ، موسكو ، ١٨١٥ .
- كريلو ف. ك .
العلاقات الروسية - التركية في أيام الحرب الشمالية ، « المدونات التاريخية » ، الرقم ١٠ ،

١٩٤١

- كوتلياريشسكي إ. ب .
مذكرات إ. ب . كوتلياريشسكي عن العمليات الأولى للقوات الروسية في الحرب التركية سنة
١٨٠٦ ، « آثار كييف » ، المجلد ٧١ ، كييف ، ١٩٠٠ .
- كوتوزوف م. إ. .
وثائق م. إ. . كوتوزوف ، إعداد : ل . ك . بيسكروئي ، المجلد ١ ، موسكو ، ١٩٥٠ .
- كوستين م. أو .
من تاريخ الانتوغرافيا الروسية القديمة « الانتوغرافيا السوفياتية » ، العدد ٤ ، ١٩٥٢ .
- كوستين م. أو .
أول روسي مختص في الدراسات الإفريقية م . ك . كوكوشسوف « الاستشراق السوفياتي » ،
العدد ٢ ، ١٩٥٦ ، موسكو .
- كوفاليفسكي
صحراء النوبة الكبرى ، « المعاصر » ، العدد ١٢ ، ١٨٤٨ .
- كوليباكين أ. م .
نشاط البعثات التبشيرية البروتستانتية في المنطقة الشمالية الشرقية في تركيا الآسيوية ، تفليس ،
١٨٨٨ .
- كوكيباكين أ. م .
مواد للاستعراض الحربي الإحصائي لتركيا الآسيوية ، المجلد ٣ ، القسم ١ ، الفصل ٢ ،
تفليس ، ١٨٩١ .
- كريكوف ب. د .
ثقافة روسيا الكييفية ، موسكو ، ١٩٤٤ .
- كريكوريث ف. ف .
جامعة سانت بيترسبورغ الإمبراطورية خلال الخمسين سنة الأولى من عمرها ، سانت
بيترسبورغ ، ١٨٧٠ .
- كليلنوتيسكي ن. ب .
تاريخ الأركان العامة الروسية ، القسم ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٣ .

- گوگول ن . ف .
مؤلفات ورسائل ن . ف . گوگول ، المجلد ٦ ، سانت پیتربورغ ، ١٨٥٧ ،
لازاريف ف .
ن . ب . کونداکوف ، موسكو ، ١٩٢٥ .
- (.....)
مقالات في تاريخ الاتحاد السوفياتي في المرحلة الاقطاعية . روسيا في الربع الأول من القرن
التاسع عشر . إصلاحات بطرس الأول ، موسكو ، ١٩٥٤ .
- (.....)
مقالات في التاريخ الروسي في القرنين الثامن عشر - التاسع عشر ، سانت پیتربورغ ،
١٩١٠ .
- (.....)
مقالات في تاريخ الاستشراق الروسي ، موسكو ، المجموعة ٢ ، ١٩٥٦ ، المجموعة ٤ ،
١٩٥٩ .
- (.....)
مقالة تاريخية عن نشاط الفرقة الحربية التوبوغرافية في فترة السنوات العشرين الأولى ١٨٥٥ -
١٨٨٠ ، سانت پیتربورغ ، ١٨٨٠ .
- لودشوفيتس ي .
مقدمة منتخب مؤلفات ف . أ . گوردليفسكي ، المجلد ٣ ، موسكو ، ١٩٦٢
لياسكوفسكي أو .
ك . ب . بريولوف ، موسكو ، ١٩٤٠ .
- ليبيديف د . م .
الجغرافيا في روسيا في القرن السابع عشر ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٩ .
- ليبيديف د . م .
الجغرافيا في روسيا في عهد بطرس ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٥٠ .
- لينين ف . إ .
مجموعة الأعمال الكاملة ، المجلد ١ .

- مارن . - أوربيلي ي .
البعثة الأثرية لسنة ١٩١٦ في وان ، بيتروغراد ، ١٩٢٢ .
- ماركس ك .
التاريخ السري للدبلوماسية في القرن الثامن عشر ، لندن ، ١٨٩٩ .
- ماشكوفتسيف ن . ك .
ك . ب . بريولوف ، موسكو ، ١٩٥٢ .
- ماكاري
تاريخ الكنيسة الروسية لرئيس أساقفة خاركويف ماكاري ، المجلد ٣ ، سانت بيترسبورغ ،
١٨٦٨ .
- مكاروف س . أو .
الأعمال الأوكيانوغرافية ، موسكو ، ١٩٥٠ .
- مايكوف ل .
مصادر ومراجعات في الأدب الروسي القديم ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٠ .
- مايرم . س .
إنفاضة (قيام) سواد الناس المدنيين في استانبول ، مجلة « شعوب آسيا وأفريقيا » ، العدد ٤ ،
١٩٦٣ .
- (.....)
مذكرات يومية لبعض الأحداث التي وقعت خلال الحرب مع تركيا منذ يوم إعلانها وحتى سنة
١٧٧٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٧٩٠ .
- (.....)
مذكرات يومية لرحلة في الأرخييل الروسي التابع لجزيرة باروس إلى سوريا والأماكن التي
تستحق الاحترام الواقعة في حدود أورشليم (القدس) مع تاريخ موجز لمعارك ألبينيف ، سانت
بيترسبورغ ، ١٧٧٣ .
- موجانوف أ . ي .
قيام باترون خليل في استانبول في سنة ١٧٣٠ (رسالة الدراسات العليا) .

- مينورسكي ف. ف .
الأكراد - ملاحظات وانطباعات ، بيتروغراد ، ١٩١٥ (قام مترجم هذا الكتاب بترجمة كتاب
مينورسكي هذا إلى اللغة العربية ونشره في سنة ١٩٦٨ في بغداد) .

- مينورسكي ف. ف .
الحدود التركية - الإيرانية « مواد ومصادر لدراسة الشرق » ، بيتروغراد ، ١٩١٥ .

- مينورسكي ف. ف .
تاريخ شيروان ودر بند في القرنين العاشر ، الحادي عشر الميلاديين ، موسكو ، ١٩٦٣ .

- نوروف أ. س .
دراسة عن أتلاتيد « التقارير العلمية للقسم الثاني في أكاديمية العلوم الامبراطورية » ، سانت
بيترسبورغ ، ١٨٥٤ ، الكتاب ١ .

- نيكيتين أ .
مسيرة في ما وراء البحار الثلاثة ، موسكو ، لينينغراد ، ١٩٤٨ .

- نيكيتين ن . ب .
الاقتصاد الجغرافي الوطني في القرن الثامن عشر - القرن التاسع عشر ، موسكو ، ١٩٥٧ .

- نيكيتينو أ. ف .
ميخائيل بافلوفيتش فزونجينكو - سيرة حياته ، مجلة وزارة المعارف الوطنية ، تشرين الأول ،
١٨٦٧ .

- نيكليودوف أ .
بداية العلاقات بين روسيا وتركيا . سفير يوآن الثالث بليشيف ، مجموعة الأرشيف الرئيسي
لوزارة الشؤون الخارجية ، النشرة ٣ ، موسكو ، ١٨٨٣ .

(.....) -

وصف موجز للأوضاع القديمة والجديدة للموانئ العثمانية ، موسكو ، ١٨٢٨ .

(.....) -

وصف الأرخبيل والشاطيء البربري : وضع الجزر ، والمدن ، والقلاع ، والموانئ ،
والمرافئ ، والملاجئ ، والصخور التي تحت الماء ، وعدد السكان ، والأديان والعقائد ،
والعادات والتقاليد ، والتاريخ القديم ، وملحق يضم ثلاثة تصاميم ، سانت بيترسبورغ ،

(.....) -

- وصف حربي - تووغرافي للطرق من شوملا حتى براقودا ، ومن براقودا خلال آيدوس حتى بورغاس ، ومن بورغاس حتى فاكا ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٢٧ .
- يوزباشيان ك . ن
- الاكاديمي يوسف أبكارو وثبح أوربيلي ، موسكو ، ١٩٦٤ .

المراجع والمصادر العامة

- تقويم السنة الكبيسة ١٨٣٦ ، سانت بيترسبورغ .
- دائرة المعارف التاريخي السوفياتية ، المجلد ٤ ، موسكو ، ١٩٦٣ .
- دليل جميع المطبوعات الدورية لجمعية التاريخ والتاريخ القديم للإمبراطورية الروسية التابعة لجامعة موسكو (عن ٦٨ سنة : ١٨١٥ - ١٨٨٣) ، موسكو ، ١٨٨٣ .
- القاموس الديبلوماسي ، المجلد ٢ ، موسكو ، ١٩٥٠ .
- مجموعة التقارير الفصلية ، النشرة ١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٦ .
- المحاضر السنوية في جامعة سانت بيترسبورغ الإمبراطورية لما قبل ٨ شباط سنة ١٨٤٧ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٧ .
- مذكرات جماعة المستشرقين التابعة للمتحف الآسيوي في أكاديمية العلوم الروسية ، المجلد ١ ، لينينغراد ، ١٩٢٥ .
- المعجم التاريخي للكتاب الذين كانوا يحملون الألقاب الدينية في روسيا قديماً ، سانت بيترسبورغ ، ١٨١٨ .
- المعجم الجغرافي الروسي ، سانت بيترسبورغ .
- المعجم الجغرافي الكامل ، وهو على حروف الهجاء ، ويتضمن وصفاً مفصلاً شاملاً لجميع أنحاء العالم ، وضعه كارل هينريك لانغير ، موسكو ، ١٧٩١ .
- المعجم الروسي لسير الأشخاص ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٨ .

- المعجم الروسي للسير (المجلد جاداييف - شقيتكوف) ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٥ .
- المعجم الانسيكلوبيدي للاستعلام ، إعداد أ. ف. ستارجيشسكي ، المجلد ١٢ ، طبعة ك . كراي ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٧ .
- الموسوعة التاريخية السوفياتية ، المذاهب الإسلامية ، المجلد ٥ ، موسكو ، ١٩٥٧ .

الدوريات (الصحف ، والمجلات ، والنشرات ...)

- ١ - منشورات جمعية فلسطين الأرثوذكسية الأبراطورية .
 - (أ) وصف الأبراطورية التركية ألفه الروسي الذي وقع في أسر الترك في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، إعداد : پ . أ . سيركو ، المجلد ١٠ ، النشرة ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٠ .
 - (ب) النشرة ٣٦ ، المجلد ١٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩١ .
 - (ج) النشرة ١٤ ، القسم ٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٣ .
- ٢ - المجموعة الكاملة للمدونات الروسية .
 - (أ) حكايات السنين المنقضية ، المجلد ١ ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٥٠ .
 - (ب) البعث والنشر ، المجلد ٨ .
 - (ج) المدونة النوفكوردية الرابعة ، المجلد ٤ .
 - (د) مدونة صوفيا الثانية ، المجلد ٦ .
 - (هـ) المدونة النوفكوردية الثالثة ، المجلد ٣ .
 - (و) المدونة النوفكوردية الثانية ، المجلد ٣ .
- ٣ - مجلة وزارة المعارف الوطنية .
 - (أ) القسم ١٣٨ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٨ نيسان .
 - (ب) القسم ٢٧٢ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٠ كانون الأول .
 - (ج) الكلية الشرقية في جامعة القديس يوسف في بيروت ، ١٩١٠ شباط .
- ٤ - منشورات الجمعية الجغرافية للأبراطورية الروسية .
 - (أ) « الأخبار الجغرافية » ، النشرة ٤ ، ١٨٤٨ ، النشرة ١ ، ١٨٤٩ ، النشرة ٢ ، ١٨٥٠ .
 - (ب) « بشير الجمعية الجغرافية » ، القسم ٣ ، الفصل ٧ ، ١٨٥١ ، القسم ١ ، الكتاب ١ ، الفصل ٣ ، ١٨٥١ .

- (ح) تقرير الجمعية لسنة ١٨٧١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٢ .
- (د) نشرة الجمعية - قسم القفقاس ، المجلد ١ ، تفليس ١٨٧٢ و ١٨٧٣ .
- (هـ) أخبار الجمعية - قسم القفقاس ، المجلد ١٠ ، العدد ٦ ، ١٨٧٤ ؛ المجلد ٥ ، النشرة ٣ ، تفليس ، ١٨٧٧ - ١٨٧٨ ؛ المجلد ٩ ، موسكو ، ١٨٨٥ .
- (و) الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية في عمرها الخامس والعشرين ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٢ .
- ٥ - « كشوف موسكو » ، العدد ٨ ، ١٨٤٦ ؛ ١٩ آب ١٨٦٩ ؛ النشرة ١ - ٢ ، موسكو ، ١٩٠٣ - ١٩٠٦ .
- ٦ - « كشوف سانت بيترسبورغ » ، العدد ١٤٦ ، ١٩٠٩ ، ٣ تموز .
- ٧ - « البشير الروسي » الكتاب ٢ شباط ، الكتاب ١ آذار ، ١٨٦٠ ؛ العدد ٥ ، ١٨٦٧ ؛ العدد ٧ ، ١٨٦٧ ؛ المجلد ٧١ ، العدد ٩ ، ١٨٦٧ .
- ٨ - « المكتبة الروسية القديمة » ، المجلد ١٢ ، الطبعة ٢ ، موسكو ، ١٧٩١ .
- ٩ - « مكتبة للمطالعة » ، المجلد ٩٥ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٩ ميس وحزيران ؛ المجلد ١٠٢ ، ١٨٥٠ تموز .
- ١٠ - « المكتبة الروسية للمصور » ، المجلد ٥ ، العدد ١٥ ، ١٨٥٩ .
- ١١ - منشورات الجمعية التاريخية ، الكتاب ٣ ، موسكو ، ١٨٧٧ ؛ الكتاب ١ ، ١٨٨٤ كانون الثاني وآذار ، القسم ٢ ؛ الكتاب ١ ، ١٨٩١ ؛ الكتاب ٢ ، ١٨٩٤ ؛ المجلد ٩٥ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٩٥ ؛ المجلد ٤١ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٨٤ .
- ١٢ - مجلة وزارة الشؤون الداخلية ، سانت بيترسبورغ ، القسم ١٨ ، ١٨٤٧ ؛ القسم ١٩ ، ١٨٤٧ ؛ القسم ٢٠ ، ١٨٤٧ ؛ القسم ٢٤ ، ١٨٤٨ .
- ١٣ - مجلة الجمعية الأثرية للإمبراطورية الروسية - القسم الشرقي ، المجلد ١٨ ، النشرة ٤ ، سانت بيترسبورغ ، ١٩٠٧ - ١٩٠٨ .
- ١٤ - « المجلة العسكرية » ، العدد ١ ، ١٨٥٠ .
- ١٥ - نشرات المركز الحربي - التوبوغرافي ، القسم ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٣٨ ، القسم ٥ ، ١٨٤٠ ؛ النشرة ٢ ، ١٨٦٨ .
- ١٦ - « أخبار اللجنة الجيولوجية » ، المجلد ٥ ، العدد ٩ - ١٠ ، ١٨٨٦ (قائمة بأسماء أعمال ك . ف . أبيخ .
- ١٧ - « منار المعارف والثقافة الحديثة » ، القسم ٥ ، الفصل ٣ ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٤٠ .
- ١٨ - « المذكرات الوطنية » ، المجلد ٦٢ ، العدد ، ١٨٤٩ .

- ١٩ - « المجموعة الطبية » ، تصدرها الجمعية الطبية الإمبراطورية في القفقاس ، العدد ٢٨ ،
تفليس ١٨٧٨ .
- ٢٠ - الملحق العلمي والأدبي لـ « إدارات البورصة » ، سانت بيترسبورغ ، ١٨٦٦ نيسان .
- ٢١ - « عهود روسيا القديمة » سانت بيترسبورغ ، ١٨٧٨ .
- ٢٢ - « المشوه الروسي » ، العدد ١٨ ، ١٨٧٤ .
- ٢٣ - « الأزهار الشمالية » لسنة ١٨٢٦ ، طبعة جديدة ، ملحق « الأرشيف الروسي » ١٨٨١ ،
موسكو .
- ٢٤ - « المعاصر » ، المجلد ٣٩ ، القسم ٤ ، ١٨٥٣ .
- ٢٥ - مجلة « السنابل » ، العدد ٥ ، ١٨٨٥ .
- ٢٦ - « الأرشيف الروسي » ، النشرة ٢ ، ١٨٨٨ ؛ النشرة ١ - ٥ ، ١٨٦٣ .
- ٢٧ - « الأرشيف المركزي للوثائق القديمة الحكومي ، الدليل ، القسم ١ ، موسكو ، ١٩٤٦ .
- ٢٨ - « أرشيف السياسة الخارجية الروسية » ، القسم « علاقات روسيا بتركيا » ، ١٧٤٠ .
- ٢٩ - « الأرشيف التاريخي » ، المجلد ٥ ، موسكو - لينينغراد ، من منشورات أكاديمية العلوم
السوفياتية ، ١٩٥٠ .

المراجع و المصادر باللغات الأوروبية الأخرى

- (1) Annuaire Diplomatique de l'Empire de Russie pour l'année 1864, St. Peter-
bourg, 1864.
- (2) Asie Mineure, description physique, statistique et archéologique de cette
contrée par P. de Tchichatchef - Première partie: Géographie physique
comparée, Paris, 1953.
Asie Mineure. Climatologie et zoologie Deuxième partie, Paris, 1856.
Asie Mineure, Botanique I, Paris, 1866.
Asie Mineure, Botanique II, Paris, 1866.
Asie Mineure, Description physique de cette contrée par P. de Tchichat-
chef, Paléontologie. Par A. d'Archiac, P Fischer et E. de Verneuil.
Ouvrage accompagnthé d'un Atlas grand en 4°. Paris, 1866
Asie Mineure, Description physique de cette contrée par P. Tchichatchef,
Quatrième partie, Geologie I. Paris 1867; Géologie II. Paris 1869; Géolo-
gie III. Paris, 1869.
- (3) Le Bosphore et Constantinople avec perspectives des pays limitrophes,
Paris, 1864 (1866) par P. de Tchichatchef.

- (4) Comptes vendus, Paris, 1844, t. XIX.
- (5) Geognostische Schilderung des Monte Cargano in den Jahren 1839 und 1840. *Leinhard's N. Jahrbuch für Mineralogie* 1841. Coup d'œil sur la constitution géologique des provinces méridionales du Royaume de Naples. Suivi de quelques notions sur Nice et ses environs, Berlin, 1842.
- (6) En Orient Impressions et reminiscences, vol. 1-2, St. Petersburg, 1867.
- (7) Espagne. Algérie et Tunisie. Lettres à Michel Chevalier, par P. de Tchichatchef. Paris, 1880.
- (8) Lettres sur la Turquie par M.P. de Tchichatchef. Bruxelles-Paris, 1859.
- (9) Noroff, Pelerinage en terre Sainte de l'igaumene russe Daniel, 1864.
- (10) Recueil des actes de la Séance Publique de l'Académie Imperiale des Sciences de St. Petersburg tenue le 29 decembre 1834, St. Petersburg, 1835.
- (11) Reise nach Innerarabien Kurdistan und Armenien von baron Eduard Nolde, 1892. Braunschweig, 1895.
- (12) Reize zum Ararat von Dr. Freidrich Parrot, Berlin, 1834.
- (13) *Revue des deux Mondes*, 1850, tome sixième, 15 mai, 15 juin.
- (14) Toblet, *Bibliographia geographica Palestinæ*, 1867.
- (15) P.V. Tschihatschefs Reisen in Kleinen Asien und Armenien 1847-1863. Itinerare redigint und mit einer neuen construction der Karte von Klein Asien begleitet von H. Kiepert Gotha, 1867.
- (16) *La Turquie Mirés*, Paris, 1861.
- (17) Une page sur l'orient, Paris, 1868, par P. de Tchichatchef.
- (18) Voyage scientifique dans l'Altai Oriental et les parties adjacentes de la frontière de Chine, Paris, 1845, par Pierre de Tchichatchef.

فهرس الاعلام

«أ»

- أبيخ ك . ف : ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٧٩ ، ٣٦١
أدريانوڤ بيريتس ف . ب : ٤١
أدليز سكرون : ٢٠٧
أدليز بيرگن . ف : ٢٤٩ ، ٢٥٠
إدوارد / نولدي : ٣٣٨
أرابوڤ : ٩٩
أرسيني سوخانوڤ : ٥٧ ، ٥٩
أرسينيڤ | أ . أ : ١٨٥
الاسكندر المكلوني : ٥٣ ، ٩٢
اسعد رستم : ٣٥٢
أفاناسي نيكيتين : ٤٠ ، ٤١
أكيرمان : ٣٠ ، ٣٤ ، ١٥٩
أليزابث بيتر و فنا (الامبراطورة) : ١١٥
اليكسي (القيصر) : ٧٢
اليكس (المطران) : ٣٠
أكرثيبي : ٢٩ ، ٣٠
أمقروسي : ٢٤
إمين ف . أ . : ١٢٩
أنتوني : ٢٧
أندريه : ٤٥
أنوجين د . ن . : ٣٢٨ ، ٣٤٣
أوبروجيف ن . ن : ٣٠٢
أوبريسكوڤ أ . م . : ١٢ ، ١٢١ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١
أوجاكوڤ : ٧٧ ، ١٠٨ ، ١٣٠
أوزون حسن : ٤٠
أوربيلي ي . أ . : ١٢ ، ٣٥٥ - ٣٥٨

- أورتينبيرگ : ۱۷۴ ، ۱۷۳
 أورلوف أ.أ. : ۳۵۹
 اوسپينسكي او : ۲۴۹ ، ۲۴۷
 اوستافيف : ۲۶۱
 اوستريانوف ن : ۷۶ ، ۷۵ ، ۷۱
 اوشاكوف ف.ف. : ۱۴۷ ، ۱۴۶ ، ۱۱۹
 اوشاكوف ن.ن. : ۱۷۴
 اوکرا بتسييف ي.إ. : ۱۲ ، ۶۷ ، ۶۹ ، ۷۰ ، ۷۱ ، ۸۵
 اولدينبورغ س.ف. : ۲۴۲
 اولگا : ۲۷
 اوليگ : ۳۰۴
 اومانيس أ. : ۲۳۸ - ۲۳۶
 ايسوليت قشبنسكي : ۸۱
 ايشيل : ۱۸
 إيفالد إ.إ. : ۳۶۱
 ايسيدور : ۲۹
 ايسين : ۱۷۴ ، ۱۷۳
 ايشايف ش. : ۳۳۸ - ۳۳۶
 آيتازوفسكي إ.ك. : ۲۶۰ ، ۲۵۹
 ايقان الرابع : ۴۸ ، ۴۷ ، ۴۵
 ايقانوف / سيديسلاف : ۲۶
 ايقان كادمين : ۸۷
 ايقانوفسكي ن.إ. : ۵۷
 ايلون : ۳۰۰
 ايجناتيف أ. : ۸۲ ، ۸۱
 ايجناتيف سموليانى : ۱۳۰ ، ۳۳ ، ۳۱
 ايجناتيف ن.ب. : ۳۰۴
 ايجور : ۲۱

«ب»

- بابكوف إ.إ. : ۳۲۰
 بارانشيكوف : ۱۳۵ - ۱۳۳
 بارتولد ف.ف. : ۱۴۹ ، ۱۵۰ ، ۲۰۸ ، ۲۵۱ ، ۳۴۸ ، ۳۵۵ ، ۳۶۰
 بارتيف ب : ۱۸۵

- بارسكى ف. گ. : ۱۸، ۱۰۱، ۱۰۶
 بارسوڤ ن. پ. : ۸۸، ۱۰۲
 بازيلي ك. م. : ۱۹۹ - ۲۰۴، ۲۵۸، ۲۶۰، ۲۶۱
 باير / هوتليد زيگفريد : ۹۸
 بدرخان : ۲۴۰
 براتيشيف : ۹۹
 برانوف : ف. ر. : ۲۶۲
 برايولوف : ۷۱
 برونيشكوڤ ك. : ۱۶۳ - ۱۶۶، ۲۳۷
 برونيشكوي ف. : ۱۵۵، ۱۵۶
 بريولوف ك. پ. : ۱۸۸، ۱۹۰
 بليشكوراكى (بيلينكى) : ۲۸۶
 بطرس الاول (الأكبر) : ۱۱ - ۱۳، ۱۷، ۱۳، ۶۲، ۶۷، ۶۸، ۷۰، ۷۲، ۷۴، ۷۵، ۷۷، ۷۸، ۹۱ - ۹۴
 بودنارسكى م. : ۹۲
 بوريسوف ا. ا. : ۱۲۹
 بوكساوم ي. خ. : ۹۲، ۹۳
 بورلگار و بويتسا / قاسيل : ۱۹
 بولگاتوڤ ي. ا. : ۱۲، ۱۳۸، ۱۴۲
 بويدى ن. : ۱۳۸
 بيرك م. : ۲۶۲
 بيريڤين ا. ن. : ۲۳۸، ۲۴۱ - ۲۴۵، ۲۷۹
 بيركينهايم ا. م. : ۳۴۰، ۳۴۱
 بيرگ ف. ف. : ۱۶۲، ۲۴۶، ۳۶۱
 بيرگ ل. س. : ۱۹۴ - ۲۲۹
 بيرك ن. ف. : ۲۸۵
 بيساروقيچ ي. م. : ۱۶۵
 بيكر ج. : ۲۲۲
 بيكتوف د. ن. : ۳۴۳
 بيلوزيرسكايا ن. ا. : ۲۱۱، ۲۱۳
 بيلوگوروف س. : ۵۷
 بيلياييف ا. د. : ۲۴، ۳۶، ۵۱
 بيلينسكى ف. گ. : ۱۹۲، ۱۹۹

« پ »

باترون خليل : ۱۱۱، ۱۱۲

- باپتوشكوف ك. ن. : ۱۶۸
 باسكيڤيچ . ا. ف. : ۱۷۵
 باروت ف. : ۲۰۷
 باقلوف سيلقانسكى ن. ب. : ۷۳
 بالى : ۸۳ ، ۲۰
 بالين : ۱۲۹
 بروسكور ياكوف ي. س. : ۲۳۳ - ۲۳۶
 بليشيف . س. : ۱۲۷ - ۱۲۹
 بليشيف م. ا. : ۴۲ ، ۴۳
 بوسوف ن. : ۷۶ ، ۷۷
 بوتوف . ا. : ۱۸۳
 بوتياتا د. ف. : ۳۳۴ ، ۳۳۶
 بوتيمس ف. ن. : ۸۵
 بودنارسكى م. س. : ۲۰
 بورگوس : ۷۷
 برزيناكوف ف. : ۴۵ - ۴۷
 بوشكين ا. س. : ۱۶۸ ، ۱۷۹ ، ۱۸۱ - ۱۸۳ ، ۱۸۵ ، ۲۶۱
 بوگودين ب. : ۱۸
 بولوزووف ف. : ۶۶
 بولوسوخين : ۲۳۷
 بوليتانسكى ك. : ۱۰۱
 بونتوس افكسينوس : ۷۶
 بونوماريووف س. : ۱۴ ، ۱۵ ، ۳۳ ، ۸۱
 بونيتسكى : ۲۱
 بيبيفانى : ۳۳
 بيتروف ف. ا. : ۶۷
 بيترسون خ. ا. : ۱۴۱
 پيتر اندريڤيچ : ۷۵
 پيرشيس ا. ا. : ۲۳
 پيتكوفيج ك. : ۳۲۱
 پيكارسكى ب. : ۹۳
 پيجين : ۳۰ ، ۳۱
 بوتيمكن نافريجسكى (الامير) : ۱۲۱

«ت»

- تامارا ف. س. : ۱۴۶
 تريفون كورو بينيكوف : ۳۱۶، ۵۴، ۴۹، ۴۷
 ترويتسه : ۳۴
 تساكاربيلی آ. : ۳۲۸
 تسيكولين د. ا. : ۱۶۱، ۱۶۰
 تسپولسكى ف. ف. : ۲۲۲
 تسينكوفسكى ل. س. : ۳۶۱، ۲۶۹، ۲۶۸، ۲۶۳، ۲۶۲
 تورموسوف : ۵۰
 تورنيفور : ۹۳
 تولستوى پ. ا. : ۸۱، ۸۰، ۷۷-۷۲، ۱۲
 تيبيلوف ف. : ۳۱۰، ۳۰۹
 تيموميروف م. ن. : ۳۲
 تيمور اكساك : ۳۴

«ج»

- جافاخوف ا. ا. : ۳۴۸، ۳۴۷
 جورج امارتول : ۲۰
 جومستيان : ۲۳۱، ۳۵، ۲۹
 جوهان مالالا : ۲۰

«ج»

- جيخاجيف پ. ا. : ۳۶۱، ۳۰۹، ۲۴۶، ۲۲۲-۲۱۰، ۲۰۸، ۲۰۷، ۱۹۰، ۱۸۹، ۱۲
 جيخاجيف ف. پ. : ۲۱۲
 جيخاجيفا آ. ف. : ۲۱۱
 جيرنيشيشكى ن. گ. : ۲۴۵، ۲۳۰، ۲۲۹، ۲۰۶، ۱۹۳، ۱۷۹، ۱۶۹، ۱۳۸، ۱۰۳
 ۲۶۷
 جيرنيگوف : ۹۴، ۸۱، ۶۶
 جيريكوف ي. ا. : ۲۷۵، ۲۷۴، ۲۷۱-۲۶۹
 جيكاليشكى : ۹۹
 جيگيرين : ۱۰۸

«ح»

حسن بك : ٤٠، ٤١
حسن باشا كوجوك : ١٤٤

«خ»

خارکوف ماكارى : ٢٨
ابن خرداذبه : ١٨
خودزكو ل. : ٢٠٧، ٢٧٦، ٢٧٧، ٣٦١
خورشيد افندى : ٢٧٢
خير و قوف . : ٨١، ١٧٧
خيتيشكى س. ب. م. : ١٢٣ - ١٢٥.

«د»

داشكوف د. ف. : ١٦٧ - ١٦٩
داقليشين : ٣٣٨، ٣٣٩
داقيدوف ف. ب. : ١٨٨
دانيل : ١٧، ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٣٣.
داود سلام : ٣٥٢
ديتارس : ١٧٣، ١٧٤
ديتيل و. ف. : ٢٣٨ - ٢٤١
ديتري ايفانوفسكي : ٣٣
دميدوفسكى : ٢٦٧
ديوگاميل ا. او. : ١٧٥ - ١٧٧، ١٨٧، ١٨٨
دوبروفولسكى ا. د. : ٣١٥
دوبرينبا يادرييكوفسكي : ٢٦، ٢٧.
دوختوروف م. ن. : ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٣٤٥
دوروخين ف. : ٦٣
دوسيشى : ٢٨
دولگوف س. و. : ٣٩، ٥١، ٦٢

«ر»

رادده ك. ل. : ٢٩٥ - ٢٩٨، ٣٦١
رازوفسكى ا. ل. : ٩٢

رافالو فيح. ا. ا. : ١٢ ، ٢٥١ - ٢٥٧ ، ٣٦١
روبريخت ف. ا. : ٩٣
رودريك م. : ٢١٩
روديون اوسليبياتيا : ٣٣
روزين ف. ر. : ١٩ ، ٢٤٧
روميانسيكف ا. ا. : ٩١ ، ٩٣ ، ١١٠ ، ١٣٩ ، ١٤١
ريسني ن. : ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١
ريترك. : ٢٨١
ريكورد : ١٩٩

«ز»

زابيلين ا. : ٤٧ ، ٦٦
زابرود سكايا م. پ. : ٣٢٠
زاجاروف ا. د. : ٢٧٥ ، ٢٧٦
زادونايسكي ب. ا. : ١٤١
زويوف ن. ن. : ٣١٥
زوسيا : ٣٤ - ٣٦
زولوتونوشا : ١٨

«ز»

زوكوفسكي ف. ا. : ٢٦٠

«س»

ساخاروف ا. : ٢٩ ، ٣١
سافيليف ن. س. : ٩٨
سامونوف : ٤٨
سامويلو فيح. ا. ن. : ٣٥٥
سياسكي : ٢٠٧
ستارجيشسكي ا. ف. : ٢١١
ستاخيف ا. : ١٤١ ، ١٤٢
سروفي ف. ي. : ١٧٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٧
ستينيتسكي ا. ا. : ٢١٠ ، ٢٧١ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣٦١
ستيقان : ٢٨ ، ٢٩

سريوزنيشكى .إ.إ. : ١٨ ، ٢٠
 سليم (السلطان) : ٤٧ ، ١٤٣
 سليمان (الشاعر) : ٣٥٢
 سليمان باشا : ٢٢٧
 سقياتوسولك .إ. : ٢٤
 سقنين ب . ب . : ١٥٧
 سقنيسكى ك.ف. : ١٥٠ ، ٢٤١
 سميرنوف ك.ن. : ٣٣٦ ، ٣٤٧
 سميشلياييف د.د. : ٢٩١ ، ٢٩٣
 سكالكوفسكى ك. : ٣٠٥ ، ٣٠٨
 سوخانوف و.خ. : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢
 سولوفايف سروتاسييف : ٥٠
 سولوگوب ف.أ. : ٣٠٤
 سوميرنوف ف.إ. : ٩٦
 سيراسيون : ١٠٨
 سيركوب .إ. : ٦٣
 سيركليف أ. : ٧٣
 سيفيرس : ٢٩٧
 سيمور : ٢٠٧
 سيميرنوف ن.أ. : ٤٧
 سيميونوف بارزنوف : ٤٧
 سيميونوف تياشانسكى ب . ب . : ١٦٣ ، ٢٥٧ ، ٣١٢ ، ٣٢٠
 سينكوفسكى و.إ. : ١٢ ، ١٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢٧٩
 سينايفين د.ن. : ١٥٥

«ش»

شافىروف : ٨٣
 شافستين : ٣٠٢
 شوقالوف م.ب. : ٩٨
 شيلمارك ر.أ. : ١٣٥
 شيربانوف (الأمير) : ٣٤٦
 شيربانوفا (الأميرة) : ٣٤٥ ، ٣٤٦
 شيرميتيف ب . ب . : ٨٢ ، ٨٣ ، ١٦٣
 شيفيرين : ٢٦٠

شیلکوونیکوف ب. ا. : ۳۴۶ ، ۳۴۷
شیمان : ۲۰۷

«ع»

عبد الکریم رزاق (شیخ قبیلہ) : ۲۹۰
عبد المجید (السلطان) : ۲۸۵
عثمان الثانی : ۵۰
عثمان یاشا (سرعسکر) : ۱۷۶
عربی یاشا : ۳۲۴
علی زاده ا. ا. : ۳۶۰
علی سلطان : ۴۱

«ف»

فاستوف : ۷۸ ، ۸۳
فرانگیل ف. پ. : ۲۶۲
فرین خ. ب. : ۲۷۹
فیودور الیکسیئیچ : ۶۶
فیودوروف : ۲۰۷
فیودوسی (الامبراطور) : ۲۸۲

«ق»

قارسونوئی : ۳۹ ، ۴۰
قارلام : ۸۳
قاسیلی : ۳۶ - ۳۹ ، ۴۳ ، ۴۴ ، ۵۴
قاسیلی بوسلایف : ۲۳
قاسیلی دیمتریچ : ۳۴
قاسیلکوف : ۹۴
قاسیلیف ا. ا. : ۳۴۷ ، ۳۴۸
قاسیلیشکی ق. گ. : ۱۸
قالسکایا ب. ا. : ۲۶۷
قراچکو : ۲۳۷
قرونجینکوم. ب. : ۱۲ ، ۱۷۳ ، ۱۷۴ ، ۱۸۹ ، ۱۹۰ ، ۱۹۲ - ۱۹۴ ، ۱۹۶ ، ۱۹۹ ، ۲۴۶ ،
۳۶۱

- فيسولورسكى ن. س. : ٢٠٥ ، ٢٠٦
 فلاديمير اين باروسلاف : ٢١ ، ٢٣
 فورونتسوف أ. ر. : ١٤٦
 فورونتسوف س. ر. : ١٤٦
 فورونتسوف م. س. : ٢٣٦
 فوزنيسين ب. ب. : ٦٦
 فورويشيف م. ن. : ١٦٩
 فيازيمسكى ب. أ. : ١٦٨ ، ٢٦١
 فيشسكى ف. ف. : ٩١
 فيسيلوفسكى ن. إ. : ٩٩
 فيشانا : ٢١
 فيشيتاكوف أ. أ. : ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٣٩
 فيشنياكوف إ. إ. : ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٥
 فيشنياكوف ف. إ. : ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٥
 فيشيسكى : ٨١
 فيلينسكى : ١٦٩
 فينيشينيوف م. ف. : ٢٤
 فينيوكوف م. إ. : ٣٠٦ - ٣٠٨

«ك»

- كاترين الثانية : ١٤٢ ، ١٤٥
 كاسوديسترى : ٢٠٠
 كارامزين ن. م. : ١٩ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ١٢٠
 كارتسوف ي. س. : ٣٢١
 كارفاغين : ١٢٦
 كارل بيرنس : ٢٠٧
 كازبيك ك. ن. : ٣٠٠ ، ٣٠٢
 كاظم بك أ. ك. : ١٨ ، ٢٧٩
 كاليحاكي : ١٢٣
 كانجرين ف. : ٢١٣
 كراجكوفسكى إ. ي. : ١٢ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٢٧ ، ١٦٩ - ١٥١ ، ٢٦٧
 ٣٥١ - ٣٥٥ ، ٣٦٠
 كراسنوف أ. ن. : ٣٤١ ، ٣٤٣ - ٣٤٥
 كراسنوكوتسكى أ. ك. : ١٥٧ ، ١٥٨

- ۱۲ : کريلوف ا. ا.
 ۷۳ : کريلوفان ک.
 ۳۵۹ ، ۳۵۱ ، ۳۵۰ : کریمسکی ا. ی.
 ۳۴۳ - ۳۴۱ : کلینگیچ ا. ن.
 ۲۳۰ : کویتیف ا.
 ۳۰۴ : کوتسیو
 ۱۶۰ ، ۱۵۹ ، ۱۴۵ - ۱۴۳ ، ۱۳۵ : کوتوزوف م. ا.
 ۱۴۴ : کوتوزوفا ی. ا.
 ۱۵۹ : کوتلیاریشسکی ا. ب.
 ۵۱ : کوٹوف
 ۱۴۶ ، ۱۴۵ : کوچوبی ف. ب.
 ۲۴۵ : کورنیلوف
 ۴۴ : کورویوف ف. ا.
 ۴۹ : کورویبینیکوف
 ۱۲۷ ، ۱۹ : کوسفین م. و.
 ۳۰۳ - ۳۶۱ ، ۲۶۸ - ۲۶۲ ، ۲۳۸ ، ۱۲ : کوفالیشسکی ی. ب.
 ۳۲ : کولو آن ابن اندرونیک
 ۳۳۴ ، ۳۳ ، ۳۳۱ : کولیوباکیچ ا.
 ۱۲۷ - ۱۲۵ ، ۱۲ : کولوتسوف م. گ.
 ۱۵ : کونداکوف ف. ا.
 ۳۱۹ - ۳۱۵ : کونداکوف ن. ب.
 ۵۰ : کوندیریچف
 ۲۱۸ : کیمیرت
 ۳۳۱ : کیمیوس ا. ا.
 ۹۹ ، ۹۸ : کیر
 ۲۳۷ : کیسیلیچف

گالاتس

- ۳۱۱ ، ۸۴ ، ۷۸ : گالاتس
 ۲۸ : گالیسکی
 ۲۳۷ ، ۵۶ - ۵۳ ، ۵۱ : گاگارا ف. ی.
 ۲۷۵ ، ۲۷۲ - ۲۷۰ : گامازوف م. ا.
 ۲۰۷ : گانگ
 ۱۷ : گریکوف ب.

- گریگوری : ۷۹ ، ۲۸
 گریگوف ن.د. : ۴۱ ، ۱۸
 گریگوف ن.د. : ۴۱ ، ۱۸
 گریگوروفیچ - بارسکی ف. : ۳۲۹ ، ۲۳۷ ، ۱۲۱ ، ۱۲ :
 گریگوریف م. : ۴۱
 گوردلیشکی ف.ا. : ۳۵۰ - ۳۴۸ ، ۱۲ :
 گورسکی ا.ف. : ۱۸
 گولوخفاستوف ا. : ۴۴ ، ۴۳
 گولوفین ف. : ۷۵ ، ۷۳
 گولیشیف - کوتوزوف م.ا. : ۱۳۸
 گوگول ن.ف. : ۲۶۱ ، ۲۶۰ ، ۲۰۰ ، ۱۹۹ :
 گیدینوف د.د. : ۳۳۱
 گیرگاس ف.ف. : ۲۸۷
 گیناوی : ۴۵
 گیورگ یاگوف : ۹۸

«ل»

- لازاریف ف. : ۳۱۹ ، ۳۱۵
 لافرینتیشکی : ۲۱
 لامارتین : ۲۰۳
 لواریف خ.م. : ۴۵ ، ۳۴ ، ۲۷ :
 لوتسکی ف.ب. : ۱۵
 لوکیانوف : ۹۰ - ۸۳
 لومونسوف م.ف. : ۱۲۸ ، ۱۲۰ ، ۹۸ :
 لیبدیف د.م. : ۹۵ ، ۷۵ ، ۷۲ ، ۵۰ ، ۴۴ :
 لیسراندی ا.ب. : ۱۸۵ ، ۱۸۴ :
 لیتکی ف.ب. : ۲۴۶ :
 لیخفین : ۸۳
 لیخوتین م. : ۲۷۸ - ۲۷۶ :
 لیرمونتوف م.ی. : ۱۷۹ :
 لیقاشوف ب. : ۱۳۱ ، ۱۲۲ ، ۱۲۱ :
 لیتس ی.خ. : ۲۶۲ :
 لینین ف.ا. : ۵۰ :
 لیوبارسکایا ا.م. : ۳۰۲ :

- ليونارد : ٢١٦ ، ٢١٥
ليونيد : ٧٨ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٠ .
ماتروني : ١٠٨
مار ن. ي. : ٣٥٨ ، ٣٥٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٧ .
مارسيلى : ٢٠١
مناركس ك. : ٧٠ ، ٦٩ ، ٤٣ .
ماركوف ي. ل. : ٣٣٠ ، ٣٢٩ .
ماريا فيودوروفنا : ٢١١
ماكاروف س. أو. : ٣١٥ - ٣١٣ ، ٢٠١ .
ماكارى : ٧٨ - ٨٠
مالامى د. : ٢٩٩ ، ٢٩٨
ماسونوف : ٥٠
مانويل (الامبراطور) : ٣٢ ، ٣١
مانويلو فيج . ا. : ٣٤
مانويل باليولوك : ٣٤
مايكوف ل. : ٢٨
مرت الله يك : ٣٥٧ ، ٣٥٦
المروزي (الكاتب العربى) : ٣٦٠
محمد باشا (الصدر الأعظم) : ١٢٣
محمد دوحى (شيخ قبيلة) : ٢٩١
محمد على : ١٧٢ ، ١٨٥ ، ٢١٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،
٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٣٠٤
محمود الأول (السلطان) : ١١٢
محمود الثانى (السلطان) : ١٧٥
مراد الرابع (السلطان) : ٥٠
مصطفى (السلطان) : ٥٠
مصطفى الثانى (السلطان) : ٧٤
مصطفى باشا : ٣١٢
المهدى : ٣٢٤ ، ٣٢٦
مورافيف أ. ن. : ١٧٧ - ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١
مورافيف ن. ن. : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧
ميتاكسا . ا. ب. : ١٤٦ ، ١٤٧
ميتباى : ٣٠
ميخائيل روماتوف : ٥٠
ميخائيل أوغاركوف : ٤٩

ميخائيل أليكساندروفيتش : ٣٣
 ميستيسلاف فوشيج : ٢٨
 ميشيل شيقاليه : ٢٢٢
 ميشينين : ٤٨
 ميغودي : ٢٠
 ميليتي : ١٣٦ ، ١٣٥
 ميليوكوف أ. ب. : ٢٨٣
 ميندورق : ١٥٩
 مينورسكي ف. ف. : ٣٦١ ، ٣٦٠ ، ٣٥٨

«ن»

نابوليون : ١٦٠
 ناخيموف : ٣٠٥
 ناشوكين : ٤٨
 نالليتوك. أ. : ٣٥٤
 نوتاكوف : ٣٠٤
 نوروف أ. س. : ١٧ ، ١٠٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ - ٢٣١ ، ٣٦١
 نوفوسيلتسوف : ٤٧
 نوفيكوف ن. إ. : ١٢٠ ، ١٢٧
 نوفيكوف م. ل. : ١٥١
 نوفيكوف (١) : ١٥٣
 نوفيكوف (٢) : ٢٧٦
 نيبوليف إ. إ. : ١٢ ، ٩١ ، ١٠٩ ، ١١٠ - ١١٢
 نيبوليف أ. إ. : ٩١ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٨ - ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٣٩
 نيجاييف م. ك. : ٨٨ - ٩١
 نيستور أسكندر : ٣٦ ، ٣٧
 نيكوديم : ٩٤ ، ٩٥
 نيكولاي الأول : ٢٥٥
 نيكولسكي م. : ٣٤٠
 نيكلودوف : ٤٢
 نيكولاي كافريلوفيتش : ٢٢٩

«و»

وليد عل (شيخ قبيلة) : ٢٨٥

«هـ»

هومبولدت أ. : ٢٦٤ ، ٢٨١

«ی»

یاکووف : ٤٥

یحیی الانطاکی : ١٩

یفرینوف ی. م. : ١١٤

یوان (الامبراطور) : ٣٢

یوان الثالث پلیشیف : ٤٢

یوان لویانووف : ٨٣

یوری گریک : ٤٧

یوسفوف (الأمیر) : ١١٥

یوسیلیانی ب. أ. : ٣٢٨

یونا (مالینکی) : ٦٢

یونکر ف. ف. : ٣١٩ ، ٣٢٠

یقیموف د. ی. : ٢٣١ - ٢٣٣

یقیموف ن. ی. : ١٨٨

یلسیف أ. ف. : ١٢ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ - ٣٢٨ ، ٣٦١

یینینگر ل. ر. : ٣١٣

فهرس الأسماء الجغرافية

«أ»

- آثينا : ١٠٢ ، ١٧٩ ، ٢٤٩ .
 آارات (آكسى داغ) : ٥١ ، ٥٣ ، ٦٢ ، ٢٠٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٩٧ ، ٢٨٠ .
 آراس (آراكس) : ٦٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ .
 آرت : ١٠٢ .
 آرفقن : ٢٨٠ .
 آزوف : ٣١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٩٨ .
 آسيا الصغرى : ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٩ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ٩٣ ،
 ٩٥ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٩ ،
 ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ .
 آش قلا : ٢٨٠
 آق داغ : ١٨٢
 آق دريا : ٣٣١
 آق شهر : ٣٧
 آق - كيسار : ١٧٩ ، ٢٢٨
 آلا شهر : ٢٢٨
 آلاكز : ٢٩٧
 آيدن : ٢١٨
 آبوقير : ٦٣ ، ٦٠
 آتاليا : ٢٢٨
 الاتحاد السوفياتى : ٤٢ ، ٢٠٨ ، ٣٦٠
 آتقن : ٢٣٤
 آخالنسخ : ١٧٤ ، ٢٩٥
 آداليا : ٨٠
 آدجاريا : ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ .

- أدریانوپول (أدرنه): ٥٦، ٦٣، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٨٩، ١٢٢، ١٤٤، ١٥٧، ١٦٢، ١٧٧، ١٧٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٢.
- أدنه: ٣٧، ١٩٢، ٢١٥، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣١٢، ٣٣٥.
- أوبيل: ٢٤٤
- أرباجاي: ٦٢
- أرتقين: ٣٠١، ٣٠٢
- أردانوج: ٣٠٠، ٣٠١
- أردبيل: ٥١، ٢٤١
- أردوس: ١٨١
- أردهان: ٥٣، ٢٩٦، ٣١١
- أرجيس: ٣١١.
- الأرخبيل (اليوناني): ١٢، ٢٥، ٦٣، ٦٧، ٩٢، ١١٧، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٦، ١٥٥، ١٥٧، ٢٠٠، ٢٥٩، ٣٢٩.
- أرزنجان: ٤١، ١٧٦، ٢٨٠، ٢٩٩، ٣٣١، ٣٣٥.
- أرضروم: ٤١، ٥٣، ٦١، ٦٢، ٩١، ١١٦، ١٧٤، ١٧٦، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٦٩، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣١١، ٣٣١، ٣٣٥، ٣٣٨، ٣٥٦.
- أرمينيا: ١٧ - ١٩، ٩٢، ٩٣، ٢٠٨، ٢١٤، ٢١٨، ٢٧٩ - ٢٨٢، ٢٨٩، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٣١.
- أرميا: ٣٥٣، ٣١٧.
- أريفان (راقان، پريفان): ٥١، ٥٣، ١١٣، ١٧٨، ١٩٦.
- أرين (خيرين): ٣٣٦
- أريول: ٨٣.
- أزمد: ٢١٨.
- إزمير (سميرنا): ٦٣، ٧٥، ١١٥ - ١١٧، ١٠٨، ١٤٧، ١٧٩، ١٨٩، ١٩٢، ٢٠٠، ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٧، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦١، ٢٩٤، ٣٠٧، ٣٣٦.
- إسبانيا: ٣٠٥
- أستراخان: ٤٧، ٩٢، ٢٣٦، ٢٣٩.
- أستراقيا: ٣٢.
- الاسكندونه: ١٠٦، ١١٦، ١١٨، ٢٥٦، ٢٨٩، ٣٠٧، ٣٢٦، ٣٣١.
- الاسكندرية: ٤٥، ٤٧، ٥٣، ٦٠، ٦٣، ٧٩، ٨٠، ٨٧، ١٠٤، ١٠٦، ١٤٧، ١٧٠، ١٧٨، ١٨٦، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٨٨، ٢٩٣، ٣٠٤، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٣٠، ٣٥٣.
- أسكودار: ٣٥، ٦٦، ١٤٤، ١٧٦، ٢١٨، ٣٠٧.
- الاسماعيلية: ٣٠٤

- إسميد: ٣٠٧
 اسوان: ٣٢٤، ٢٦٣، ١٨٨
 أسيوط: ٣٢٦، ٣٢٢
 اصفهان: ٢٧٠
 اطلانتيس: ٢٢٩، ٢٢٨
 إقيس: ٢٥
 أكيرده: ١٩٨
 ألبانيا: ١٤٧
 ألتاي: ٢٤٦، ٢١٣، ٢٠٨، ١٩٠
 ألمانيا: ٢٨٠، ٢٢٣، ٢١٣، ١٢٩، ١١٥، ١٠٥
 ألبوينا: ٢٤٤
 ألتوندا: ٣٥٩
 اليكساندروبول: ٢٨٠، ٢٧٧
 أماسرا: ٦٦
 أماستريد: ١٨
 أماسيا: ٢٦٩، ٢١٨، ١٧٦، ٦٣، ٤١، ٣٨، ٣٧
 أمبيلوس: ١٥٥
 أمستردام: ٣٠٦
 أم درمان: ٣٢٧، ٣٢٦
 أميدونيا: ٥٣
 الأناضول: ٣٣٨، ٣٠٩، ٣٠٨، ٢٣٥، ١٢٤، ٩٢، ٦٦، ٥٧
 أنتاليا: ٢١٨
 أنطاكيا: ٢٥٨، ٢٥٣، ٢٤٥، ١٠١، ٩٢، ٣٧، ٣٠
 أنغورا: ٣٠٩، ١١٨-١١٦
 أنقرة: ٢١٨، ٦٣، ٥٦، ٥٣، ٣٤، ٣٣
 انكلتره: ٣٦٠، ٣٤٦، ٣٠٧، ٢٦٩، ٢٣٤، ٢٢٢، ١٦٢، ١٦٠، ١٤٣، ١١٧، ١٠٥
 أوثيل: ٣٢٠
 أوديسا: ٣٠٥، ٣٠٤، ٢٥١، ٢٣٧، ١٦٤، ١٥١، ١٨
 أورال: ٢٩٣، ٢٦٢، ١٦٣
 أورفه: ٢٩١، ٢٩٠، ٢٨٩، ٢٤٥، ٢٣٩، ٥٣
 أوزوكيت: ٢٩٧
 أوغنده: ٣٢٠
 أوكرانيا: ١٢٢، ١١٩، ١١٤، ١٠٥، ٨٣
 أولتا: ٣١١، ٢٣٤
 أولب: ٢٨٦، ٢٠٦، ٩٣

ایران (فارس): ۵۱، ۶۷، ۶۹، ۹۱، ۹۲، ۱۱۵، ۱۱۶، ۱۶۰، ۱۷۵، ۱۸۶، ۲۱۸، ۲۳۴، ۲۳۶، ۲۳۹، ۲۴۱، ۲۴۶، ۲۶۹، ۲۷۱، ۲۷۵، ۲۷۷، ۲۸۹، ۳۱۲، ۳۳۲، ۳۳۳، ۳۵۹، ۳۶۰.

ایریکلی: ۳۷، ۷۶

ایساکجه: ۱۶۲، ۱۶۳

ایسنیک: ۱۷۶

ایفیس: ۱۰۲

ایطالیا: ۷۲، ۱۰۱، ۱۸۹، ۲۱۲، ۲۲۳، ۲۳۱، ۳۱۹، ۳۲۹

ایگین: ۳۳۱

اینجه سو: ۱۸۱

ایون: ۱۸، ۲۸، ۳۴، ۳۵، ۴۴، ۴۵، ۴۸، ۴۹، ۵۷، ۸۱، ۱۰۱، ۱۰۲، ۱۳۰، ۱۶۳، ۱۶۶، ۱۷۹، ۱۸۰، ۱۸۹، ۳۱۵، ۳۲۸

«ب»

باباداغ: ۱۵۹، ۱۶۲، ۱۶۳

بابل: ۱۹، ۲۰، ۱۱۶، ۲۴۳، ۲۷۰، ۲۷۱، ۲۷۴

باردو: ۱۲۶

باطوم: ۲۳۴، ۲۸۰، ۳۰۸، ۳۱۱، ۳۲۶، ۳۵۶

بالیکیسیر: ۱۷۹

بایورت: ۱۷۶، ۲۳۵، ۲۸۰، ۳۳۸، ۳۵۶

بایزید: ۱۷۴، ۲۷۸، ۲۹۹، ۳۱۱، ۳۳۶

بتلیس: ۶۳، ۳۲۱، ۳۳۱، ۳۳۵، ۳۳۶، ۳۳۸

البحر الأبيض المتوسط (البحر الرومی): ۱۸، ۱۹، ۲۱، ۲۴، ۵۷، ۵۹، ۶۰، ۶۳، ۷۱

۸۹، ۱۱۵، ۱۳۰، ۱۴۰، ۱۵۵، ۱۵۶، ۲۱۸، ۲۲۳، ۲۲۹، ۲۶۴، ۳۰۷، ۳۱۴

البحر الأحمر: ۴۶، ۲۳۰، ۳۰۶، ۳۲۴

البحر الأسود: ۱۷-۱۹، ۲۱، ۲۲، ۲۶، ۳۱، ۳۶، ۴۶، ۵۶، ۵۷، ۶۲، ۶۵، ۶۹-۷۲

۷۵-۷۷، ۸۲، ۸۸، ۸۹، ۹۳، ۱۰۵، ۱۱۳-۱۱۶، ۱۱۹، ۱۲۳، ۱۲۹، ۱۳۰

۱۳۹، ۱۴۰، ۱۴۷، ۱۵۶، ۲۰۱، ۲۱۸، ۳۰۰، ۳۰۶، ۳۰۸-۳۱۲، ۳۱۴

۳۱۵، ۳۱۷، ۳۲۶

بحر ایجه: ۵۹، ۷۶، ۱۵۷، ۲۰۵، ۲۱۸، ۲۳۷

بحر البلطیق: ۲۱، ۱۱۹، ۳۳۸

بحر قزوين (بحر الجزر): ۱۹، ۹۱، ۹۳، ۹۶

البحر العربی: ۴۶

بحر مرمرة: ۱۵۸، ۲۰۱، ۲۱۸، ۳۱۴، ۳۱۵

- البحر الميت: ٢٥، ٢٢٥، ١٦٨
بحر يوسف: ٢٦٥
بحيرة طبرية: ٢٢٥
بردى: ٣٨
بروسه: ٣٧، ٤٣، ٦٣، ٨٠، ٩٣، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٩، ١٩٨، ٢٠٥، ٢٣٧، ٢٨٦
برلين: ٢١١، ٢١٢، ٣٠٠
بريتسقا: ١٧٩
البصرة: ١١٦، ١٦٠، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٧٢
بعلبك: ١٠٦، ١٨٠، ٢٤٠، ٢٥٠، ٢٦١، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣١٧، ٣١٨، ٣٥٣
بغداد: ١٨، ٥١، ٦٣، ١٦٠، ١٦١، ١٧٦، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٤، ٣٠٧، ٣٣٨، ٣٤٧
بلاد النوبة: ١٦٩ - ١٧١، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٥٣، ٢٥٤، ٣٦١
بلقراق: ٢٦٣، ١١٠
البلقان: ١٩، ٨٨، ١٥٨، ١٦٢، ٣١٢
بنغازي: ٢٠٥، ٢٠٦
بنى سويف: ٢٦٥
بوجاك: ١٥٩
بوخارست: ٨١، ١٠٢، ١٥٧، ٣١١
بودابست: ٦٣
بوردور: ٢٢٨
بورگاس: ١٥٧، ١٦٢، ١٦٣، ١٧٧
بوسطن: ٣٣٢
البوسفور: ٣٢، ٧٦، ٦٥، ٩٣، ١٢٩، ١٤٤، ١٨٥، ١٨٦، ٢٠٢، ٢١٥، ٢٢٠
البوسنة: ٦٥، ١١٥
بوشير (بوشهر): ١٦٢، ٢٧٠
بولا: ٣٧، ١٧٦، ٢١٨
بولغاريا: ١٠٢، ١٠٥، ١٣٤، ١٦٢، ١٧٤، ١٩٢، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢
بومباي: ١٦٢
بوك: ٣٦، ٧٠
بون: ٦٣، ١٢٦
بويوك چكمجه: ٨٩
بويك دره: ٩٣، ١٥١
بيت لحم: ٦٣، ٢٩٣
بيره جك: ٥٣، ٢٩٠
بيرديوك سو: ٢٩٥

بیروت: ۴۰، ۶۳، ۱۰۶، ۱۴۷، ۱۷۸، ۱۷۹، ۱۸۷، ۱۹۹، ۲۳۷، ۲۴۰، ۲۴۵، ۲۴۹،
 ۲۵۰، ۲۵۳، ۲۵۵، ۲۵۶، ۲۵۷، ۲۶۰، ۲۶۱، ۲۸۵، ۲۸۸ - ۲۹۰، ۳۱۷،
 ۳۲۱، ۳۳۸، ۳۴۶، ۳۵۱، ۳۵۳،
 بیزنطیة: ۱۷، ۱۸، ۲۳، ۲۸، ۳۳، ۳۴، ۳۵، ۱۵۹،
 بیسارابیا: ۱۸۴، ۲۳۶،
 بیشیک تاش: ۷۹،
 بیلکوروود (دنیستروفسکی): ۳۹، ۴۰،
 بیلوروسیا: ۱۱۹،
 بینگول داغ: ۲۳۴، ۲۸۲، ۲۹۷، ۲۹۸.

« ب »

باموس: ۳۴، ۱۰۱، ۲۵۹،
 باروس: ۱۲۵، ۱۲۸، ۱۳۰،
 باریس: ۲۱۱، ۲۱۳،
 باسین: ۲۸۰ - ۲۸۲،
 بافلاگونیا: ۲۱،
 باقلوف (قریة): ۱۶۴،
 بالانان: ۴۱،
 بالان تیکین: ۲۸۲،
 بالو: ۳۳۳،
 بامیر: ۳۰۶،
 بانترویا: ۳۱۲،
 بانتیلییموس: ۳۵،
 براقودا: ۱۶۲،
 بیروت: ۹۴، ۱۸۴،
 بروونتید: ۹۳،
 برینتشیف: ۱۸۹،
 بریوبرازینسکی: ۲۱۱،
 بیکوف: ۴۱،
 بلاتانا: ۲۳۵،
 بورت سعید: ۳۰۴، ۳۰۵،
 بولونیا: ۵۳، ۵۶، ۶۷، ۷۲، ۸۳، ۸۸، ۱۰۲، ۱۲۲، ۱۲۹، ۱۳۴،
 بیترسبورغ (سانت بیترسبورغ - بیتروغراد - لنینگراد): ۱۵، ۱۸ - ۲۰، ۲۴، ۲۷ - ۳۱،
 ۳۳، ۳۴، ۳۷، ۳۸، ۴۲، ۴۴، ۴۵، ۴۷، ۵۱، ۵۷، ۶۲، ۶۳، ۷۱، ۷۳، ۸۱.

١٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٧ - ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
١٤١ ، ١٤٧ ، ١٦٩ ، ١٩٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ،
٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ،
٣٥٦

بیرم: ٢٩٣

«ت»

تاکسانروگک : ١٣٥

تامان : ٣١٣

تبرنر : ٤٠ ، ٥١ ، ١١٢ ، ٢٣٦

ترجان : ١٧٦ ، ٢٨١

تقلیس : ٥٣ ، ١٨١ ، ٢٣٤ ، ٢٩٥ ، ٣١٣

تقیر : ٣٠ ، ٣٣ ، ٤٠

ترکیا (الدولة العثمانية): ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٠ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٥ - ٦٧ ، ٦٩ ،

٧٠ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٣ - ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،

١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٩ - ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ،

٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٢١ - ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ،

٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ، ٣٠٦ ،

٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٤٧ - ٣٥٠ ، ٣٥٥ ،

٣٦١ ، ٣٥٩

توبراق قلعه : ٣٥٨

تورتوم : ٢٣٤ ، ٢٣٦

تورخال : ٣٧

توسیا : ٣٧ ، ١٧٦

تورین : ٢١٢

توزلا : ١٦٣

تولج - ایساكجه : ١٦٣

توکات (توقات) : ٣٧ ، ٤١ ، ٦٣ ، ١٧٦ ، ١٩٢ ، ٢١٨

تومات : ١٦٤ ، ١٦٩ ، ٣٠٨ ، ٣٣١

تونس : ٦٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٢٢٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٢

تیان شان : ٢٨١ ، ٣٠٦

«خ»

- خارج (جزيرة): ٢٤١
 خربوط: ٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٥
 الخرطوم: ٢٦٨، ٣٢٠
 خريسبول: ٢٧
 خلقدونيا (الخليج): ١٣٠
 الخليج العربي: ١١٦، ١٧٥، ٢٤١، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٨١، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٤٦، ٣٤٧
 خليف - اوغلي: ١٨١
 الخليل (حبرون): ٣٠، ٦٣، ٢٩٣
 خنيس: ٢٩٨
 خوتين: ١٢٣
 خوزباين: ٢٩٥
 خوزستان: ١٧٥
 خولو: ٣٠٠
 خيرسويس: ١٧
 خيوس (جزيرة ستيخيا): ١٨، ٢٥، ٣٠، ٣٤، ٥٩، ٩٥، ١٤٧، ٢٥٩

«د»

- دارماهان: ١٧٠
 دالمانشيا: ١٠٥
 الدانوب: ٦٧، ٧١، ٧٦-٧٨، ٨٨، ٩٤، ١١٣، ١٢٣، ١٤٨، ١٥٧، ١٦٢، ١٨٤
 ٣١١، ١٨٥
 داينيزه: ٢٣٤
 دجلة: ٢٠، ٢٧، ٢٦٩، ٢٧٧، ٢٨١
 الدرديبل: ٥٦، ٥٩، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٢، ١٥١، ١٥٧، ١٨٦، ١٨٩، ٣٠٦، ٣٠٨
 دمشق (الشام): ٣٠، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٥٣، ٥٤، ٦٣، ٨١، ١٤٧، ١٨٠، ٢٣٧، ٢٤٠
 ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٨٨، ٢٩٠، ٣١٧، ٣١٨
 ٣٢٩، ٣٣٨، ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٥٢
 دمياط: ٤٠، ٦٢، ٦٣، ٨٠، ٨١، ٨٧، ٢٢٤، ٢٥٢
 الدنيستر: ١٧، ٣٦، ٧٠
 دندر: ٢٣٣
 دوكتور (توكتور): ٢٩٦
 دوملو - داغ: ٢٣٦
 دون: ٣١، ٤٢، ٧٠

دونغلا: ۲۶۴
دياريكر: ۳۳۱، ۳۰۸، ۲۸۹، ۲۶۹، ۲۴۵، ۲۴۰، ۲۳۹، ۶۳، ۵۳
ديادين: ۲۷۸
دير الزور: ۳۴۶
ديلفيگك: ۱۸۱
دينيزلى: ۲۲۸
ديوى - بوين: ۲۸۲

«ر»

الراين: ۵۹
رازگراد: ۱۵۷
رشت: ۲۳۶، ۹۹
الرشيد (راختي): ۲۵۲، ۱۰۶، ۸۶، ۸۲، ۶۳، ۶۲، ۶۰
الرملة: ۲۵۵، ۱۶۵، ۱۵۳، ۸۱، ۴۰، ۳۷
رودوس: ۲۶۱، ۲۶۰، ۱۵۲، ۱۴۷، ۹۵، ۹۰، ۵۹، ۴۰، ۳۹
روسيا: ۱۱، ۱۲، ۱۳، ۱۷، ۱۸، ۲۲، ۲۴، ۲۶، ۲۸، ۲۹، ۳۴، ۳۷، ۴۱، ۴۴، ۴۷، ۵۰، ۵۱، ۵۲، ۶۲، ۶۳، ۶۷، ۷۲، ۷۸، ۹۱، ۹۳، ۹۵، ۹۷، ۹۹، ۱۱۰، ۱۱۳، ۱۲۰، ۱۲۹، ۱۳۶، ۱۳۸، ۱۳۹، ۱۴۳، ۱۴۴، ۱۴۵، ۱۴۸، ۱۵۰، ۱۵۱، ۱۵۹، ۱۶۰، ۱۶۲، ۱۶۹، ۱۶۹، ۱۹۹، ۲۰۸، ۲۱۰، ۲۱۴، ۲۱۵، ۲۳۴، ۲۴۱، ۲۴۶، ۲۴۸، ۲۵۱، ۲۵۶، ۲۶۲، ۲۶۹، ۲۷۷، ۲۸۰، ۲۸۵، ۳۰۲، ۳۰۷، ۳۱۳، ۳۲۲، ۳۲۴، ۳۲۶، ۳۲۸، ۳۲۹، ۳۳۸، ۳۴۰، ۳۴۳، ۳۴۴، ۳۵۲، ۳۵۵، ۳۶۴، ۳۶۱، ۳۵۷، ۳۵۵
روشوك: ۳۰۷، ۱۶۲، ۱۵۸، ۱۵۷، ۱۴۳
روما: ۲۵۹، ۲۱
رومانيا: ۱۰۲
رومىلى: ۳۱۲، ۱۹۲، ۱۷۴، ۱۵۸، ۱۴۵، ۱۲۹
ريازان: ۱۶۰
الرياض: ۳۳۸
ريغا: ۱۲۸

«ز»

زابوزى: ۱۳۰
زىما: ۹۰

زيميتسا: ٣١١

زيوان: ١٨١

«س»

ساراتوف: ٢١٣

ساردا: ٢٢٨

سانكتو - توماس: ١٣٤

ساكينز: ١٠٢

ساگانلو: ١٨٢

سالونيك: ٣٥، ٦٥، ١٠١، ١٠٥، ١١٥، ١١٧، ١٧٩.

السامرة: ٥٣، ٢٢٥

سامسون: ١٧٦، ١٩٢، ٢١٦، ٢١٨، ٣٠٨، ٣٢٦، ٣٣٣.

ساموس: ٥٩، ١٤٧، ١٥٥، ٢٥٩

ساوق بوار: ٢٩٥

سعر: ٣٢١

سقاريا: ٣٢

سيلفتا: ١٥٧، ١٥٨

سحولينسك: ٤٥

سواكن: ٣٢٤

السودان: ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٥، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٤٣.

سوروز: ١٧، ١٨

سوروكي: ٧٨، ٨٣، ٩٤

سورمينه: ٢٣٥

سوريا: ١١، ١٢، ١٧ - ١٩، ٢٤، ٥٣، ٥٧، ٤١، ٦٧، ١٠٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٥٣،

١٦٩، ١٧٩، ١٨٧، ١٨٠، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٣ - ٢٠٥، ٢١١ - ٢١٣، ٢٣١،

٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٧ - ٢٥٩، ٢٨٤، ٢٨٥،

٢٨٧ - ٢٨٩، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٩، ٣٣١، ٣٤١، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٤

سوسه: ١٢٦

سوفيريك: ٢٤٥

سولاف: ٢٩٢

سولوگوب: ٣٠٤

السويس: ٢٣، ٨٢، ١٠٥، ١٦٥، ١٦٦، ٢٢٤، ٢٣٠، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٩١، ٢٩٢،

٣٠٢، ٣٠٤

سيبيريا: ٢١٧، ١٤٩، ٢٦٨

سيبان داغ : ٣٤٩
 سيبينكور : ٢٨٠
 سيلو عام : ٢٥
 سيليقيرست : ٨٠ ، ٧٨
 سيمفروبول : ٧٣
 سيناء : ١٢ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٦٧ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٨ ،
 ٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٤٩ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٨
 سينوب : ٣١ ، ٣٢ ، ٢٦ ، ٥٣ ، ٧٦ ، ١٢٨
 سير : ١١٥
 سيراس : ٣٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٥٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٦٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٣
 سيواستوپول : ٧٧

«ش»

شاقشيت : ٣٠٠
 شرق الاردن : ٣١٧ ، ٣١٩
 شفا الشرق : ٢٧٠ ، ٢٤٢
 شماخي : ٩١ ، ٥١
 شمر (جبل) : ٣٣٨
 شوملا : ١٦٢ ، ١٤٣
 شيراز : ٢٧٠

«ص»

الصحراء الكبرى : ٣٢٢
 صحراء ليبيا : ٢١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧
 صحراء النوبة : ٢٦٣ ، ٢٦٤
 صربيا : ١٠٥ ، ١٩٢ ، ٣١٢
 صفاقس : ١٢٦
 صقليا : ٢٢٣ ، ٢٢٩
 صور : ٢٣٧ ، ٢٦٠
 صوفيا : ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٦٣ ، ١٤٤
 صيدا : ٢٦ ، ٨١ ، ١٠٦ ، ١٤٧ ، ٢٣٧

«ط»

طرابزون: ٤١، ٧٦، ٩١، ١١٣، ١١٦، ١٢٨، ١٤٧، ١٧٦، ٢١٦، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦،
 ٣٥٦، ٣٤٩، ٣٣٨، ٣٠٨
 طرابلس: ٤٠، ٦٣، ١٠١، ١٠٦، ١١٧، ٢٤٥، ٢٥٥، ٣١٧، ٣٥٣
 طرطوس: ٣٧
 طرواده: ١٨٩، ٢٠٦، ٢٦٠
 طور: ٢٣٠، ٢٩٢
 طوروس: ٣١، ٢١٨، ٢٨١، ٣٣٣
 طيسفون: ٢٤٣، ٢٧٠

«ع»

عباس ترمان: ٣٠٠
 عثمان - بازار: ١٥٧، ١٥٨
 عثمان جيق: ٣٧، ١٧٦
 عدن: ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٢٤
 العراق (بلاد ما بين النهرين): ١٢، ١٧، ١٩، ٦٧، ٧٥، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٧٠، ٢٨١،
 ٢٨٧، ٣٤٦، ٣٤٧
 عكا: ٨٧، ١١٧، ١٣٠، ٢٦٠
 عيتاب: ٣٧، ٣٨
 عيون موسى: ٢٩١

«غ»

غاليبولي (كاليبولي): ٢٧، ٤٠، ٥٣، ٥٦
 غرنديل (وادي): ٢٩١، ٢٩٢
 غرة: ٣٧، ١٦٥، ١٧٨، ٢٥٥

«ف»

الفرات: ١٩، ٣٨، ٦٢، ٢٣٦، ٢٧٠، ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٩٠، ٢٩٧، ٣٤٦
 فراكيا: ١٢، ٢٨، ٢١٤، ٣٠٩
 فرنسا: ١٠٥، ١١٦، ١١٧، ١٢٩، ١٤٣، ٢٢٢، ٢٢٣، ٣٠٧
 فريكيا: ١٩
 فريبورغ: ٢١١

فلسطين: ١١، ١٢، ١٥، ١٨، ٢٣، ٢٤، ٣٠، ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤٥، ٤٦، ٥١، ٥٦، ٦٢،
٦٣، ٦٧، ٨١، ٨٣، ٨٧، ١٠١، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٥٣،
١٦٠، ١٦٩، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢١٢، ٢٢٣، ٢٢٤،
٢٣١، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٨٤،
٢٨٧، ٢٩٣، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٥٣

٣٥٤

فلورنسا: ٢١٠

فيليبوبول: ٦٣، ١٥٨

فينيقيا: ١٩

القيوم: ٢٣٣، ٢٥٤

«ق»

قارلام: ٨٢

قارنا: ٧٦، ٧٧، ١٦٢، ١٦٣، ٣٠٧

قاريانك: ٢١

قازوغا: ٢٣٨

قلاشيا: ٣٦، ٥٣، ٨٣، ١٠٢، ١٣٤، ١٦٢، ١٧٤، ١٩٢

قينا: ٢٤٧

قناد: ٤١

قلاديميرسك: ٣٠

قورونيشتر: ١١٧

قولوشيا: ٤٨

القولغا (القولكا): ١٨، ٢٢، ٨٣، ٢٩٣

قنيسيا: ١١٦، ١١٧

«ق»

قارص: ٥٣، ٩١، ١٧٤، ١٨١، ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٩٥، ٢٩٩، ٣١١، ٣٣٥

قازان: ١٥، ٩١، ١٢٠

قازانلق: ١٥٨

ققرمان: ٢٨٠، ٢٨١

القاهرة: ٢٥، ٣٠، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٥٣، ٥٥، ٦١، ٦٣، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٧، ١١٧،

١١٨، ١٣٠، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٢، ١٧٨، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٧، ٢٤٠،

٢٤٥، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٦٣، ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٩٣، ٣٠٤، ٣٢٢، ٣٣٠،

٣٥٣، ٣٤٨، ٣٤٦

قبرص: ١٢، ٣٠، ٣٥، ٤٠، ٨٠، ٩٠، ١٠١، ١١٥، ١٣٦، ١٤٧، ١٥٣، ٢٢٩
القدس (أورشليم): ١٥، ٢٣-٢٥، ٣٠، ٣١، ٣٣-٣٥، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤٤، ٤٥-٤٧،
٥١، ٥٣، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٦١، ٦٣-٦٥، ٧٨، ٨٠، ٨٣، ٨٦-٨٨، ٩٠، ٩٤،
٩٥، ١٠١، ١٠٦، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٥-١٣٧، ١٥١-١٥٣، ١٦٠، ١٦١،
١٦٣-١٦٦، ١٨٠، ١٩٩، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤٧،
٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٨٥، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٣، ٣١١، ٣١٧،
٣٥٣، ٣٤٨

القرم: ٤٢، ٤٣، ٦٣، ٩٩، ١١٩

قره حصار: ٣٧، ١٧٦

قره دربند: ٢٧٨

قره لوم: ٣١٢

قسطمونه (قسطموني): ٥٣، ١٩٨، ٢١٨

القسطمونية (تساريگورود - تساريگيراد - الاستانه - استانبول) ١١، ١٢، ٢٠-٢٢، ٢٤،
٢٧، ٣٠، ٣٧، ٣٩، ٤٣، ٤٥-٤٧، ٥٠، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٣-٦٥، ٦٧، ٧٠،
٧١، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٧٩-٨٥، ٨٧، ٨٩-٩٣، ٩٥، ٩٨، ١٠١، ١٠٢،
١٠٥، ١٠٨-١١١، ١١٤-١١٧، ١٢١، ١٢٢، ١٢٨، ١٣٦-١٣٩، ١٤٦،
١٥١، ١٥٣، ١٥٧، ١٦٢، ١٦٤-١٦٨، ١٦٩، ١٧٦، ١٧٩-١٨٦، ١٨٩،
١٩٩، ٢٠١، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٤-٢١٦، ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٥٠،
٢٥١، ٢٥٩-٢٦٢، ٢٦٩-٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٩، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٥،
٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٥، ٣٢١، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٤٤، ٣٤٨،
٣٥٩، ٣٥٦، ٣٤٩

القفقاس: ٤٣، ٥٣، ٥٧، ٦٧، ٧٦، ٩١، ٩٥، ٩٨، ٩٩، ١٢٢، ١٧٤، ٢١٠، ٢٣٤،
٢٤٠، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٠-٢٨٢، ٢٩٥، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣١١، ٣١٢،

٣٤١، ٣١٩

قوجه - كيسارى: ١٩٨

قونية: ٣٧، ٢١٥، ٢١٨، ٣٤٩

القيصرية: ٢١٦، ٢١٨

«ك»

كابوليتي: ٢٩٧

كايوج: ٢٩٧

كاجكايشكي: ٢٩٥

كاديكس: ١١٠

كارناباث: ٨٨

- كاريا: ۱۹
 كازبيك: ۳۰۱
 كاستيللوريتسو: ۸۷
 كاسابه: ۳۰۷، ۱۹۸
 كاسان: ۲۶۴
 كاشكيچاچا: ۲۶
 كافا: ۳۰، ۴۱-۴۳، ۶۷
 كالوگسا: ۸۳
 كامينيس - بادولسك: ۵۶
 كاندى: ۱۴۷
 كاني جاي: ۲۹۶
 كربلاء: ۲۴۳، ۲۴۴، ۲۷۰، ۲۷۱، ۲۷۴، ۳۳۸
 كردستان: ۱۴۱، ۱۷۵، ۲۱۴، ۲۳۶، ۲۴۰، ۲۷۷، ۲۷۸، ۳۳۱، ۳۳۳، ۳۳۶، ۳۳۹
 كر كوك: ۲۴۴، ۶۳
 كرمنشاه: ۱۱۲، ۱۶۰
 كندا: ۱۱۷
 كریت: ۳۹، ۴۰
 كوئین لونيا: ۲۸۱
 كوینهاگن: ۱۳۳
 كونانلی: ۱۸۱
 كونایسی: ۲۸۰
 كوچوك - چكمجه: ۸۹
 كورسك: ۱۳۰، ۲۶۳
 كوره: ۲۸۱، ۲۹۵
 كوشتامبه: ۱۷۱
 الكوفه: ۲۷۰
 كولیین: ۲۸۱
 كولخیدا: ۷۶
 كیرا سوند: ۳۰۸
 كیبریکیوف: ۱۸۱
 كیرجی (كیرجین): ۷۵-۷۷
 كیرکیلیس: ۳۱۲
 كیشنیوف (كیشنیف): ۱۸۵، ۳۱۱
 کیلیکیا: ۱۹، ۷۱
 کیف: ۲۲، ۳۴، ۳۶، ۳۹، ۵۳، ۵۶، ۷۸، ۸۱، ۸۳، ۸۸، ۹۴، ۱۰۱، ۱۰۲، ۱۳۰

«ك»

- كاتجينا: ٢١١
كالانسيا: ٧١
كالانس: ١٦٢، ٩٤، ٨٨
كنجه: ١١٣، ٩٩، ٩١، ٥١
كوناهيا: ٢١٨
كوربا: ٢٩٧، ٢٣٤
كومري: ١٨١
كونگيرسو: ١٨١
كيرگاس: ٢٨٨
گيلان: ٩٩
كيريون: ٢١٨

«ل»

- لازستان: ٣١١، ٣٠٢، ٣٠٠
لادوكيا: ٤٠
اللاذقية: ٢٥٦، ٢٤٥
لبنان: ١٢، ١٨٠، ١٨٧، ٢٠٣، ٢٤٠، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٨٥، ٣٤٦، ٣٥٢، ٣٥٤
اللد: ٢٣٠، ١٥٣، ٤٠
لقون: ١٠١
لندن: ٢٩٤، ١٢٩، ١١٧
ليبيا: ١٩
ليتوانيا: ٤٥، ٤٢
ليتوفسك - فيلنيسك: ١٩٠
ليسبوس: ٢٢٩، ٣٦
ليكيا: ١٩

«م»

- ماردين: ٢٦٩، ٢٤٥، ٢٣٩، ٦٣
ماسيس: ٦٢
مالفازيا: ١٥٥
ماكدونيا: ١١٥، ١٨، ١١

ماكفرو: ٣٠٣

ماكو: ٢٧٨

ماكيليشكى: ١٩٠

مالطا: ٨٧، ٢٠٦

مانجستر: ٢٩٤

المحمودية (قناة): ١٧٨، ٢٣٨، ٢٥٢، ٢٦٥

المدينة المنورة: ٢٣٦، ٢٩١، ٣٣٩

مرادسو: ٦٢، ٢٨١

مرسين: ٣٣٥

مرعش: ٣٣٥

مسقط: ١٦٢

مصر: ١١، ١٢، ١٧، ١٩، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٥٣، ٥٧، ٥٩، ٦٢، ٦٧،

٨١، ٨٢، ٨٦، ٨٧، ٩٥، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٣٠، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٩، ١٧١،

١٧٣، ١٧٨، ١٩٠، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٣١،

٢٣٣، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٨٧،

٢٨٩، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣١٩، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٥١، ٣٥٣،

٣٦١

مصوع: ٣٢٤

مكة: ٨٢، ١٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٠

ملاطيه: ٢٦٩، ٣٣١، ٣٣٣

محفس: ٣٢٢

المنزلة (بحيرة): ٣٢٢

منلى: ٣٥٩

مودانيا: ٦٣

موسكو: ١٨، ٢٠، ٢٤، ٣٠، ٣١، ٣٤، ٣٧، ٣٩، ٤٢، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٣، ٥٤،

٥٦، ٥٧، ٦٢، ٦٧، ٦٩، ٧٦، ٧٨، ٨١، ٨٣، ٨٤، ٨٦، ٨٩، ٩٢، ٩٨، ٩٩،

١١٤، ١٢٠، ١٣٥، ١٦٤، ١٩٠، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٧٩، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٢٧،

٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٩، ٣٦٠

موش: ١٧٤، ٢٧٨، ٢٩٩، ٣٣١، ٣٣٦

الموصل: ٦٣، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٦٩، ٢٧٢، ٣٣١، ٣٣٨

موكس: ٣٥٦-٣٥٨

موغلا: ٢١٨

مولدافيا: ٤٨، ٥٣، ٦٧، ٨٨، ١٠٢، ١٠٥، ١٢٣، ١٢٩، ١٦٢، ١٧٤، ١٩٢،

ميتيلينا: ٢٦

ميديا: ١٩، ٢٠، ٧٧، ١٦٢، ١٦٣

ميرم (جبل): ٢٨٠
ميرزوقان (ميرزيقون): ١٧٦، ٣٧
ميكينا: ٢٠٦
ميلان: ٤٠
ميندريس (وادي): ٢٢٨
ميونيخ: ٢١١

«ن»

نابلس: ٢٢٥
الناصره (نازاريت): ٢٢٥، ٢٣٧، ٢٦٠، ٢٩٣، ٣٥٣
نجد: ٣٣٨
النجف: ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٤
نصب (وادي): ٢٩٢
نصيبين: ٢٣٩، ٢٤٥
النصا: ٧٢
نهر الاردن: ٢٣، ٢٦، ٢٩٣
نهر يوسف: ٢٣٣
نوفوروسيك: ٢٣٦
نيرني: ٨٠، ٨٣، ١١٤، ١٩٩
نوفگورود: ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٧٨
نيكسور: ١٧٦
نيكوبول: ٣١١
ليشكوسيا (نيكوسيا - نيقوسيا): ٣٦
النيل (نهر كيون): ١٩، ٤٠، ٥٥، ٦٠-٦٢، ٧٩، ٨١، ٨٢، ٨٦، ١٠٤، ١٠٥، ١٣١،
١٧٠، ١٧٣، ١٧٨، ١٨٨، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٢ -
٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٨، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٤٢ - ٣٤٤
نيمروف: ٧٨، ٨٣، ٩٤
نيوفيل: ٣٠٣

«ه»

هرمز: ٥١
همدان: ١١٢
الهند: ٤٠، ٤٦، ٥١، ١٠٥، ١١٥، ١١٦، ١٦٠، ١٦٦، ٢٢٢، ٢٤٨، ٣٠٥
هورامان: ٣٥٩

هوزات: ۳۳۵
هولنده: ۱۱۷
هیلیوسولیس: ۱۰۶

«و»

وان: ۲۷۸، ۲۹۹، ۳۳۱، ۳۳۵، ۳۳۶، ۳۵۶، ۳۵۷، ۳۵۸.
وادي الاردن: ۳۰
وادي البقاع: ۳۴۶
وارشو: ۸۸

«ی»

یاروسلاقل: ۸۸، ۸۵
یاسی: ۵۶، ۵۷، ۶۲، ۷۸، ۸۱، ۸۳، ۸۴، ۹۴، ۱۴۳، ۳۱۱
یافا: ۲۵، ۳۵، ۶۲، ۸۰، ۸۱، ۸۷، ۹۰، ۱۰۱، ۱۰۶، ۱۳۳، ۱۳۶، ۱۵۱، ۱۵۳،
۱۶۴، ۱۶۶، ۲۲۵، ۲۳۰، ۲۳۷، ۲۴۸ - ۲۵۰، ۲۵۵، ۲۹۳، ۳۲۲، ۳۲۴.
یامبول: ۳۱۲، ۱۵۷
ینبع: ۳۴۰
الیمین: ۸۲
ینی شهر: ۳۷
یورگاس: ۳۱۲
الیونان: ۹۳، ۱۷۹، ۱۸۸، ۲۰۶، ۲۱۱، ۲۴۸، ۲۴۹، ۲۶۷، ۲۸۳، ۳۲۹

المحتويات

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٥	كلمة المترجم
٩	تعريف بالسيرة العملية للمؤلف
١١	مقدمة المؤلف
	الفصل الأول :
١٧	روسيا ما قبل بطرس الأكبر
	الفصل الثاني :
٦٩	الربع الأول من القرن الثامن عشر
	الفصل الثالث :
٩٧	الربع الثاني من القرن الثامن عشر
	الفصل الرابع :
١١٩	النصف الثاني من القرن الثامن عشر
	الفصل الخامس :
١٥٠	القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين
٣٦٥	المراجع والمصادر (البيبليوغرافيا)
٣٩٥	فهرس الاعلام
٤١٠	فهرس الاسماء الجغرافية
٤٣١	

and the beginnings of the 20th century (until World War 1). It is the longest chapter and the most informative as well as covering more lands within the stated period.

Generally speaking, this book is a serious endeavour in revealing important and previously unknown information about Middle Eastern affairs. This piece of research is of great importance to European Orientlists as well as the nations discussed in the book.

Morouf Khaznadar

Baghdad, March 21, 1980.

Summary

The Russian Travellers in the Middle East by the well-known Soviet researcher B.M. Dantsig was published by Misl Publishers in Moscow, 1965. Twelve thousand copies were printed, for it is not considered to be merely a book of orientalism that interest a limited number of readers, but of importance to various communities in the society.

The translated book is in fact a rarity of its kind. It is a whole library by itself, too difficult to classify and comment upon except by highly qualified scholars like Dantsig. It covers a large part of the Ottoman Empire possessions e.g. Asia Minor, East Thrace, Istanbul, Syria, Lebanon, Palestine, Jordan, Iraq, Sinai Peninsula, Egypt, North Africa, Greece, Cyprus and the Balkan Peninsula. These lands were visited by Russian Travellers as pilgrims, orientalists, diplomats, scientists and army personnel for a period of eight centuries, namely from the 12th century to the end of World War 1.

No doubt, the book is unique and of importance not only to Orientalists, but also to the Russian readers themselves and others. It includes a short introduction, five chapters and nine maps illustrating the routes taken by the travellers in their journeys. In the first chapter the author discusses the journeys of the Russian great travellers in the so called Pre-Peter the great period, that is, from the earliest centuries to the end of the 17th century. Though this is the shortest chapter of the book, it covers the Russians' travel to the Middle East for six centuries. The main factor for the shortness of this chapter is the difficulty in obtaining information and the scanty knowledge presently available of the Russian travellers during this period. The author's research and the significant data he accumulated present a mine of useful literature for future scholars interested in this subject.

In the second, third and fourth chapters, the author probes into the travels of the Russians during the 18th century. Here the author's information has increased considerably on the ground of the sufficient data at his disposal. The travels during this period has gone beyond the aim of pilgrimage to the holy land of Palestine and travellers became keenly interested in accuring whatever information available about the various nations of the region.

The fifth and the final chapter covers the travels during the 19th century

Republic of Iraq
Ministry of Culture and Information
Dar al-Rashid Publishers

Russian Travellers in the Middle East

Written in Russian by
B.M. Dantsig

Translated into Arabic with Commentary
By: Prof. Dr. Marouf Khaznadar
College of Arts
University of Baghdad

Baghdad, 1981